مجلة
كلية الآداب

جامعة الاسكندرية

المجلد الثامن

١٩٥٤

تطلب هذه المجلة من مكتبة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية
بالشاطبي ، وتوجه المكاتبات الخاصة بالناحية العلمية إلى
الدكتور جمال الدين الشيال سكرتير التحرير

مطبعة جامعة الاسكندرية
١٩٥٤

فهرس القسم العربى

صفحة

١	— الحركة القومية فى تونس	للدكتور محمد مصطفى صفوت	٣
٢	— مناطق الأهوار فى القسم الجنوبى من العراق (دراسة لبعض ظاهراتها من الناحيتين الطبيعية والبشرية)	للدكتور إبراهيم الشريف	٣٣
٣	— تخريج نصوص أرسطالية فى كتاب الحيوان للجاحظ (تابع)	للدكتور طه الحاجرى	٦٩
٤	— ملاحظات عن مصر كما رآها ووصفها الجغرافيون والرحالة المغاربة فى القرنين الـ٦ والـ٧ للهجرة (نقد للمصادر)	للدكتور سعد زغلول عبد الحميد . .	٩١
٥	— التقدم العالى والصناعى فى مصر المعاصرة	للدكتور حسن الساعاتى	١١٩
٦	— كتاب البرهان لابن سينا وصلته ببرهان أرسطو	للدكتور أبو العلا عفيفى	١٤٣

تقارير ومؤتمرات ونقد الكتب

٧	— تقرير عن المؤتمر الدولى الثالث والعشرين للمستشرقين المنعقد فى كمبردج فى أغسطس سنة ١٩٥٤	للأستاذ محمد خلف الله	١٥٧

صفحة

٨ — تقرير عن مؤتمر الدراسات العربية والإسلامية المنعقد في جامعة بشاور بالباكستان في أبريل ١٩٥٤	للدكتور جمال الدين الشيال	١٦٠
٩ — تقرير عن مؤتمر العيد الألفي لابن سينا (أبريل ١٩٥٤)	للدكتور أبو العلا عفيفي	١٧٢
١٠ — تقرير عن المؤتمر الدولي الثالث والعشرين للمستشرقين	للدكتور أبو العلا عفيفي	١٧٨
١١ — نقد لكتاب : Le Milieu Basrien et la Formation de Gahiz للأستاذ Charles Pellat	للدكتور طه الحاجري	١٨٣
١٢ — فهرست مؤلفات ابن عربي	للدكتور أبو العلا عفيفي	١٩٣

الحركة القومية فى تونس

للدكتور محمد مصطفى صفوت

قبل الحرب الكبرى الأولى

لم تكن الحركة القومية التونسية وليدة عهد الحماية الفرنسية ، بل هى ترجع إلى ما قبل ذلك ، هى ترجع إلى الوقت الذى فتح فيه الفرنسيون الجزائر وجاسوا خلال ديارها فى منتصف القرن التاسع عشر ، فبدأ التونسيون وحكامهم البايات يشعرون بعظم الخطر الخارجى المحدق بلادهم وبكيانهم السياسى واستقلالهم . ولقد كان وجود الخطر الخارجى واستمراره من أكبر العوامل التى عملت على إيقاظ الروح القومى بين الشعوب ونموه ، وكلما ازداد الخطر الخارجى قوة ازداد الشعور الوطنى نموا ، وازداد الناس تصديقاً به وإيماناً ؛ على أن ذلك الشعور القومى فى تونس وفى شمال افريقيه وفى كل العالم الإسلامى ظل إلى قرب الربع الأخير للقرن التاسع عشر مرتبطاً بالفكرة الإسلامية العامة ، للعلاقات الوثيقة التى ربطت الدولة العثمانية بتونس والتى حددها فرمان ١٨٧١ المشهور ، ولنمو فكرة الجامعة الإسلامية التى ماظهرت إلا نتيجة لضعف الشرق المادى والحربى وضرورة تساند شعوبه أمام الأعتداء والتدخل الأوربى الأجنبى[1].

وضعف تونس السياسى والحربى هو الذى جعلها تنظر الدولة العثمانية كملجأ أخير إذا حدث وفكر الإيطاليون أو الفرنسيون جدياً فى غزو البلاد .

ثم جاءت الطامة الكبرى باعلان الفرنسيين الحماية فى ١٢ مايو ١٨٨١ بعد إرسال حملتين حربيتين إلى البلاد ، فنادت أصوات داخل قصر الباى فى هذا اليوم بضرورة رفض معاهدة الحماية رفضاً باتاً ولكن النتيجة ماتكون ، ولكن أهم من هذا قيام حركة الدفاع فى الجنوب بمحاولة يائسة مستميتة تحاول

---

(١) أنظر للمؤلف (Tunis and The Great Powers) وهو مؤلف يصف الظروف الداخلية فى تونس والظروف الدولية التى مهدت للحماية الفرنسية فى سنة ١٨٨١

أن تذود عن استقلال تونس وحريتها ، وتثبت فوق كل شك وجود الشعور القومى مندفعاً متدفقاً . ولكن فشل هذه الحركة أمام قوة الفرنسيين المتفوقة لم تضعف من الشعور القومى الذى أخذ ينمو ويتحدد ويتميز عن الشعور الإسلامى العام ، فلقد أخذت فكرة الجامعة الإسلامية التى تبنتها تركيا والسلطان عبد الحميد الثانى بالذات فى الضعف لعجز هذه الدولة عن الدفاع عن البلاد الإسلامية التى كانت تدين لها بالتبعية والولاء ، فلقد وقعت تونس فى سنة ١٨٨١ فريسة للغزو الأجنبى ، وكذلك وقعت مصر فى السنة التالية دون أن تحرك الدولة العثمانية أكثر من الاحتجاج اللفظى أمام العواصم الأوربية الكبرى ، وأكثر من عدم الاعتراف بالاحتلال الأجنبى لهذه البلاد ، ولم يكن هذا الشعور القلبى أو الحب الأفلاطونى كافياً عند التونسيين أو عند المصريين ، فلا بد من اعتماد هؤلاء وأولئك على أنفسهم قبل كل شىء إذا كان لديهم أمل فى المستقبل .

لقد تبع فشل حركة الدفاع التونسى ، كما تبع انهزام العرابيين فى مصر شىء من اليأس استغرق فترة من الوقت ، فلقد ضعفت الثقة فى النفوس نتيجة للاخفاق فى ميدانى السياسة والحرب أمام قوة الامبريالزم الغربى الفرنسى والانجليزى التى لا تعرف هوادة فى مصلحتها وفى تنفيذ رغباتها ، لقد استصرخت تونس الدول الكبرى فى شهرى إبريل ومايو سنة ١٨٨١ فلم تجد ناصراً أو معيناً ، بل وجدت تغاضياً وتأييداً للتدخل الحربى الفرنسى . لقد هنأت الدول الكبرى الحكومة الفرنسية على نجاحها فى تونس وباركت القضاء على حرية شعب صغير واستقلاله . على أن الهدوء الذى صحب السنين الأولى للحماية سرعان ما أيقظ الشعور القومى التونسى من جديد ، لا سيما وأن انتشار الثقافتين العربية والفرنسية عمل بلا ريب على استثارة الرأى العام وجعله أكثر فهما لحقوقه السياسية وأشد استمساكا بها ، فعاد سكان البلاد إلى المطالبة بحقوقهم السياسية لجملة عوامل من أهمها نظام الحماية الفرنسية نفسه .

لقد كان نظام الحماية نظاماً أجنبياً غريباً عن البلاد ، فرضه الفرنسيون بالقوة على الشعب التونسى وعلى حاكمه ، فلم يقبل الباى ذلك النظام مختاراً ، فلقد سبق أن عرض عليه الفرنسيون قبول ذلك النظام خلال السنوات من ١٨٧٨

إلى سنة ١٨٨١ بالطرق السلمية تارة وبالتهديد تارة أخرى ، وكانت العوامل التي بنى عليها رفضه هي نفس العوامل التي جعلت التونسيين يتذمرون من الحكم الفرنسي ، فهو أمير مسلم لا يستطيع أن يخضع لدولة أجنبية مسيحية ، وكذلك سكان البلاد فهم مسلمون شديدو التمسك بدينهم ؛ ثم هو حاكم يتمتع بكل حقوق السلطة ، يتمتع بالسيادة في المسائل الداخلية والخارجية من الناحية الفعلية ، فكلمته هي القانون ، فكيف يقبل مختاراً تحديد سلطته وضياع نفوذه وذهاب استقلاله ؛ فالباي وإن كان خضع للفرنسيين وأمضى معاهدتي ١٨٨١ و ١٨٨٣ فقد أذعن مكرها للقوة وحدها وسلم بالأمر الواقع .

ولم يستطع التونسيون أن ينسوا أن نظام الحماية مهما كان قوياً أو مستنيراً فهو نظام مفروض عليهم من الخارج ، وأنه مهما قيل أنه عمل على تحسين أحوالهم الاقتصادية والاجتماعية ، فهو نظام لم يستمد سلطانه منهم ، وأنهم مهما استفادوا من ذلك النظام الجديد إلا أنهم سلبوا أعز شيء لدى الانسان وهو الحرية ، سلبوا استقلال بلادهم التي كانت يوما من الأيام مهيبة الجانب ، مصدر الاحترام والرعب في غرب البحر الأبيض المتوسط .

لقد تغنت فرنسا بمبادىء الحرية والاخاء والمساواة ، ونادت بحقوق الانسان وحقوق الشعوب ضد حكامها المستبدين ، فهل طبقت هذه المبادىء في تونس ؟ لقد كانت فرنسا في بلادها من أكثر شعوب العالم ديمقراطية وتمسكا بالنظم النيابية ، فهل شعرت تونس بشيء من ذلك ؟ لقد كانت فرنسا من أكبر شعوب العالم تمسكا بفكرة القومية وبمصلحة المواطنين قبل كل شيء ؟ فهل خبر التونسيون ذلك أثناء الحكم الفرنسي ؟

بنى الامبريالزم الفرنسي في تونس وشمالي افريقية على فرنسة البلاد الخاضعة لسيطرته بقدر المستطاع ، وفي هذا كما يرى سكان البلاد قضاء على شخصيتهم ومقوماتهم ، وظهر ذلك بشكل واضح في تونس التي لا زالت من الناحية الدولية تحت الحماية ولم تصبح بعد جزءا من فرنسا ، لقد بنى الاستعمار الفرنسي بصفة عامة في مبدأ أمره على أساس وجود عنصرين ، أحدهما متفوق وله حق السيطرة

والإشراف والتوجيه وهو العنصر الفرنسي ، وعنصر آخر أقل قوة وأضعف ناصراً وأكثر تأخراً في حاجة إلى من يشرف عليه ويستبد بشئونه ، وهو العنصر الأهلي المحلي ؛ فهل وطن التونسيون أنفسهم على قبول الفكرة الفرنسية ؟

لقد أشاد جبريل هانوتو G. Hanotaux في جميع كتبه التي كتبها أو التي أشرف عليها [1] ، هو ومن على شاكلته من المؤمنين بالاستعمار والامبراطورية ، بالنظام والرخاء الذي يدعون أنه صحب حكم فرنسا في شمالي افريقية وتونس ، بالسلام الذي شمل أرجاء هذه البلاد بعد « الرزايا » والفتن الداخلية التي قطعت أوصال هذه الأقطار وعم ضررها واستفحل خطبها ؛ يذكر هانوتو كيف قامت فرنسا بواجبها نحو الحضارة والانسانية وكيف قدمت عونها للسكان الأصليين ، وكيف كانت معتدلة رزينة متسامحة فلم تمس معتقدات الأهالي ولا تقاليدهم ! ! فهل هذه هي وجهة نظر الوطنيين الذين كان يعز في نفوسهم ضياع حريتهم وفقدان استقلالهم وخضوعهم للحكم الأجنبي .

فالفرنسيون ، وإن كانوا قد تركوا نظم الحكم والادارة باقية من الناحية النظرية إلا أنهم سلبوها كل سلطة ووجدوا من حقهم التدخل في كل شيء ، ولم يكن هذا التصرف مرضياً للأهالي الذين تعودوا منذ مئات من السنين عدم تدخل السلطات الحكومية مباشرة في شئونهم ، ومن ناحية ثانية تيقنوا أن ذلك التدخل ليس في صالحهم ، بل هو أولا وقبل كل شيء لحماية مصالح فرنسا

(١) أنظر كتاب Pour l'Empire Colonial Français, Paris Plon 1933. Histoire des Colonies Françaises Tome III Paris Plon 1931.

وكتب G. Hardy العديدة عن التاريخ الاستعماري الفرنسي بصفة عامة وفي شمال افريقيه بصفة خاصة مثل : Histoire de la Colonisation Française, Paris, Larose 1947.

وأنظر الموسوعات الفرنسية عن تونس مثل :

Guernier, E. : Tunisie, Editions de l'Empire Français 1948.

وهي تشمل كل شيء يختص بتونس من تاريخ وجغرافية وزراعة وصناعة واستعمار الخ .

أنظر كذلك النشرات الأنجليزية التي أصدرها حزب الدستور :

The Problem of Tunisia, Political Status 1951.

The Problem of Tunisia, Economic Policy of the Protectorate. Cairo 1948.

Tunisia chooses Freedom.

The Tunisian Question Pamphlets on Arab Affairs No. 9.

The Arab Office in London.

وما نشره مكتب تونس الحرة : (تونس بين الحماية والاحتلال) بقلم يونس درمونه ، وتونس بين الاتجاهات .

الاستراتيجية والحربية والاقتصادية ، وضع لحماية القلة من المستعمرين الفرنسيين الذين جعلت لهم الأفضلية في الاستغلال الزراعي والصناعي والتجاري . لقد ظهر أثر الاحتلال في كل أنحاء تونس وفي كل مظاهر حياتها بشكل لم يرضه سكان البلاد ؛ ظهر في المالية والإدارة والاقتصاد ، كما ظهر في تطور نظم الحكم الصورية ، فلقد كان سير الفرنسيين وئيدا في ناحية إشراك الوطنيين في إدارة شئون بلادهم ، فكانوا لا يخطون خطوة قصيرة في تلك الطريق إلا بعد ثورة داخلية عنيفة أو أزمة دولية خطيرة ، لقد كان الحكم الفرنسي يعتمد على القوة ، على جيش الاحتلال وعلى الأحكام العرفية بحجة المحافظة على الأمن الداخلي .

* * *

ويحسن هنا تلخيص آراء الوطنيين أنفسهم ، فلقد عرضها الوطني الكبير الدكتور الحبيب تامر في كتابه «هذه تونس»[1] يقول :

١ — بأن فرنسا قد جعلت كل شيء المعمرين (المستعمرين) الفرنسيين حتى المجلس الشورى ، فأعطتهم الأغلبية فيه ، وأعطتهم حق الانتخاب وأن التعديلات التي أدخلت في نظامه فيما بعد لم ترض للوطنيين غليلا ، فالمجلس الكبير لم يكن مجلساً تشريعياً ، وليست له أية سلطة في المسائل التي تعارض مع مصالح الاستعمار الفرنسي . ويرى الوطنيون التونسيون أن حق التمثيل النيابي هو حق التونسيين وحدهم ، ولا يجب أن تشترك فيه الجاليات الأجنبية .

٢ — أن الوزارة التونسية حتى في شكلها الحاضر ليست لها سلطة حقيقية ، فليس للوزير الأكبر حتى الآن (١٩٤٧) نفوذ رؤساء الوزارات ؛ فرئيس الوزارة الحقيق هو المقيم العام يليه الكاتب العام الذي يجمع في يديه كل السلطات الإدارية ، ولم يرض الوطنيون التونسيون عن نظام «التشارك» في الحكم بينهم وبين الفرنسيين .

٣ — وفي ناحية القضاء لا يرضى الوطنيون التونسيون بانتزاع جانب كبير من سيادة تونس في الناحية القضائية ، فإنشاء المحاكم الفرنسية وجعل الجرائم السياسية من اختصاصها جعل منها « أداة تستخدم لإرهاب الوطنيين والقضاء على الروح القومية » .

(١) طبعة مطبعة الرسالة ١٩٤٨ بإشراف مكتب المغرب العربي ، انظر ص ٣١ وما بعدها ، ويشتمل كتاب الدكتور الحبيب تامر في آخره على مراجع فرنسية كثيرة درست نظام الحماية الفرنسية من نواحيه السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وتوضح جيداً وجهة نظر فرنسا والفرنسيين في ذلك النظام .

٤ — وفى المجالس البلدية يرى الوطنيون التونسيون الغبن واقعاً عليهم من حيث عدم عدالة توزيعها ، وقصرها على الأماكن التى بها جاليات أجنبية ، ومن حيث أن صاحب النفوذ الحقيقى فيها هو الوكيل الفرنسى والرقيب المدنى الفرنسى الذى لا ينفذ من قراراتها إلا ما يشاء .

٥ — وأن فرنسا قد وضعت يدها على الإنتاج والتداول ، وأطلقت فى هذه الناحية يد الفرنسيين والأجانب ، وأن أراضى تونس تغتصب لصالح هؤلاء بحجة أو بأخرى سواء فى ذلك أموال الدولة أو الأراضى المجاورة للغابات أو أراضى القبائل أو الأوقاف ، ورأى التونسيون فى هذا سلباً لحقوقهم فى الملكية واعتداء على الشريعة الإسلامية ؛ وأن فرنسا قد أنشأت صندوق الاستعمار لمساعدة المستعمرين الفرنسيين كما خصصت لهم جزءا من مالية تونس نفسها ، وأنشأت لهم المصارف لإقراضهم الأموال ، فاستولوا على كثير من الأراضى وعلى جانب كبير من الإنتاج الزراعى ، وفى هذا إفقار للبلاد وإثراء للمستعمرين ، وكذلك فى الصناعة : وجد الوطنيون فى الاتحاد الجمركى بين فرنسا وتونس غنما لفرنسا وغرماً لتونس ، ففرنسا قد احتكرت لنفسها أسواق تونس الداخلية وقضت على حرية تونس فى تقرير سياستها الجمركية ، كذلك استغلال الفرنسيين للثروة المعدنية وجد فيه الوطنيون وفى الاستعمار الزراعى فرضاً من جانب فرنسا لسيطرتها الإقتصادية بعد فرض السيطرة السياسية .

٦ — ولم ترق الوطنيين سياسة فرنسا المالية من حيث الإكثار من الضرائب غير المباشرة التى يقع عبؤها على كاهل التونسيين أكثر من غيرهم ، وساءهم أن فرنسا اعتمدت جانباً من ميزانية البلاد لخدمة الاستعمار فى أداته (الموظفين الفرنسيين) وفى هجرة المستعمرين ، فى الوقت الذى لا تنال فيه المرافق التونسية إلا القليل .

٧ — وأما الحريات العامة فهى فى نظر الوطنيين لا وجود لها ، فالصحافة الوطنية قد أرهقت بشتى القيود ، فكانت تفرض عليها الغرامات وتعطل لأوهى الأسباب ، هذا فى الوقت الذى كانت فيه حرية الصحافة الفرنسية مكفولة ، ولذا رأى الوطنيون فى وقت من الأوقات إصدار صحفهم باللغة الفرنسية ، ولكن هذا لم يمنع حكومة الحماية من فرض قيود جديدة . وتعرض أصحاب الصحف التونسية

لدفع الضمانات المالية الكبيرة عند إصدار صحفهم وللحبس وللغرامات إذا حادوا عما تشتهيه حكومة الحماية ، ففرنسا فى نظر التونسيين ، تنكرت لجميع المبادىء الديموقراطية ، فقيدت حرية الرأى والاجتماع والتنقل .

٨ — وأما من ناحية التعليم فيعتقد الوطنيون أن فرنسا عملت على إضعاف الروح القومى بالتقليل من شأن اللغة العربية والاستعاضة عنها باللغة الفرنسية ، كما لم يرق جانباً من الرأى العام التونسي محاولات فرنسا تنشئة الوطنيين نشأة فرنسية ، واتهمت حكومة الحماية «بأنها لا تسعى بصفة عامة إلى نشر التعليم فى تونس» ، «وأنها وضعت البرامج لإبعاد التونسيين عن الثقافة الحقيقية» ، وأنها مانعت مدة فى إنشاء مدارس حرة أهلية ، هذا فى الوقت الذى يرى فيه الوطنيون جعل العربية اللغة الرسمية فى التعليم .

٩ — وأما فى نواحى الصحة ، فيتهم الوطنيون فرنسا بأنها لم تقم بواجبها فيها .

١٠ — وأما من ناحية الإدارة والوظائف العامة ، فالوطنيون يرون أن فرنسا قد فرنست الإدارة وأكثرت من استخدام الموظفين الفرنسيين دون داع ، واعتبرت اللغة الفرنسية لغة أصلية فى الإدارات ، وينعون عدم مسئولية الإدارة أمام مجلس تشريعى حقيقى ، لقد رأى الوطنيون قلة عدد الموظفين منهم وضآلة مرتباتهم ورفضوا مبدأ «التشريك» مع الفرنسيين فى إدارة البلاد .

١١ — ومما ساء التونسيين سياسة التجنيس الفرنسية ، فلقد حاولت فرنسا ترغيب التونسيين فى اكتساب الجنسية الفرنسية ، كما حاولت فرنسة الجاليات الأجنبية ، فرأى الوطنيون فى ذلك هدماً لكيان الشعب التونسى وحرمانه من تفوقه العددى .

* * *

هذه هى الأسباب التى استعرضها الدكتور الحبيب تامر بالتفصيل فى كتابه ، وهى أسباب ، كما هو واضح متصلة بنظام الحماية نفسه ، وهناك عوامل أخرى خارجية ليست بقليلة الأهمية فى استثارة الروح القومى فى تونس وتغذيته .

ومن أهم هذه العوامل الخارجية العامل العام ، فالربع الأخير للقرن التاسع عشر عصر القوميات الناهضة المتوثبة التى تعمل على إحياء ماضى البلاد وتجد للظهور والعظمة فالعصر عصر القوميات الإنجليزية والفرنسية والألمانية . . .

والتركية ، وبالرغم من قطع حكومة الحماية لكل صلة بين تونس وتركيا ، إلا أن عدداً كبيراً من الأهالى ظل يعتقد إن خطأ وإن صواباً بكبير الروابط التى تربطهم بهذه الدولة الإسلامية الكبيرة المكافحة ، لاسيما وأن هذه الدولة ظلت مجاورة لهم من ناحية الجنوب الشرقى فى طرابلس ، وظل عمالها يعملون على استثارة الأهالى على الحكم الفرنسى ، فبقى تطلع الوطنيين إلى تركيا طالما كانت مجاورة لهم فى طرابلس ، فلما قامت الحركة الدستورية فى تركيا قام الوطنيون التونسيون يطالبون بدستور وبنظام دستورى ، ولذا سمى الحزب الوطنى بحزب الدستور .

وعمل على هياج الخواطر فى تونس قيام الحرب التركية الإيطالية فى طرابلس ، فلقد أحدث الغزو الإيطالى لهذه البلاد رجة كبيرة اهتزت لها أرجاء العالم الإسلامى على شواطىء البحر الأبيض المتوسط ؛ وفى تونس المجاورة لطرابلس بصفة خاصة ، ولكن كان يؤيد فرنسا فى سياستها الاستعمارية فى تونس انجلترا وروسيا ، فى حين أن ألمانيا لم تهتم أبداً بإثارة عراقيل فى وجه السياسة الفرنسية فى هذه المنطقة من العالم ، ولقد ازدادت أهمية تونس فى نظر فرنسا خلال أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين للبرنامج البحرى الذى قامت به ولازدياد أهمية ثغر بنزرت كقاعدة بحرية كبيرة ، فطالما كان لفرنسا طولون فى شمال البحر الأبيض وبنزرت فى جنوبه استطاعت أن تسيطر إلى حد ما على البحر الأبيض المتوسط .

ومع أن مركز فرنسا ظل ثابت الأركان من الناحية الدولية ، فلقد هاجم الوطنيون التونسيون نظم الحماية الفرنسية فى صحفهم واجتماعاتهم ، وطالبوا بحكم دستورى مسئول ، ووجدت الحكومة الفرنسية نفسها مضطرة إلى الإلتجاء إلى القوة لقمع الحركة وإغلاق صحفها وطرد زعمائها من أرض الوطن .

لقد شاهدت السنوات العشر الأخيرة للقرن التاسع عشر بدء ظهور الحركة القومية التونسية ضد الاستعمار الفرنسى ، وكان فيها أعضاء بارزون من أمثال الهادى السبعى ومحمد السلامى ، وعلى كاهيه والشيخ زروق ... وسرعان ما انضم إلى هؤلاء رجل سيكون له شأن فى الكفاح الوطنى ، وسيكون دائماً له مركز ممتاز فى الحركة القومية التونسية ، ذلك الرجل هو الأستاذ الثعالبى . لقد تأسس الحزب

الوطني الإسلامي وعمل على نشر دعاية وتنظيم حركة، وقابل الفرنسيون هذه الدعوة بالاضطهاد وإغلاق الصحف أمثال المنتظر والمبشر والرشاد ، ولذلك كان من الواجب الدعوة للقضية التونسية فى الخارج ، وأخذ الثعالبي على عاتقه هذه المهمة ، وقام بها خير قيام فى مصر وتركيا وأوربا .

ويلاحظ أن الحركة القومية التونسية فى أول أمرها وإن كان هدفها الأخير هو تحرير تونس إلا أنها نادت أولا بالدستور ، فهى حركة سلمية دستورية تطالب بتحرير تونس فى الداخل ، تطالب بالاصلاح الدينى والاجتماعى ، لقد كان حزب الدستور فى أول أمره حركة قبل أن يكون حزباً فلقد ضم عناصر مختلفة لا يربطها سوى كره الحكم الفرنسى .

أثناء الحرب الكبرى الأولى وبعدها

قاسى الثعالبي هو وأقرانه فى سبيل الوطن التشريد والاعتقال ، ولكن وسائل القمع والارهاب مهما اشتدت لم تستطع القضاء على الحركة القومية .

لقد قامت الحرب العالمية الأولى ولعبت فيها تونس دوراً مهماً إلى جانب فرنسا ، فلقد أمدت فرنسا فى أشد أوقات محنتها بالجنود والصناع والعمال ، وبمنتجات البلاد الزراعية والصناعية وبكل مهمات الحرب التى تستطيعها ، واشترك فى هذه الحرب عدد كبير من أبناء تونس وفقد منهم الكثير ، لقد غادر تونس ٦٣ ألف جندى من أبنائها مات وفقد منهم خمسة عشر ألفاً ، وأخلص الباى لفرنسا فى أحلك أوقاتها ، ولعبت الموانى التونسية وخاصة بنزرت دوراً ظاهراً فى الحرب ، فلقد كانت مأوى وملاذاً لسفن الحلفاء وأساطيلهم ، وفيها تدرب الجيش العربى الموالى للحلفاء ، لقد أصبحت بنزرت قاعدة جيش الشرق ، وحققت كل ما عقده عليها الفرنسيون من آمال .

على أن الوطنيين لم ينسوا قضيتهم إبان هذه الحرب الضروس ، فلقد شجعت ثورة الطرابلسيين على إيطاليا قيام الثورة فى جنوب تونس ، وسرعان ما انضم اليها بعض القبائل ، واضطرت بعض الحاميات الفرنسية إلى الانسحاب أمام جيوش الثورة ، ولقد انضم إلى هذه الثورة الشيخ على بن عبد اللطيف وأخوه

يتبعهما عدد لا بأس به ، وقامت وقائع استشهد فيها الزعماء ، واستمرت الثورة محتدمة فى الجنوب من سنة ١٩١٥ إلى سنة ١٩١٨ ، وبعد انتهاء الحرب الكبرى ، لم يجد الثائرون بدأ من الهرب إلى طرابلس أو التسليم . لقد استلزمت الثورة فى جنوب تونس شغل خمسة عشر ألف جندى فرنسى ، جرح وقتل منهم أكثر من ألفين .

وبينما كانت نار الثورة مستعرة فى الجنوب كان رجال السياسة الوطنيين يحاولون الاتصال بالدول الوسطى كألمانيا ويعلقون بعض الآمال على انتصارها ، ولكن بانتصار الحلفاء انتهت هذه الآمال ، وعلى أى حال لقد قامت تونس بكثير من التضحيات أثناء هذه الحرب ، وكانت تنتظر أن تقوم فرنسا بشيء من التضحية فى سبيل تحقيق مطالب التونسيين ، ولكن ذلك لم يحدث ، فلقد جاء بعد الحرب مباشرة المقيم العام فلندان (Flandin) معلناً أنه سيبذل جهده فى سبيل جعل تونس امتداداً لفرنسا !!

لقد ازداد مركز فرنسا بعد الحرب قوة فلقد خرجت من الحرب منتصرة وأقوى دولة فى القارة الأوربية من الناحية الحربية ، كان انتصار فرنسا وانجلترا انتصاراً للامبريالزم والاستعمار الإنجليزى الفرنسى ، ومع ذلك فقد ظهرت مبادىء ستخفف من وطأة ذلك الانتصار ، وستضع حداً ما للفكرة الاستعمارية ، فقرب أواخر الحرب أعلن الرئيس ولسن مبدأ حق الشعوب فى تقرير مصيرها ، فكان لذلك المبدأ أثر سحرى فى كل الشعوب المغلوبة على أمرها فقامت تطالب بحقوقها ، وكان لذلك المبدأ أثر كبير فى تونس .

فى سنة ١٩١٩ تأسس الحزب الحر الدستورى التونسى على يد الثعالبى وصحبه ، وانتشرت فروعه فى المدن التونسية ، وأصبح قوة شعبية لها وجودها ولها خطرها ، وأخذت الحركة العمالية فى الظهور قوية ، وفى نفس الوقت تركزت حركة الشباب التونسى المثقف حول صحيفة «صوت التونسى» التى أصدرها الأستاذ الشاذلى خير الله ، وعقد الوطنيون مؤتمراً فوضوا فيه الأستاذ الثعالبى العمل على إنقاذ تونس وتحريرها إذا أمكن ، وإلا فالمطالبة ببرلمان يمثل الشعب منتخب انتخاباً حراً وتكون الحكومة مسئولة أمامه ؛ واتفق أعضاء المؤتمر على إرسال مذكرة

إلى الرئيس ولن تطالب باستقلال تونس مبينة أن الحماية قد فرضت بالقوة فليس لها سند قانونى، وأرسل الأستاذ الثعالبي إلى باريس ليتصل برجال السياسة المجتمعين فى مؤتمر الصلح وللدعاية التونسية فأصدرت كتاب « تونس الشهيدة »[1]، ووزعت آلاف النسخ منه على رجال السياسة والصحافة ، وشرح رجال الوفد التونسى قضية البلاد لرجال السياسة الذين استطاع الاتصال بهم ، وعرض بالفعل على الحكومة الفرنسية مشروعا وسطا ، مستق من المطالب التى قررها الحزب الحر التونسى ، وهذا هو نص هذه المطالب :

« ١ — مجلس تفاوضى (تشريعى) يتألف على التساوى من نواب تونسيين وفرنسيين معينين بالانتخاب العام ، يملك عرض المسائل على المفاوضة وله سلطة مالية غير محدودة

٢ — مسئولية الحكومة أمام هذا المجلس

٣ — التفريق بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية

٤ — قبول التونسيين فى كل الوظائف الإدارية بشرط الكفاءة

٥ — المساواة التامة فى مرتبات الموظفين الذين يشغلون منصبا واحدا دون تمييز

٦ — تشكيل مجلس بلدية بالانتخاب العام فى كافة مدن المملكة

٧ — حرية الصحافة والاجتماعات والمؤسسات

٨ — التعليم الإجبارى

٩ — مشاركة التونسيين فى شراء أراضي الاستعمار وأملاك الدولة » .

هذه المطالب تظهر رغبة التونسيين الملحة فى إصلاح المساوىء التى لمسوها والتى تألموا منها ، ويظهر فيها أيضاً روح الاعتدال الشديد ، فلقد اعترف الوطنيون بالحماية وموظفيها الأساسيين : المقيم العام وقائد جيش الاحتلال وقائد الأسطول ، وبحقوق الفرنسيين فى الاشتراك فى الحكم ، ولكنهم أرادوا إلى جانب ذلك أن يكون لهم نصيب فى إدارة بلادهم والسير بها نحو الاستقلال .

ولكن فرنسا التى خرجت من الحرب الكبرى منتصرة قد قهرت أعداءها ، لم تكن مستعدة لقبول هذه المطالب ، ولم تكن لتلق بالا للشعور القوى المتأجج فى شمال افريقيه ، فهى ما انفكت تعتقد أن سكان هذه البلاد لم ينضجوا النضج

(١) La Tunisie Martyre et ses Revendications.

السياسي الكافي للاستقلال ، وهي ترى تدعيم الامبراطورية الفرنسية كسند قوى لفرنسا إبان أزماتها الشديدة ، ولا سيما أمام ازدياد السكان المخيف في المانيا ، ولقد ربطت بعض الأوساط الفرنسية بين الحركة القومية في تونس والحركة البلشفية ، نظراً لعطف بعض الأحزاب اليسارية في فرنسا على الحركات القومية .

ولكن ذلك الموقف العدائي من جانب الحكومة الفرنسية لم يضعف من شأن الحركة القومية في تونس ، فلقد انضمت اليها عناصر جديدة ، فالباي الناصر الذي أخلص لفرنسا أثناء الحرب انضم إلى الحركة القومية يوليها عطفه ورعايته ، فما كان يروقه ما وصلت اليه سلطة الباي ، وما كان يروقه المستوى المادي الذي هبطت اليه عائلته ، ويظهر أنه كان ينتظر من الحكومة الفرنسية التي خدمها باخلاص مدة الحرب الطويلة أن تعمل على زيادة سلطته (فلقد كان اتجاه الحكومة الفرنسية بعد الحرب هو الانتقاص من سلطة الباي) وتحسين مركز عائلته وأن تجيب البلاد إلى بعض المطالب العادلة مثل إنشاء مجلس تشريعي وعدم التدخل في الأمور المتصلة بالدين مثل الأوقاف ، ولذا فهو ينتهز فرصة رغبة رئيس الجمهورية الفرنسية مسيو ميلران في زيارة تونس ليتقدم بمطالب[1] إلى الحكومة الفرنسية واشترط قبولها للاستمرار في الحكم وهذه المطالب هي تقريباً نفس مطالب الوطنيين في ذلك الوقت .

ولقد وعد الفرنسيون بالنظر في هذه المطالب بعد انتهاء زيارة رئيس الجمهورية الفرنسية لتونس ، ولكن لم يتقيد الفرنسيون بوعدهم ، إذ رأى المقيم الفرنسي العام لوسين سانت (Lucien Saint) أن يلوح باستخدام القوة وهدد الباي وانتهى الأمر بموت الناصر .

وفي أثناء زيارة رئيس الجمهورية الفرنسية لتونس ، رأى ذلك الرجل أن يشيد بالجهد الكبير الذي بذله المستعمرون الفرنسيون في هذه البلاد ، وطالبهم بالاتحاد مع الأهالي ، وانتهز ميلران هذه الفرصة لينصح الباي عند زيارته له ، بأن الشعور السياسي الذي قد يتأثر به الجمهور خارج قصر الباي لا يجب أن يجد سبيله أبداً إلى داخل القصر ، !

(١) مؤرخة ٢ إبريل ١٩٢٢) .

على أن فرنسا وإن وقفت أمام مطالب الوطنيين وأهملت مطالب الباى ؛ إلا أنها رأت أن تخطو خطوة فى سبيل الإصلاح وتهدئة الرأى العام فأنشأت مجلساً جديداً محل المجلس الشورى القديم ؛ هو المجلس الكبير يتكون من قسمين : أحدهما فرنسى والآخر تونسى ، وعدد أعضاء القسم الفرنسى أكثر من عدد أعضاء القسم التونسى ، فالقسم الفرنسى كان مكوناً من ٥٢ عضواً تنتخب الغرفة التجارية والصناعية ٢١ منهم ، ٣١ تنتخبهم الجالية الفرنسية ، وأما القسم التونسى فيتكون من ٢٦ عضواً تنتخبهم الغرفة التجارية والزراعية التونسية ، وهذان القسمان يجتمعان منفصلين ، وفى حالة اختلاف رأيهما تتكون لجنة للتحكيم ، ومهمة هذا المجلس الأساسية النظر فى الميزانية التى تقدمها له الحكومة ، كما له أن يقول رأيه فى مسألة القروض العامة ، وأنشأت الحكومة الفرنسية كذلك مجالس القائديات لمناقشة الحاجات الاقتصادية المحلية ، ويمثل فيها أعيان الاقليم ، وقسمت تونس خمسة أقسام لكل منها مجلس ينظر فى الأمور الاقتصادية لذلك القسم ، ويدرس حاجاته ومطالبه ، وأعلنت حكومة الحماية أنها ستتبع سياسة تقدم وعدالة بالنسبة للشعب التونسى ، وحذرت الأهالى من طائلة القانون إذا وقفوا فى سبيل ذلك .

لقد رأت الحكومة الفرنسية فى ذلك التعديل وإدخال العنصر التونسى فى المجلس السابق ذكره وفى مجالس القائديات ليقول رأيه ويعبر عن حاجات التونسيين الاقتصادية ؛ قدراً كافياً من إشراك التونسيين فى أمور الحكم ، كما رأت فيه زيادة للحرية وتقليلا للمركزية ، ولم تقف فرنسا عند هذا الحد بل أدخلت تعديلات فى ذلك المجلس وخاصة فى سنة ١٩٤٥ ، وأهم هذه التعديلات إيجاد المساواة فى عدد الأعضاء بين القسمين الفرنسى والتونسى ، فحددت لكل قسم ٥٣ عضواً منتخباً ، واشترط القانون للانتخاب شروطاً خاصة مثل مستوى معين من التعليم ، ونصاب مالى خاص ، وأصبح من حق ذلك المجلس النظر فى الميزانية والمناقشة فى حدود ثلثيها تقريباً ، فلقد أخرج من اختصاصه مخصصات الباى ودار المقيم العام والبوليس والإدارة المالية ، ولكن مهما قيل عن زيادة إشراك العنصر التونسى فى هذا المجلس ، فرأى ذلك المجلس لا زال استشارياً ، ولا بد من عرض آرائه على حكومة باريس ، ثم إن ذلك المجلس لم يكن له الحق فى النظر فى الأمور السياسية والدستورية .

ورأت حكومة الحماية أن تمضى خطوة أخرى فى سبيل استرضاء التونسيين ، فبعد أن كانت الأراضى توزع على المستعمرين الفرنسيين فحسب : أعطى شطر منها للوطنيين لتشجيعهم على الاستقرار والإنتاج الزراعى ، وفى سنة ١٩٣٢ اعترفت حكومة الحماية بنقابات العمال التونسية وبتحديد ساعات العمل بثمانى ساعات .

على أن كل هذه الخطوات لم تمنع الوطنيين التونسيين من المطالبة بالإصلاح الحقيق ، فمثل هذه الخطوات كانت وئيدة فى نظرهم لا تشفى غليلا ، فقامت المظاهرات والاضطرابات فى المدن : وخاصة وأن سلوك فرنسا فى بعض المسائل لم يكن مرضياً لكرامة الشعب التونسى ، ومثل ذلك تشجيع التونسيين على التجنس بالجنسية الفرنسية وإظهار حكومة الحماية لرغبتها فى الاحتفال بمرور خمسين عاماً على اعلان الحماية ، وأثار هذا التصرف حفيظة الوطنيين ، وكان أن أنشأ فريق منهم صحيفة « العمل التونسى » وصحيفة « لسان الشعب » ، وتأسس الحزب الدستورى التونسى الجديد بزعامة الأستاذ الحبيب أبو رقيبه ، وهو رجل حديدى الارادة اجتمعت فيه الثقافة الشرقية والغربية ، واشترك ذلك الرجل فى الحركة القومية اشتراكا واضحاً ، ونظم ذلك الحزب نشاطه السياسى فى العاصمة وفى الأقاليم ، فكون اللجان وأكثر من الاجتماعات والدعاية للحركة ، وليس هنا المجال للدخول فى الخصومات التى وقعت بين الحزب الدستورى القديم والحزب الدستورى الجديد ولا التعمق فى اختلاف برامجهما ، ولكن يكفى أن نقول هنا أنه ربما كان برنامج الحزب الجديد أكثر وضوحا وتحديداً ، وربما كان ذلك الحزب الجديد أكثر رغبة فى الاتفاق مع فرنسا من الحزب القديم ، فهو كما يظهر يتبع سياسة عملية تمليها الحوادث والظروف ، وهو أكثر اهتماماً بالتنظيم للحركة وبالنشر والدعاية لها ، وأكثر تمشياً مع الحياة الحديثة المتأثرة بالثقافة الفرنسية ؛ فهو لا يتبع مذهباً أو طريقة إسلامية معينة ، ولكن كليهما يؤمن بضرورة الاعتراف بسيادة تونس وإشراف التونسيين على إدارة شئونهم بأنفسهم .

ورد الفرنسيون على الحركة الجديدة بالالتجاء إلى الوسائل القديمة ، وسائل القمع واعتقال زعماء الحزب الجديد ، ولكن فى عهد وزارة بلوم الإشتراكية ، حاول المقيم الفرنسى العام جيون (Guillon) فى سنة ١٩٣٦ أن يتفق مع الزعماء التونسيين قبل إطلاق سراحهم : على أساس ألا يطالبوا بإلغاء الحماية ، وأن يكون

هدفهم المطالبة بالإصلاح والعدالة وزيادة الحرية والتعاون مع الشعب الفرنسي ، وأخلى سبيل الزعماء ، وسمح للأستاذ الثعالبي بالعودة إلى بلاده فاستقبل استقبالا مشهوداً ، على أن هذا لم يعن انتهاء الحركة القومية ؛ فمطالبها لم تتحقق بعد .

لقد حاول الأستاذ أبو رقيبه التفاهم مع الحكومة الفرنسية على أساس إرضاء مطلب الشعب التونسي في حكم نفسه بنفسه ، وذلك عن طريق إنشاء برلمان وإيجاد حكومة مسئولة ، ولكن الحكومة الفرنسية لم تستطع الموافقة على هذه الفكرة وسقطت الوزارة التي كان الوطنيون يعلقون عليها بعض الآمال ، وقاومت الجالية الفرنسية فكرة التفاهم على حساب ما اعتبرته مصالحها الخاصة ؛ التي ترمى إلى تقوية نفوذ فرنسا لا إضعافه ، ورأى الوطنيون التونسيون ضرورة السعي إلى اكتساب حلفاء لهم في الخارج من أقرانهم في الجزائر ومراكش ، فالآمال والآلام واحدة ، ورؤى تكوين جبهة متحدة من سكان المغرب ضد فرنسا ، كما رؤى ضرورة الاتصال بالدول العربية في المشرق ، وقامت الاضطرابات عنيفة في تونس في سنة ١٩٣٧ ، وتوالت حركات الإضراب والمصادمات التي سالت فيها الدماء من الجانبين ، وتلتها الاعتقالات ، فقامت المظاهرات صاخبة عنيفة في كل أجزاء تونس ، وخاصة في يوم ٨ أبريل سنة ١٩٣٨ ، فقررت الحكومة الفرنسية القضاء على الحزب الدستوري الجديد ، فاعتقلت رجاله وأغلقت نواديه وعطلت صحفه ، وأعلنت الأحكام العرفية ، وقابل الوطنيون العنف بالعنف .

وأخذ الموقف في تونس يتأزم يوماً بعد يوم بازدياد خطر قيام حرب عالمية ثانية في أوروبا ، ومع أن فرنسا قد شغلت بحرج الموقف على حدودها الشرقية إلا أنها سارت قدماً في تنفيذ سياستها الإستعمارية ، بالعمل على زيادة عدد المستعمرين الفرنسيين في المناطق الزراعية والصناعية ؛ وفي وظائف الحكومة ، كما سهلت للأجانب التجنس بالجنسية الفرنسية ، بحيث يصح أن يتجنس بالجنسية الفرنسية كل من ولد في تونس ، وكان أحد أبويه قد ولد في هذه البلاد .

تونس أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها

بعد اتفاقية ميونخ في ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٣٨ ، ازدادت العلاقات توتراً بين فرنسا وإيطاليا ، فلقد أصبحت لإيطاليا قوة جديدة بعد اتحادها الجانب الألماني ،

وأعلن فى مجلس النواب الإيطالى فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٣٨ تمسك الايطاليين بحقوقهم فى تونس وجيبوتى وكورسيكا ، وتأزم الموقف فى البحر الأبيض المتوسط بدرجة اضطرت رئيس الوزارة الفرنسية مسيو دلاديه إلى زيارة شمال افريقيه ، وخاصة تونس وبنزرت قاعدة فرنسا البحرية الكبرى ، وخط ماريت على الحدود التونسية الليبية ، وأعلن رئيس وزارة فرنسا فى لغة لا تقبل الريب تمسك فرنسا بكل أجزاء إمبراطوريتها والدفاع عنها بكل قوتها .

ولكن هذا الاعلان لم يثبط من عزيمة إيطاليا ، فلقد هاجمت الصحافة الايطالية فرنسا هجوماً عنيفاً وأعلن موسولينى فى ٢٦ مارس سنة ١٩٣٩ أن القوة وحدها هى التى ستفصل فى الخلافات بين فرنسا وإيطاليا ، فلقد انتهى عهد الكلام عن التعاطف والصلة اللاتينية ، وفى ٢٢ مايو سنة ١٩٣٩ أمضت إيطاليا فى برلين معاهدة التحالف السياسى والحربى بين إيطاليا والمانيا ، وكان مفهوماً من هذا التحالف أن المانيا أعطت إيطاليا حرية التصرف فى تونس .

ودخلت فرنسا الحرب فى ٣ سبتمبر ١٩٣٩ ، ولا زالت الحركة القومية التونسية على أشدها والزعماء لا يزالون معتقلين والنفوس ما زالت قلقة مضطربة ، ولم يذهب الجيش التونسى هذه المرة إلى فرنسا ، وإنما أبقاه الفرنسيون فى تونس للدفاع عن البلاد إذا فكر الإيطاليون فى غزوها ، لقد رفض الجنود التونسيون فى الواقع الاشتراك فى الحرب إلا اذا أخلى الفرنسيون سراح المعتقلين ، فما كان من الطبيعى دخول التونسيين فى حرب تزيد فى قوة الأغلال التى كبلت بها حريتهم ، ولكن فرنسا خشيت التراجع حتى لا يضيع نفوذها فى شمالى افريقيه ، فهى إذن لم تحد عن خطتها وقررت استخدام العنف وأعلنت الأحكام العسكرية وأذاقت الوطنيين حقيقة سوط عذاب .

ولما خارت قوات فرنسا أمام جحافل الألمان فى بدء صيف سنة ١٩٤٠ أعلنت إيطاليا الحرب على جارتها اللاتينية وعلى انجلترا ، فدخلت تونس غير محاربة ميدان الحرب ، فهاجمت الطائرات الايطالية قواعد تونس ، وقامت الطائرات الفرنسية من تونس بغارات على صقلية ، ولم يكن تسليم المارشال بيتان للألمان معناه انتهاء اشتراك تونس فى الحرب ، فلقد أعلن الجنرال ديجول

من لندن استمرار المقاومة الفرنسية ، وحين نزل الأمريكيون والإنجليز بقوات كبيرة بقيادة الجنرال أيزنهور اضطر الألمان إلى إنزال قوات مماثلة فى تونس بقيادة الجنرال نهرنج (Naehring) واحتلوا قواعدها المهمة ، وتحولت تونس إلى ميدان حرب حقيق ، فقد أخذت قوات الإنجليز بقيادة مونتجمرى فى التقدم السريع إلى تونس بعد موقعة العلمين ، وأخذت القوات الإنجليزية والأمريكية والفرنسية فى مهاجمة تونس من ناحية الغرب ، وذاقت تونس حقيقة ويلات الحرب ، وبذلت تضحيات كبيرة لفرنسا وللحلفاء فى بلادها ومالها وأرواح أهلها ، وبعد أن طرد الألمان عادت تونس قاعدة هائلة للحلفاء سهلت لهم بلا شك مهاجمة جنوب إيطاليا وإخراج إيطاليا من الحرب .

وفى أثناء الحرب العالمية الثانية ظهرت حركة العصيان بين الجنود التونسيين فقضت عليها فرنسا بكل عنف ، فلقد كانت حياتها ، كما ترى ، فى الميزان وجردت الجنود التونسيين من أسلحتهم ، وبالرغم من ذلك فلم تكن الحالة هادئة فى تونس فقد قامت الثورات وازدادت أعمال التخريب ، ولجأت فرنسا إلى سياسة الاعتقال ، وبالرغم من ذلك فلقد استمرت الحركة القومية فى نشاطها ، وحين نزلت جنود المحور زادت الحركة القومية نشاطاً ، وخاصة بعد أن حرر الألمان عدداً كبيراً من المعتقلين ، ولقد قام الزعماء بجهود كبيرة لدى حكومتى برلين وروما لاقناعها بقبول استقلال تونس وتحريرها نهائياً من الحكم الفرنسى ، وأنشأوا لهم مكتباً وصحيفة فى برلين هى « المغرب العربى » كما عملوا على بث الدعاية للقضية التونسية بين زعماء المغرب وفى البلاد العربية وأنشئت صحيفة « إفريقيه الفتاة » .

ولما عاد الاحتلال الفرنسى إلى تونس فى ذيول الجيوش الأمريكية والإنجليزية ، لجأ الفرنسيون كما قلت إلى سياسة الانتقام عن ناوءهم العداء من الزعماء ، وخلعوا المنصف باى بحجة تعاونه مع الألمان ، ولكن الوطنيين التونسيين استمروا فى كفاحهم للوصول إلى مطالبهم ، وفى هذه المرة طالبوا بالاستقلال التام عن فرنسا ، فحاولت حكومة الحماية استرضاءهم بعض الشىء ، بزيادة العنصر التونسى فى الحكومة وفى المجلس الكبير وفى زيادة سلطة الوزراء التونسيين كما ذكرنا فى الصفحات السابقة وجعل الانتخاب محل التعيين ، ولكن

ذلك لم يكن كافياً فى نظر الوطنيين ، فلقد زادت الحركة الوطنية قوة بعد الحرب الكبرى الثانية للأسباب الآتية :

١ — انهزام فرنسا فى الحرب وعدم قدرتها على حماية نفسها فتداعى أكبر ركن يقوم عليه نظام الحماية ، وهو القدرة على الدفاع عن تونس أمام الاعتداء الخارجى .

٢ — ميثاق الأمم المتحدة الذى يتضمن ضرورة المحافظة على حقوق الشعوب الصغيرة فى الحرية والكرامة والاستقلال .

٣ — تداعى الامبراطورية الفرنسية فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، فانتهى نظام الانتداب الفرنسى واستقلت سوريا ولبنان .

٤ — تداعى الامبراطورية الإيطالية واستقلال ليبيا المجاورة لتونس والتى لا تزيد مواردها على موارد تونس .

٥ — الموقف الدولى ، فلم يعد النفوذ فى البحر الأبيض المتوسط لانجلترا وفرنسا وحدهما ، إذ دخلت الولايات المتحدة عنصراً ثالثاً مهماً ، ولذا إذا كانت انجلترا بحكم مركزها الاستعمارى تؤيد فرنسا فى سياستها الاستعمارية ، إلا أنه ليس من السهل إقناع الولايات المتحدة بتأييد السياسة الاستعمارية تأييداً تاماً وكبت حرية الشعوب ، وخاصة وأن سياسة الولايات المتحدة تعمل بصفة عامة على استقرار الأمور فى البحر الأبيض المتوسط ، وهناك عامل آخر لا يقل أهمية ، وهو أن الدولة الروسية لم تكن تعمل على تسهيل الأمور للمعسكر الديموقراطى الاستعمارى فى كل أجزاء العالم .

٦ — نمو الأحزاب ونقابات العمال فى تونس وتيقظ المشرق لما يحدث فى المغرب ، لقد تفتح الوعى القومى فى الشرق وتكونت جامعة الدول العربية تعمل على توثيق الأواصر بين الشعوب العربية وتحطيم قيود الامبريالزم الأوربى ، وتعطف على مطالب الشعوب التى تأثرت بالحضارة العربية والتى لا تزال ترزح تحت أعباء الاستعمار ويظهر تيقظ الشرق ونضوجه فى قيام ثلاث دول عظيمة وهى الهند وباكستان واندونيزيا ، هذه الدول التى ستكون كتلة الدول الأسيوية دعامة قوية ضد الاستعمار والامبريالزم .

ولقد اتجه الأحرار التونسيون أول ما اتجهوا نحو جامعة الدول العربية التي انشئت بمقتضى بروتوكول الاسكندرية في سنة ١٩٤٥ فزار مصر في هذه السنة الاستاذ الحبيب أبورقيبه لضم العالم العربي إلى جانب القضية التونسية . وتأسس في القاهرة فعلا مكتب الحزب الحر الدستوري التونسي ، وزار الأستاذ يوسف الرويسي بعض أجزاء الشرق الأدنى لنفس هذا الغرض .

فلم ترق فرنسا هذه الخطوة وأجابت بحركة قمع شديدة اضطر أمامها الرأى العام التونسي الحر إلى اتخاذ موقف حاسم وإعلان المطالبة بالاستقلال التام واجتمع مؤتمر مثلت فيه الهيئات التونسية الوطنية المختلفه ووافق على ميثاق وطني هذا نصه :

« حيث كانت البلاد التونسية قبل سنة ١٨٨١ دولة مستقلة ، تربطها بالخلافة الاسلامية روابط روحية أكثر منها سياسية ، وحيث كانت السيادة التونسية معترفا بها دوليا ، وقد أيد هذا خاصة ما أبرمته تونس من مختلف المعاهدات مع الدول ، وحيث عمدت فرنسا — بعد أن وافقت على استقلال البلاد لدى الدولة العثمانية نفسها — ألى إرغامها على قبول حمايتها ، بمقتضى معاهدة أجبر الملك محمد الصادق على إمضائها بالقوة القاهرة ، ولم يصادق عليها الشعب يوماً من الأيام ، وحيث أن معاهدة باردو لم تخرج تونس من الاسرة الدولية ، ولم تجردها سلطتها الخارجية وحيث أن الحماية قد استحالت — بعد مضى خمس وستين سنة — إلى نظام استغلالى استعمارى ، جردت به تونس من سيادتها ومن خيراتها تجريداً منظماً ، في حين أن مفهوم معاهدة باردو واتفاقية المرسى ومنطوقها يقضيان بأن تكون الحماية نظاما وقتيا شبيها بوصاية بسيطة .

« وحيث أن الدولة الحامية لم تلتزم حدود سلطة المراقبة ، وحلت محل الدولة المحمية في مباشرة الحكم والتصرف في الشئون العامة ، وحيث أن السلطة الفرنسية قد استحوذت على السلطة التشريعية التي هي حق خاص لجلالة الباى — حتى أصبح جلالته — شبيها بموظف شرفي سام مضغوط على حريته الشخصية ، وأن وزراء الدولة التونسية صاروا مجرد شخصيات لتزيين المحافل ، وأن العمال

(المديرين والمحافظين) أصبحوا أعوانا ينفذون أوامر المراقبين المدنيين الفرنسيين، وحيث أنها نزعت سلطات جميع الموظفين التونسيين وأسندتها لموظفين فرنسيين، لم تكن خبرتهم ولا نزاهتهم فى غالب الأحيان سالمتين من الطعن .

« وحيث أن فرنسا التى التزمت علانية بحماية شخص الباى وعائلته، قد خرقت المعاهدات مرة أخرى، فخلعت عنوة ملك البلاد الشرعى، جلالة محمد المنصف معتدية حتى على القواعد الأصلية للدين الاسلامى .

« وحيث أن هذه الاعتداءات قد نشأ عنها نظام إدارى مضطرب لاهو إلحاق ولاحكم ذاتى، وقد ضاعت فيه الأحوال التشريعية وتلاشت فيه المسئوليات .

« وحيث سلكت فرنسا — منذ أول عهد الحماية — سياسة تفقير الأهالى مغتصبة أخصب أراضيهم، ومخصصة أكثر من ثلثى الميزانية التونسية للموظفين وجلهم — من الفرنسيين — وهى ميزانية لارقابة للشعب عليها، تتكون مداخيلها من جبايات تفرض على عدد السكان لا على الثروات، وقد فرضت على تونس سياسة نقدية وجمركية وتجارية، تضر باقتصادها، ولا تعود بالفائدة عليها فى مبادلاتها مع البلاد الأجنبية .

« وحيث كانت سياسة التفقير هذه هى نتيجة سياسة تعمير البلاد بواسطة المعمرين والموظفين، وفتح باب التجنيس للأهالى، ومنح الجنسية الفرنسية للمالطيين الانجليز والروس البيض والأسبان الجمهوريين، وحتى الإيطاليين فى العهد الأخير لإكثار عدد الرعايا الفرنسيين بالنسبة لعدد الأهالى والقضاء على شخصية البلاد التونسية .

« وحيث أدى الأسراف المالى، الذى تقتضيه هذه السياسة إلى عجز سلطة الحماية عن القيام بواجباتها الاجتماعية نحو السكان العرب، من حيث المسكن والتغذية والاسعاف والتعليم .

« وحيث أهملت سلطة الحماية واجباتها الإنسانية لفائدة الرأسمالية المسيطرة على البلاد، ولم تؤد رسالتها التمدينية المزعومة التى تبرر بها فرض حمايتها على البلاد .

« وحيث أن فى تمثيل الجالية الفرنسية المقيمة فى تونس بالبرلمان الفرنسى اعتداء جديداً على السيادة التونسية ونقضاً خطيراً الأسس الدولية للحماية .

« وحيث أن التونسيين قد حرموا فى بلادهم من الحريات الأولية ، وهى حرية التفكير والنشر والقول والاجتماع والتنقل وعاشوا أكثر من عشرين سنة تحت الأحكام العرفية .

« وحيث لم تحترم الدولة الحامية تعهداتها فى حراسة أمن الدولة وسلمت البلاد لدول المحور ، بينما يبذل التونسيون دماءهم فى كل مناسبة للدفاع عن فرنسا وحلفائها .

« وحيث أن معاهدة باردو نصت على أن الحماية فى جوهرها نظام وقتى ، وأن مصالح الفرنسيين الناتجة عن هذا النظام المؤقت لا يمكن بحال أن تكون لها صفة الدوام والاستمرار .

« وحيث أنه من جهة أخرى لا يمكن لمصالح دولة حامية أن تحول دون حقوق الشعب الثابتة فى تقرير مصيره بكامل الحرية ، وحيث أن الاستعمار يعتبر بحق سبباً للتنافر بين الدول ومثاراً لمشاكل دولية ، وقد عبرت الأمم المتحدة عن استنكارها بحكم صريح ، وجعلت من بين الأهداف التى خاضت من أجلها غمار الحرب ، حق الشعوب كلها فى اختيار نوع الحكم الذى ترتضيه لنفسها واسترجاع حقوق السيادة والاستقلال إلى الأمم التى انتزعت منها قهراً .

« وحيث أن هذه النظرية الجديدة أخذت تتجلى وتتأكد أثناء المؤتمرات العالمية المختلفة ، وقد كانت فرنسا من بين الدول الاستعمارية التى صادقت على المبدأ القائل (ليس لأية أمة الحق فى أن تحكم الشعوب الواقعة تحت سيطرتها حكماً أبدياً) .

لهذا كله فإن المؤتمر الوطنى التونسى يعلن أن نظام الحماية نظام سياسى واقتصادى لا يتفق مطلقاً مع سيادة الشعب التونسى ومصالحه الحيوية ، وأن هذا النظام نظام استعمارى قضى على نفسه أمام العالم بالاخفاق بعد تجربة خمس وستين سنة ، كما يعلن عزم الشعب الثابت على استرجاع استقلاله التام والانضمام كدولة ذات سيادة إلى جامعة الدول العربية وهيئة الأمم المتحدة والمشاركة فى مؤتمر الصلح » .

ونتيجة لهذا الموقف الإيجابى رأت حكومة الحماية إدخال بعض إصلاحات فى سنة ١٩٤٧ وجدها الأحرار التونسيون غير كافية ، وظهر بشكل واضح تساند عملى شعوب شمال افريقيه فى مؤتمر المغرب العربى الذى عقد فى القاهرة

من ١٥ إلى ٢٣ فبراير سنة ١٩٤٧ ومثل قضية تونس فى هذا المؤتمر الأستاذ يوسف الرويسى ، ولقد طلب المؤتمر من أمين الجامعة العربية عبد الرحمن عزام قبول رياسة المؤتمر ، فقبل الدعوة وافتتح المؤتمر معبراً عن عطف الجامعة العربية على قضية المغرب (تونس والجزائر ومراكش) ، ولقد بين المؤتمر ما تنطوى عليه فى نظره السياسة الفرنسية من عدوان على حقوق سكان المغرب الوطنيين ، كما عرض المؤتمر لضرورة إحكام الروابط بين الحركات الوطنية فى بلاد المغرب جميعها ، والاتفاق على غاية واحدة هى الاستقلال التام وجلاء الفرنسيين عن البلاد ، وتكوين لجنة دائمة من رجال الحركات القومية لتوحيد الخطط وتنسيق العمل لكفاح مشترك والعمل على توحيد النقابات العمالية والنظم الثقافية والاقتصادية فى الأقطار الثلاثة وتوجيهها توجيهاً قومياً ، وضرورة وقوف الأقطار الثلاثة جبهة واحدة عند حدوث أزمة فى أى قطر منها ، ثم قرر المؤتمر رجاء الجامعة العربية (فيما يختص هنا بتونس) :

١ — بإعلان بطلان معاهدة الحماية .

٢ — بأن يكون لتونس ممثل فى مجلس الجامعة العربية .

٣ — بعرض القضية المغربية على الهيئات الدولية .

٤ — وبإرسال لجنة تحقيق إلى بلاد المغرب .

٥ — وبتعيين ممثلين لدول الجامعة فى أقطار المغرب .

٦ — وبالعمل على نشر الثقافة العربية فى كل بلاد المغرب وتسهيل وسائل الدراسة للطلاب المغاربة الذين يفدون إلى دول الشرق .

وصرحت أقطار المغرب الثلاثة عن رغبتها فى أن تدخل فى نطاق جامعة الدول العربية ، وخاصة وأن ميثاق الجامعة قد أوصى بإشراك البلاد المغربية فى لجان الجامعة والتعاون معها إلى أبعد حد مستطاع ، وعلى هذا الأساس أبلغ أمين الجامعة العربية فرنسا بتأييد الجامعة للمغرب العربى فى المطالبة بحقوقه المشروعة ، برهنت إذن الجامعة العربية على اهتمامها بقضية المغرب ، كما برهن المغاربة فى أكثر من موقف على تعلقهم بالجامعة وتطلعهم إلى الانضمام إليها بصفة رسمية .

لقد قررت أقطار المغرب الاستفادة من الجامعة العربية بقدر المستطاع فى ناحية التأييد السياسى وفى الضغط على فرنسا وفى تأييد قضيتها فى الهيئات الدولية ، فعن طريق الأمم العربية الممثلة فى هيئة الأمم المتحدة تستطيع شعوب المغرب متفقة مؤتلفة إبلاغ صوتها بطريقة أقوى وأكثر جدوى .

وعلى هذا الأساس اتخذ مؤتمر المغرب فى القاهرة القرارات الآتية :

١ — رفع مذكرة إلى إحدى الدول العربية تبين فيها كيف أن فرنسا واسبانيا خالفتا بسياستهما الاستعمارية المثل العليا لهيئة الأمم المتحدة ومبادئها .

٢ — ترفع الهيئات السياسية المغربية مذكرة إلى هيئة الأمم المتحدة تشرح فيها اعتداء فرنسا على حقوق الشعوب المغربية وحرياتها ، وتطلب إرسال لجنة للتحقيق .

٣ — إرسال مذكرة من الهيئات السياسية المغربية إلى مجلس الاقتصاد والاجتماع وحقوق الإنسان ؛ تشرح فيها كيف اعتدت فرنسا على حقوق الإنسان فى المغرب العربى وحطمت كيانه الاقتصادى والاجتماعى ، وتطلب إرسال لجنة للتحقيق .

وكان آخر الموضوعات التى قررها المؤتمر فى القاهرة التنسيق بين مكاتب المغرب فى مصر « تكوين رابطة الدفاع عن مراكش والوفد المراكشى فى لجان الجامعة العربية ومكتب حزب الشعب الجزائرى ومكتب الحزب الحر التونسى ومكتباً يسمى مكتب المغرب العربى » .

وأما فى تونس فلقد ظهر تساند الشعب التونسى ووطنيته فى احتفاله باحياء السنة الثانية لقيام الجامعة العربية فى ٢٢ مارس سنة ١٩٤٧ ، فكان هذا رداً لتحية القاهرة وجامعة الدول العربية ، وفى إعلان الحداد العام فى ١٢ مايو سنة ١٩٤٧ بمناسبة مرور ستة وستين عاما على إعلان الحماية ، ثم فى الإضراب العام يوم ١٤ مايو من نفس هذه السنة احتجاجاً على خلع فرنسا المنصف باى .

لقد بذلت الجامعة العربية كل ما تستطيع لإسماع صوت تونس للعالم ولهيئة الأمم المتحدة ولكن الدول الكبرى وخاصة فرنسا وانجلترا لم تلق بالا لمطالب الشعوب الصغيرة ، ولم تحاول جادة الإنصات إلى مظالمها ، وبالرغم من هذا فقد ظهر للعالم أجمع أن شعوب شمال افريقيه لا تقف وحدها فى كفاحها للوصول إلى الحرية والاستقلال .

ولما لم تجد قضية تونس حلا حاسما ولا إنصافاً فى المنظمة الدولية حاول الحزب الحر الدستورى الجديد الوصول إلى اتفاق مع فرنسا يحفظ لتونس ولفرنسا حقوقهما ، وربما كان أعضاء ذلك الحزب يرون إمكان التوفيق بين مصلحة تونس ومصلحة فرنسا ، ولذا فى ربيع سنة ١٩٥٠ قدم ذلك الحزب برنامجه إلى الرأى العام الفرنسى والحكومة الفرنسية مبيناً أن العلاقات بين تونس وفرنسا لا تزال تعتمد على معاهدة قديمة بالية لا تتمشى مع العهد الحاضر[1] .

ولقد وجد هذا الاتجاه قبولا فى فرنسا فى بادىء الأمر ، فلقد أعلن الوزير الفرنسى روبير شومان فى نفس سنة ١٩٥٠ أن هدف فرنسا هو السير بتونس تدريجياً على مراحل نحو الاستقلال الذاتى ، فتقدم بورقيبه برنامجاً يتكون من سبع نقط أهمها إيجاد حكومة تونسية مسئولة يعين الباى رئيسها ، ومجلس وطنى منتخب ، وأن تقوم العلاقات بين فرنسا وتونس على أساس من الاحترام المتبادل والتعاون بين البلدين كحاجة جغرافية ضرورية لمصلحة الشعبين التونسى والفرنسى ، وإلغاء البوليس الفرنسى ، وجاءت إجابة فرنسا على لسان ممثلها فى تونس تعد التونسيين بزيادة اشتراكهم فى إدارة شئون بلادهم ، ولكنها بيت فى نفس الوقت أن فكرة القومية التى يتمسك بها التونسيون قد أصبحت فكرة قديمة ، وأنه قد حل محلها فكرة التعاون العالمى ، وأن على تونس أن تسير فى نظمها صوب استقلال داخلى يتفق مع معاهدات ١٨٨١ و ١٨٨٢ التى ارتفعت بتونس إلى مصاف دولة حديثة وأضافت إلى ذلك أن فرنسا هى التى أعلنت حقوق الإنسان وحافظت على الحضارة المسيحية !!! وأوصت فرنسا بالصبر والهدوء والنظام كى تسير المفاوضات فى جو معقول دون ضغط أو إرهاب كما أوصت بالقيام بمفاوضات تتمشى مع مصالح الجالية الفرنسية فى تونس .

ولقد أجاب الباى على هذه الوصايا بأن الإصلاحات يجب أن تتمشى أولا وقبل كل شىء مع ما وصلت إليه البلاد من تقدم ورقى وتنبه فى الوعى العام ، وتقدمت فرنسا ببعض تعديلات فجعلت رياسة مجلس الوزراء لتونسى بدلا من المقيم العام ، وأصبح لا داعى للأوامر الوزارية من توقيع السكرتير العام لمجلس

(١) Recent Developments in Tunisia (Apr. 1950 May 1951) مقال نشره الحزب الحر الدستورى الجديد .

الوزراء ، وألغى نظام المستشارين الفرنسيين للوزراء التونسيين ولكن هذه التغييرات لم تكن كافية في نظر الرأي العام التونسي الذي وجد أن المقيم العام لا يزال يتمتع بجانب كبير من سلطانه القديم .

على أية حال تكونت وزارة مفاوضات اشترك فيها الحزب الحر الدستوري الجديد[1] ، وكان قبول بورقيبه فكرة التعاون مخاطرة كبيرة ، فلقد اتهمه أعداؤه بالخيانة ، ولكن ذلك لم يمنعه من أن يعلن أنه يريد أن يعطي لفرنسا فرصة للوصول بتونس إلى الاستقلال ، وأن فرنسا إذا استجابت لداعيه خدمت أغراضها ونالت في نفس الوقت تقدير التونسيين ، ولكن سرعان ما وجدت تونس أن فرنسا لم تكن ترى أبداً ما يراه الحزب الدستوري الجديد ، ولم تكن لتقبل السير بالسرعة التي يتطلبها الرأي العام التونسي ، فما كان من السهل على الحكومة الفرنسية ، كما ادعت ، التسليم بكل ما يطلب لا سيما القضاء على سلطة المقيم العام الذي هو رمز قوتها وسلطانها .

لقد بينت الحكومة التونسية في مذكرتها إلى الحكومة الفرنسية[2] أن تجربة ١٧ أغسطس « كانت تهدف إلى غايتين هما أولا إزالة حالة التوتر السياسي في البلاد وثانياً المبادرة بإنجاز مجموعة من الإصلاحات الجوهرية التي من شأنها أن تسير بالبلاد التونسية في مراحل نحو الحكم الذاتي ، ولكن هذه التجربة لم تنجح ، وذلك « للغموض الذي أحاط بالاتفاقات المبرمة أجاز تفسيرها تفسيراً ضيقاً جعلها ضئيلة للغاية هزيلة المفعول » ، « كما حدث أن الجانب الفرنسي لم يتحرر تحرراً كافياً من الأساليب القديمة ، وظن أن الإصلاحات الجديدة المزمع إنجازها يمكن إحداثها داخل نطاق الأوضاع التشريعية والنظم الحكومية والادارية القائمة ، فتجلى أثر ذلك الاعتقاد في إصلاحات فبراير سنة ١٩٥١ فكانت إصلاحات عقيمة بل مثيرة للنزاعات التي أفسدت العلاقات التونسية الفرنسية ، وقد ترتب على إحجام الجانب الفرنسي من جهة وعلى المعارضة المستمرة التي أبداها بعض الموظفين الفرنسيين من جهة أخرى أن تزعزعت ثقة الجانب التونسي وأخذت تتلاشى » .

(١) مثل الحزب الدستوري الجديد في الوزارة سكرتيره صالح بن يوسف .
(٢) بتاريخ ٣١ أكتوبر ١٩٥١

واقترحت الحكومة التونسية لتصحيح الوضع [1] ، تحرير السيادة التونسية تحريراً تاماً فإن الاستقلال الداخلي الذي تنوى فرنسا تحقيقه يتناقض مع النظام الحالي في ميادين التشريع والحكم والإدارة، إن الاستقلال الداخلي معناه أن تتمتع تونس بالسيادة الداخلية والحكم الذاتي وبحقها في السير بنظمها الداخلية وفق أمانيها الخاصة ، وهذا الاستقلال الداخلي يتحقق في ثلاثة ميادين ، الحكومة والتشريع والإدارة ففي الميدان الوزاري ثبت أنه من الضروري جعل الحكومة تونسية خاصة على أن يستعين رؤساء الوزارة ورؤساء المصالح الكبرى عند الاقتضاء بإخصائيين فرنسيين ، وبذا تتجنب ازدواجا فعلياً في داخل الحكومة التونسية من شأنه أن يعرقل تطور الشئون العامة ويسيء إلى العلاقات بين تونس وفرنسا ، وفي الميدان التشريعي فإن إنشاء مجلس نيابي تونسي يضع القوانين ويراقب تصرفات الحكومة وسياستها العامة سيكون خطوة هامة في طريق الديموقراطية ، أما في الميدان الإداري فلا تتعاقد (الدولة) إلا مع الفرنسيين فيما يتعلق بالاخصائيين ، وبعد أن تسترجع تونس سيادتها الداخلية فإنه لا يكون لديها أي مانع من أن تعقد مع فرنسا اتفاقات المحافظة على أمتن العلاقات بين البلدين في الميادين الثقافية والإقتصادية والاستراتيجية ، كما تضمن للفرنسيين المقيمين بتونس التمتع بكامل حقوقهم المدنية وسلامة أملاكهم وأشخاصهم » .

هذه هي فكرة الحكومة التونسية عن الإصلاح ، وعلى هذا الأساس وحده كانت مستعدة للاتفاق مع الحكومة الفرنسية ، ولكن الحكومة الفرنسية لم تكن مستعدة للذهاب في الإصلاح إلى هذا الحد ، فهي لا تقبل بعض مطالب التونسيين ولكنها رأت ألا تضحى بمصالح الفرنسيين ، لقد كان مثار الخلاف في الواقع هل تونس للتونسيين أو للتونسيين والفرنسيين .

ووضحت فرنسا في إجابتها [2] على هذه المذكرة دهشتها من أن تونس قد أغفلت الاشارة إلى ما لفرنسا من أفضال على تونس ، وبينت أنها أي الحكومة سائرة في إنجاز رسالتها ، ولا تنوى أبداً التخلي عنها ، كما أشارت بالدور

(١) وذلك في مذكرتها السالفة الذكر .

(٢) في ١٥ ديسمبر ١٩٥١

الذى قام به المستعمرون الفرنسيون فى تقدم البلاد وحقهم فى الاشتراك فى شئون البلاد السياسية ، ومع ذلك فقرنسا ما فتئت ترغب فى إجابة التونسيين إلى مطالبهم التى تتلاءم مع رسالة فرنسا ومع الديموقراطية ، ونادت بضرورة التعاون التونسى الفرنسى فى إدارة الشئون العامة للبلاد .

ولم تجد الحكومة التونسية ، أن أعمال فرنسا التى لا يسمح المجال بالخوض فى أغراضها ومراميها لا تبرر بأى حال من الأحوال بقاء شعب كامل تحت القيد فضلا عن عرقلة أمانيه المشروعة ، ، ورفضت قبول فكرة إشراك الفرنسيين فى الحكم والتمثيل النيابى ، ورفضت مبدأ السيادة المشتركة على أساس منافاته للقانون والمعاهدات ، وأشادت بتضحيات الشعب التونسى فى الحربين الكبيرتين الماضيتين .

تأزمت العلاقات إذن ، ولم تجد المطالب التونسية عطفاً إلا من جانب الشيوعيين الفرنسيين الذين أعلنوا تأييدهم للشعوب التى تكافح فى سبيل حريتها ، وقام نوابهم فى البرلمان الفرنسى يندون بسياسة حكومة الحماية فماذا فعلت فى نظرهم سوى إثراء بعض الشركات الفرنسية وإعلان الحصار على التونسيين[1] .

وأكد بعض النواب الآخرين بأن حركة الدستور الجديد فى تونس إنما هى حركة أقلية على غرار الحركة الفاشية فى إيطاليا أو النازية فى ألمانيا ، وأن نجاح هذه الحركة معناه موت الديموقراطية ، وإن الشعب التونسى لا يريد لا الاصلاح ولا الاستقلال الداخلى وإنما المعيشة فى هدوء وسلام ؛ وعدد البعض فضائل الدول الكبرى على الشعوب الضعيفة ، وبين كيف أن الفوضى قد حلت بهذه الشعوب الصغيرة حين رفعت الدول الكبرى الوصاية عنها[2] ! !

وعلى هؤلاء النواب أجاب روبير شومان وزير خارجية فرنسا موضحا سياسة الحكومة ومبينا أن الفكرة الاستعمارية القديمة لم يعد لها أنصار وأن الفكرة الجديدة هى الاهتمام بالشعوب الصغيرة التى لم تعد أراضيها ملكا أو للاستغلال

(١) فى أول أبريل و ٥ يونيه و ١٩ يوليه و ٢٠ يونيه ١٩٥٢ عن La Question Tunisienne à l'Assemblée Nationale Française Journal Officiel Français

(٢) نفس المصدر السابق .

فهذه الشعوب لها حياتها ومقوماتها ونظمها ، وأن فرنسا لمخلصة لسياستها ولمهمتها التقليدية فى شد أزر الشعوب للوصول بها إلى مرحلة إدارة شئونها بنفسها ، وذكر فى لهجة لاتقبل الشك أن فرنسا لاتنوى تسليم البلاد للحزب الدستورى الجديد فهى وحدها مسئولة عن الإصلاحات وعن النظم ، وهى وإن كانت قد مدت يدها للتعاون فهى لم تتنازل عن حقوقها ، فهى لاتقبل حكومة تونسية صرفة ولا مجلسا تشريعيا تونسيا صرفا ، وأكد أن فرنسا لن تتخلى أبداً عن مهمتها الحضارية التى أخذتها على عاتقها منذ سبعين عاما[1] .

ولما يئس بورقيبة من فرنسا غادر تونس هذه المرة إلى اندونيزيا والهند والباكستان ووجد ترحيبا لامزيد عليه ، وتقدمت الحكومة التونسية فى ١٢ يناير سنة ١٩٥٢ بالشكوى إلى مجلس الأمن معلنة أن فرنسا قد انتهكت حقوق الإنسان [2] ، ولقد ناصرت الكتلة الأسيوية الأفريقية (بعد انضمام ليبريا واثيوبيا إليها) آمال ذلك الشعب المكافح الذى رفض بإباء أن يندمج فى الشعب الفرنسى ، ولقد تقدمت هذه الكتلة بطلب عرض قضية تونس على مجلس الأمن ، وحاولت فرنسا جهد المستطاع عرقلة هذا المجهود برفض إدراج القضية فى جدول الأعمال على أساس أن القضية قضية داخلية تخص فرنسا وحدها ، وليس لدولة أخرى أو هيئة حق التدخل فيها ، كما أنه لم تثرها هيئات قانونية شرعية وإنما بعض الوزراء الذين لم يظهروا إلا عدم كفايتهم ، ووقفت انجلترا إلى جانب فرنسا فأعلنت ضرورة ترك فرنسا وتونس تفضان مشاكلهما سلميا ، وأشارت إلى أن الدول التى تعضد المشروع التونسى لم تقترح حلا واضحا على مجلس الأمن وأن الوزير الجديد فى تونس راغب فى المفاوضات مع فرنسا ، ولقد وجدت الولايات المتحدة بالرغم من رغبتها فى إرضاء الكتلة الأسيوية الأفريقية أن تقف بجانب فرنسا ، ولذا فليس غريباً أن يعلن رئيس مجلس الأمن فى أوائل سنة ١٩٥٢ أن القضية التونسية تحل بالمفاوضة بين فرنسا وتونس مباشرة ، ورفض

(١) نفس المصدر السابق .

(٢) معلومات ووثائق ومجموعات الحزب الحر الدستورى التونسى مذكرة بشأن مشروع الإصلاحات الفرنسية بتونس رفعتها بعثة الحكومة التونسية إلى هيئة الأمم المتحدة فى أغسطس سنة ١٩٥٢

مجلس الأمن النظر فيها بعد أن امتنعت الولايات المتحدة عن التصويت يتبعها تركيا وهولنده واليونان وبلجيكا(١).

وقفت الدول الامبريالية جنباً إلى جنب يشد بعضها إزر بعض ، ولم يؤيد الكتلة الأسيوية الأفريقيه إلا روسيا التي أعلنت أن الموقف في تونس يهدد السلام العالمي وبذا يدخل ضمن الميثاق ، وكان موقف الباكستان واضحاً في الدفاع عن قضية تونس فبين مندوبها أن مسألة تونس لم تصبح مسألة محلية وإنما مسألة لها خطرها على سلام العالم وذكر ، أن الحماية إنما تبرر بقاءها بغرض توجيه الشعب والسير به في طريق الحكم الذاتي ، أما في تونس فقد كانت الحال على عكس ذلك ، فقد بدأت السلطات الفرنسية تحرم شعبا حراً من حريته بطريقة تدريجية وتسلبه سيادته وتحل السيطرة الأجنبية محل الاستقلال الذاتي : ولذا فإن إدارة فرنسا بعد الحرب الكبرى الثانية تحتاج إلى إعادة النظر والمراجعة(٢).

ولقد حاولت فرنسا من ناحيتها إقناع الباي بسحب قضيته من مجلس الأمن ووعدت باصلاحات جديدة ، ولكن الباي رفض النظر في قبول هذه المطالب إلا إذا سحبت فرنسا الأحكام العسكرية التي أعلنتها وأخلت سراح المعتقلين السياسيين ، وبذا ظل التشاحن والنضال قائماً ، وحين جاءت الأخبار برفض مجلس الأمن لقضية تونس قوى مركز الحكومة الفرنسية وقبضت على أعضاء الوزارة التونسية ومن بينهم رئيس الوزارة (محمد شنيق) وقام الهياج والثورة على أشدها ، واتصل الباي برئيس الجمهورية الفرنسية مستعرضا العلاقات الفرنسية التونسية منذ انتهاء الحرب الكبرى الثانية إلى أن تأزمت الأمور ، وبين أنه طلب من الهيئات التونسية المختلفة تقريراً عن الاصلاحات التي قدمها الفرنسيون فلم يجد فيها

(١) The Tunisian Question before the Security Council وهو محضر لما دار في مجلس الأمن من مناقشات بخصوص تونس في جلسات ٤ و ١٠ و ١٤ أبريل سنة ١٩٥٢ منقول عن الـ Unn Bulletin .

(٢) نفس المصدر السابق ، انظر كذلك نص الخطب الثلاث التي ألقاها الأستاذ أحمد شاه بخارى ممثل باكستان في مجلس الأمن ٤ و ١٠ و ١٤ أبريل ، تحرير قسم الصحافة والاستعلامات ، سفارة الباكستان ، أنظر كذلك بيان الوزير التونسي الأستاذ محمد بدره العضو بالوفد التونسي لدى هيئة الأمم المتحدة بمناسبة عودته من نيويورك ١٤ / ١ / ١٩٥٣ كذلك بيان الأستاذ صالح بن يوسف في مؤتمر صحفي بنيويورك في ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٥٢

إلا اعتداء على السيادة التونسية واقراراً للادارة الفرنسية المباشرة وعدم تحديد المسئولية وعدم تأييد الديموقراطية وأضاف ، أن هذه الاصلاحات (التى تقدمها الحكومة الفرنسية) لاترضى الحد الأدنى لمطالبنا ، ، ولا تعتبر خطوة فى سبيل الحكم الذاتى الذى وعدت به فرنسا رسمياً »[1] .

ولقد قابل الفرنسيون أعمال العنف بالعنف وضغطوا على الباى فولى وزارة بكوش التى رضونها ، ولا يزال الشعب التونسى يواصل جهاده فى سبيل نيل حريته واستقلاله لا أمام قوى فرنسا وحدها ، وإنما امام قوى الأمبريالزم التى يزيد فى تماسكها نمو الخطر الروسى .

مارس ١٩٥٤

(١) معلومات ووثائق وإحصاءات الحزب الدستورى التونسى ، تاريخ خطاب الباى ٩/٩/٥٢ .

مناطق الأهوار فى القسم الجنوبى من العراق

دراسة لبعض ظاهراتها من الناحيتين الطبيعية والبشرية

الدكتور ابراهيم شريف

مقدمة

توجد فى السهل الفيضى فى العراق مناطق واسعة تنخفض بعض الانخفاض عن المستوى العام لسطحه ، وفى وقت الفيضان ، وهو يحدث فى الربيع، تغمرها المياه ، وفى الأوقات الأخرى من السنة تنحسر عن البعض منها كلياً ، وتنحسر عن البعض الآخر جزئياً ، ولكنها جميعها تحمل تسمية عامة هى الأهوار ، وتوجد أكبر مناطقها اتساعا فى القسم الجنوبى منه ، وهى ذات مياه دائمة ، ويعيش فى جهاتها بعض من الناس ، وهى وإن كانت جزءا من أرض العراق إلا أنها تعتبر مجهولة لكثير من جمهور العراقيين الذين يعيشون وراء حدودها ، ويشعر المستمع إلى بعض من يتحدث منهم عنها بأن الحديث يجرى حول مجتمع بدائى يأكل أفراده الغرباء عنه ، أو على الأقل يعضونهم ، وإنصافاً للحقيقة يمكن القول بأنه مجتمع يعيش فى مستوى كبير للحضارة إذا كان مقياس التحضر هو قدرة المجتمع على تفهم مقومات بيئته واستغلالها كما ينبغى أن تستغل ، وهم لا يأكلون الغرباء ولا يعضونهم ، وإنما يكرمونهم بالغ الإكرام إذا أنسوا إليهم ، والصورة غير الصحيحة عن سكان هذه الأهوار استمرت منطبعة فى ذهنى بعض الوقت حتى قرأت عنهم وتجولت بينهم متصلا ببعض منهم ، وقد قرأت عن هذه المنطقة التى يدور البحث حولها كتابين ولم أعثر على كتب أخرى غيرهما ، وأحدهما هو : Haji Rikkan, Marsh Arab, by Fulanain, London 1927. والمؤلف كتب فى الصفحة الأولى من كتابه بالخط الكبير عبارة « إلى محبوبتى فلانه » ، ومن الواضح أن تسميته فلانين التى اتخذها المؤلف لنفسه تسمية مستعارة ، وقد ذكر سير أرنولد ولسن A. Wilson فى قائمة مراجع كتابه Loyalties, Mesopotamia, Vol. I, — 1914 - 1917 Oxford University Press, 1936

الاسم الصحيح للمؤلف وهو : Hedgecock, S. E. & Mrs. وهذا الكتاب قيم ، ومؤلفه قوى الملاحظة وبارع فى التصوير ، وقد أعطى فيه للأهوار صورة تقرب من الحقيقة ، كما أنها توضح بعض نواحى الجغرافية الطبيعية وبعض نواحى الجغرافية الاجتماعية ، وقد أضاف إلى كتابه صوراً لتوضيح بعض الظاهرات ، كما ذكر بعض القصص الموضحة لها أيضاً ، والمنطقة التى زارها المؤلف وكتب كتابه عنها هى منطقة هور الحويزة وتقع فى شرق مجرى نهر دجله .

والكتاب الآخر هو : The Blood Feud, Lodon, 1937 ومؤلفه Captain C. F. Corry والمؤلف كان موظفاً بالبوليس العراق وكان مركزه فى مدينة الناصرية ، ويدخل ضمن دائرة نفوذه قسم كبير من هور الحمار ، وقد ساعدته وظيفته على زيارة بعض جهات هذا الهور والاتصال بسكانه ، وهو كرجل من رجال البوليس قد اهتم فى كتابه بذكر الخصومات التى تحدث بين بعض من السكان وبين بعض آخر ، كما اهتم بإيضاح بعض أسبابها وبعض ملابساتها ونتائجها ، وهو فى هذه الحالة يعتبر مرجعاً قيماً ، وهو وإن لم يعن بالنواحى الأخرى طبيعية كانت أو اجتماعية ، إلا أن الجغرافى يلمس فيه بعض صور عنها .

وقد قوت قراءة هذين المرجعين الرغبة فى نفسى على زيارة هذه المناطق من الأهوار والتعرف عليها ، وساعدنى على تحقيقها صديق الدكتور جميل سعيد الأستاذ بدار المعلمين العليا ببغداد ، وكان فضل الحكومة العراقية علينا كبيراً فإنها قد أرسلت إلى مصالحها هناك خطابات توصية بمساعدتنا والمحافظة علينا ، وفى مساء يوم الخميس ٢٨ يناير سنة ١٩٤٨ ، ركبت وصديق من بغداد قطاراً متجهاً نحو البصرة وغادرناه فى محطة أور وأخذنا قطاراً آخر حملنا إلى الناصرية ، وهناك انضم إلينا صديق آخر هو الأستاذ تقى الشيخ راضى المفتش بمنطقة المعارف هناك ، وقد أفادتنا مرافقته كثيراً ، فهو بفضل لباقته وكثرة معارفه قد سهل لنا كثيراً من الصعوبات التى واجهتنا ، ومن الناصرية ركبنا سيارة إلى سوق الشيوخ ، ومن هناك استأجرنا زورقاً بخارياً صغيراً حملنا فى مجرى الفرات وفى بعض فروعه ، ثم عجز أخيراً عن السير عند مصب جدول المزلق فى بركة الحمار ، وقد تركناه وركبنا بعض الوقت فى هذه البركة مشحوفاً كان صاحبه يحركه بعصى طويلة تسمى المردى ،

الشيخ شبان ابن الشيخ سالم الخيون
(وهو من خريجي كلية الحقوق ببغداد)

المشحوف
(قارب الأهوار ووسيلة مواصلاتها الوحيدة)

ولم أكن مطمئناً إلى ركوبه فهو طويل حقاً ، ولكنه ضيق جداً ، والجالس فيه ينبغي أن يمسك بما في جانبيه ليحفظ توازنه إن استطاع ، ولم يطل خوفي من السقوط في الماء . فقد قابلنا زورق بخاري أصغر حجماً من الزورق الذي كنا نركبه أولا وقد استأجرناه ، واستمر تحت تصرفنا خلال المدة التي قضيناها في هور الحمار نزور بعض جهاته ، وبعض مراكز العراق فيه وهي كلها متشابهة في مظهرها ومصنوعة من القاب ، وخير دليل قابلناه هناك ، على أن النور قد غزا الظلمات التي تكتنف مناطق الأهوار ، كان شيخ يلبس عباءة وعقالا ويشماغا(١) كما يلبس العرب من البدو ومن الفلاحين ، وعرفت أنه متخرج في كلية الحقوق ببغداد ، وهو الشيخ ثعبان ابن الشيخ سالم الخيون شيخ بني أسد في ناحية الجبايش ، وقد صاحبني بعض الوقت وشرح لي كثيراً من الظاهرات ، واستفدت كثيراً من ثقافته الواسعة عن مجتمع الأهوار .

وفي القرنه غادرنا الزورق البخاري واستأجرنا سيارة سارت بنا على الضفة اليمنى لنهر دجلة إلى مدينة العمارة ، وهناك غمرنا السيد متصرف لواء العمارة بالكثير من فضله ، فقد أعارنا الزورق البخاري الخاص به ، كما تفضل وأمر بفتح بعض أبواب قنطرة جدول الكحلاء حتى يرتفع منسوب الماء فيه ويستطيع حمل الزورق إلى أبعد مسافة ممكنة من مجراه ، وقد حملنا إلى مضيف الشيخ عباس ابن الشيخ محمد العريبي أكبر شيوخ قبيلة ألبومحمد ، وإنني لأشعر بالعجز عن أن أصف كريم استقباله لنا وكريم ضيافته ، وكانت وجهتنا منطقة الشدة في داخل هور الحويزة ، ومن الحديث عرفت اننا قادمون إلى جهة مجهولة حقاً يعيش سكانها في داخل أهوارهم بعيدين بدرجة كبيرة عن مؤثرات العالم الخارجي ، وربما لم يروا حقيقة مدنياً يلبس قاطاً مثل قاطي (أي بدلة مثل بدلتي) كما سمعت من بعض الأفراد ، ولم يروا أيضاً جملا كما سمعت من بعض آخر ، ومنطقة الشدة تدخل ضمن دائرة نفوذ الشيخ عباس ، وقد أخبرني بأنه لم يزرها منذ نحو سنتين وأنه سينتهزها فرصة ويرافقنا وقد تفضل وأوفى بوعده ، وسكان منطقة الشدة بسطاء حقاً ، كنا نرى من بعيد أشباحهم في بعض القرى فإذا اقتربنا منها اختفت الأشباح وبدت

---

(١) اليشماغ يسمى أيضاً كفية ، وهو المنديل الذي يوضع فوق الرأس وتحت العقال .

القرية خالية ، ولكن العيون المتلصصة لا تلبث بعد أن ترى شيخها أن تظهر مرحبة أجمل ترحيب بالشيخ وبضيوفه ، وحالة التعاسة تبدو عليهم حقاً ، ولكنهم مع ذلك يضيفون بأحسن ما عندهم ويضيفون إليه حلو ترحيبهم ، وكان يوماً هناك شديد البرودة ، ومع ذلك فقد بدا بعض من أطفالهم عرايا كما ولدتهم أمهاتهم ، وكذلك كان الرجال إلا من عباءة خفيفة من الصوف تسمى « بشت » ، وقد انتهت رحلتنا عند منطقة الشدة واستغرقت نحو ثلاثة أسابيع ، لقينا فى أثنائها كل عون وكل رعاية من السكان ومن موظفى الحكومة ، وعبارات الشكر تقصر عن أن تفيهم بعض حقهم .

ومادة البحث الذى أقدمه قد جمعت بعضاً منها من هذه الرحلة وأخذت البعض الآخر من المرجعين المشار إليهما سابقاً، واستعنت فى تحديد أماكن بعض القبائل التى تسكن هناك بكتاب « مبادىء السوق وجغرافية العراق العسكرية » وهو تأليف العقيد الركن عبد اللطيف أمين وطبع بغداد سنة ١٩٤٦ ، كما استعنت استعانات بسيطة ببعض كتب أخرى وبعضها قليل الأهمية من ناحية هذه الدراسة ، وسأشير إلى أهمها فى بعض نقط من البحث .

الناحية الطبيعية

التكوين — الموقع — المنظر العام :

عند ما ظهرت منطقة اليابس حول مدينة البصرة ، وهى التى تكون جزءاً من اليابس الذى يكتنف فى الوقت الحاضر جانبى مجرى شط العرب ، حصرت بينها وبين اليابس القديم فى سهل العراق وهو الذى عرف باسم سهل بابل ، منخفضاً واسعاً مقتطعاً من الخليج الفارسى ، وفى التاريخ القديم عرف القسم الشرقى منه باسم أهوار سوسيانا وعرف القسم الغربى باسم الأهوار الكلدانية ، ثم أخذت مساحة هذا المنخفض تتقلص تدريجياً كما أخذ قاعه يرتفع بسبب ما انصب فيه خلال القرون الماضية من رواسب فيضانات أنهر كبيرة وجداول تنحدر إليه من الأراضى المرتفعة التى تكتنفه من بعض الاتجاهات ، وفى الوقت الحاضر تطلق على بقايا أهوار سوسيانا تسمية هور الحويزه ، كما تطلق على بقايا الأهوار الكلدانية تسمية هور الحمار ، وتسمية « الهور » تسمية عامة وتطلق ، على كل

مناطق المستنقعات فى السهل الفيضى فى العراق ، ولكنها تطلق أيضاً إطلاقاً خاصاً على المناطق الضحلة منها ، وهى المناطق التى ينمو فيها القصب (الغاب) والبردى (البوص والحلفا) وغيرهما من نباتات المستنقعات ، أما المناطق العميقة نسبياً ، وهى التى تخلو من هذه النباتات ، فإن عليها تطلق تسمية البرجه (البركة) ، ويمكن القول بأن عمق القسم الأكبر من هذه المستنقعات لا يتجاوز ثلاثة أقدام .

وهور الحويزة عظيم الاتساع وهو يمتد فى شرق نهر دجله بين مدينة العمارة وبين مقابل البصرة على شط العرب ، كما يمتد وراء الحدود السياسية فى داخل الأراضى الإيرانية ، وتنصرف إليه فى وقت الفيضان مياه نهر كرخه ونهر الطيب ونهر دويريج وبعض آخر من الجداول الصغيرة ، كما تنصرف إليه بعض مياه نهر كارون ، وهى كلها تنحدر إليه من جانب هضبة إيران ويكون وديانها مداخل إليه لبعض العناصر الفارسية والكردية التى تسكن فى الحافة الجنوبية لهذه الهضبة المشرفة عليه ، وينصرف إليه كذلك قسم كبير من مياه نهر دجله عن طريق كثير من الجداول ، وهى تكون مداخل أخرى إليه للعناصر العربية التى تسكن فى سهل العراق ، وأهم هذه الجداول هى الكحلاء والمشرح والجرية ، والجدول الأخير يخرج من نهر دجله بالقرب من مدينة قلعة صالح ، أما الجدولان الأولان فإنهما يخرجان منه عند مدينة العمارة ؛ والكحلاء هى أهم الجداول التى تصرف بعض مياه نهر دجله إلى الحويزة ، وهى تحمل إليه نحو نصف المياه التى يحملها هذا النهر فوق منطقة تفرعها منه[1] ؛ وهى لذلك تبدو فرعاً كبيراً له وتضارعه فى اتساعه وهى مثله مجرى طبيعى ، وتشبهه فى ظاهرة تعرجاته ولوفاته (ثنياته) الكبيرة ، وتبدو ضفافها خلال مسافة تبلغ نحو ٤٠ كم ، فيما بين العمارة وبين مسيعيده ، عالية وفوق مستوى الفيضان ، وفيها فتحات مختلفة الاتساع تصرف المياه الزائدة عن طاقتها فى وقت الفيضان إلى المنخفضات التى تقع وراء ضفافها ، وعلى هذه الضفاف يوجد من أشجار النخيل نطاقات قصيرة الامتداد وضيقة الاتساع ،

---

(١) يبلغ تصرف الكحلاء فى وقت الفيضان نحو ٢٠٠٠ م٣ فى الثانية وفى وقت الانخفاض ١٥٠ م٣ . ويبلغ تصرف نهر دجله أسفل منطقة التفرع ١٢٥٠ م٣ فى وقت الفيضان و١٥٠ م٣ فى وقت الانخفاض . راجع : Willcocks, Sir W; The Irrigation of Mesopotamia, London, 1917, P. 22

أما عند شواطىء المجرى نفسه فينمو الغاب والبوص وبعض من أشجار الصفصاف ومن أشجار الغرب (الحور)، ومسيعيده المشار إليها بلدة كبيرة وهي مركز ناحية [1] تنسب إليها، وعندها يخرج من الضفة اليمنى للكحلاء جدول الحسيجي متجهاً نحو الجنوب الشرقي ويصب في بركة كبيرة تقع شمال الضفة اليسرى لجدول المجرية، أما الكحلاء فإنها تستمر محتفظة ببعض اتساعها وبضفافها العالية إلى مضيف شيوخ قبيلة البو محمد، ثم تأخذ في الاضمحلال حيث تتوزع في جدولين رئيسيين يتجه أحدهما نحو الشمال ثم نحو الشمال الشرقي ويعرف باسم جدول الزبير، أما الآخر فيستمر في اتجاه الكحلاء نحو الجنوب الشرقي ويعرف باسم جدول أم الطوس، وتنصرف مياه كل منهما في النهاية إلى هور الحويزة، ويبدو جدول أم الطوس أكبر اتساعا، ولا يزال يبدو جدولا كبيراً وضفافه عالية بعض العلو إلا أنه يضعف تدريجياً بسبب ما يخرج منه من مياه خلال جداول أخرى وفتحات للري، ويبدو هذا الاضمحلال واضحاً عند مضيف آخر لآلبو محمد، ويقيم عنده الشيخ عباس ابن الشيخ محمد العريبي كبير شيوخ هذه القبيلة، ومن هناك تحمل أم الطوس تسمية الأجرع، ويتلاشى ارتفاع ضفافها وتتوزع مياهها في جداول أخرى صغيرة لها تسميات مختلفة، وتنصرف في منخفضات تكتنفها.

وهور الحمار هو أوسع الأهوار في داخل حدود العراق وتقدر مساحته بنحو ٥٢٠٠ كم٢ [2]، وإليه تنصرف مياه نهر دجله، وحتى النصف الأخير من القرن التاسع عشر كان ما ينصرف من مياه هذا الهور إلى الخليج الفارسي يجري في مجرى واضح بعض الوضوح لنهر الفرات، ويمتد خلاله مسافة نحو ١٠٠ كم إلى القرنة حيث كان يلتقي بالمياه الجارية في نهر دجله، ثم يحملهما معاً شط العرب إلى الخليج الفارسي، وكان هذا المجرى صالحاً للملاحة، وقد سلكه تشزني بسفينته البخارية أثناء رحلته في سنة ١٨٣٦ واكتشف مجرى نهر الفرات،

(١) ينقسم العراق من الناحية الادارية إلى ألوية (مديريات) وكل لواء ينقسم إلى أقضية (مراكز) وكل قضاء ينقسم إلى نواحي، والناحية يرأسها موظف حكومي يسمى مدير الناحية، وهي تنقسم إلى قرى ورئيس كل قرية يسمى المختار.

(٢) الدكتور أحمد سوسه، وادي الفرات ومشروع سدة الهندية، الجزء الثاني، بغداد ١٩٤٥ الحاشية رقم ٢ ص ٢٧٢

أما فى الوقت الحاضر فإن القسم الأوسط منه فى داخل هور الحمار قد انطمر بعد أن اتخذت المياه لنفسها منفذاً فى ضفته اليمنى متجهة نحو الجنوب وغامرة مساحة واسعة من الأرض المنخفضة ومكونة ما يعرف محلياً باسم هور سناف ، وهناك اتخذت لنفسها منفذين رئيسيين إلى شط العرب ، ويعرف أهمها باسم جرمة[1] على ، ويعرف الآخر باسم المساجدية[2] ، ومعظم المياه المنصرفة تجرى خلال المنفذ الأول ، ومجرى الفرات غير واضح المعالم خلال هور سناف إلا قبيل الجرمة ، والمياه المنصرفة خلال هذين المنفذين هى مياهه وحده ، أما مياه نهر دجلة المنصرفة إلى هور الحمار فإنها تتجمع فى القسم الأدنى من المجرى القديم لنهر الفرات فى هذا الهور وتجرى فيه نحو القرنه منصرفة إلى شط العرب ، ولا يزال هذا القسم من المجرى محتفظاً بمظهره القديم وعلى الأخص فيما بين الجبايش وبين القرنه ، ويبدو أن سبب احتفاظه بمظهره يرجع الى أنه متأثر بحركات المد والجزر[3] التى تحدث فى الخليج الفارسى ويتأثر بها شط العرب .

ومقدمات هور الحمار تبدو جنوب خط يمتد بين العمارة وبين الناصرية ، ونحو نصف مياه نهر دجلة تخرج من فتحات عديدة فى جانبه الأيمن وتجرى فى جداول مختلفة الاتساع وأهمها البتيرة والمجرى الكبير والمجرى الصغير[4]، وهو يعرف أيضاً

---

(١) الجرمة هى النهر الكبير .

(٢) يقول ولكوكس عن سبب هذا التحول فى تصريف المياه (كان نهر الفرات قبل نحو ٣٠ سنة يتصل بنهر دجلة عند القرنه ، وكان مجراه يحمل مياهه كما يحمل بعض مياه نهر دجلة . ولكثرة هذه المياه وشدة ضغطها على جانبى المجرى حدثت كسرة فى الجانب الايمن واندفعت المياه خلالها غامرة منخفضاً واسعاً يقع وراءها ومكونة لنفسها مجرى آخر يصب فى شط العرب عند جرمة على . أما المجرى القديم فان الامواج قد حطمت جوانبه وعرتها ولا يزال بعض منها واضحاً وتدل عليه نكاكات من أشجار النخيل ومراكز للعمران . واجع Willcocks, Sir A.; The Irrigation of Mesopotamia op. cit. P. 37 ، وراجع أيضا الدكتور أحمد سوسه ، وادى الفرات ومشروع سدة الهندية الجزء الثانى المرجع السابق ، ص ٢٧١ وما بعدها .

(٣) كوردن هستد ، الأسس الطبيعية لجغرافية العراق ، تعريب جاسم محمد الخلف ، بغداد ، ١٩٤٨ ، ص ١٦٢

(٤) دلت الأبحاث على أن مياه نهر دجلة فوق العمارة بقليل تتوزع خلال القسم الأخير من فصل الصيف على النحو الآتى : ٢٦ ٪ تنصرف بواسطة جدول البتيره ، ٣٥ ٪ بواسطة جدولى الكحلاء والشرح ، ٢٠ ٪ بواسطة جداول الطبر والمجرى الكبير والجرية ، والباقى وقدره ١٩ ٪ يبقى فى نهر دجلة جنوب قلعة صالح ، راجع كوردن هستد ، الأسس الطبيعية لجغرافية العراق ، المرجع السابق ، ص ١٥٥ — ١٥٦

باسم الطبر ، وتنصرف مياه هذه الجداول فى هور أبى القلام ومجموعة أخرى من الأهوار متصلة به ، وبعض من هذه المياه يتبع انحدار السطح فى جداول أخرى وينصرف إلى هور الحمار ، وقبل الحرب العالمية الأولى كانت مياه نهر دجله تفيض على جانبه الأيمن فى وقت الفيضان وتغمر الأراضى الواقعة وراءها وتصل بين هور الحمار وبين هور أبى الكلام ، إلا أن الإنجليز أثناء هذه الحرب قد قووا هذا الجانب ورفعوه ومدوا عليه خطاً لسكة الحديد فيما بين القرنه وبين العمارة ، وقد استمر هذا الخط بعض الوقت ثم أهمل ، إلا أن مكانه لا يزال مرتفعاً ويكون فى الوقت الحاضر جزءا من طريق السيارات الممتد بين بغداد وبين البصرة عن طريق الكوت والعمارة [١] ، وينصرف بعض آخر من مياه نهر دجله إلى هور الحمار عن طريق شط البدعة وهو أحد المصبين الرئيسيين لشط الغراف [٢] (يعرف أيضاً باسم شط الحى) ، ومن المعروف أن هذا الشط فرع كبير لنهر دجله وقد أنشئت سدة (قناطر) الكوت لتنظيم توزيع المياه بينهما .

أما مياه نهر الفرات ، جنوب الناصرية ، فإن بعضاً منها ينصرف خلال عدد من الجداول مختلفة الاتساع إلى منخفضات تتصل فى وقت الفيضان بهور الحمار ، وأهم الجداول التى تتفرع منه فيما بين الناصرية وبين سوق الشيوخ ، جدول عكيكة ، وهو يعرف أيضاً باسم جدول السفر ، وهو جدول كبير يخرج من جانبه الأيسر فوق سوق الشيوخ بنحو ٧ ك م ؛ ويقال أنه كان قبل الحرب العالمية الأولى مهما فى نقل الاتصالات بين البصرة وبين الناصرية [٣] خلال هور الحمار ، إلا أن القبائل التى تسكن على ضفافه كانت غير مستقرة ، وقد سببت الاضطرابات التى أحدثتها عرقلة فى استمرار سير هذه الاتصالات .

أما المجرى الأصلى لنهر الفرات فإنه يمر بسوق الشيوخ ، وهى تقع على جانبه الأيمن ، وبعدها بنحو ٧ ك م . وعند مركز ناحية الجرمه تتوزع مياهه فى فرعين رئيسيين ، يتجه أحدهما نحو الجنوب الشرقى ويعرف باسم جرمة أم نخلة ويتجه

(١) العقيد الركن عبد المطلب أمين ؛ مبادىء السوق وجغرافية العراق العسكرية ، بغداد ، ١٩٤٦ ص ١٥٢

(٢) الدكتور أحمد سوسه ؛ تطور العراق ، بغداد ، ١٩٤٦ ص ١٢١

(٣) Admiralty War Staff; All and book of Mesopotamia, vol. 2, London, 1917, PP 114—15 & 134—6

الآخر نحو الشمال الشرقي ويعرف باسم جرمة بني سعيد ، وفيما بينها يوجد مجرى ثالث ، ولكنه منطمر ومأخذه مغلق بسداد من الطين ، ويعرف هذا المجرى المنطمر باسم الحفار ، وانطماره حديث ، فإن القوات العسكرية الإنجليزية قد اهتمت به أثناء الحرب العالمية الأولى فطهرته من الرواسب وعمقته وجعلته صالحاً لسير زوارقها وبعض سفنها أثناء تقدمها نحو الناصرية ، إلا أن حفره وتعميقه قد ترتب عليه أن انصرف إليه بعض المياه التي كانت تنصرف قبلا إلى جرمة أم نخلة وإلى جرمة بني سعيد ، فأضر ذلك بحقول الشلب (الأرز) الواسعة على هاتين الجرمتين ، وقد اضطرت الحكومة العراقية الى سده عندما ارتفعت شكوى القبائل صاحبة هذه الحقول .

واتساع نهر الفرات فيما بين الناصرية وبين الجرمة ، وهي مسافة تبلغ نحو ٤٥ كم . يتراوح بين ١٣٠ — ١٨٠ متراً ، وضفافه عالية بعض العلو وعليها نطاق من النخيل غير متسع ، وعلى شواطئه تنمو شجرات من الغرب (الحور) والصفصاف وبعض القصب (الغاب) ، ويقطع ضفافه كثير من فتحات الجداول ، وهي تستخدم في وقت الفيضان لتصريف المياه الزائدة عن طاقته الى الأراضي المنخفضة وراءها ، أما في وقت الانخفاض فإنها تسد لحفظ مياهه من التبدد ، وتروى المزروعات منه في هذا الوقت بواسطة المضخات وبواسطة الناعورات وهي تدار غالباً بواسطة الخيل .

والطريق الذي سلكته من الجرمة الى بركة الحمار هو طريق جرمة بني سعيد ، وهذه التسمية لا تطلق على كل المجرى وإنما تغلب على قسمه الواقع في ديرة قبيلة بني سعيد ، أما بعد ذلك وخلال ديرة قبيلة آل جوير وبعض قبائل أخرى ، فإنها تحمل تسمية المزلق (المزلج) ، ومجرى جرمة بني سعيد ضيق وضفافه قليلة الارتفاع ، ويبدو شريط النخيل النامي عليها هزيلا وغير كامل الاتصال ، وفي المناطق التي ينقطع فيها تبدو الضفاف واطئة ومعرضة لطغيان المياه عليها ، ووراءها تبدو أراضي أكثر انخفاضاً وفيها بعض المياه ، أما المزلق فمجراه أكثر ضيقاً وضفافه أكثر انخفاضاً ولا أثر عليها لأشجار النخيل ، وهو يزداد ضيقاً وتختفي معالم ضفافه قبيل مصبه في بركة الحمار بالقرب من قرية بني اسماعيل ، وهناك كانت مياهه ضحلة بالدرجة

التي عجزت عن أن تحمل زورقاً بخارياً صغيراً خلال مصبه فى هذه البركة، ويلاحظ أن هذا كان فى أوائل شهر فبراير وكانت بعض المياه من أمطار الشتاء قد جرت فيه، ولقد اضطررت أنا وزملائى الى ترك هذا الزورق وركوب مشحوف[1] حملنا بعض الوقت في بركة الحمار حتى حملنا زورق بخاري آخر، وبركة الحمار سطح واسع من الماء وتعلو معظم أجزائها من القصب والبردي والنباتات الأخرى، وتبدو ضفافها بعيدة نحو الأفق وعندها تعلو سيقان أشجار النخيل وتدل على وجود بعض مراكز للعراق مثل القهود والحمار والبوشامة وعقفروانه، وقبيل نهايتها نحو الشرق سلك الزورق طريقه خلال مجرى ضيق وقليل العمق، إلا أنه محدد بعض التحديد، وقد أخذ يزداد اتساعاً وعمقاً بالاقتراب من مركز ناحية الجبايش.

والجبايش بلدة كبيرة وعندها يبلغ اتساع مجرى الفرات نحو ٥٠ متراً، إلا أن ضفافه لا تزال منخفضة ومعرضة للغرق فى وقت الفيضان، ويميزها نطاقان من الغاب ولا يرى عليها النخيل إلا عند الأجزاء العامرة منها، ويزداد مجرى النهر اتساعاً نحو القرنة كما تزداد جوانبه تحدداً وارتفاعاً، وتبدو عليها نطاقات من النخيل تزداد اتصالا واتساعاً بالاقتراب من المداينة، وهي قرية كبيرة، وبعدها يسترد الفرات بعض مظاهر عنفوانه، وتمتد أشرطة النخيل على ضفافه أكثر اتصالا وأكبر اتساعاً ولا تنقطع إلا عند الفتحات، ومعظم المياه المنصرفة منه هناك تخرج من فتحات فى جانبه الأيمن وتنصرف الى شط العرب خلال جدول يعرف باسم الشافى، أما الجداول التى ترى على جانبه الأيسر فإنها مغذية له وتحمل اليه بعض مياه نهر دجله، ومن الملاحظ أن مجرى المياه فى وقت الانخفاض يقترب كثيراً من الضفة اليمنى ويلاصقها مباشرة فى بعض المناطق، بينما تبدو الضفة اليسرى

---

(١) المشحوف تسمية عامة لأنواع من القوارب تتميز بأنها مطلية بالقار وبأنها طويلة الامتداد وضيقة الاتساع بحيث لا يمكن لشخصين أن يجلسا فيها متجاورين، كما تمتاز بأن مقدمتها مرتفعة كثيراً وكذلك مؤخرتها لحد ما، وهى تحرك بالمردى وهى قصبة قوية وطويلة وتستعمل كاستعمال المدرة. ويعرف أكبر أنواعها باسم البركاش وأصغرها باسم الشلية، ومنها الطرادة وهى تستعمل فى الحروب وفى الغزو وتمتاز بطولها الذى قد يصل إلى نحو ٩ أمتار وتحمل ٦ أشخاص يجلس الواحد منهم وراء الآخر لأنها ضيقة أيضاً ولا يتجاوز اتساعها متراً، وهى متينة الصنع ومثبتة بمسامير تبدو رؤوسها الغليظة فى داخلها مكونة صفوفاً متوازية، والأكبر من المشحوف يسمى البلم وهو قارب صغير يشبه القوارب المصرية، وله شراع وهو عادة غير مطلى بالقار، وبعض أنواعه يطلى بالقار ويسمى كلفة.

بعيدة عنه ، وعلى الشطوط الواقعة بينهما كانت قطعان من الحيوان ، وكثير منها من البقر ، ترعى فى مخلفات حقول كانت مزروعة بالذرة البيضاء وبعض أنواع من الدخن .

وتتسع مساحة الأهوار تدريجياً عند وصول مياه الأمطار الشتوية ، إذ تحمل الجداول من الأنهار بعضها الى المنخفضات وتصل بين البعض منها وبين البعض الآخر ، وعند ما تصل مياه الفيضان الناتجة من ذوبان الثلوج فوق مرتفعات هضبة أرميليا فى فصل الربيع ، تأخذ هذه الأهوار ذروة اتساعها ، إلا أن عمق مياهها لا يزداد إلا قليلا ، وربما لا يتجاوز الفرق بين أخفض مستوى لها وبين أعلاه عن ¾ متر ، ولكنه ارتفاع كاف لأن يحول مظاهرها الى مظاهر بحيرة عظيمة الاتساع تنطمس تحت مائها معالم الجداول الصغيرة وبعض من الجداول الكبيرة ، كما يختفى كثير من الجزر غير العامرة بالسكان ، ولا يبدو على سطحها إلا أطراف القصب وبعض سيقانه ، وكذلك الجزر الكبيرة العامرة بالسكان وتشير إليها أشجار النخيل النامية على سطحها ، وحتى فى هذه الجزر تدخل المياه فى المنخفضات وتفصل بين الأكواخ ، ويكون الانتقال بين البعض منها وبين البعض الآخر بواسطة الأنواع الصغيرة من المشاحيف .

ويحدث قدوم مياه الفيضان ثورة فى الأهوار ، فرعاة الجاموس يحرقون الشائخ من الغاب والبردى فى فصل الشتاء حتى لا يشارك النبت الجديد الذى يخرج من الجذور فى التغذى بالدهلة (الغرين) التى تحملها مياه الفيضان ، وزراع الشلب (الأرز) يبذرون حبه فى مباذر (مشاتل) استعداداً لنقل الشتال وزرعها فى بعض المناطق عند حافات الهور ، وهم يحرقون أيضاً بعض مناطق الغاب والبردى ويطهرونها لإضافتها الى الأراضى التى يمكن زراعتها بالأرز ، وزراع الذرة البيضاء والدخن يعدون المباذر لها أيضاً استعداداً لزراعتها فى مناطق أخرى عند حافة الأهوار ، وزراع الدخن (الحنطة والشعير) يقيمون سداداً حول جوانب حقولهم التى يخشى من طغيان مياه الفيضان عليها ، كما يطهرون الجداول والقنوات التى تحمل اليها المياه لريها . وفى هذا الوقت أيضاً يزداد نشاط الصيادين ، فالطيور البرية تاتى مهاجرة فى أعداد كبيرة يدفعها البرد من الجهات الشمالية ،

وهناك تجد غذاءها وافراً من الأسماك الصغيرة ومن الحبوب المزروعة وسيقانها الغضة ، ومياه الفيضان تأتى حاملة كميات كبيرة من الأسماك الصغيرة والكبيرة ، ومنها الأسماك التى كانت قد صعدت من الأهوار فى الأنهار لتضع بيضها ، وفيه أيضاً يزداد النبات الغض ويجد الجاموس فيه غذاءاً طيباً له كما يغطى سطح البرك ونحوها بنباتات عالقة وذات أزهار مختلفة .

وكما تتسع مساحة الأهوار تدريجياً فى وقت الارتفاع تقل مساحتها تدريجياً كذلك فى وقت الانخفاض ، وكما سبقت الإشارة تنصرف بعض مياه هور الحمار خلال منافذه الى شط العرب ونحو القرنة ، أما هور الحويزة فإن بعض مياهه يعود ثانية الى نهر دجله خلال بعض الجداول التى تتصل به جنوب قلعة صالح ، وهى من الجداول التى حملت فى وقت الفيضان قسما من مياهه الى هذا الهور . وينصرف بعض آخر منها الى شط العرب خلال منافذ أخرى وأهمها فتحة السويب ، وفى فصل الصيف وفصل الخريف تتمثل ظاهرات الأهوار واضحة ، وتتميز فيها مناطق البرجات (البرك) ، وهنا وهناك تبدو جزر كثيرة مختلفة الاتساع والارتفاع ، والبعض منها عامر بالسكان والبعض الآخر غير عامر يستغله السكان فى زراعة بعض الغلات ويتخذون القليل منه كمقابر لدفن موتاهم دفناً مؤقتاً حتى يتيسر نقلهم الى النجف أو الى كربلا ، وعدا الجزر المرتفعة بعض الارتفاع : تبدو من قاع الأهوار على السطح مناطق وتفصل بعض أجزاء منها وبين بعض آخر ، كما تتضح بعض الوضوح ضفاف ما لا حصر له من الجداول كبيرة وصغيرة ، وهى كثيرة الانثناءات والتعرج ، وتكون مجاريها الدروب والمسالك التى يتخذها السكان فى تنقلهم بين جهة وبين أخرى فى داخل الأهوار وبينها وبين العالم الخارجى وراء حافاتها ، وينمو القاب والبردى كثيفاً على ضفاف هذه الجداول ، ويبدو كالأسوار العالية تحجب ما يجرى فى المجرى الواحد منها عما وراءه ، كما تحجب عنه أشعة الشمس من جهة الشرق ومن جهة الغرب ، ويكون المجرى معتما على الأخص اذا كان الماردى هو النامى على ضفافه ، والماردى هو عملاق الأهوار ، وهو نوع من القاب يرتفع الى نحو ٥ر٧ متراً ، وفيما بين ضفاف بعض الجداول وبين بعضها الآخر توجد أحياناً برجات خالية من القاب والبردى ، وتوجد أحياناً أخرى مناطق من الأهوار تنمو فيها أحراش كثيفة منها .

والجائل فى مناطق الأهوار يجد المناظر أمامه وما تطبعه فى نفسه من أحاسيس متشابهة فى جهاتها ، فالبرك وما يعلو سطحها من نباتات عالقة ، والأهوار وما ينمو فيها من أجمات القاب والبردى ، وما يتخلل كل ذلك من جداول كثيرة التعرج وتكتنف ضفافها أسوار عالية من القاب الأخضر ، وهى المناظر الطبيعية السائدة ، والسكون يلف بعض جهاتها أحياناً إلا ما يسمع من همس القاب عندما تهز نسمة خفيفة أطرافه أو يتنهد لها سطح الماء عند سيقانه ، ولا شىء أعلى من ذلك إلا نقيق الضفادع وأصوات بعض الطيور ، أو ضربات مجذاف على سطح الماء أو ضربات ماردى يحرك به واحد من السكان مشحوفه ويوجهه خلال جدول من الجداول . وفى الأهوار تبدو العزلة والوحشة مطبقة أكثر مما هى فى الصحراء ، ففى الصحراء يكتشف الإنسان ما حوله الى امتداد قوة بصره ، أما فى الأهوار فإن مدى هذا الاكتشاف يضيق الى بضع أمتار قليلة وأحياناً الى بضع أقدام ، ومن بين القصب الذى يكتنفه تتلصص عيون من حوله وتراقب حركاته ؛ وقد يناله من المتلصصين عليه أذى وقد لا يناله ، ولكنه يشعر دائماً بحيرة فى حسه وثورة فى أعصابه ، والسكون الذى يلف مكانه والهمس الخفيف للقاب وهو لا يسكن ، يزيد فى وحشته وفى تنبيه حسه لكل حركة أخرى تحدث ، ويحذره عما قد يحدق به من أخطار لا يعرف من أين تأتيه .

والاقتراب من مراكز العراق فى الأهوار له بعض مظاهر ، فهنا وهناك يرى بعض القاب وقد مال وتغير وضعه ، وحدثت فجوات فيه ومال بعض منه على بعض آخر ، كما يرى الجاموس وقد غاص بعض فيه بجسمه فى الماء إلا قليلا ، بينما أخذ البعض الآخر فى قضم الغض من سيقان القصب والبردى ، ومن بعيد تسمع أصوات تعلو على همس القاب ، وقد يسمع صوت جرشة (رحى) ويرى دخاناً متصاعداً من التنانير (الأفران) التى يخبز فيها الخبز اللازم لكل وجبة من وجبات الأكل ، ثم لا يلبث منظر القصب المتكاثف والذى يحجب عن النظر ما وراءه أن ينكشف فجأة عن برجة ، أو منطقة من الهور قد قطع قصبها وتتضمن بعض الجزر وعليها ترتفع بعض الارتفاع أكواخ السكان وهى مصنوعة من القصب .

بعض الظاهرات الاجتماعية — السكان وبعض نظمهم الاجتماعية — مراكز الاستقرار — التعليم والحالة الصحية .

يعيش السكان فى مناطق الأهوار عيشة قبلية ، وينتسب كل جماعة منهم الى قبيلة معينة ، وفى داخل هور الحويزة وعند حافاته تسود قبيلة البو محمد وهى كبيرة العدد ويقدر عدد رجالها بنحو ٣٠ ألف رجل ، ويشتغل بعض من أبنائها بالزراعة ويشتغل البعض الآخر بتربية الجاموس ، وبجوارها تعيش قبائل أخرى أقل منها أهمية مثل السودان والفرطوس والسواعد ، وتكتنف قبيلة بنى لام القبائل السابق ذكرها من جهة الشمال والشمال الشرقى ، وهى قبيلة قوية ويقدر عدد المقاتلين من أبنائها فى داخل حدود العراق بنحو ٢٥ ألف مقاتل ، ويحيا قسم كبير من سكانها حياة بدوية والباقى منهم حديث الاستقرار ويشتغل بالزراعة ، وفى داخل هور الحمار وعند حافاته يسكن عدد كبير من قبائل أخرى ، ومن بينهم تطلق تسمية أهل الجزائر على سكان القسم الواقع منه بين نهر دجله وبين النهاية الشرقية لبركة الحمار وهم يكونون قبائل ، ويسكن قسم كبير منهم فى الجزر المنتشرة هناك ، وأهمها قبيلة بنى أسد وهى تسكن فى ناحية الجبايش ، ومن القبائل الأخرى بنى حطيط ، وبنى مشرف ، والحسين ، والعبادة ، وعند القرنة تسكن قبائل بنى مالك ، والشلش وبنى منصور ، وعند المداينة تسكن قبيلة الإمارة ، وبعض قبائل أخرى تطلق عليها تسمية السيامر (نسبة إلى السومريين) وان كانت كل قبيلة منها تنسب نفسها الى قبيلة من القبائل العربية المعروفة ، وفيما بين المداينة وبين سوق الشيوخ يسكن بنى خيقان عند الحافة الشمالية لهور الحمار ، وهم يكونون مجموعة من القبائل ويشتغل معظمهم بالزراعة ، وفى القسم الغربى من هور الحمار تسكن قبائل الجره فى منطقة سوق الشيوخ وهم يكونون مجموعة أخرى من القبائل ، ويسكن على جرمة أم نخلة قبائل بنى حسن ، كما يسكن على جرمة بنى سعيد قبائل بنى سعيد وقبائل أخرى منها البوخليفة وآل حرب وعبادة وبنى مشرف والجوبير وآل اسماعيل .

والقبيلة هى أساس الوحدة الاجتماعية لأبنائها ، وهم يعتبرون تقاليدها الموروثة وعاداتها قوانين يجب أن تنفذ مهما كانت النتائج ، ويرون التراخى فى ذلك

عاراً ومذلة ، ولكل قبيلة ديرتها الخاصة بها ويعرف أبناؤها الواحد منهم الآخر، ولهم جميعاً حق التنقل فى جهاتها على ألا يضر أحدهم بمصالح غيره ، وليس من السهل على ابن قبيلة معينة أن ينتقل من ديرة قبيلته الى ديرة قبيلة أخرى ، فإن الشك فى كل غريب عن القبيلة والحذر منه هو الأساس الأول ، والعيون المتلصصة فى الليل وفى النهار عند مداخل قرى القبيلة تراقب حركاته وتحاسبه عليها والاعتداء عليه محتمل ، ويكون مؤكداً إذاكان من قبيلة معادية ، والحذر والشك الذى يسود بين سكان الأهوار وعلى الأخص بين القبائل ، المطلوبة دم ، يجعل الواحد منهم لا ينتقل وراء مسكنه الا وهو مسلح ، والأسلحة النارية منتشرة هناك ، وهى الهدف الأول لكل من بلغ منهم أشده ، وأسلحتهم الأخرى هى الخنجر والمجوار (عصى غليظة ويثبت عادة فى أحد طرفيها قطعة من الحديد أو من القار) والفالة ، والفالة تتكون من عصى من القصب القوى (المساردى) ويبلغ طولها بين ٢ــ٣ أمتار ومثبت فى أحد طرفيها كف من الحديد وله خمسة أصابع أطرافها مدببة ولها سن بارز كسن الشص ، ولا يستغنى ابن الهور فى تنقله عن فالته اذا استطاع أن يستغنى عن بعض أسلحته الأخرى ، فبها يصطاد غذاءه من الأسماك كما يصطاد الطيور وبعض الحيوانات الأخرى ، وبها يدافع عن نفسه ويقذفها على عدوه ، ومما لا يستغنى عنه أيضاً فى تنقله ، الزناد والمقدحة ، فبها يوقد لفائف تبغه ويوقد النار للتدفئة ويطهى طعامه ويصنع قهوته ، وهو فى تنقله خلال ديرة قبيلته عارف لطريقه فى الجداول الكثيرة ، وهو أحياناً يضع علامات يرشد بها من سيتبعه ، كما يضعها إذاكان فى ديرة أخرى ليعرف بها عند عودته الطريق الذى قدم منه .

وبعض من أبناء القبائل يشتغل بالزراعة أو بتربية الجاموس وغيره من أنواع الحيوانات المستأنسة ، وبعض آخر منهم يشتغل بصيد الأسماك وصناعة البوارى وغيرها من بعض الحرف ، وتوجد من بينهم جماعات تؤدى أعمالا أخرى ومنهم الحوشية والعبيد والملا والمؤمن ، والحوشية يسكنون حول حوش (بيت) الشيخ ، وهم طبقة ممتازة فى القبيلة يعتمد الشيخ عليهم ويتباهى بهم عند استقبال ضيوفه ، وهم عدته الأولى فى غزوه القبائل الأخرى وفى دفاعه عن قبيلته ، ولهم مخصصات يعطيها لهم من ناتج الأرض ، وللعبيد عند الشيخ مكانة خاصة ، فهم حراسه أينما سار،

وهم كاتمو سره ومطيعوه الطاعة العمياء ، وعند بعض القبائل يكون فصل العبد مثل فصل سيده (أى أن الدية التى تعطى عند قتل الشيخ يعطى مثلها عند قتل عبده) ، والملا له منزلة كبيرة أيضاً ، فهو القارىء للقبيلة والكاتب لها والحاسب ، وهو سكرتير الشيخ ورسوله والمتحدث باسمه ، أما المؤمن فإن مكانته كبيرة عند جميع أفراد القبيلة ، لأنه رجل الدين فيها الذى يؤدى لأبنائها جميع ما يحتاجون اليه من خدمات دينية وشرعية ، وتكون منزلته أعظم اذا كان من البيت النبوى الكريم ، وهذا هو الغالب .

وسكان الأهوار مستقرون إلا أن قسما منهم لا يستقر استقراراً دائماً فى مكان واحد ، فرعاة الجاموس يتنقلون بها داخل الأهوار الى حيث يتوفر الغض من القصب فى محيط ديرة قبيلتهم ، يقيمون أكواخهم على جزيرة فيها هناك ثم يلبثون عند ما ينتهى المرعى أن يشيلوا (يرحلوا) الى جهة أخرى يتوفر فيها قصب غض آخر ، ورعاة البقر والحمير والغنم يتنقلون بها من جهة الى أخرى لترعى الفضلات المختلفة من حقول الذرة والدخن ، ومن حقول الشلب ، وكذلك من حقول الدجن (القمح والشعير) ، وزراع الشلب وزراع الذرة ، يتقدمون عند تقهقر مياه الفيضان فى داخل منطقة الأهوار ويتأخرون عند تقدمها منها الى حيث تتوفر المناطق الصالحة لزراعة هذه الغلات ، كما أن بعضاً من زراع الدجن يتنقلون الى الأراضى الجديدة التى يمكن زراعتها بها ، وهى الأراضى التى لم تعد صالحة لزراعة الشلب أو الذرة ، أما المستقرون استقراراً دائماً فهم البعض الآخر من زراع الدجن الذين لا تتأثر أراضيهم بتقدم مياه الفيضان أو بتقهقرها لأنها تعتمد فى زراعتها على رفع المياه بالآلات .

وتوجد مراكز الاستقرار الدائم فى بعض المناطق التى تعلو فوق مستوى الماء فى داخل الأهوار وعند حافاتها ، وهى تقوم عادة على الأجزاء المرتفعة من ضفاف الجداول الكبيرة والأنهار ، وتمثل أسواقاً لسكان هذه الجداول ولسكان ما يتصل بها من جداول أخرى ومناطق فى داخل الأهوار ، وعن طريقها يتصل هؤلاء السكان بالعالم الخارجى وتنتقل اليهم بعض مؤثراته ، ومن أهم مناطق الاستقرار الدائم هناك القرنة ، وهى تقع عند بدء مجرى شط العرب ، وقلعة صالح

وهي تقع على الجانب الأيسر لنهر دجلة، ومصيعيدة وهي تقع على الكحلاء وعند الزاوية التي يكونها جدول الحسيجي مع هذه القناة، وسوق الشيوخ وهي تقع على الجانب الأيمن لنهر الفرات وعند الطرف الشمالي الغربي لهور الحمار، وفي داخل هذا الهور وعلى الجانب الأيمن للقسم الأدنى من المجرى القديم لنهر الفرات فيه توجد المداينة والجبايش، وتتفوق أهمية بعض هذه المراكز على البعض الآخر بسبب تفوقها في عامل أو أكثر من العوامل التي تساعد على نموها .

وتتشابه هذه المراكز العمرانية في ظاهرة أن بيوتها مصنوعة من الكابوق (الطوب المحروق) ، وهي ظاهرة يستلزمها كون الأرض مشبعة بالرطوبة، وذلك باستثناء بلدة الجبايش فإن معظم بيوتها مصنوعة من القصب، ويرجع سبب ذلك الى أن الأرض القائمة عليها معرضة لطغيان المياه عليها في وقت الفيضان، وبسبب ضيق الأراضي التي يمكن اقامة البيوت عليها حتى عمد بعض سكانها الى إقامة جزر صناعية ورفعها فوق سطح الماء بإلقاء طبقات من الطين والغاب والبردي بعضها فوق بعض ثم كبسها، ويقال أن تسمية الجبايش هي في الأصل الكبايس نسبة الى هذه العملية، والكبيسة، أو الجزيرة الصناعية، قد لا تستطيع مقاومة ضغط المياه عليها في وقت الفيضان فتقتلع من جذورها، وقد عالج السكان ذلك بتثبيتها بأوتاد، ويزرع بعض أشجار النخيل فيها حتى تمتد الجذور وتثبتها بأرض القاع التي رفعت عليها، وتبدو بلدة الجبايش بسبب ذلك كغابة من النخيل نامية في وسط الأهوار .

والبيوت المصنوعة من القصب هي المظهر السائد لمراكز العراق الأخرى في مناطق الأهوار، وهي متشابهة في مادة بنائها وفي مظهرها العام، ولا يختلف البعض منها عن البعض الآخر إلا قليلا من ناحية الارتفاع أو من ناحية الاتساع فهي كلها مشيدة من حزم من الغاب، ثبتت قوائمها في الأرض وثنيت أطرافها فمال مايوجد منها في جانب على ما يوجد منها في الجانب الآخر مكونة أقواساً، ويحرص السكان دائماً على أن يكون عدد هذه الأقواس فردياً سواء أكانت في بيوتهم أم كانت في مضايفهم، والبيت بعد أن يكمل وضع أقواسه وتثبيتها بحبال من القصب الملوي تغطى سقفه والأجزاء العليا من جدرانه بغطاء من البواري

(الحصر المصنوعة من الغاب) ، أما الأجزاء السفلى منه فتغطى بنوع آخر من القصب المجدول على نحو متشابك ، وفى فصل الشتاء يلحف (يكسى) البيت بغطاء آخر من البوارى ، وحين يشتد البرد يقيم بعض رعاة الجاموس حول بيوتهم سياجا من القصب والطين التماساً لزيادة التدفئة وإضعافاً لحدة الرياح الباردة ، أما زراع الشلب فإنهم يغطون بيوتهم بغطاء سميك من قشه ، والبيت بعد أن يتم تشييده يبدو شبه نفق مصنوع من الغاب ، وأحد نهايتيه مغلقة ، أما نهايته الأخرى فتوجد فيها فتحة صغيرة تؤدي وظيفة الباب ووظيفة النافذة ، وأرض البيت تفرش بالبردي وتغطى بغطاء من البوارى أيضاً ، وفى وقت الفيضان عندما يرتفع مستوى المياه ويبدو بعضها مترشحاً فيها يرفعها السكان بوضع كميات من الطين ومن الغاب والبردى عليها ، ويتكرر ذلك كلما دعت الضرورة ، وبسبب ذلك ارتفعت أماكن البيوت فوق المستوى العام القديم لأرض القرية ، وبدا كل بيت فيها كما لو كان قائماً وحده على تل صغير ، وفى وقت الفيضان تغمر المياه المنخفضات الواقعة بينها ويكون الانتقال بين الواحد منها وبين الآخر بواسطة المشاحيف .

والصريفة نوع آخر من البيوت المصنوعة من القصب ، إلا أنها تمتاز عنها بالتأنق فى صناعتها ، كما تختلف عنها بعض الاختلاف فى هندسة بنائها ، ويشيدها الأثرياء من السكان لجلساتهم الخاصة ، أما المضيف فيبدو بين بيوت القرية كعملاق بين أقزام ، وهو مثلها مصنوع من أقواس من القصب ومغطاة بالبوارى (الحصر) إلا أن تشييده يتطلب كثيراً من الجهد ، والاعتناء ، وذلك لأنه عنوان القرية ومنتدى رجالها ، وفيه يستقبل ضيوفها ، كما أن فيه يجلس الشيخ ورؤساء الأسر يتذاكرون فى ماضيهم وفى حاضرهم ويفصلون فى الخصومات ويوزعون العدالة بين الأفراد ، وهم فى أثناء ذلك يشربون القهوة المرة مرات عديدة ، ويستهلكون أعداداً كبيرة من لفائف التبغ ، والمضيف ملك عام للقرية ، فقد يموت الشيخ أو يغلب على أمره ويقوم آخر مقامه ، ولكنه يبقى كما هو يجلس فيه الشيخ الجديد كما كان يجلس الشيخ السابق ، وأرضية المضيف تفرش بالحصر أيضاً ، ولكن فوقها عند صدره وعند جوانبه تمد بسط وسجاجيد البعض منها صناعة عربية والبعض الآخر صناعة إيرانية ، وفوقها تطرح بعض الحشايا وتوضع بعض الوسائد وقد اتخذت أوجهها من أقمشة حريرية فى الغالب ، وفى وسط المضيف وعلى مقربة

من مدخله يوجد الموقد، وقل أن تخمد ناره، وفيه توضع مصفوفة أواني صناعة القهوة وكلها ذات مصبات معقوفة، ويسمى أكبرها بالقمقم وهو يسع نحو أربعة جالونات من الماء، وتليه في السعة آنية أخرى تعرف باسم التلقامة، وهي تسع نحو جالون واحد، أما الأواني الأصغر سعة من ذلك فتعرف باسم الدلات (مفردها دلة) وهي مختلفة الحجم، وفي بعض المضايف التي زرتها كان في الموقد قمقماً واحداً وتلقامتين واثنى عشر دلة.

وتقوم بعض القرى المصنوع بيوتها من القصب، كالقري الأخرى المصنوع بيوتها من الكابوق (الطوب المحروق) على ضفاف المجاري المائية وعلى المناطق المرتفعة عند حافات الأهوار، وتقوم البعض الأخرى منها على الجزر في داخل الأهوار، وتمتد بيوت القرى القائمة على ضفاف الجداول في صفين طويلين على جانبي المجرى، ويفتح أحدهما أبوابه ناحية بينما يعطيه الآخر ظهره، ويقول بعض السكان سبباً لذلك بأن بيوتهم ينبغي أن تواجه مكة، أما القرى القائمة فوق الجزر فإنها مزدحمة بعض الازدحام ولا نظام كبير فيها، وفي بعض من هذه القرى نجد قلاعا قائمة لغرض الدفاع، وهي بناء من الطين ومربع الشكل غالباً، ويبلغ طول كل ضلع من أضلاعه نحو ٢٠ــ٣٠ متراً، وجدرانه سميكة وتتضمن فتحات في أعلاها المشرف على السطح، ولكل قلعة باب ضيق ومنخفض ويضطر الداخل منه أن ينحني كثيراً، ويصل بين أرض القلعة وبين سطحها سلم غير ثابت مصنوع من الخشب الصلب ويمكن رفعه إلى السطح عند الضرورة.

وتموج مناطق الأهوار في بعض أوقات السنة بأفواج من الذباب ومن البعوض، ومما لا حصر له من أنواع الحشرات الأخرى التي تعيش في الطين وعلى سطح المياه الراكدة، وعلى سيقان النباتات وأوراقها، كما توجد فيها بعض أمراض متوطنة، وأكثرها انتشاراً الملاريا والبلهارسيا والانكلستوما، وفي منطقة الحويزة بسبب وقوعها بعيدة عن المسالك الطبيعية للاتصالات واضعف الرقابة عليها من جانب العراق ومن جانب ايران، تنتشر بعض أمراض أخرى ومن بينها الجذام، وقد اهتمت الحكومة العراقية بهذا المرض وأقامت لمكافحته مصحاً في العمارة، كما اهتمت أيضاً بالأمراض الاخرى وأنشأت لها مستوصفات

فى بعض القرى ، وقد أبدت كذلك اهتماماً بالتعليم وأنشأت هناك بعض المدارس وزودتها بمشاحيف لنقل التلاميذ ، ومعظم مستوصفات الحكومة ومدارسها مشيدة من القاب ، ويبدو اهتمام الحكومة بالتعليم وبالصحة فى هور الحمار أكثر وضوحاً منه فى هور الحويزة .

ومع أن القذارة البادية فى القرى والأمراض المنتشرة تمهد طريق النصر للموت ، إلا أن الحياة هناك لا تزال هى المنتصرة ، ويبدو السكان فى مستوى جسمانى لا بأس به ، ولا شك أن هناك تتمثل نظرية البقاء الأصلح بصورة واضحة فنسبة الوفيات فى الأطفال عالية جداً ، ولكن الطفل منهم إذا عاش وبلغ أشده ازداد على مرور الزمن قوة وصلابة ، ويقنع الرجال تحت حرارة الصيف المحرقة وتحت برودة الشتاء القاسية ببشت واحد (عباءة خفيفة من الصوف وغالباً ذات لون أحمر) قاتم ويحتزمين بحزام حول وسطهم ، وأحياناً يرون بلا بشوت ، كما ترى الأطفال عرايا ، فقد رأيت ، وكان الوقت فى أوائل شهر فبراير وهو من أشد شهور الشتاء برودة فى العراق ، بعض أطفال قرية الشدة فى هور الحويزة مصطخين (عرايا) تماماً كما رأيت بعض الرجال بأجسامهم العارية ذات اللون البرنزى ، يبدون مكتنزى العضلات ، وكانت أسنانهم بيضاء لامعة وبعضهم قد جدل شعره الكث فى ضفيرتين ، وهم سباحون مهرة وقادرون على مكابدة أشد المتاعب إلا أنهم مع ذلك يبدون على درجة كبيرة من الكسل اذا لم يوجد أمامهم عمل على جانب كبير من الضرورة يستلزم نشاطهم .

والمرأة هناك تتمتع ببنية قوية أيضاً ، وتبدو الفتاة بعينيها الواسعتين المكحلتين وبخصلة من الشعر الفاحم على جبينها ذات ملاحة وجمال ، وهى على العكس من الرجل تلبس ملابس طويلة فضفاضة يغطى جسمها من الرقبة وتتهدل عليه حتى تجرجر ذيولها على الأرض من الخلف ، أما من الأمام فإن الذيل يرتفع قليلا ليكشف عن حجل (خلخال) من الفضة البراقة ملتف فوق قدميها ، أما العجائز منهن فيجلسن القرفصاء على أبواب الأكواخ يغزلن بعض الصوف أو يجرشن (يطحن) بعض الحبوب ، وهن لابسات بشوتاً سوداء أو قاتمة ، وقد عصبن رؤوسهن بعصابة كبيرة من القماش الأسود يعرف باسم (الشيلة) ، وعلى حافة

البرك والأهوار ترى بعض النساء الصغيرات يغسلن بعض الملابس وبعض أوعية الطعام والحلب والروبة (اللبن الرايب)، أو يملأن مشخنة (قدر كبير من النحاس — دست) بالماء للأغراض المنزلية، وبجوارهن يرى صف من المشاحيف مختلفة الأحجام، كما يرى بعض الأطفال عراة يلعبن في الماء، وبجوار كل كوخ وعلى مسافة قصيرة منه، يوجد تنور (فرن) تجلس أمامه ربته تخبز الخبز اللازم لأسرتها في كل وجبة من وجبات الطعام، وتوقده بالجاف من نباتات المستنقعات وبأقراص من روث الماشية ترى موضوعة صفوفاً على جدران الأكواخ لتجففها حرارة الشمس.

بعض الظاهرات الاقتصادية

تربية الجاموس وغيرها من بعض الحيوان — صيد الأسماك والطيور وصناعة البواري — الزراعة — التسويق — والتوجيه الجغرافي لثروات السكان.

تقدم الأهوار لسكانها بعض الثروات، ففيها القصب والبردي ونباتات أخرى، ومنها ما يصنعون منه أكواخهم وينسجون فراشهم ويوقدون نيرانهم، ومنها ما تنسج منه البواري والسلال وتفتل الحبال، ومنها ما يتغذى به الجاموس، ومن براعم البردي يصنع الخريط ويؤكل كمادة حلوة وتعالج به بعض الأمراض، وفيه السمك وافراً والطيور البرية كثيرة، وهما يكونان مع اللبن الخاثر من الجاموس جانبا مهما في غذائهم، ومن ريش الطيور أيضاً تحشى بعض الوسائد. وتوجد فيه عدا ذلك بعض حيوانات أخرى كالسلاحف والخنازير البرية وكذلك الكوسج (كلب البر)، وجلده ثمين القيمة، وما يفيض عن حاجاتهم من هذه الثروات يبيعونه ويشترون بثمنه مطالب أخرى، فهم يجمعون بعض الغاب والبردي ويبيعونه حطباً للوقود، والبردي يستخدم على الأخص بكثرة في قمائن الكابوق وهي التي يرى عدد كبير منها على طريق ضفة نهر دجلة بين القرنة وبين العمارة. كما أن من بعض القصب تصنع البواري (الحصر المصنوعة من الغاب). وهي تباع بكميات كبيرة وتستعمل لأغراض شتى في أنحاء العراق. وهم يبيعون كذلك ما يفيض عن حاجياتهم من مستخرجات الألبان ومن الأسماك ومن جلود الحيوان وريش الطيور ويشترون بثمنها حاجياتهم، وهي بسيطة، أو يستبدلونها بها.

جاموس المعدان

طريقة وصناعة البواري بالـكبايس

وتربية الجاموس حرفة أساسية لجماعة من سكان الأهوار تطلق عليهم تسمية المعدان ؛ ولكل منهم حيواناته الخاصة منها ، والمعدان هم السكان الحقيقيون للأهوار ويعيشون على جزر فى داخلها ، بعيدين بدرجة كبيرة عن مؤثرات العالم الخارجى . وهم مستقرون ويعيشون فى أكواخ من القصب ، ولكنهم يتنقلون من جزيرة الى أخرى فى داخل الأهوار وضمن حدود ديرتهم للبحث عن مناطق العنجر (الغض من الغاب) لرعى حيواناتهم ، ويكثر تنقلهم فى فصل الشتاء على الأخص لأنه الوقت الذى يجف الغاب فيه . وهم فى تنقلهم يحرقون الغاب الجاف فى المناطق التى يغادرونها ليساعدوا النبت الجديد على سرعة النمو . والغاب المتفحم من الحريق يجمعونه ويبيعونه وقوداً وعلى الأخص للصبة المتخصصون فى صناعة الذهب والفضة وطلائهما بالميناء ، ولبن الجاموس عند حلبه يسمونه الحليب أما اللبن الخاثر فيسمونه اللبن . وبعض الحليب يصنعون منه القيمر (كالقشدة التى تباع فى محلات الألبان) وبعض منه تصنع منه الروبة (اللبن الرايب) أما الباقى وهو القسم الأكبر فيصنع منه الدهن (الزبدة) . والقيمر والروبة واللبن المتخلف من صناعة الزبدة يستهلك محلياً ، ولكن الزبدة تجمع يومياً ويضاف البعض منها الى البعض الآخر حتى يحين وقت بيعها . ولا يتطلب رعى الجاموس منهم مشقة كبيرة لأنهم يطلقونه فى الغاب المجاور ليرعى ويقيمون بعض الصبية لحراسته ، والجاموس يعرف أصحابه ويستجيب لندائهم عليه كما يعرف أن يدافع عن نفسه ضد الغرباء ، وبسبب ذلك توفر لرعاة الجاموس وقت ، وقد استغلوه فى بعض حرف أخرى كصناعة البوارى وصيد الأسماك والطيور وبعض الحيوانات الأخرى .

وصناعة البوارى هى الحرفة الرئيسية الثانية للمعدان ، ويقوم النساء بها غالباً ، وهى تصنع من الغاب ، فبعد قطعه من أماكنه ونقله إلى القرى ينظف من قشوره ، ويشق بسكين يسمى (المشقة) ويترك بعض الوقت ليجف ، وبعد جفافه يدق بمدق من الخشب حتى تنعم أليافه ثم يوضع فى الماء مدة حتى تلين هذه الألياف وتصبح صالحة لصناعة البوارى بطريقة مشابهة للطريقة التى تصنع بها الحصر فى الريف المصرى .

نفق الترعة بالفردان

ابراري (الحصر)
أعدها المدان قليم

والأسماك تشترك فى الغذاء اليومى لأسر المعدان، ويقوم بصيدها يومياً واحد أو أكثر من أبناء كل أسرة الا أن هناك جماعات من بينهم تطلق عليهم تسمية البرابرة فى بعض الجهات يتخذون صيد الاسماك حرفة أساسية لهم. والأهوار لوفرة مراعيها وبطء حركة المياه فيها وتضمنها مخابىء كثيرة بين جذور الغاب والبردى بيئة صالحة لنمو الأسماك وتكاثرها. وهى تكون كثيرة على الأخص فى فصل الشتاء وفى فصل الخريف. ويتفق هذا مع مصلحة الصيادين لأنه لا تتوفر لديهم وسائل حفظ الأسماك بعض الوقت فى الفصول الحارة من السنة. وتقل فى فصل الربيع الأسماك الكبيرة لأن معظم البالغ منها يصعد فى الانهار إلى حيث يجد الاماكن الملائمة لوضع بيضه وتلقيحه. أما فى فصل الصيف فتقل الأسماك بصفة عامة لأنه فصل الانخفاض فى مستوى المياه، فترتفع حرارتها كثيراً ويقل وجود الاكسوجين فيها مما يضطر معظم السمك فى الأهوار إلى الهجرة دون فارق بين البالغ منها وبين غير البالغ، صاعدة فى الأنهار مرة أخرى نحو الشمال، ولمقابلة هذا النقص الكبير فى الأسماك فى هذه الأوقات من السنة، لجأ السكان إلى تجفيف بعض منها فى وقت وفرتها، وتمليحه وحفظه، والبز هو أكبر أسماك الأهوار حجماً، أما أغلاها ثمناً فهو الشبوط والبنى ثم الجطان، وهناك أسماك أخرى كثيرة ولكنها لا تؤكل، ويعتقد الشيعة ومنهم معظم سكان الأهوار بنجاستها، وهى الأسماك التى لا حراشف لها ومن أنواعها الجرى وأبو الزمير.

ولصيد الأسماك عدة طرق، وصيدها بالشباك يشبه بدرجة كبيرة ما يمارسه الصيادون المصريون، وصيدها بالزهر، وهو نوع من المواد السامة يخلطه الصيادون ببعض الطحين (الدقيق) أو لب البردى أو بعض الحشرات، يشبه كذلك ما هو معروف فى بعض جهات مصر، ولكن صيدها بالفالة طريقة خاصة بهم ولهم

(١) عن الأسماك فى مياه العراق يوجد لسيد ديمترى بلايوف عدة مقالات فى مجلة الزراعة العراقية، فى الاعداد الآتية:
١٩٤٧: الجزء الأول - المجلد الثانى ص ٧٦ — ٩١، الجزء الثانى من المجلد الثانى ص ٢٤٥ — ٢٥٢، الجزء الثالث من المجلد الثانى ص ٣٧٦ ٣٨٤
١٩٤٨: الجزء الأول من المجلد الثالث ص ٧٣ — ٧٩، الجزء الثانى من المجلد الثالث ص ٢٠٧ — ٢١٥
١٩٤٩: الجزء الأول من المجلد الرابع ص ٦٢ ٦٦

فيها مهارة ، والفالة قد سبق وصفها ، والصياد يتبع في الصيد بها ثلاث طرق ، وتعرف الأولى منها بالصيد (على العمية) بمعنى أن الصياد يصطاد بها على غير هدى في المناطق التي يظن أن السمك مختبئ فيها ، وتعرف الثانية بالصيد على (الرؤية) بمعنى أن الصياد يقف في المياه الصافية ويضرب بها السمكة التي يراها ، وهي تكون على الأخص في الأوقات التي تحدث فيها هجرة الأسماك صاعدة في الأنهار أو نازلة فيها ، وتعرف الأخيرة (بالضوئية) وهي تحدث في الليل ، ويقف الصياد ممسكا بشعلة وموجها ضوءها نحو الماء ، والسمك كالفراش يجتذبه الضوء . وفي أوائل الصيف عندما ينخفض مستوى الماء في الأهوار ويتخلف بعض منها في المنخفضات ، يجد الأطفال فيها كميات كبيرة من الأسماك الصغيرة ويصطادونها بثوب أهليهم أو ببعض الخرق ، ويبيعونها لبعض الفلاحين عند حافة الأهوار .

وتقابل محترفي صيد الأسماك مشكلة نقلها إلى الأسواق الكبيرة خارج حدود الأهوار ، وكذلك مشكلة حفظها حتى يأتي المتعهدون إليهم لنقلها إلى هذه الأسواق ، على أنها ليست مشكلة عويصة من بعض النواحي ، لأن السمك لا يتوفر لهم إلا في فصل البرودة ، وهم أيضاً يمارسون لحفظه بعض الوقت عملية هدتهم إليها الخبرة ، وتعرف باسم عملية التجويف ، فهم يشقون السمكة من ظهرها ويخرجون أمعاءها مع الاحتراس من الأضرار بجلدة البطن ، ثم يدلكون ظهرها ببعض الملح ويلقونها في قاع بلم (زورق شراعي صغير) ، وتكرر هذه العملية في كل الأسماك المصادة ، ويمكن حفظ السمك بهذه الطريقة مدة تتراوح بين ٣ — ٥ أيام ، وعندما تتوفر حمولة البلم يبحر إلى العمارة أو القرية أو سوق الشيوخ أو قلعة صالح أو غيرها من الأسواق المحلية للأسماك ، حيث تأتي سيارات معدة لنقله إلى بغداد والبصرة وغيرهما من المراكز الكبيرة للعمران في العراق .

وللطيور البرية مورد آخر للرزق لدى سكان الأهوار ، وبعض منها متوطن هناك ، ولكن الكثير منها يهاجر إليهم في فصل الشتاء ، ومن أنواعها الخضيري والجوشر ودجاج الماء والزواجي والحزاف والوردة ، وهي تتغذى في النهار على الأسماك وترى منها أعداد كبيرة على سطح الماء ، أما في الليل فتهاجر إلى حقول الشلب والذرة والدجن (القمح والشعير) وتتغذى من بذورها

ومن نباتاتها الصغيرة ، وهي تصاد بالبنادق وبالشباك ، وصيدها بالشباك يشبه ما هو معروف عندنا فى القسم الشمالى من الدلتا باسم اللبدة ، وبعض الصيادين يلق بعض القرع الأصفر على سطح الماء ويلبس على رأسه واحدة منها ، حتى إذا أمنت إليه الطيور وحطت من حوله أمسك بالواحدة منها من رجلها وسحبها تحت سطح الماء وذبحها بخنجره ، وبعض الطيور المصادة تؤكل عليا وبعضها الآخر يجمع ويباع فى الأسواق ، وهناك أنواع من الطيور لا تؤكل ولكن يؤخذ ريشها كما يؤخذ ريش الطيور الأخرى وتحشى الوسائد ببعضه ويباع البعض الآخر . ومن الحيوانات الأخرى للصيد فى منطقة الأهوار ، الكوسج (كلب الماء) وهو يصاد بالفالة ويباع جلده وهو ثمين ، والخنازير البرية كثيرة وهى تصاد بالأسلحة النارية وبالفالة أيضا كما تصاد بوضع غابة مجوفة فى دربها حتى يمتلىء جوفها بالماء وتعجز حركتها ، ويؤخذ جلدها ويباع كما يباع لحمها للبعض من المسيحيين .

وعند حافة الأهوار توجد جماعة أخرى ، وهم يشبهون المعدان فى حياتهم ويشبهون الزراع فى بعض آخر ، فهم يربون الجاموس وبجواره يربون البقر والحمير وبعض الغنم والماعز ، كما يشاركون المعدان فى حرفهم الأخرى ، وبجانبها يزرعون الشلب والذرة البيضاء والدخن ، وصلاتهم بالمعدان وثيقة فهم الذين يمولونهم بحاجياتهم من غلات هذه المزروعات ، ويوجد وراءهم بعيداً بعض البعد من حافة الأهوار زراع الدجن (القمح والشعير) ، وزراع كل غلة من هذه الغلات لا ينافسون غيرهم فى زراعة الغلات الأخرى ، ويقول الشيخ عباس محمد العربى من شيوخ البو محمد ، إن الواحد منهم لو أرغم على زراعة غلة أخرى ينهزم (يهرب) ، لأنه يعتبر زراعته لغلة معينة وراثة وتقليداً .

وتعتبر تربية البقر والحمير وبعض الحيوانات الأخرى عند سكان حافات الأهوار حرفة مساعدة للزراعة ، وتتغذى هذه الحيوانات على الحصيل (فضلات المزروعات) وعلى الحشائش والأعشاب النامية عند حافات الأهوار والمجارى المائية ، وفى الأراضى الأخرى غير المزروعة ، وتربية البقر والحمير ضرورية للسكان ، لأن هذه الأنواع من الحيوانات ، وليس الجاموس ، هى التى تستخدم فى درس غلاتهم الزراعية بعد حصادها ، وهى كذلك التى تستخدم فى كراب

(حرث) الأرض عند إعدادها للزراعة ، وتربية البقر مربحة لأن حليب البقر ومستخرجاته هو المفضل عند كافة العراقيين على حليب الجاموس ومستخرجاته ، على أن الملاحظ أن معظم البقر هناك ملك للشيوخ ، وتستخدم ألبانه على الأخص لسد مطالبهم المنزلية ومطالب ضيافاتهم ، ولمعظم البقر سنام في الجزء الخلفي من رقبته ويشبه البقر المعروف في الهند ، أما الحمير فمنها ما هو صغير الحجم ومنها ما هو كبير ، ويسمى الكبير منها بالحساوي نسبة إلى مقاطعة الأحساء السعودية على ساحل الخليج الفارسي ، وفي بعض المناطق عند حافة الأهوار ، ترى أحياناً وعلى الأخص في فصل الصيف ، قطعان أخرى من الغنم والمعز يرعاها رعاة آخرون من البدو مهاجرون من الصحراء ، ويتميزون بخيامهم المصنوعة من الصوف ، ومن الظاهرات التي يمكن لمسها ، أنه بينما يكثر وجود الكلاب بين الرعاة عند حافة الأهوار ، يندر وجودها بين رعاة الجاموس في داخلها ، وهذا يرجع إلى أن ظروف الحياة في داخل الأهوار غير ملائمة لها .

والشلب (الأرز) يزرع غالباً في المناطق المغمورة بالمياه إلى عمق معين [1] ، وبعض منه يزرع في أراضي أخرى ، منها يروى سيحاً (بالراحة) ومنها ما يروى بالآلات الرافعة ، ولذلك تحدث زراعة خلال فترة طويلة ، وبعض منها يكون مبكراً وبعض آخر يكون متأخراً ، وتعرف الزراعة التي تحدث مبكراً باسم الزراعة الحرفية ، كما تعرف التي تحدث متأخرة باسم الأفلية ، والزراعة الحرفية تمارس ابتداء من مارت (مارس) وتستمر إلى أواخر مايس (مايو) ، أما الزراعة الأفلية فإنها تمارس من أول حزيران (يونيو) وتستمر إلى أواخر تموز (يوليو) ، وأهم مناطق زراعة الشلب توجد عند زناتب (نهايات) الجداول التي تحمل إلى الأهوار مياه الفيضان المحملة بالدهلة (الغرين) ، وكذلك في بعض مناطق أخرى ملائمة يقيم الزراع حولها سداداً بوضع خاص ويرمون من ورائها إلى أضعاف حركة المياه فيها حتى يترسب عليها أكبر كمية من الرواسب الفيضية ، وهي المناطق التي تزرع شلباً تكون عادة منخفضة بالقدر الذي يمكن معه ريها سيحاً

(١) عن زراعة الشلب في منطقة الأهوار راجع للسيد يحيى فتاح مقاله بعنوان « زراعة الشلب في لواء العمارة » ص ٤٥٥ — ٤٦٦ في مجلة الزراعة العراقية ، الجزء الرابع المجلد الثاني لسنة ١٩٤٧ ، وراجع مقالة أخرى للسيد ابراهيم بعنوان « زراعة الأرز في لواء المنتفك » ص ٢٩٥ — ٣٠٠ في مجلة الزراعة العراقية ، الجزء الثالث - المجلد الثالث لسنة ١٩٤٨

بعد انحسار مياه الفيضان عنها ، كما أنها تكون مرتفعة بالقدر الذى لا يبقيها مغمورة بالمياه مدة أكثر مما ينبغى ، وحقول الشلب توجد أيضاً فى كل المناطق التى يمكن ريها سيحاً ويمكن صرفها ، كما توجد فى بعض مناطق أخرى وتروى بالآلات ، وهو يزرع فى بعض حقوله نثاراً وفى بعضها الآخر شتالا ، وعند نضجه يحصد بالمناجل ، ويبدأ وقت الحصد من أول تموز (يوليو) ويستمر إلى أواخر تشرين الثانى (نوفمبر) ، ثم ينقل إلى بيادر (أجران) ويدوس البقر والحمير على سيقانه لاستخلاص الحبوب ، وتحدث هذه العملية فى الصباح وفى المساء ، ثم يجمع حبوبه وتوضع فى قفف ضخمة من القصب المجدول مكسوة بطبقة من الطين وتترك على ضفاف الجداول حتى يأتى التجار لشراء ما هو معروض للبيع منها ، وأكثر أنواع الشلب المزروع انتشاراً يسمى نعيمة أما أجودها فيسمى عنبر ، ومن المعروف أن حبوب الشلب بعد أن تنزع عنها قشورها وتصبح صالحة لصنع الطعام منها ، تسمى تمن .

والأراضى التى تغمرها مياه الفيضان ثم تنحسر عنها بعد انتهاء وقته يسميها الزراع أرض الطياب ، وهى تتضمن أهم حقول الشلب ، وتشاركه الذرة البيضاء فى بعض منها ، إلا أنها تختلف عنه فى أنها لا تزرع إلا فى الأراضى التى انحسرت عنها المياه إلا قليلا ، حيث تترك لتنمو على الرطوبة الباطنية دون حاجة إلى الرى ، ولهذا تتركز زراعتها فى الأراضى التى لا يمكن ريها سيحاً مثل الجزرات التى توجد عند ضفاف المجارى المائية وفى بعض المناطق على هذه الضفاف ، وهى مثل الأرز لها زراعة حرفية تبدأ من مايس (مايو) وفيه تبذر الحبوب فى الدايات (المشاتل) ومنها تنقل إلى الحقول خلال شهر حزيران (يونيه) ولها زراعية أفلية تمارس بعد ذلك ، ويبدأ وقت حصاد الذرة من آب (أغسطس) ويستمر إلى تشرين الثانى (نوفمبر) ، وهى لا تحتاج إلى جهود كبيرة كما يتطلب الشلب ، ولذلك يجد زراعها وقتاً يستثمرونه فى نواحى أخرى ، وتعتبر غلة ثانوية بالنسبة له ، كما أنها تزرع عند حافة الأهوار فى المناطق التى لا تصلح لزراعته ، وتجد سوقها الرائج عند رعاة الجاموس ، كما أن عليها وعلى فضلاتها يربى زراع الشلب قطعاناً كبيرة من البقر ومن الحمير ومن الغنم ، وقد سبقت الإشارة إلى أهمية البقر والحمير لدى زراع الشلب بعد حصاده .

والأراضي الحديثة التي تعلو فوق مستوى الفيضان وتضاف سنوياً إلى الأراضي العراقية تسمى أرض الطلاع ، وهي أيضاً تزرع شلباً مادام في الإمكان ريها سيحاً من الجداول ، وهي أرض التطياب يقبل عليها الزراع لخصوبتها الكبيرة ولسهولة ريها وصرفها ، وكذلك لأن الوقت لا يتوفر للحكومة لمسحها وفرض الضرائب عليها ، وأرض الطلاع إذا مضى وقت عليها وابتعدت كثيراً عن المدى الذي تصل إليه مياه الفيضان عند حافة الهور تسمى بالأرض الرباث ، ويجد زراع الشلب أن خصوبتها ليست بالدرجة اللازمة ، وأن زراعتها تحتاج إلى جهود كبيرة ، وقد يهملونها فتلف وتنمو فيها الحشائش الضارة والأعشاب ، ولا يزرعون منها إلا ما يمكن ريه سيحاً أو تتوفر الآلات الرافعة لريه ، وهم لكي يروونها سيحاً يقيمون (سكورا) وتسمى أيضاً (حولا) من القصب والبردي والطين في مجرى الجداول لترتفع المياه أمامها وتغذى الحزات (الجداول الحقلية) ، ولا ينبغي أن تقام السكور في مجاري الجداول الملاحية ، كما ينبغي ألا تسبب ضرراً لمصالح أصحاب الحقول التي تقع على امتداداتها السفلى للجداول ، وهناك بعض حقول يرويها الزراع سيحاً اعتماداً على قوة الرياح ، وهي توجد عادة في جزيرة تعلو قليلا عن مستوى المياه في منخفضات تكتنفها ، والزراع يشقون قنوات فيها تتصل بهذه المنخفضات فإذا هبت الرياح من جهة واحدة منها دفعت سطح الماء فيها ورفعته إلى القنوات فتسق الحقول ثم تعود إليها ثانية بعد أن يتوقف هبوب الرياح من جهتها ، تروى الحقول بهذه الطريقة من المنخفض الآخر إذا تغير هبوب الرياح وهبت من جهته ، وتسمى أراضي الرباث التي تزرع شلباً على الري بالآلات الرافعة تسمى أرض البربع أو البرعوع ، ومع أنها تعتبر من أقل الأراضي الصالحة لزراعة الشلب خصوبة ومن أكثرها تكاليفاً ، إلا أن البعض من الزراع يقبل عليها بسبب ضمان توفر المياه لريها مهما اختلفت مناسيب المياه في الجداول ، وهي لا تلبث عندما يزداد ضعف خصوبتها أن تنقل إلى الأراضي التي تزرع بالدجن (القمح والشعير) .

ومن المشاهد أن الزراعة في الأهوار وعند حافاتها تكتنفها صعوبات جمة ، وذلك لأنها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمياه الفيضان وهي لا تأتي منتظمة كمياه فيضان النيل مثلا ، وإنما تأتي في نوبات بين فترة وبين أخرى ، والشلب مثلا يزرع

فى الأراضى التى تغمرها مياه الفيضان بعمق يتراوح بين ٢٥ — ٥٠ سم ، وقد يزرع عند هذا العمق ثم لا يلبث مستوى المياه أن ينخفض عنه كثيراً أو يزيد عنه فيتسبب عن ذلك ضرر للزرع ، والذرة تزرع فى الأراضى التى تغمرها مياه الفيضان بعمق نحو ٣ سنتيمترات ، ولكنها قد تزرع ثم تأتى نوبة من نوبات الفيضان العالى فتغمرها مدة طويلة فوق هذا القدر المناسب ، والجداول والقنوات الحقلية التى يحفرها الزراع لرى حقولهم سيما ينبغى أن يجدد حفرها سنوياً ، لأن مياه الفيضان تغمرها وتطمرها برواسبها ، وكذلك ينبغى أن تقام سنوياً السكور التى ترفع المياه أمامها لتغذية هذه الجداول والقنوات ، وهم مضطرون أيضاً أن يقيموا سنوياً سداداً حول حقول مزروعاتهم ويقووا القائم منها خوفاً من أن تأتى نوبة فيضان عالية فتهدمها وتطغى عن الحقول ، وعدا هذه الصعوبات عليهم أن يقاوموا خطر الطيور البرية والسلاحف والأسماك .

وزراعة الدجن (القمح والشعير) التى تقوم وراء نطاق الشلب والذرة نحو داخل سهل العراق ، وإن شابهت زراعتها فى أراضى هذا الداخل ، إلا أنها أكثر ضماناً ، فهى كمزروعات شتوية تتوفر المياه لها أكثر مما تتوفر لغيرها ، فالأمطار هناك تسقط بغزارة نسبية [1] لوجود السطوح المائية الواسعة فى الأهوار ولقربها من الخليج الفارسى . كما أن المياه الجارية فى الجداول يسهل التحكم فيها بإقامة السكور فى مجاريها ، ومن الملاحظ هناك فى منطقة حقول الدجن ، أن حقول الشعير تتقدم نحو حافات الأهوار عن حقول القمح ، وذلك لأن هذه الغلة الأخيرة تحتاج أكثر من الشعير إلى الجفاف .

وفى جميع مناطق الزراعة فى داخل الأهوار وعند حافاتها لا تبدو دورة زراعية إلا فى أرض البرلع ، وهى التى تروى بالآلات ، فالأراضى التى تروى سيحاً تزرع كل سنة غلة واحدة هى الشلب أو الذرة اعتماداً على مياه الفيضان ، أما الأراضى التى يتوفر ريها بالآلات فإنها فى الشتاء تزرع بالغلات الشتوية زراعة مبكرة وعلى الأخص بالشعير ، حتى يمكن حصد المحصول فى الوقت الذى تكون

(١) يبلغ المعدل السنوى لسقوط الأمطار فى العمارة ٢١٢ م وفى بغداد ١٢٤ م وفى البصرة (المعقل) ١٩٨ م .
راجع : Meteorological Service, Climatological Means for Iraq. Baghdad, 1950, P. 43

فيه الجداول مملوءة بالمياه الحمراء ، وبعد الحصد تغمر الأرض بهذه المياه وتبذر فيها حبوب الشلب وبعد حصاده تترك الأرض بوراً إلى مارس من السنة التالية فتزرع بالذرة البيضاء ، وبعد حصادها يزرع الشلب فيها زراعة أفلية ، وفى السنة التالية يزرع أحد المحاصيل الشتوية غالباً ، وتترك الأرض بوراً عادة سنة بين كل سنتين من الزراعة أو ثلاث .

ومما سبق يلاحظ من يتقدم نحو داخل الأهوار ما يأتى :

بالنسبة للحيوانات : وجود نطاق تكثر فيه قطعان من الغنم والمعز ويتلوه نطاق آخر تختلط فيه بعض هذه القطعان ببعض آخر من قطعان البقر والحمير ، وعند حافة الأهوار تغلب قطعان البقر والحمير ويرى بينها بعض من قطعان الجاموس ، أما فى داخل الأهوار فتسود قطعان الجاموس .

وبالنسبة للمزروعات : وجود نطاق تسود فيه زراعة القمح ويتلوه نطاق ثانى تسود فيه زراعة الشعير ، فنطاق ثالث يتضمن بعض حقول للذرة بجانب حقول الشلب وينتهى بنطاق تسود فيه زراعة الشلب .

والمعدان وهم رعاة الجاموس لايسعون فى أوقات فراغهم للعمل خارج حدود أهوارهم ، وربما يرجع بعض السبب فى ذلك إلى أنهم يجدون من غيرهم ازدراءا ، فمن المشاهد أن من أقصى السباب التى توجه لشخص من غير المعدان أن يقال له بأنه معيدى ، أما رعاة الحيوانات الأخرى والزراع فإنهم يقومون فى أوقات فراغهم ببعض الأعمال المثمرة ، فالرعاة يتنقلون فى أوقات نضج المزروعات من حقل إلى آخر يشاركون فى حصادها وتعمل حيواناتهم فى درسها ، ويأخذون فى نظير ذلك نصيباً من غلتها ، فضلا عن تغذية حيواناتهم من فضلاتها ، وكذلك ينتقل بعض زراع احدى هذه الغلات إلى حقول غلة أخرى للعمل فى حصادها فى مقابل نصيب منها ، وتبدو أهمية ذلك كبيرة بالنسبة لهم لما هو معروف من أن كل زارع متخصص فى زراعة غلة معينة ويعتبرها وراثة عن آبائه وتقليداً ، وفى فصل الصيف يهاجر بعض من الذكور وبعض الإناث إلى بساتين النخيل على ضفاف شط العرب للاشتغال فى الأعمال المتعلقة بجمع التمور وتنقيتها وإعدادها للبيع وتستخدم مكابس التمور هناك أعداداً كبيرة منهم ،

وفى فصل الشتاء تنشط النساء فى جمع الأعشاب والأشواك لبيعها للوقود ، وهن أحيانا يحرقنها فى أماكنها ويعملنا كنوع من الفحم النباتى .

وسكان داخل الاهوار وحافاتها يستهلكون محلياً بعضاً من ثرواتهم ، ويتاجرون فى الباقى ، وبعض من هذا الباقى ينقله أصحابه فى مشاحيفهم الصغيرة خلال الجداول الكبيرة وعند شواطىء الجداول الكبيرة إلى الأسواق القريبة منهم ، وبعض آخر منه يبيعونه لتجار متجولين يأتون اليهم فى قوارب صغيرة ولديهم فيها بعض ما يحتاجون اليه من ابن والشكر (السكر) والشاى وأوراق التبغ ، ومن بعض الأطعمة كالبصل والمقات والتمر والملح ، وكذلك بعض مما يحتاج النساء اليه لزينتهم ولغيرها ، ويستبدلون بها بعضا من الزبدة أو الأرز أو جلود بعض الحيوانات وريش الطيور ، وما يتبقى لديهم بعد ذلك وهو الجانب الأكبر من ثرواتهم فيأتى له تجار آخرون لشرائه بالجلة وينقلونه إلى الأسواق الكبيرة .

والتوجيه الجغرافى لثروات مناطق الأهوار نحو هذه الأسواق يرتبط بطرق المواصلات الموصلة اليها ، وتصلح البرك والجداول المتصلة بها فى وقت الفيضان لسير السفن التى لا يتجاوز غاطسها نحو ٥ أقدام ، ولهذا فإن ثروات هذه المناطق تنقل أثناء هذا الوقت إلى أقرب هذه الأسواق الكبيرة اليها ، أما وقت الانخفاض حيث لاتصلح معظم هذه السطوح المائية والجداول إلا لسير المشاحيف الصغيرة فإن اتجاه هذه الثروات يتحدد فى مجارى الأنهار الكبيرة وعلى ضفافها ، والعمارة هى السوق لثروات هور الحويزة ، وهى تنقل إليها جدولى الكحلاء والمشرح ، وبعض من ثروات هذا الهور تنقل إلى قلعة صالح عن طريق جدول المجرية ، ومنها ينقل إلى العمارة عن طريق مجرى نهر دجلة أو عن طريق ضفافه ، والقسم الأكبر مما ينقل إلى العمارة من ثروات هذا الهور يتجه نحو الشمال إلى بغداد ، أما ثروات هور الحمار فلها اتجاهات أخرى ، فتنقل معظم ثروات القسم الشرقى منه فى القسم الأدنى من المجرى القديم للفرات إلى القرنة ومنها إلى البصرة أو إلى بغداد ، وتنقل معظم ثروات القسم الغربى منه إلى سوق الشيوخ أو إلى الناصرية ، ومنهما يصدر إلى البصرة ، وقسم آخر إلى بغداد ، أما ثروات القسم الشمالى من هذا الهور فإنها تنقل فى شط الحار أو فى شط البدعة إلى الشطرة وغيرها من مدن الفراف ، وأما ثروات القسم الجنوبى فإنها تنقل إلى البصرة عن طريق شط العرب وجانبه الأيمن .

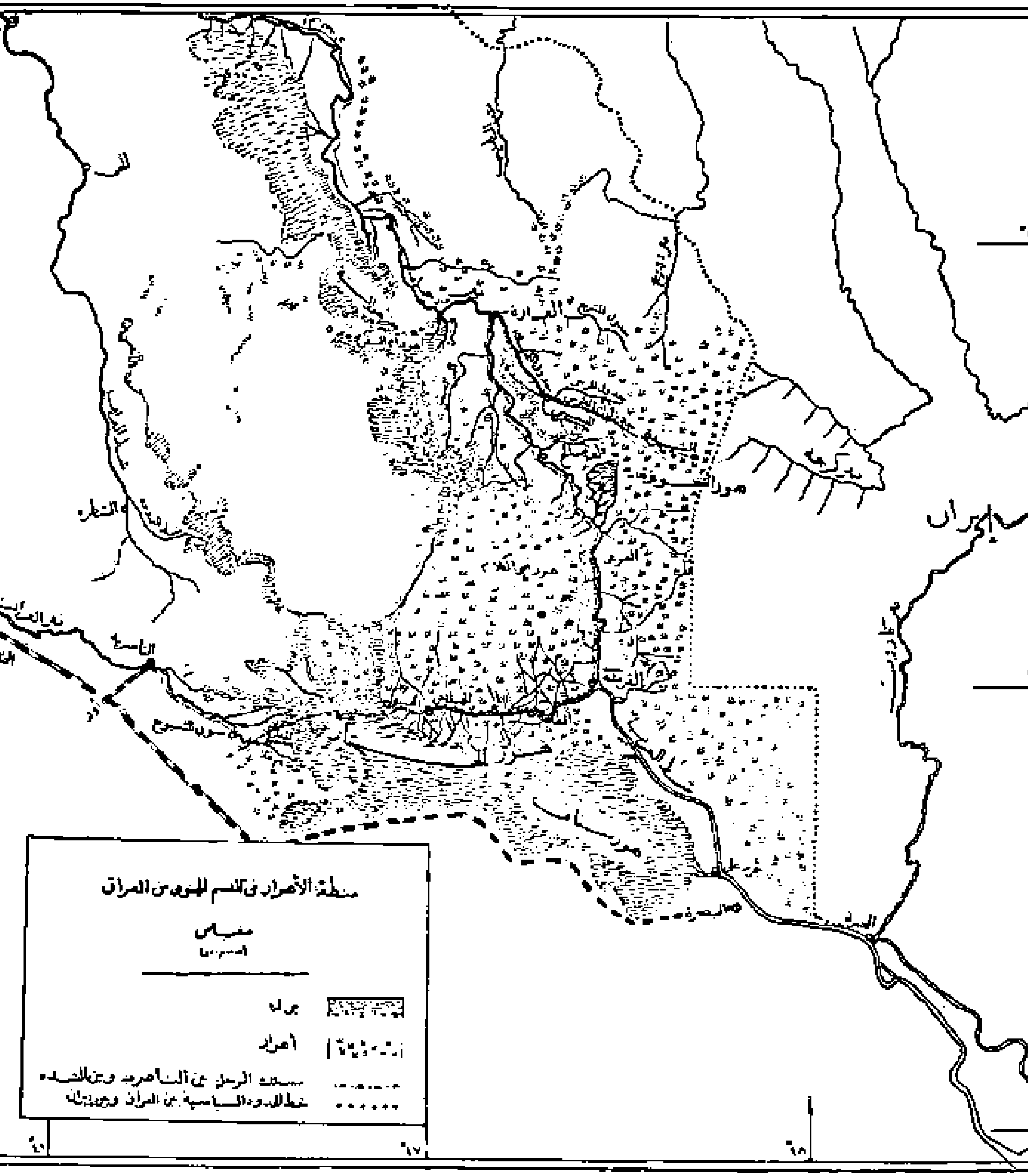

منطقة الأهوار في القسم الجنوبي من العراق
مقياس
برك
أهوار

تخريج نصوص أرسطالية

فى كتاب الحيوان للجاحظ

(تابع)*

للدكتور طه الحاجرى

١٢ــ قال الجاحظ : « ومما أشبه فيه الكلب الإنسان والأسد ، أن كل واحد من هذه الأجناس إنما له بطن واحد ، وبعد البطن المعا ، إلا أن بعض بطنها أعظم من بعض ، ويناسبها فى الذى ذكرنا الذئب والدب ، فما أكثرما يناسبان الكلب ، فلذلك صارا يتناكحان ويتلاقحان وهذا قول صاحب المنطق . قال : وأمعاء الكلب أشبه شىء بأمعاء الحية »[(١)].

وهذا النص يشتمل — كما نرى — على نقلين عن صاحب المنطق ، وقد جاء أولهما فى سياق حكاية الجاحظ قول صاحب الكلب فى دفاعه عنه وبيان فضائله وكلا النقلين يقع — على مسافة غير قصيرة بينهما — فى الفصل الثانى عشر من الكتاب الثانى ، من تاريخ الحيوان ، إذ يقول ارسطو : « والحيوانات التى يتفق عدد أسنانها فى الفكين ليس لها إلا معدة واحدة ، كالإنسان والخنزير والكلب والدب والأسد والذئب والفهد (θώς) ، مما أعضاؤه الداخلية هى أعضاء الذئب ، ولكل هؤلاء معدة واحدة وبعد المعدة المعا ؛ إلا أن معدة بعضها أكبر من معدة البعض الآخر ، كالخنزير والدب مثلا .... وللحية معدة كأنها معاً واحد ، تشبه معا الكلب »[(٢)] .

وأول ما يبدو فى المقارنة أن نقل الجاحظ يختلفان فى مدى مخالفة الأصل ، كما نراه فى هذه الترجمة : وأن التصرف فى النقل الأول أكثر وأبين ، ولعل مما يرجع إليه هذا أن الجاحظ يجىء به فى سياق خاص ، ليستشهد به على غرض

(*) القسم الأول من هذا البحث فى الجزء السادس والسابع من مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية

(١) الحيوان ٢ : ٢١٥

(٢) v. I, p. 183—189

بعينه ، كما قد يمكن القول بأنه من أجل ذلك أغفل ذكر الخنزير فيما أورد ، وإن كنا نلاحظ سقوط كلمة الخنزير أيضاً (وكذلك الحيوان الذي يمكن تسميته بالفهد) في الترجمة العربية التي بين أيدينا لكتب أرسطو في الحيوان ، وهي ترجمة قديمة مجهولة الصاحب ، بعنوان « معرفة طبائع الحيوان البري والبحري » ، من مخطوطات مكتبة المتحف البريطاني ، وها هو ذا نص عبارتها في هذا الموضع :

« فأما الحيوان الذي له أسنان في الفك الأعلى والفك السفلي ، فله بطن واحد مثل الإنسان والأسد والكلب والدب والذئب ، فلجميع هذه الأصناف من أصناف الحيوان بطن واحد وبعد البطن المعا ، ولكن بطون بعضها أعظم من بطون غيرها مثل الخنزير والدب .... فأما بطن الحية فهو ضيق شبيه بمعا واسع ، وذلك المعا شبيه بمعا الكلب »(١) .

١٣ — قال الجاحظ : « وقال : والكلب يحلم ويحتلم ، وكذلك الفرس والحمار ، والصبي يحلم ولا يحتلم ، والثور في هذا كله كالصبي ، ويعرف ذلك في الكلب إذا تفزع وانحط ، وزعم أن الاحتلام قد عوين من الفرس والبرذون والحمار »(٢) .

وهنا نرى القول والزعم مرة أخرى مطلقين ، ليس لهما فاعل ظاهر متصل بهما ، ولكنا إذا اعتبرنا قاعدة رجوع الضمير إلى أقرب مذكور فإن أقرب مذكور هنا هو صاحب المنطق ، وليس يبعد عندنا أن يكون هو المراد ؛ وإن كانت عبارة أرسطو التي يمكن أن تكون هي المقابلة لذلك تخالفه خلافاً غير قليل ، كما نرى في كثير من هذه المقارنات ، وهاهي ذي ، كما جاءت في الفصل العاشر من الكتاب الرابع من تاريخ الحيوان :

« ويمكن أن يرى فوق هذا أن الإنسان ليس وحده الذي يحلم ، وإنما تحلم مثله الخيل والكلاب والبقر والغنم والمعزى وكل ذوات الأربع الولودة ، والكلاب تدل على حلمها بنباحها »(٣) .

---

(١) ورقة ٣٠ ، ٣١

(٢) ٢ : ٢١٦

(٣) ج. II, p. 103—104.

١٤ — قال الجاحظ : « وإذا أراد العنكبوت السفاد جلبت الأنثى بعض خيوط نسجها من الوسط ، فإذا فعلت ذلك فعل الذكر مثل ذلك ، فلا يزالان يتدانيان حتى يتشابكا ، فيصير بطن الذكر قبالة بطن الأنثى ، وذلك شبيه بمأذات الضفادع »[١] .

وقد جاء هذا النص متصلا بما قبله ملتحما به ، غير مسبوق بما يدل على أنه رواية على حدة ، ومع ذلك فهو من أصرح النصوص التي نوردها هنا انتسابا إلى أرسطو ، كما نرى من مقارنته بالنص الآتي من كلام أرسطو ، أما عبارة النسبة فأكبر الظن أنها سقطت من النسخ التي أخذت عنها هذه النسخة .

قال أرسطو : « ويتسافد العنكبوت حين ينسج خيوطه ، وذلك بالطريقة الآتية : حين تجذب الأنثى خيطاً من الخيوط المشدودة من وسط النسيج ، يجذبه الذكر من الناحية الأخرى ، وبتكرار هذه الحركة مرات عدة ، يتدانيان ويتحدان من الخلف ، واستدارة بطنهما تيسر لهما هذا النوع من السفاد الذي هو أوفق لها »[٢] .

فالنصان — كما نرى — يتوافقان توافقاً كبيراً ، وإنما يختلفان في بعض الجزئيات البسيطة ، ومن هذه المقارنة يخيل إلينا أن كلمة « جلبت » في النص الأول مصحفة عن كلمة « جذبت » ، كما هو صريح المعنى في النص الثاني ، وهو تصحيف قريب كثير الاحتمال .

١٥ — قال الجاحظ : « قال : ومما يعد للكلاب أنها كثيراً ما تلقح وتلقح لحال الدفء أو الخصب ، والكلب والخنزير في ذلك سواء ، ولا يكاد غيرهما من الأصناف يتلاقح في ذلك الزمان »[٣] .

وحق القول في هذه العبارة أن يكون لصاحب الكلب الذي يحكي الجاحظ ما يجريه على لسانه من مآثر الكلاب ، ولكن الأصل فيما حكى الجاحظ من ذلك هنا يرجع إلى صاحب المنطق ، فيما أورده في الفصل الثامن من الكتاب الخامس ، من تاريخ الحيوان ، حيث أدار الكلام عن زمن اللقاح ، وهو فصل الربيع

(١) ٢ : ٢١٦
(٢) v. II, p. 142.
(٣) ٢ : ٢١٨

عند أكثر الحيوانات ، والخريف والشتاء عند بعضها ، فلكل زمن معين لا يلقح فى غيره ، إلا الإنسان فله دونها ميزة أنه يلقح فى كل فصل ، ثم يعقب على ذلك بقوله :

« وبين الحيوانات التى تعيش مع الإنسان عدد لا بأس به مثله فى هذا ، بسبب المقام الدافئ والغذاء الوفير ، ولا سيما القصيرة مدة الحمل منها ، مثل الخنزير والكلب والطيور التى تبيض فى معظم الأوقات »[1].

فإلى هذه الفقرة من كلام أرسطو ترجع عبارة الجاحظ التى يذكرها على لسان صاحب الكلب ، وبهذه الفقرة الواضحة نستطيع أن نزيل الغموض الذى يسود تلك العبارة ، ويكاد يجعلها غير مفهومة ، فنستطيع أن نتبين المعنى المراد بها على وجه مستقيم ، وبذلك يبدو جلياً أن عبارة الجاحظ على هذه الصورة التى بين أيدينا قد عانت شيئاً من السقط أو التحريف جعلها على هذا النحو من الانبهام والاضطراب ، وذلك إلى جانب ما قد يكون من سوء الترجمة التى صدر الجاحظ فى هذا الموضوع عنها ، وأكبر الظن أن سيكون لهذه الفقرة من كلام أرسطو أثرها فى تصحيح عبارة الحيوان هذه ، باعتبار مثل هذه المقارنة أداة من أدوات نقد النصوص .

١٦ــ قال الجاحظ : « والكلب كلما كان أسن كان صوته أجهر وأغلظ »[2]، وقد جاءت هذه العبارة فى كلام الجاحظ غير منسوبة ، وفى كلام أرسطو ما يناظرها مناظرة تكاد تكون تامة ، وإن كنا لا نستطيع القطع ــ بالرغم من هذه المشابهة ــ بأن عبارة الجاحظ مأخوذة عن كتاب أرسطو ، إذ كان من المحتمل أنها تعبر عن ملاحظة عامة ، وها هى ذى عبارة أرسطو :

« والكلاب يصير صوتها أغلظ حين تهرم »[3].

١٧ــ وها هو ذا فصل كبير منقول بنصه عن أرسطو ، وإن لم يسبقه ما يدل على هذا النقل :

(١) v. II, p. 144
(٢) ٢ : ٢١٨
(٣) v. II, p. 164

قال الجاحظ : « والكلاب أجناس كثيرة : الكلب السلوق يسفد إذا كان ابن ثمانية أشهر ، والأنثى تطلب ذلك قبل الثمانية ، وذلك عند شغور الذكر ببوله ، والكلبة تحمل من نزو واحد .

وقد عرف ذلك الذين عرفوا الكلاب ، وحضروا ليعرفوا ذلك ، قال : والكلبة السلوقية تحمل سدس السنة ستين يوما ، وربما زادت على ذلك يوما أو يومين ، والجرو إذا وضع يكون أعمى اثنى عشر يوما ثم يبصر ، والكلبة تسفد بعد وضعها فى الشهر الثانى ، ولا تسفد قبل ذلك ، ومن اناث الكلاب ما تحمل خمس السنة يعنى اثنين وسبعين يوما ، وإذا وضعت الجراء تكون عمياء اثنين وعشرين يوما ، ومن أصناف الكلاب مايحمل ربع السنة ، اعنى ثلاثة أشهر ، وتضع جراء وتبق كذلك سبعة عشر يوما ، ثم ترضع جراءها على عدد ايامها التى لاتبصر فيها ، وزعم أن اناث الكلاب تحيض فى كل سبعة أيام ، وعلامة ذلك ورم أثفارها ؛ ولا تقبل السفاد فى ذلك الوقت ، بل فى السبعة التى بعدها ، ليكون ذلك تمام اربعة عشر يوما اكثر مايكون ، وربما كان كذلك لتمام ستة عشر يوما ، قالوا : واناث الكلاب تلق بعد وضع الجراء رطوبة غليظة بلغمية ، وإذا وضعتها بعد الجراء اعتراها هزال ، وكذلك عامة الاناث ، ولبنها يظهر فى اطبائها قبل أن تضع بخمسة أيام اكثر ذلك ، وربما كثر اللبن فى أطبائها قبل ذلك بسبعة أيام ، وربما كان ذلك فى مقدار أربعة أيام ، ولبنها يظهر ويجود إذا وضعت من ساعتها . قال : فأما السلوقية فيظهر لبنها بعد حملها بثلاثين يوما ، ويكون لبنها أول ما تضع غليظا ، فإذا أزمن رق ودق ، ولبن الكلاب يخالف لبن سائر الحيوان بالغلظ ، بعد لبن الخنازير والأرانب ، وقد تكون علامة مبلغ سفادها مثل ما يعرض للنساء من ارتفاع الثديين ، ومعرفة ذلك عسيرة ، وهذه علامات تظهر لأناث الكلاب ، وذكورة الكلاب ترفع ارجلها وتبول لتمام ستة أشهر ، ومنها مالا يفعل ذلك إلى أن يبلغ ثمانية أشهر ، ومنها ما يعجل قبل ذلك . قال : ونقول بقول عام : ان الذكور تفعل ذلك إذا قويت ، فأما الاناث فهى تبول مقعية ، ومنها ما تشغر . واكثر ما تضع الكلبة اثنى عشر جروا ، وذلك فى الفرط ، وأكثر ذلك الخمسة والستة ، وربما وضعت واحدا ، فأما اناث السلوقية ، فهى تضع ثمانية اجراء ؛ واناثها وذكورها تسفد ما بقيت . ويعرض للكلاب السلوقية عرض خاص : وهو انها كلما بقيت كانت أقوى على السفاد .

وذكورة السلوقية تعيش عشر سنين ، والاناث تعيش اثنى عشرة سنة ، وأكثر أجناس الكلاب تعيش اربع عشرة سنة ، وبعض الاجناس تبق عشرين سنة ، قال : واناث الكلاب اطول اعمارا من الذكور ، وكذلك هي في الجملة ، وليس يلق الكلب من اسنانه سنا ما خلا النابين ، وانما يلقيها إذا كان ابن اربعة أشهر ، قال : ومن أجل ان الكلاب لاتلق غير هذين النابين يشك بعض الناس انها لا تلق سناً البتة ، (١).

وهذا الفصل يوافق الفصل العشرين من الكتاب السادس ، من تاريخ الحيوان . وها هي ذي ترجمته :

« اجناس الكلاب كثيرة ، وكلاب لقونه تستطيع أن تسفد ، وإناثها يمكن أن تسفد ، في الشهر الثامن ، وذلك في الوقت الذي يأخذ فيه بعضها في رفع رجله من أجل البول ، والكلبة تحمل من نزو واحد ، يدل على هذا بوضوح النزو المختلس لهذه الحيوانات ، فالذكر فيه يلقح الانثى دون أن ينزو عليها غير مرة واحدة ، والكلبة اللقونية تحمل سدس العام ، يعني ستين يوما ، وإن حدث أحيانا أن تزيد على ذلك أو تنقص عنه يوما أو يومين أو ثلاثة أيام . ومتى ولدت الجراء ظلت اثنى عشر يوما دون أن تبصر ، وبعد أن تضع الكلبة تظل ستة أشهر لا تستقبل الذكر ، وهي لاتستقبله قبل ذلك . ومن اناث الكلاب ما تحمل خمس السنة ، يعني اثنين وسبعين يوما ، وجراؤها تظل الايام الأربعة عشر الأولى دون أن ترى ، وأخرى تحمل ربع العام ، يعني ثلاثة أشهر كاملة ، وجراؤها تظل عمياء مدى سبعة عشر يوما ، ويبدو أن هذا يستمر المدة التي تكون فيها الكلاب نفساء . وتحيض الكلاب سبعة أيام ، ويكون مع هذا تورم اثفارها ، وهي لا تقبل السفاد خلال ذلك الوقت ، فهي انما تقبله في السبعة الأيام التالية . ويمكن القول ، بصفة عامة ، أن الكلاب تبق اربعة عشر يوما نفساء ، ومنها ما تظل كذلك ستة عشر يوما . والمادة التي تصحب الوضع تخرج في نفس الوقت الذي تخرج فيه الجراء ، وهي غليظة بلغمية ، وبعد أن يضع الحيوان لا تتناسب كمية هذه المادة مع جرمه . ولبن اناث الكلاب يظهر بصفة عامة قبل الوضع بخمسة أيام ، واحيانا سبعة أيام ،

---

(١) ٢ : ٢٢٠ — ٢٢٢

وفى بعض الأحيان اربعة فقط ، ومنذ تضع يصير لبنها جيدا . والكلاب اللقونية يظهر لبنها بعد سفادها بثلاثين يوما ، ويكون أول أمره غليظا ، ثم يصفو مع الزمن ، وبمقارنة لبن الكلاب فى الغلظ بلبن الحيوانات الأخرى يجىء لبن الكلاب بعد لبن الخنازير والأرانب ، والذى يدل على انه قد حان الوقت الذى يمكن أن تسفد فيه اناث الكلاب أن يظهر على أثدائها شىء من الانتفاخ والمرونة ، كما فى الجنس البشرى ، ومع هذا فإن من العسير أن يعرف هذا العرض الضعيف جدا ، إذا لم يلاحظ مرارا ، وهو لا يلاحظ إلا عند الانثى ، أما الذكر فلاشىء من ذلك ، ويرفع الذكر رجله عند البول عادة عندما يبلغ ستة أشهر ، وبعضها لا يفعل ذلك إلا بعد هذه الفترة عندما يبلغ ثمانية أشهر معدودة ، وبعضها يفعله قبل الستة الأشهر ، والحق أنها تبول على هذه الصورة حين تكون لديها القوة على النزو ، وكل الاناث تبول مقعية ، ومع ذلك فقد رئى بعضها تبول وهى ترفع رجلها أيضا . وأكثر ما تضع الكلبة اثنى عشر جروا ، فأما عادة فليس إلا خمسة أو ستة ، ويذكر أن منها ما وضعت واحدا فقط ، فأما الكلاب اللقونية فتصل جراؤها عادة إلى ثمانية ، ويمكن أن تسفد اناثها ، وكذلك ذكورها ، مدى الحياة ولكلاب اللقونية خاصية تمتاز بها ، وهى أنها كلما تعبت كانت أقوى على السفاد من التى لم تتعب ، وذكورة هذا النوع من الكلاب اللقونية تعيش عشر سنين واناثها تعيش إلى اثنتى عشرة ، أما أكثر الكلاب الأخرى فتعيش أربع عشرة أو خمس عشرة ، وأحيانا عشرين .... وإذ كانت ذكورة الكلاب اللقونية تعمل أكثر ، فإن إناثها جديرة أن تعيش أكثر ، والأمر ليس بهذا الوضوح فى الاجناس الأخرى ، ومع ذلك فالذكور تعيش أكثر من الاناث ، والكلب لا يفقد من أسنانه إلا الأنياب ، ولكن الذكورة والإناث تفقدها فى الشهر الرابع على السواء ، وإذ كانت هذه الأسنان هى وحدها التى تفقدها الكلاب ، فقد كان ذلك سببا فى رأيين متعارضين ، فالبعض يزعم أن الكلب لا يفقد شيئا من أسنانه ، لأنه من الصعب أن ترى الأنياب ، ويخيل للآخرين ، إذ كانوا يرونه يفقد هذا النوع من الأسنان ، انه يفقد أيضا جميع ما عداها »[1].

---

(1) v. II, p. 356—361.

ومن مقارنة هذين النصين يبدو واضحاً كل الوضوح أنهما شيء واحد ، وبذلك نستطيع القطع دون تردد أن ذلك الفصل فى حيوان الجاحظ منقول عن حيوان أرسطو ، وإن خلا صدره من الكلمة المألوفة فى هذا الموطن : « قال صاحب المنطق » . والتوافق هنا بين النصين لا ينبغى أن نطمع فى أمثل منه ، مع هذا التفاوت البعيد المفروض فى الملابسات التى لابست كلا منهما .

ولم يكد نص الجاحظ يغفل إلا بعض التفصيلات أو الجزئيات الصغيرة فى نطاق ضيق ، كالذى جاء فى سياق الكلام عن عمر الكلب من الإشارة إلى هومير ، حين جعل كلب أوليس ، فى الأوديسة ، يموت فى العشرين . ولم يكد نص الجاحظ يخالف النص الذى أورده سانتيلير وقدمنا ترجمته إلا فى بعض ما يقع فيه الخلاف عادة بين نسخة ونسخة ، بتفاوت الأصول واختلاف القراءة وتغاير الفهم وتعاور الناسخين إلى غير ذلك ، مما لا مناص من أن يتحن به مثل هذا الأثر ، وذلك مثل ما فى نص الجاحظ من أن الكلبة تسفد بعد وضعها فى الشهر الثانى ، ومخالفة النص الآخر بوضع كلمة السادس مكان الثانى .

ومن ذلك جعل المدة التى يظلها الجرو المولود عن حمل مدته خمس السنة أعمى ، اثنين وعشرين يوما ، فى نص الجاحظ ، وهى فى النص الآخر أربعة عشر .

وكالقول فى مدة حمل الكلاب اللقونية ، فهى فى نص الجاحظ ستون يوما ، وربما زادت يوماً أو يومين ، وهى كذلك ستون يوما فى نص سانتيلير ، ولكنها ربما زادت أو نقصت يوما أو يومين أو ثلاثة ، ومع ذلك فالمخطوطات اليونانية التى كانت بين يدى العلماء الأوربيين تختلف فى هذه الجزئية فيما بينها ، فقد نص سانتيلير على أن منها ما لم تجىء فيه كلمة « الثلاثة » ، كما هو فى نص الجاحظ .

ومثل هذه الاختلافات إنما ينشأ عن طبيعة المخطوطات وما يكون معها من اختلاف القراءة اختلافاً يبعد مداه مع الزمن ، سواء فى ذلك المخطوطات اليونانية التى أخذ عنها هنا وهنا ، أم المخطوطات العربية ، إلى أن وصلت إلينا .

ومن هذه الاختلافات هنا ما قد يرجع فى أكثر الأمر إلى غموض النص اليونانى ، من ذلك قول أرسطو عن المادة الغليظة البلغمية التى تخرج مع ولادة الجراء انها غير متناسبة فى كميتها مع جسم الكلبة ، فقد علق سانتيلير على هذا بأن

العبارة فيه ناقصة غامضة ، وأورد ما اقترحه فيها أوبير وڤيمر (Oubert et Wimmer) ، عما لا نعرض له ، إذ ليس من شأننا هنا أن نقضى فى مثل هذا الموضوع ، ولكن الأمر الذى نريد أن نقرره هو أن اختلاف الترجمة العربية فى نص الجاحظ له ما يبرره .

ومن هذا القبيل ما لاحظه سانتيلير من تناقض فى عبارة أرسطو ، فى تحديد مدة نفاس الكلبة أولا بسبعة عشر يوما ، ثم جعله بعد ذلك بقليل من الأسطر أربعة عشر يوما ، أما نص الجاحظ فلم يعرض للنفاس ، وإنما السبعة عشر يوما عنده هى الأيام التى ترضع فيها الكابة جراءها وهى عمياء ، وأما الأربعة عشر فهى المدة التى لا تقبل فيها السفاد ، فلا تناقض .

ومن يدرى فلعل النص العربى يمكن أن يقدم شيئاً من المعونة فى تحرير نص أرسطو . وإلى جانب هذا الرجاء أن يوضع نص الجاحظ بين يدى العلماء المعنيين بحيوان أرسطو ، وأن يجدوا فى ذلك أداة جديدة لتحرير نصه وتحقيق عبارته فإننا ، نرى أن نص أرسطو فى ترجمته الفرنسية التى بين أيدينا يمكن أن يقدم لنا عوناً ملحوظاً فى تحرير النص العربى ، فى حيوان الجاحظ ، وقد رأينا قبل أمثلة لذلك ، ومن هذه الأمثلة كلمة « السلوقية » المصحفة عن « اللقونية » ، وهذا المثل يتكرر هنا مرة أخرى.

ومن ذلك أيضاً كلمة « بقيت » فى هذه الجملة من نص الجاحظ : « وهى أنها كلما بقيت كانت أقوى على السفاد » ، فظاهر انها نابية قلقة فى مكانها ، وإنما هى مصحفة عن « تعبت » كما هو صريح المعنى فى عبارة أرسطو ، ومرد هذا التصحيف هو قرب الصورة الخطية فى الكلمتين ، ثم وجود كلمة « بقيت » قبلها ببضع كلمات .

ومن العبارات المضطربة التى يبدو اننا نستطيع بالرجوع إلى نص أرسطو أن نزيل اضطرابها ونردها إلى ما هو أشبه ، هذه العبارة : « ولبنها يظهر ويجود إذا وضعت من ساعتها » ، ذلك أنه يقول قبل ذلك مباشرة أن لبنها يظهر فى أطبائها قبل أن تضع بخمسة أيام أو سبعة أو أربعة ، فكلمة « يظهر » هنا تجعل سياق الكلام مضطرباً متناقضاً ، فإذا رجعنا إلى النص الآخر بدا بجلاء أن هذه الكلمة « يظهر » ليست إلا تصحيفاً لكلمة « يصفو » التى تقابل كلمة (éclaircit) فى الترجمة الفرنسية لنص أرسطو ، وبذلك يستقيم الكلام ويصح السياق ويتفق المعنى هنا وهنا .

١٨ — قال الجاحظ : « قال : وللكلاب ثلاثة أصناف من المرض ، وأسماؤها : الكلب بفتح اللام ، والذبحة ، والنقرس . والكلب جنون ، فإن عرض لشىء من الحيوان كلب أيضاً أماته ، ما خلا الانسان ، وهو داء يقتل الكلاب ، وتقتل به الكلاب كل شىء عضته ، إلا الإنسان فإنه يعالج فيسلم »[١].

وقال أرسطو فى الفصل الثانى والعشرين من الكتاب الثامن ، من تاريخ الحيوان ، وقد جعله للكلام عن بعض الأمراض التى تصيب الحيوان :

« والكلاب يمكن أن تصاب بثلاثة أمراض : الكلب (la rage) ، والذبحة (l'esquinancie) والنقرس (la goutte) ، والكلب يحدث لها السعار ، وحين تعض فكل الحيوانات التى تعضها تسرى إليها عدوى الكلب ، ما عدا الإنسان ، وداء الكلب يقتل كل الحيوانات التى تعضها الكلاب ، كما يقتل الكلاب ، إلا الإنسان »[٢] .

وإن مجرد وضع النصين الواحد بإزاء الآخر يبعث على القول بأن نص حيوان الجاحظ مأخوذ عن حيوان أرسطو ، وأن القول فى الأول ينبغى أن يكون مسنداً إلى صاحب المنطق . وإن كان ثمة خلاف أصيل بين النصين ، إذ كان أولهما يذهب إلى أن الإنسان يصاب بالكلب ، ولكن الكلب لا يقتله ، كما يقتل الحيوانات الأخرى ، بل يعالج فيسلم ، فى حين يقرر الثانى أن عدوى الكلب لا تسرى إلى الإنسان كما تسرى إلى سائر الحيوان

وقد علق سانتيلير على هذا الذى قرره أرسطو بأنه خطأ من الصعب أن يعرف كيف ارتكب ، إذ كان من المحتمل جداً — كما يقول — أن إصابات كثيرة بالكلب حدثت فى بلاد اليونان ، كما تحدث لدينا الآن . ونحن نتساءل بعد عن مرد هذا الخلاف بين النص العربى والنص الآخر ، أهو تصرف من المترجم العربى ، ليوفق بين كلام أرسطو وبين ما هو مشاهد مقرر ، أم أن مرجع الخلاف إلى تحريف فى النص اليونانى الذى كان بين يدى المترجمين المتأخرين ؟

---

(١) ٢ : ٢٢٣

(٢) v. III. p. 101—102.

١٩ — قال الجاحظ : « قال : وإناث الكلاب السلوقية أسرع تعلماً من الذكورة . قال : وجميع أصناف السباع ذكورتها أجرأ وأمضى وأقوى ، إلا الفهدة والذية »[١].

ويناظر هذا ما يذكره أرسطو فى الفصل الأول من الكتاب التاسع ، من تاريخ الحيوان ، فى كلامه عن طبائع الحيوان ، والفروق بينه فى ذلك ، إذ يقول :

« والأنثى دائماً ألطف طبعاً ، وأسرع استئناساً ، وأطوع فى التعلم . . . وكذلك اناث الكلاب اللقونية أفضل طبيعة من الذكورة . . . والاناث عامة أقل شجاعة من الذكور ، إلا جنس الدب والفهد ، إذ يبدو أن الأنثى أجرأ »[٢] .

وبالرغم من أن ضمير « قال » فى نص الجاحظ لا يمكن فى صناعة الكلام أن يرجع إلى « صاحب المنطق » ، إلا أنه لا بد من اعتباره فاعل فعل القول هنا أيضاً ، فالمشابهة بين النصين وثيقة دقيقة ، إلا فى وضع كلمة السلوقية موضع اللقونية ، وذلك — كما رأينا — تصحيف مطرد ؛ وإلا فى وضع كلمة « الذية » فى نص الجاحظ فى مقابل كلمة « الدب » فى النص الآخر ، وذلك عندنا تصحيف آخر ، فكلمة « الذية » إنما هى فى الأصل « الدببة » جمع دب ثم أخذت فى قلم الناسخ هذه الصورة ، وكذلك جاءت العبارة فى الطبعة الأولى « الا الفهود والذية » ، أما النشرة الثانية فرأت أن حق الكلام أن يكون « إلا الفهد والذية » حتى تكون الكلمتان معاً فى صيغة المفرد ، فكان فى ذلك « التصحيح » للكلمة الأولى تثبيتاً لتصحيف الكلمة الثانية ، وبذلك جاء هذا الخلاف بين النصين ، ولا خلاف فى الحقيقة .

٢٠ — قال الجاحظ : « وصاحب المنطق يزعم أن رؤية فرخ العقاب أمر صعب وشىء عسير »[٣] .

ولعل الجاحظ يشير هنا إلى ما ذكره أرسطو فى الفصل الثانى من الكتاب التاسع ، من تاريخ الحيوان ، إذ يقول :

« ويزعم أحياناً بعض الناس أن أحداً لم ير فراخ العقاب ولا وكره »[٤].

(١) ٢ : ٢٣١

(٢) v. III, p. 129 - 130

(٣) ٢ : ٣١٩

(٤) v. III, p. 175

٢١ — قال الجاحظ : « قال : ويوضع بيض الطاووس تحت الدجاجة ، وأكثر ذلك لأن الذكر يعبث بالأنثى إذا حضنت . قال : ولهذه العلة كثير من اناث طير الوحش يهربن بيضهن من ذكورتها ، ثم لا تضعه بحيث يشعر به ذكورتهن ، قال : ويوضع تحت الدجاجة بيضتان من بيض الطاووس ، لا تقوى على تسخين أكثر من ذلك . على أنهم يتعهدون الدجاجة بجميع حوائجها خوفا من أن تقوم عنه فيفسده الهواء . قال : وخصى ذكور أجناس الطير يكون فى أوان أول السفاد أعظم ، وكل ما كان من الطير أعظم سفادا ، كانت خصيته أعظم ، مثل الديك والقبج والحجل ، وخصية العصفور أعظم من خصية ما يساويه فى الجثة مرتين[1] ».

وكذلك فى هذا النص أيضاً ينبغى أن تكون كلمة « صاحب المنطق » قد سقطت منه ، فهو مأخوذ عن أرسطو ، فى الفصل التاسع من الكتاب السادس ، من تاريخ الحيوان ، حيث جعل الكلام عن الطاووس ، وذلك إذ يقول :

« والذين يربون الطواويس يجعلون إلى الدجاج حضن بيضها ، لأن الذكر قد يكسره حين يطير على الأنثى وهى تحضنه ، ولهذا السبب نفسه تطرد الأنثى — فى بعض أنواع الطيور الجوارح — الذكر ، لتبيض وتحضن ، وأكثر ما يجعل للدجاج حضنه بيضتان من بيض الطاووس ، إذ قلما تستطيع أن تحضن وتفقس أكثر من ذلك . وحتى لا تدع الحاضنة الحضانة وتخرج من العش ، يعنى بوضع طعامها قريباً منها . وخصى الطير تكون فى ابان السفاد أكبر بصورة واضحة ، وما كان منها أكثر سفادا كالديكة والحجل (les perdrix) تكون خصيته أكثر نموآ ، وكذلك هى لديه دائماً أعظم ، فأما الطيور التى لا تتسافد دائماً فخصاها أصغر[2] ».

وليس لنا من تعليق هنا إلا أن نشير إلى ما لاحظه سانتيلير من أن الكلام عن خصى الطير يبدو أنه فى غير موضعه ، وهذه ملاحظة حقة ، ومع هذا فذلك هو وضع هذه الفقرة متصلة بما قبلها فى الترجمة العربية القديمة ، كما هو فى النص اليونانى الذى ترجم أخيراً ، لا فرق فى هذا بينهما ، مما يضعف معه احتمال القول بأنها دخيلة فى هذا المكان ، مقحمة عليه من مكان آخر .

(١) ٢ : ٢٤٤ — ٢٤٥

(٢) v, II. p. 290- 291

٢٢ - - قال الجاحظ - في سياق ايراده حجة صاحب الكاب على صاحب الديك، ورده عليه ما ذكره من انفراد الفروج بأنه يخرج من البيضة كاسياً يكفي نفسه - : «فقد زعم صاحب المنطق أن ولد العنكبوت يأخذ في النسج ساعة يولد»[1].

وهذا الذي يحكيه الجاحظ عن أرسطو جاء في الفصل السادس والعشرين من الكتاب التاسع، من تاريخ الحيوان، إذ يتحدث عن ذكاء الحيوان وصناعته، ويقول :

«والعناكب تستطيع أن تنتج نسيجها بعد ولادتها مباشرة»[2].

الجزء الثالث

٢٣ - قال الجاحظ - بعد أن أورد تفسير قول عمر بن الخطاب لأبي مريم الحنفي : والله لأنا أشد بغضا لك من الأرض الدم، بأن الدم الجاري من كل شيء لايغيض في الأرض - : «الا أن صاحب المنطق قال في كتابه في الحيوان : كذلك الدماء، الا دم البعير»[3]. وفي موضع آخر نقل هذا المعنى مرة أخرى عن أرسطو، فقال : «وزعم صاحب المنطق ان الأرض لاتشرب الدم الا يسيرا من دماء الأبل خاصة»[4].

وظاهر أن الجاحظ لم ينقل نصا بحروفه، وانما هو معنى عرفه في كتاب الحيوان لارسطو، كذلك لم نجد هذا الكلام بنصه ولا قريبا منه، وانما وجدنا ما يدل عليه، وقد جاء ذلك في غير موضع، مرة في كتاب تاريخ الحيوان، ومرة أخرى في كتاب أعضاء الحيوان .

وها هوذا ماجاء في الفصل السادس من الكتاب الثالث من تاريخ الحيوان، في الحديث عن الالياف، وما يوجد في الدم منها، والوظيفة التي تؤديها :

(١) ٢ : ٢٥٩

(٢) v. III, p. 232 -233.

(٣) ٣ : ١٢٧

(٤) ٤ : ٢٠١

« وحين تفصل هذه الألياف من الدم لا يتخثر ، فإنما يتخثر حين تترك فيه ، وهي توجد فى دم جميع الحيوانات تقريبا ، ولكنها لاتوجد فى دم الأيل (Le cerf) ، والتيس البرى (Le chevreuil) ، وما يسمى (Bubale) وما اليها ، فدم هذه الحيوانات لايتخثر كغيرها ، على أن دم الأيل يتخثر قليلا مثل دم الأرانب »[1].

ومثل هذا ماجاء فى الفصل الرابع من الكتاب الثانى ، من أعضاء الحيوان[2].

فمن هنا — فيما يبدو — أخذ الجاحظ كلامه عن الدم فيما صدر به عن صاحب المنطق ولكن مابال دم البعير الذى استثناه الجاحظ من صفة الدم عامة ، ولم يشر أرسطو من قرب أو من بعد إلى هذا الحيوان ؟ هنا — فيما نحسب — موضع تصحيف وتصرف انتهيا بكلام الجاحظ إلى هذا الوضع الغريب الذى يقطع الصلة بينه وبين صاحب المنطق فيما يدعى نسبته اليه .

فكلمة « البعير » انما وضعت فى نصنا الأول بدلا من كلمة « الابل » التى جاءت فى النص الآخر ، وليست كلمة الابل هذه إلا تصحيفا قريبا لكلمة « الأيل » التى جاءت فى كلام أرسطو الذى نقلناه هنا .

٢٤ — قال الجاحظ : « قالوا : والدجاجة تبيض فى كل السنة خلا شهرين ، ومن الدجاج ماهو عظيم الجثة ، يبيض بيضا كبيرا ، وما أقل مايحضن ، ومن الدجاج ما يبيض ستين بيضة ، وأكثر الدجاج العظيم الجثة يبيض أكثر من الصغير الجثة . قال : أما الدجاج التى نسبت إلى ابى ريانوس الملك ، فهو طويل البدن ، ويبيض فى كل يوم ، وهى صعبة الخلق وتقتل فراريجها ، ومن الدجاج الذى يربى فى المنازل ما يبيض مرتين فى اليوم ، ومن الدجاج ما إذا باض كثيرا مات سريعاً لذلك العرض »[3].

(١) v. 1, p. 252

(٢) v. 1, p. 107

(٣) ٣ : ١٦٩ — ١٧٠

وهذا النص تصدره قالوا بضمير الجمع ، وتوسطه قال بضمير المفرد ، من غير أن يعرف مرجع الضمير . وإنما هو — فيما نرى — صاحب المنطق فى النص كله ، كما يظهر من مقارنة بهذا النص التالى من كلام أرسطو ، فى الفصل الأول من الكتاب السادس ، من تاريخ الحيوان :

« ويمكن القول بأن الدجاجة تبيض فى كل السنة ، فيما عدا شهرين حول الانقلاب الشتوى ، ومن الدجاج العظيم الجلس ما يبلغ بيضه ستين بيضة قبل ان يحضن ، ومع ذلك فالدجاج العظيم الجلس أقل بيضاً من الدجاج العادى ، ودجاج أدريا (Adria) صغير البدن ، ولكنه يبيض كل يوم ، وهى سيئة الخلق ، وكثيرا ما تقتل فراريجها ، وهى مختلفة الألوان ، ومن الدجاج البيتى ما يبيض مرتين فى اليوم ، وقد رؤى بعضه يموت بعد هذا الخصب المفرط بقليل من الزمن » [1] .

فالنصان — كما نرى — يتناظران تناظراً لايدع موضعا للشك فى نسبة أولها إلى صاحب ثانيها ، بالرغم عما نرى من خلاف فى بعض الجزئيات ، يمكن أن يرد بعضه إلى التصحيف فى نص الجاحظ .

فعبارة « وما أقل ما يحضن » يبدو أنها تصحيف لعبارة « قبل ما يحضن » ، وبذلك يتفق النصان فى هذا الموضع ، وربما كان ذلك شأن كلمة « العظيم الجثة » ، أن تكون مصحفة عن كلمة « العظيم الجلس » كما هو نص عبارة أرسطو فيما رأينا .

أما التناقض بين النصين فى إنتاج الدجاج العظيم الجلس ، اذ هو فى نص الجاحظ « يبيض اكثر من الصغير الجثة (؟) » ، وفى نص أرسطو هو أقل بيضا ، فليس يبعد عندنا ان يكون ذلك من صنيع النساخ ، فوضعوا كلمة « اكثر » موضع كلمة « أقل » ، وهذا أمر معهود ، وفى هذا الموضع نفسه نرى بعض النسخ يضع فى موضع : « يبيض اكثر من الصغير الجثة » ، « يبيض بيضا كبيرا » ، وشتان ما بين العبارتين ، فإذا جاز مثل هذا أن يحدث ، فذلك اكثر جوازا .

(1) v. II, p. 255

ومما نراه من التصحيف أيضاً كلمة « طويل البدن » في صفة الدجاج الذي يقول النص العربي إنه منسوب إلى أبي ريانوس ، فأكبر الظن أنها مصحفة عن « ضئيل البدن » . وليس من الصعب أن نعرف كيف تأتى للناسخ مثل هذا التصحيف .

ثم تجيء بعد ذلك كلمة « أبي ريانوس » ، وقد كتب الأب أنستاس ماري الكرملي في التعليق عليها وتحقيقها ما يلي :

« هو على الحقيقة : (أيبريونيدس) ، أي منسوب إلى (Hyperion) المسمى أيضاً (Helios) أي الشمس ، وتلفظ (عاليوس) ، وما عاليوس إلا « عالي » أو « عال » كسعت بعلامة الإعراب في كلام اليونان ، ويطلق هذا اللفظ على كل ما يراد وصفه بالعلو أو الطول أو الارتفاع ، فالدجاج (أبي ريونوس) أو (ايبريونوس) هو ما يسميه اليوم العراقيون بالدجاج الهراتي بمعنى الهروي ، لأن ديكتها جلبت من هراة ، المشهورة بحسن دجاجها وعلوها وكبرها ، فالكلمة إذن يونانية ، وقد صحفها النساخ لجهلهم اياها »(1)

وهذا الذي صنعه العلامة أنستاس ماري الكرملي في تصحيح هذه الكلمة وتخريجها هو صورة من التصحيح والتخريج اللذين لا ينبنيان على منهج علمي سديد ، وإن كانا يصدران عن معرفة واسعة وعلم غزير ، والمعرفة مهما اتسعت وتشعبت ودقت لا تغني عن المنهج العلمي في نقد النصوص شيئاً ، بل ربما كانت بدون هذا المنهج مزلقة ومضلة . والمنهج في مثل ما نحن فيه هو مراجعة النص المراد تحقيقه في أصله المأخوذ عنه ، وهذا الأصل يضع في مقابل كلمة « أبي ريانوس » كلمة « أدريا » . ويقول ساتيلير في التعليق على هذه الكلمة إن المخطوطات المختلفة متفقة على هذا الاسم منسوباً إليه هذا الدجاج (Adrianique) أو (Adrianes) ، وإذن فالأقرب والأشبه أن كلمة « أبي ريانوس » هذه ليست إلا تصحيفاً لكلمة « ادريانوس » ، فإذا علمنا بعد ذلك أن إحدى مخطوطات حيوان الجاحظ وأمثلها — وهي مخطوطة كبريلي — تجعل هذه الكلمة « ارذيانوس » ، لم يبق لدينا شبهة في أن « ادريانوس » هي الأصل الذي لا معدل عنه ، وبذلك يتفق النصان في غير تعسف ولا تكلف .

(1) الحيوان ٣ : ٥٧٨ (في التذييل والاستدراك) .

٢٥ــ قال الجاحظ : « قال : وبيض الصيف المحضون أسرع خروجا منه في الشتاء . ولذلك تحضن الدجاجة البيضة في الصيف خمس عشرة ليلة »[١].

ونظير هذا النص عند أرسطو يقع في الفصل الثاني من الكتاب السادس ، من تاريخ الحيوان . قال : « وحين تحضن الاناث في الصيف ، فإن الفراريج تخرج من القشر أسرع منها في الشتاء ، بتأثير الحرارة ، ولذلك تفقس الفراريج في الصيف في ثمانية عشر يوما ، وقد تحتاج في الشتاء إلى خمسة وعشرين »[٢].

ويختلف النصان قليلا : يختلفان في عدد أيام الحضانة ، فهو في نص الجاحظ الذي قدمنا خمسة عشر ، وفي الآخر ثمانية عشر ، على أن إحدى مخطوطات الحيوان تجعلها « ثماني عشرة ليلة » ، وينبغي أن تكون هي القراءة الصحيحة ، لأنها توافق نص أرسطو ، وهو الأصل هنا ، أما اختلاف التمييز لهذه المدة ، فهو يرجع إلى عادة العرب في جعل تمييز التاريخ بالليالي لا بالأيام ، وفوق هذا فإنه يبدو لنا أن في النص العربي سقطاً واضحاً في آخره ، يمكن أن يقدر على هذا النحو : « وفي الشتاء خمسا وعشرين » ، ليستقيم أول الكلام مع آخره .

٢٦ــ قال الجاحظ : « قال : وربما عرض غيم في الهواء أو رعد ، في وقت حضن الطائر ، فيفسد البيض ، وعلى كل حال ففساده في الصيف أكثر ، وأكثر ما يكون فساد البيض في الجنائب . وقال : وبعضهم يسمى بيض الريح : البيض الجنوبي ، لأن أصناف الطير تقبل الريح في أجوافها ، وربما أفرخ بيض الريح بسفاد كان ، ولكن لونه يكون متغيراً ، وإن سفد الأنثى طائر من غير جنسها غير خلق ذلك الخلق الذي كان من الذكر المتقدم ، وهو في الديكة أعم »[٣].

ويقع هذا من كلام أرسطو في الفصل الذي جاء فيه النص السابق ، قال : « وحين يحدث رعد في الوقت الذي تحضن فيه الأنثى ، فإن البيض يتغير ويفسد . والبيض الذي يسمى أحياناً اذناب الكلاب أو بيض الذنب ([illegible])

(١) ٣ : ١٧٢
(٢) V. II, p. 262
(٣) ٣ : ١٧٢ - ١٧٣

(des chiens ou œufs de queue) كثير في الصيف ، وبعض الناس يسمى أيضاً البيض الرائق (les œufs - clairs) بيض الدبور (œufs de zéphire) ، لأن الطير يبدو أنها في ابان فصل الربيع تلتمس الرياح وتتقبلها . . . ويمكن أن يفرخ البيض الرائق ، وحتى البيض الذي جاء عن سفاد سابق يمكن أن يتحول من نوع إلى نوع آخر ، إذا سفد الأنثى ذات البيض الرائق أو الناتج عن سفاد سابق ، ذكر آخر ، قبل أن يتحول الصفار إلى بياض »[١].

وبالرغم مما بين النصين — فيما نرى — من خلاف في غير موضع ، فإن مابينهما من توافق في جملة الموضوع مما يلفت النظر ويدعو إلى التساؤل : أيرجع نص الجاحظ حقاً إلى ما كتبه أرسطو في كتابه الحيوان ، أم أنه يرجع إلى طائفة من المعارف مختلطة أخذت من هنا ومن هنا ، وإن كانت ترجع في جملتها إلى حيوان أرسطو وتصدر في مجموعها عنه ؟

مهما يكن من أمر فإن لأرسطو أثره الواضح في هذا النص من كتاب الجاحظ ، وإنما الشيء الذي نريد أن نقرره هنا هو أن هذا الموضع من كتاب أرسطو من المواضع التي يسودها الغموض ، كما ينص على ذلك سانتيلير في تعليقاته ، مصرحاً بصعوبة تبين المراد من بعض ما جاء فيه وترجمته على وجه يمكن الاطمئنان إليه ، كما في تسمية ذلك النوع من البيض بأذناب الكلاب أو بيض الذنب ، فهي تسمية لم يستطع تبين معناها ، وقد قال انه من الممكن ترجمتها بأبوال الكلاب أو بيض البول ، ويبدو أن مثل ذلك الغموض تفاداه المترجم العربي بتلك العبارة العامة ، كما يرجع إلى هذا الغموض — فيما يخيل إلينا — كثير من صور الخلاف بين النصين ، وذلك إلى جانب ما تعرضت له الترجمة العربية ومخطوطات حيوان الجاحظ .

أما وضع الترجمة العربية كلمة « بيض الريح » بإزاء ما عبر عنه صاحب الترجمة الفرنسية بكلمة (œufs - clairs) ، فهذه فيما يبدو ترجمة حرفية ، كما صنع صاحب الترجمة الإنجليزية ، إذ سمى هذا النوع من البيض (wind - eggs)[٢].

---

(١) v. II, p. 162 - 163

(٢) Historia Animalium : 560 ᵃ

٢٧ — ويقول الجاحظ فى عقب النص السابق : « ويقولون : ان البيض يكون من أربعة أشياء : فمنه ما يكون من التراب ، ومنه ما يكون من السفاد ، ومنه ما يكون من النسيم إذا وصل إلى ارحامهن ، وفى بعض الزمان ، ومنه شيء يعترى الحجل وما شاكله فى الطبيعة ، فإن الأنثى ربما كانت على سفالة الريح التى تهب من شق الذكر فى بعض الزمان ، فتحتشى من ذلك بيضاً »[1].

وهذا النص — كما نرى — يعانى شيئاً من الاضطراب ، إذ تعرض فيما يظهر لبعض السقط والخلط ، فأما السقط فيظهر فى أن الجاحظ قدم الكلام بأن البيض يكون من أربعة أشياء ، ولم يذكر غير ثلاثة ، أما أمر الحجل فليس إلا تفسيرا للحالة الثالثة .

وقد جاء حديث الحجل هذا ، عند أرسطو ، بما يكاد يكون نص ما هنا عنه ، إذ يقول — بعد تقريره أن اللقاح وتولد البيض أمر كثير يسير عند معظم الطير ، وبعد أن ضرب المثل لذلك بالحجل فى حال الهيج والتماس السفاد — :

« وانه ليكفى أن يكون الحجل تحت ريح الذكر (sous le vent du mâle) ليلقح »[2] ، ومن هذا يبدو من المحتمل جداً أن تكون كلمة : « وقال صاحب المنطق » أو ما يشبهها سقطت قبل قوله : « ومنه شيء يعترى الحجل » .

٢٨ — قال الجاحظ : « قال : وأما الحمام فإنه إذا قمط تنفش وتكبر ونفض ذنبه وضرب بجناحيه ، وأما الأوز فإنه إذا سفد أكثر من السباحة ، واعتراه فى الماء من المرح مثل ما يعترى الحمام فى الهواء »[3].

وهذا المعنى نجده عند أرسطو فى الفصل الثانى من الكتاب السادس من تاريخ الحيوان ، ولكنه هنا مبسوط يتضمن تلك الصور الفنية ، كأنما هو الجاحظ نفسه الذى يعبر عنه ، ويصوغه ، ويرسم صوره ، أما هناك فليس إلا تسجيلا للظاهرة فى عبارة علمية موجزة مركزة ، تنتقل من العام إلى الخاص ، قال :

(١) ٣ — ١٧٣
(٢) v. II, p. 260
(٣) ٣ : ١٧٥

« والاناث بعد السفاد ترتعش وتهتز وتثير الغبار حولها ، وتفعل ذلك أحياناً حين تبيض ، واناث الحمام ترفع إذ ذاك ذيلها ، أما اناث الأوز فتسبح فى الماء »[1].

فالمعنى الأول مشترك — كما ترى - - بين نص حيوان الجاحظ ونص حيوان أرسطو ، وإن كان السياق وأسلوب الأداء مختلفين فيهما .

٢٩— قال الجاحظ : « والحمامة ربما احتبس البيض فى جوفها بعد الوقت لأمور تعرض لها : اما لأمر عرض لعشها وأفحوصها ، واما لنتف ريشها ، واما لعلة وجع من أوجاعها ، واما لصوت رعد ، فإن الرعد إذا اشتد لم يبق طائر على الأرض واقع إلا عدا فزعاً ، وإن كان يطير رمى بنفسه إلى الأرض »[2].

وقد وصل الجاحظ هذا النص ببيتين لعلقمة بن عبدة ، مستشهداً بهما على أثر الرعد هذا ، والقول فى هذا النص — أو بعضه كما سنرى - - لأرسطو ، قاله أيضاً فى الفصل الثانى من الكتاب السادس ، من تاريخ الحيوان ، بعد أن ذكر أن خلق البيضة وتولد الفرخ يختلف زمنا باختلاف الطير ومقدار جثتها ، وقارن فى ذلك بين الدجاج والحمام .

ونرى أننا نستطيع بنص الجاحظ أن نفصل بين ترجمة وترجمة ، ونرجح واحدة على أخرى ، وهما ترجمة سانتيلير التى اعتدنا حتى الآن أن نكتفى بايرادها ، والترجمة الانجليزية التى قام بها دارسى وتوورث طومسون (D'arcy Wentworth Thompson) ، إذ تختلفان فيما بينهما فى هذا الموضوع .

فأما سانتيلير فيقول ما ترجمته : « وأنثى هذا النوع (الحمام) تستطيع أن تمسك بيضتها فى نفس الوقت الذى تعانى فيه وضعها ، واذا حدث ما يزعجها ، هدمت عشها بنفسها ، واذا نزعت ريشة منها ، أو أحست أى وجع آخر أو شيئاً يضايقها فانها تتماسك ، وتستطيع أن تحتفظ ببيضتها وهى توشك أن تبيضها »[3].

---

(١) v. II, p. 265 - 266

(٢) ٣ : ١٧٦

(٣) Histoire des Animaux, v. II, p. 266

وأما دارسي ونتوورث طومسون فيقول ما ترجمته : « وللحمام القدرة على استئخار البيضة فى نفس الوقت الذى تبيضها فيه . واذا أزعجت انثى الحمام بأى شيء ، كأن ترعج فى عشها ، أو تنزع ريشة منها ، أو تعانى أى ألم آخر أو اضطراب ، فانها تستطيع أن تمسك البيضة معلقة ، حتى وهى فى حالة وضعها اياها » (١).

فالترجمة الثانية جعلت الفقرة كلها فى احتباس البيضة ، وكل ما عرض لأنثى الحمام فى عشها أو نزع ريشها أو أى وجع آخر فانه علة هذا الاحتباس . وأما الترجمة الأولى فانها جعلت الحمامة هى التى تهدم عشها بنفسها ان عرض لها ما يزعجها ، واقحمت هذا بين طرفى موضوع الفقرة وهو احتباس البيضة ، مع أن انهدام العش أو ما اليه هو فى الترجمة الثانية علة من علل هذا الاحتباس ، لا شيء على حدة ؛ وهو فيها من افعال الشرط ، لا جواب لشرط آخر ونتيجة له ، كما فى الترجمة الأولى .

فذلك هو الخلاف بين الترجمتين ، وهو نفسه الخلاف بين الترجمة العربية وترجمة سانتيلير ، فالترجمة العربية توافق موافقة تامة ترجمة دارسى ونتوورث طومسون ، وهى بذلك تفصل بينهما ، وترجح هذه على الأخرى .

ثم يبقى بعد ذلك أن ما جاء فى نص الجاحظ عن الرعد واثره فى احتباس البيضة وما الى ذلك لا أثر له فى كلام أرسطو ، فهو كلام مقحم عليه ، وإن جاء متصلا به .

٣٠ — قال الجاحظ : « قال : وليس التقبيل إلا للحمام والإنسان ، ولا يدع ذلك ذكر الحمام إلا بعد الهرم . وكان فى أكثر الظن انه احوج ما يكون الى ذلك التهييج به عند الكبر والضعف » .

وبعد أن اقحم زعما للعوام عن تسافد الغربان ، وانه هو تطاعمها بالمناقير ، وعلق عليه بأنه لم ير العلماء يعرفون هذا ، قال :

(١) Historia Animalium, 560b (Works of Aristotle, volume IV)

« قال : وإناث الحمام اذا تسافدت أيضاً قبل بعضهن بعضاً ، ويقال إنها تبيض عن ذلك ، ولكن لا يكون عن ذلك البيض فراخ ، وانه فى سبيل بيض الريح »[1].

ويقع هذا الكلام من تاريخ الحيوان لأرسطو بعد النص السابق ، متصلا به .
قال : « وللحمام فى سفاده خاصة أخرى ، ذلك أنه يقبل بعضه بعضاً حين يتهيأ الذكر ليعلو الأنثى ، وقد لا يعلو الذكر الهرم أنثاه للمرة الأولى من غير أن يقبلها ، ولكنه يعلوها بعد ذلك دون أن يقبلها سلفاً ، أما شباب الحمام فإن الذكر منه لا يعلو الأنثى إلا أن يقبلها أولا . ومما هو من خصائص الحمام أنه حين لا يكون هناك ذكر فإن اناثه تعلو الواحدة الأخرى بالتبادل ، بعد أن يقبل بعضها بعضاً ، كما يفعل الذكور . وإذ لم يكن من الممكن أن تلقح الواحدة منهن الأخرى ، فإنها تبيض بيضاً أكثر عدداً من البيض الخصيب ، ولكن لا تخرج منه فراخ ، ولكن ما ينتج من البيض هكذا يكون بيضاً رائقاً »[2].

ومن هذه المقارنة نرى أن نص الجاحظ أغفل التفصيلات ، واكتفى بالمعانى الرئيسية ، وهى الظاهرة التى نراها فى كثير من هذه النصوص ، كما نرى من هذه المقارنة أيضاً أن قوله : « وكان فى أكثر الظن . . . الخ » هى من تعليق الجاحظ لا من كلام أرسطو .

(يتبع)

(1) ٣ : ١٧٧
(2) Histoire des Animaux, t. II, p. 266 - 267

ملاحظات عن مصر

كما رآها ووصفها الجغرافيون والرحالة المغاربة
في القرنين ٦ و ٧ للهجرة [١٢ ــ ١٣ م]

نقد المصادر

للدكتور سعد زغلول عبد الحميد

تمهيد : الجغرافية العربية

وفق الأستاذ R. Blachère في كتابه « نخب من أهم الجغرافيين العرب في العصر الوسيط »[1] عند ما قسم الجغرافية العربية إلى نوعين كبيرين : أولهما الجغرافية الرياضية وتضم فرعين هما : علم الأطوال والعروض ، وعلم تقويم البلدان . وثانيهما الجغرافية الأدبية أو الوصفية وتشتمل على فرعين هما : علم المسالك والممالك ، وعلم عجائب البلدان .

وشرح بلاشير بعد ذلك المراحل التي اتبعتها الجغرافية العربية في تطورها ، فذكر أنها بدأت ــ كما بدأت عند الشعوب القديمة الأخرى ــ وهي وثيقة الصلة بالتاريخ . ثم بين كيف وتحت تأثير أي ظروف تمكنت من الانفصال عن التاريخ ــ انفصالا غير تام على كل حال .

نشأت الجغرافية العربية أول ما نشأت (آخر القرن ٣/ ٩) لمساعدة الكتاب وأصحاب الدواوين أي لخدمة صناعة الكتابة ، وذلك بظهور كتب ابن خرداذبه وابن رسته وقدامة [2] ، أو لاستعمال عامة الناس وذلك بظهور كتابي الجاحظ وابن الفقيه[3] .

---

(١) Extraits des principaux géographes arabes du moyen âge. Paris 1932.

(٢) ابن خرداذبه (توفى ٢٧٢ / ٨٨٥) ، كتاب المسالك والممالك ، طبعة (DE GOEJE) ، ليدن ، ١٨٨٩ (أول كتاب ليست له بالتاريخ الا علاقة ضعيفة ، فهو يهتم بشكل العالم الطبيعي بصفة خاصة) ؛ وابن رسته (توفى بعد ٢٩٠ / ٩٠٣) ، كتابه الاعلاق النفيسة ، طبعة (DE GOEJE) ليدن ، ١٨٩١ (عرض لرسم العالم ولو أنه يهتم بالعجائب والغرائب) ؛ ابو الفرج قدامه بن جعفر (توفى ٣٢٢ / ٩٣٢) ، كتاب الخراج وصنعة الكتابة ، طبعة ليدن ، ١٨٨٩ (مع ابن خرداذبه) ويتكلم عن المولفين والحاسبين والتلات ؛ انظر R. Blachère , Extraits ... pp. 17, 31, 53 .

(٣) الجاحظ (توفى ٢٥٤ / ٨٦٩) ، كتاب البلدان ، مفقود ، ولكن طريقة الجاحظ ــ

وفى القرن التالى (٤ / ١٠) ازدهر هذا النوع البدائى تحت تأثير التيارات العلمية التى نشأت عن حركة الترجمة والنقل عن علوم اليونان وفارس والهند ، والتى يظهر أثرها واضحا فى الجغرافية الرياضية[١]. أما الجغرافيون الأدباء فقد تأثروا بهذه التيارات العلمية ، كما أنهم أفادوا من الرحالة ومن أسفارهم الخاصة فوائد جمة فضموا إلى معلوماتهم حقائق كثيرة عن أقاليم العالم المختلفة أكثر جدية وأكثر عمقا . وأدى هذا إلى ازدهار نوعين من المؤلفات الجغرافية ، وهى كتب الرحلات [٢] وكتب المسالك والممالك .

فبعد أن كان مؤلفو المختصرات الأولى يعتمدون فى تصنيف كتبهم على الروايات والقصص الشعبية وأخبار « الفولكلور » مما دون سابقا ومما يروى شفاها ، [٣] فإنه لم يكد القرن الـ ٣ / ٩ يشرف على نهايته حتى بدأ الجغرافيون العرب — أو بعضهم على الأقل — يجوبون أنحاء العالم ويتعرفون بأنفسهم على أحوال البلاد . وخير مثل لهؤلاء : اليعقوبى والاصطخرى وابن حوقل والمقدسى[٣].

- معروفة ويمكن القول أن محتوياته لن تكون إلا استطرادا وخروجا عن الموضوعات الجغرافية وهذا ماتؤكده المقتبسات التى أخذها عنه المتأخرون ؛ ابن الفقيه (توفى بعد ٢٩٠ / ٩٠٣) ، كتاب البلدان ، طبعة (De Goeje) ، ليدن ، ١٨٨٥ ، ينقل كثيراً عن الجاحظ حتى أنه أخذ عنه عنوان الكتاب (أنظر المقدسى -- طبعة De Goeje، ص ٢٤١ — الذى يلاحظ ذلك) ، ويضمنه كثيراً من الخرافات والمعتقدات التى تعبر عن التصورات الشعبية الجغرافية فى ذلك الحين ، ولا يحتوى على قوائم بالمسالك والممالك أو نظريات بطليوس . انظر (R. Blachère, Extraits .. p.67 Sq.,70)

(١) أنظر G. Marçais, Le monde oriental de 395 à 1081, Paris, 1944, p. 374

(٢) يلاحظ أن مؤلفى أخبار الأسفار هذه أرادوا أن يظهروا بمظهر الأدباء وليس بمظهر العلماء : ابن فضلان (أوائل القرن ٤ / ٩) ، يتكلم عن خواص وعجائب البلدان ؛ بزرج بن شهريار (نهاية القرن ٤ / ١٠) يتكلم عن عجائب الحيوان والظواهر الغريبة ، وغرائب الشرق الأقصى وعن مغامرات مدهشة ؛ أنظر R. Blachère, Extraits .. pp. 91, 92, 94, 100, 101, 103, 104 ؛ وانظر مقال T. W. Arnold تحت عنوان Arab Travellers and Merchants فى كتاب Travel and Travellers المنشور بمعرفة A.P. Newton ص ٩٥ هامش ٣ وص ٩٦ هامش ٢ .

(٣) هنا تنبغى الاشارة الى صاحب البريد وكان تحت اشرافه الطرق (المسالك) حيث تتداول فى محطاتها أخبار الأقاليم والأوامر الصادرة من العاصمة وأخبار المؤن اللازمة لحياة البلاد والأموال والجباية الداخلة إلى بيت المال ؛ انظر G. Marçais, Le monde oriental de 395 à 1081 coll. Hist. Générale, Paris, 1944, p. 349. ؛ (ابن خرداذبه نفسه كان « صاحب البريد » نفس المرجع ص ٣٧٤) .

(٣) اليعقوبى (توفى بعد ٢٧٨ / ٨٩١) ، كتاب البلدان ، طبعة De Goeje ، ليدن ، ١٨٩١ (مع ابن رسته) يأتى بمعلومات جديدة عن المغرب ، ويبدأ بالعراق لأنها وسط الدنيا ،

وإلى هنا كانت الجغرافية الوصفية ناقصة بالنسبة إلى المغرب والأندلس ويرجع الفضل فى سد هذا الفراغ إلى الجغرافيين المغاربة مثل البكرى والأدريسى[1]، ومنهجها هو منهج ابن خرداذبه .

وإلى جانب هذين النوعين بلغ النوع العام الذى بدأه الجاحظ أو ابن الفقيه درجة النضج مع اختلاف هام وهو أن الكتاب الجدد وأن قصدوا تعميم علمهم ونشر ثقافتهم فإنهم لم يصلوا إلى تحقيق هدفهم هذا عن طريق التسلية ، لأنهم كانوا يكتبون علمهم ويقدمونه إلى جمهور جاد مثقف لا الى جمهور من الهواة . ويبدو هذا واضحا إذا عرفنا أن هذا النوع من الكتاب قد تشبعوا بكتب بطليوس ومارينوس[2] وأنهم أخذوا عن كتب علماء الفلك من الأغريق والعرب ، كما عرفوا كتب البحارة والرحالة وتثقفوا ثقافة واسعة شملت كل علوم ذلك العصر ؛ وخير مثل لهم : المسعودى ثم البيرونى[3] .

- - الاصطخرى (توفى ٣٤٠/٩٥١) ، كتاب صور الأقاليم والمسالك والممالك ، طبعة De Goeje ، ليدن ١٨٧٠ ؛ ابن حوقل (توفى ٣٦٧/٩٧٧) ، كتاب المسالك والممالك ، طبعة De Goeje ، ليدن ١٨٧٣ المقدسى (توفى بعد ٣٧٨/٩٨٨) ، أحسن التقسيم فى معرفة الأقاليم ، طبعة De Goeje ، ليدن ١٨٧٧ ؛ وهو يعتبر نموذجا لهذا النوع ؛ أنظر R. Blachère, Extraits .. pp. 110, 112, 116, sq

(١) البكرى (أندلسى توفى ٤٨٧/١٠٩٤) المسالك والممالك ، الجزء الخاص بالمغرب منشور بمعرفة De Slane تحت عنوان Description de l'Afrique, Septentrionale, Alger, 1857 ؛ الادريسى (توفى ٥٦٠/١١٦٦) ، نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق (معروف باسم كتاب رجار) طبعة De Goeje, Dozy ، ليدن ، ١٨٦٦ . ويحتوى على مصطلحات جغرافية وطرق مواصلات فهو مختصر لاستعمال الكتاب . ويختلف فى طريقة عرضه عن البكرى إذ يأخذ بتقسيم العالم الى سبعة أقاليم . وهو فى تفصيلاته يذكر بالاصطخرى وابن حوقل والبكرى . أنظر R. Blachère, Extraits .. pp. 113, 184, 185, 190, 191.

(٢) جغرافى معاصر لبطليوس — القرن الثانى الميلادى — ترجمت جغرافيته الى العربية فى القرن الثالث الهجرى .

(٣) المسعودى (توفى ٣٤٥/٩٥٦) . قام برحلات فى فارس والهند والصين (٣٠٢/٩١٥) وفى فلسطين (٣٣٢/٩٤٣) ثم فى مصر حيث توفى . يوجد جزء من تواليفه العديدة مثل مروج الذهب ، نشر وترجمة G. Barbier de Meynard, Paris, 1861 وكتاب التنبيه والاشراف ، نشر De Goeje ، ليدن ١٨٩٤ ؛ ومنهج المسعودى هو ألا يترك أية معلومات جمعها ؛ والأثر اليونانى واضح فى كتبه وخاصة أثر بطليوس كما يذكر كتب ارسطاليس (كتاب الآثار العلوية وكتاب السماء والعالم اللذين ترجما الى العربية فى القرن الـ ٣/٩) ؛ البيرونى (توفى ٤٣٠/١٠٤٨) =

وتأتى بعد ذلك المرحلة الأخيرة من مراحل تطور هذه الأنواع وذلك فى نهاية القرن الـ ٦ / ١٢ وما تلاه . فى هذه المرحلة انكمش النشاط العلمى عند العرب واختفى نوع المسالك والممالك فى القرن الـ ٧ / ١٣ أو كاد . أما النوع العام فلم يظهر منذ القرن الـ ٥ / ١١ بالشكل الذى أخرجه المسعودى .

ومنذ نهاية القرن الـ ٦ / ١٢ وقفت التيارات والمؤثرات العلمية لليونان وفارس والهند وكذلك آثار الرحالة والمستكشفين عند مطالب العصر كما كان الحال عند نشأة الجغرافية الأدبية . فالكتاب من الجغرافيين لم يهتموا باكتشاف آفاق جديدة لمعاصريهم بل عملوا على امدادهم بمصنفات كاملة ، حسنة الترتيب ، سهلة الاستعمال . هذه الظاهرة تجلت بأوضح صورها فى المعاجم الجغرافية وخير مثال لها معاجم البكرى والزمخشرى وياقوت والقزوينى [1] . أما عن كتب صورة الأرض والجغرافية العامة فقد أصبح مؤلفوها اخصائيين يهتمون بكل الأحداث على سطح الأرض ، وهم فى نفس الوقت فلكيون وجغرافيون وخبراء فى المعادن والنباتات والحيوان وحياة الشعوب ، وبذلك يعتبرون متممين لرسالة المسعودى [2] . وأخيرا يظهر نوع جديد من دوائر المعارف التاريخية الجغرافية : فنظرا للتقدم الكبير الذى حققته الادارة المملوكية بمصر والشام كان من الضرورى نشوء أدب خاص

= وله كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية ثم تاريخ الهند الذى ألفه عندما سار مع جيوش محمود الغزنوى الى الهند ويحتوى على التاريخ والجغرافية والأخلاق والمعتقدات والفنون الخ . انظر R. Blachère, Extraits .. pp. 201, 203, 233, 234

(١) أول هذه المعاجم هو ما صنفه البكرى (توفى ٤٨٧ / ١٠٩٤) ، معجم ما استعجم ، نشر Wüstenfeld, Göttingen, 1876, 2 vols. ، وهدفه تصحيح نطق الأسماء الجغرافية المشكوك فيها ؛ الزمخشرى (توفى ٥٣٨ / ١١٤٣) ، كتاب الجبال والأمكنة والمياه ؛ معجم البلدان لياقوت (توفى ٦٢٦ / ١٢٢٩) ، نشر Wüstenfeld, Leipzig, 1866, 6 vols ، وهو يعتبر النموذج لهذا النوع . وله مختصر معروف باسم مراصد الاطلاع ، نشر Juynboll, Leyde, 1850-1864 ؛ والقزوينى (توفى ٦٨٢ / ١٢٨٣) ، كتاب عجائب المخلوقات ، نشر Wüstenfeld, Göttingen, 1849 ، كتبه سنة ٦٦١ / ١٢٦٣ ثم أعاد كتابته مطولا تحت عنوان : آثار البلاد وأخبار العباد . وهو يقسم العالم الى أقاليمه السبعة وعلى ذلك فهو أصعب استعمالا من معجم ياقوت . انظر R. Blachère, Extraits .. pp. 250, 251, 257, 264, 264.

(٢) معجم القزوينى يعتبر أتم مثل ، وهو عبارة عن اقتباسات من المؤلفين السابقين (انظر الهامش السابق) ؛ أبو الفدا (توفى ٧٣٢ / ١٣٣١) ، تقويم البلدان ، نشر De Slane et Reinaud, Paris, 1840 ؛ أنظر R. Blachère, Extraits .. pp. 276, 277, 278, 290 sq.

يهدف إلى خدمة كتاب الدواوين ، ويشبه فى روحه ذلك الأدب الذى عالجه ابن خرداذبه وابن رسته وقدامه قبل ذلك بأكثر من ثلاثة قرون . هكذا ظهرت كتب نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى المصرى (توفى ٧٤٣ / ١٣٣٢) ، والتعريف بالمصطلح الشريف ومسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى (توفى ٧٤٨ / ١٣٤٨) ، وأخيرا موسوعة صبح الأعشى فى صناعة الانشا للقلقشندى (توفى ٨٢١/١٤١٨) [١].

أما عن النوع المعروف بالرحلة فإنه لم يظهر — بمعناه المفهوم الآن — إلا فى أواخر القرن الـ ٦ / ١٢ . وعلى عكس كل الأنواع السابقة المشرقية الأصل ظهر نوع الرحلة فى المغرب . وأول من فكر فى تسجيل أحاسيسه أثناء رحلة الحج وتدوين يوميات على مشاهداته فى المشرق هو ابن جبير الأندلسى (توفى ٦١٤/١٢١٧) [٢]. ثم أصبحت رحلة ابن جبير هى النموذج الذى سعى مواطنوه من المغاربة إلى تقليده والسير على منواله حتى أصبح هذا النوع من كتب الرحلات شبه احتكار لهم . فى سنة ٦٨٨ / ١٢٨٩ أى بعد حوالى قرن قام العبدرى برحلته إلى الحجاز عن طريق شمال افريقية ومصر [٣] . وفى سنة ٧٣٦ / ١٣٣٦ قام البلوى وهو اندلسى من مدينة قنتورية برحلته إلى الحجاز عن طريق المغرب ومصر وهو يقلد سابقيه — العبدرى وابن جبير — من ناحية الاسلوب المنمق المسجوع ومن ناحية الموضوع [٤]. وفى سنة ٧٢٥ / ١٣٢٥ تبدأ رحلة ابن بطوطة التى كتبها ابن جزى بمدينة فاس بعد سنة ٧٥٠/١٣٤٩ [٣] والتى ينقل فيها عن ابن جبير والعبدرى .

دور المغرب

مما تقدم نرى أن المغرب قام بدور هام فى تدعيم الجغرافية العربية وامدادها بالمعلومات المفصلة عن شمال افريقية بفضل البكرى والادريسى اللذين سدا هذه الثغرة فى علم المسالك والممالك . ونستطيع أن نضيف الى كتب هذين العالمين

(١) أنظر R. Blachère, Extraits ... pp. 299 sq.

(٢) ابن جبير The travels of Ibn Jubair, éd. De Goeje, Leyden, 1907

(٣) مخطوط المكتبة الوطنية باريز ، القسم العربى ، رقم ٢٢٨٣ .

(٤) مخطوط المكتبة الوطنية باريز ، القسم العربى ، رقم ٢٢٨٦ .

(٣) ابن بطوطة Voyage d' Ibn Batutta, éd. trad. C. Defrémery et le Dr B. R. Sanguinetti, Paris, 1853

كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار (١) وهو كتاب ألفه مراكشي مجهول الاسم ، ولعله كان كاتبا لثالث خلفاء الموحدين المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن ، فمن الثابت أنه ألفه حوالى سنة ٥٨٧ / ١١٩١ . وهذا الكتاب في ترتيبه أشبه برحلة العودة من الحجاز ، إذ يبدأ بوصف مكة والمدينة وصفا دقيقا يختلف عما كتبه سابقوه مثل ابن رسته وغيره ثم يصف مصر والمغرب . وهو فيما يختص بمصر والمغرب ينقل عن كتاب المسالك والممالك للبكرى الذى لم يبق لنا منه إلا قطع قليلة عن مصر لم تزل مخطوطة (٢) ، ويضيف إليها بعض معلوماته الشخصية .

هذا إلى جانب فضل المغرب في ابتكار نوع الرحلة الحجازية بظهور كتب ابن جبير وتابعيه . وهنا يحسن أن نسجل ملاحظة تتلخص في أن هؤلاء الكتاب يكتبون على عهد الموحدين أو خلفائهم بالمغرب — عدا البكرى الذى يكتب على عهد المرابطين — أى في الفترة التى توحد خلالها المغرب جميعا واستقل نهائيا عن المشرق . والتى بدأ يسجل فيها انتصارات سياسية وعسكرية باهرة هيأت له الرخاء المادى وحققت قيام حركة علمية وفكرية قوية ظهر أثرها في الجغرافية كما ظهر في علوم الدين والفلسفة وفي العمارة . ورغم القطيعة السياسية بين المغرب والمشرق فإن هذا لم يمنع المغاربة من الرحلة إلى المشرق وخاصة للقيام بفريضة الحج عن طريق مصر ذهابا وإيابا .

وكان من نتيجة هذا أن مصر لم تكن بالبلد الغريب أو المجهول بالنسبة المغاربة بل هم قد زودوا المكتبة الجغرافية بالمعلومات المناسبة عن مصر كما رأوها . هذه المعلومات تكمل في كثير من النواحى المعلومات الجغرافية المأخوذة عن المصنفات السابقة والروايات الشفهية .

مصر موضوع لعلم العجائب

أول ملاحظة تسترعى الانتباه هى أنه فيما يختص بمصر لم تستطع الجغرافية العربية التخلص من العنصر التاريخى ومن مادة العجائب . بل ربما غلب ذلك على

(١) مخطوط المكتبة الوطنية بباريز ، القسم العربى ، رقم ٢٢٢٥ .
(٢) مخطوط المكتبة الوطنية بباريز ، القسم العربى ، رقم ٢٢١٨ .

الناحية الجغرافية البحتة مما دعا Quatremère [1] إلى إهمال الجزء الخاص بمصر من جغرافية البكرى لأنه فى نظره لم يأت بجديد وتوجيه عنايته الى الجزء الخاص بالمغرب ، واعتقاده عند ما يعالج جغرافية مصر [2] أنه ربما يكون من تضييع وقت القراء وسوء استغلال صبرهم لو قدم لهم الأساطير غير المعقولة التى ليس لها سند تاريخى . أما De Sacy فيخشى « أن يأخذه ذلك السحر الذى يثيره اسم مصر ، ذلك البلد العظيم الغنى بآثار الماضى ، وأن يقلد أبا التاريخ عند ما يعلن أنه سيستطرد ويطيل الحديث عن مصر لأنها تحوى من العجائب أكثر مما يحويه أى بلد آخر ، وأنه ليس هناك اقليم يمكن أن يفضلها فى ذلك ، لما تضمه من آثار عظيمة منبثة فى كل مكان » [3] . تلك هى الحقيقة كما عرفها هيرودوت ، وليست المسألة مسألة خرافات لاتصدق أو أساطير لا سند لها من التاريخ ، إنما هو علم العجائب الوثيق الصلة بالتاريخ والذى بدأ مختلطا بالجغرافية الأدبية من أجل التسلية والترفيه ، ثم نما واستقل وأصبح فرعا من فروعها ألفت فيه الكتب والمصنفات .

ترتب على ذلك أن انقسمت جغرافية مصر إلى قسمين : الأول خاص بمصر القديمة ، والثانى خاص بمصر الإسلامية .

ولم يكن من الغريب أن ترجح كفة مصر القديمة على كفة مصر الاسلامية : فهى عندهم البلد الوحيد المذكور فى القرآن . وهى قد شهدت عددا من الأنبياء : مثل يوسف وموسى . كما أن ثروتها المعمارية القديمة كان من الواجب تأريخها . ولم يكن من الطبيعى أن ننتظر من هؤلاء المؤلفين تأريخا علميا صحيحا لهذه الآثار فهم كانوا بعد بعيدين عن عصر فك رموز الهيروغليفية . إلا أن ذلك لم يكن سببا لأن يترك أساتذة ذلك النوع من المؤرخين المسلمين الذين يؤرخون للعالم المعروف

(1) Notice d'un manuscrit arabe de la Bibliothèque du Roi Contenant la description de l'Afrique. Paris, 1831, p. 9.

(2) Memoires géographiques et historiques sur l'Egypte et quelques contrées voisines. Paris. 1811, p. vi j.

(3) Relation de l'Egypte par Abd al-Latif. Paris, 1810 p. xx. j. (ترجمة كتاب الافادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ، لعبد اللطيف البغدادى — آخر القرن ٦ / ١٢) . وانظر The history of Herodotus ترجمة G. Rawlinson طبعة نيويورك سنة ١٩٤٧ الكتاب الثانى ص ٩٢ .

لهم تاريخ مصر القديمة . والحقيقة أنهم لم يعملوا خيالهم للبحث عن الحلول اللازمة لهذه المسائل بل عملوا على جمع التقاليد والقصص الشعبية التى كانت معروفة فى ذلك الحين ، وحاولوا أن يبحثوا لها عن أساس تاريخى .

بدأ الكتاب الأوائل تاريخ مصر القديم بتحف صغيرة ثم أتى المسعودى وارتحل فى بلاد كثيرة إلى أن انتهى به المطاف إلى مصر حيث توفى . وفى مصر أخذ يجمع المعلومات المفصلة عن البلاد وعن المجتمع المصرى قديما وحديثا : فهو يسأل القبط عن الفراعنة وعن قراءة النقوش القديمة ، ويدون ماقالوه فى النيل والأهرام والبرابى (المعابد القديمة) [1] ، إلى جانب ماينقله عن ابن عبد الحكم أقدم مؤرخى مصر الاسلامية المتوفى بالفسطاط سنة ٢٥٧ / ٨٧١ [2] . ومنهج المسعودى هو ألا يترك أية معلومات جمعها ثم يعرضها مختلطة دون مراعاة أى ترتيب مما يجعل كتابه صعب الاستعمال . وبعد المسعودى بنحو نصف قرن أى فى أواخر القرن الرابع الهجرى (حوالى سنة ١٠٠٠ م) جمع ابراهيم بن وصيف شاه [3] الفارسى الأصل والذى عاش فى مدينة اخميم على مايظن كل هذه المعلومات التى كانت معروفة فى مصر عن طريق الرواية الشفهية وعن طريق كتب القبط كما يؤكد فى كثير من الأحيان . ولابد أنه استعان بما كتبه المسعودى ورتب المادة المجموعة فى كتابه عن العجائب الذى يشبه أن يكون تاريخا علميا حتى نسبت إحدى مخطوطاته إلى المسعودى وأعطيت اسم كتابه المفقود « أخبار الزمان » [4] . وبعد حوالى قرن نقل البكرى عن ابن وصيف شاه تاريخ مصر القديم [5] . وعن البكرى نقل صاحب كتاب الاستبصار ، فى أواخر القرن ٦ / ١٢ ، هذا الجزء [6] .

(١) مروج الذهب ، ج ٦ ص ٣٦٠ ، ٣٧٠ ، ٣٧٢ ، ٤٠١ ، ٤١٤ .

(٢) فتوح مصر والمغرب والاندلس ، نشر H. Massé ، القاهرة ، ١٩١٤ .

(٣) الترجمة الفرنسية لـ Carra de Vaux تحت عنوان L'Abrégé de Merveilles, Paris, 1898

انظر Orientalistische Litteratur Zeitung, Erster Jahrgang, 1898, 15 Mai 1898, p. 146 حيث حقق للمؤلف E. Seybold أن ابراهيم بن وصيف شاه يكتب حوالى سنة ١٠٠٠ بينما قال Carra de Vaux (ص XXXIII) أنه عاش فى مصر فى نهاية القرن ٧ / ١٣ م .

(٤) انظر ترجمة عجائب ابراهيم بن وصيف شاه Carra de Vaux, l'Abrégé des Merveilles, p. XXXVIII .

(٥) مخطوط باريز ، رقم ٢٢١٨ ، ص ١٢ — يسبقه جزء مفقود — الى ص ٤٤ .

(٦) مخطوط باريز ، رقم ٢٢٢٥ ، ص ١ — ١٧ إلى ١ — ٣٤ .

هكذا وصلتنا معلومات المسعودى التى فقدت مع كتبه الضائعة مثل أخبار الزمان والكتاب الأوسط والتى رفض أن يعيد تدوينها فى كتابه مروج الذهب كما يقول [1]. وهذا التاريخ ينقسم إلى مرحلتين يفصل بينهما الطوفان . أما عن كلمة مصر فهى عند هؤلاء المؤلفين اسم أول ملك نزل البلاد بعد الطوفان [2] . وفيما يتعلق بموضوع هذا التاريخ فهو عبارة عن سلسلة من الأساطير والخرافات الخيالية البديعة النسج الخاصة ببناء الأهرام والمدن القديمة والمعابد العتيقة . أما الملوك القدماء فمعظمهم طغاة كفرة أو فراعنة يعبدون البقر والنجوم ، وهم ظلمة يستعملون العلوم والحكمة لتحقيق مآربهم الأنانية ، ويحكمون بالارهاب والتخويف . وهم مابين فيلسوف وكيميائى وفلكى وساحر ممن يسخرون الناس والجان والذين يعرفون الماضى كما يلمون بعلم الغيب . وخلال ذلك وبعد الطوفان يأتى تاريخ الانبياء والقديسين . ويبدأ بنوح وتعمير البلاد على عهد مصر وابنه القبط ويمر سريعا بموسى وابراهيم ويستطرد أخيراً فيطيل الحديث عن يوسف . هذه الأساطير من الصعب التقريب بينها وبين روايات هيرودوت أو قوائم مانيتون (Manéthon) المؤرخ المصرى عاش فى القرن الثالث قبل الميلاد .

وينتهى تاريخ مصر القديم بذكر قصة الفتح العربى لمصر ، وهى مأخوذة فى جملتها عن ابن عبد الحكم الذى ينقل عنه معظم الكتاب [3].

مصر فى كتب المسالك والممالك

ظهر علم العجائب — كما رأينا — للتسلية بينما كان ظهور نوع المسالك لخدمة أصحاب الدواوين : فموضوعه الجغرافية الوصفية أي وصف البلاد وصفا حقيقيا لمعرفة طرقها وثروتها الطبيعية وأخبار المؤن اللازمة لحياتها والأموال والجباية

(١) مروج الذهب ، ج ٢ ص ٣٧١ ، ٣٩٧ ، ٤١٣ .

(٢) نعتقد أن اسم مصر يحمل معناه العام أى الحضر أو البلد الكبير المتمدن ، وأن العرب أعطوها إياه بمعنى إنها البلد المتحضر دون غيرها من البلاد . أنظر معنى كلمة المصر عند المقدسى ، أحسن التقسيم ، ص ٧ .

(٣) فتوح مصر والمغرب والاندلس ، القاهرة ، ١٩١٤ ، ص ٤٥ وتابع ؛ انظر البكرى المخطوط ، ص ٤٤ — ٤٥ ؛ الاستبصار ، المخطوط ، ص ١ — ٢٤ — ١ — ٣٦ ؛ قارن ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ص ٨٩٣ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٢٨٨ وتابع ؛ النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٥ وتابع ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٦٢ وتابع .

الداخلة إلى بيت المال . ولكن الذى حدث هو أنه بدلا من أن يعدنا الكتاب بالمعلومات الدقيقة عن أحوال مصر ، التفتوا إلى غرائبها الأزلية التى أنستهم فى أغلب الأحيان وقائع حاضرها . فمصر من الناحية الطبيعية أيضا مليئة بكل ماهو عجيب : مثل النيل ومنطقة الفيوم ومدن الصعيد ومدن الدلتا ، إلى جانب أهرام الجيزة ومنار الاسكندرية . هكذا ظهرت مصر فى مسالك البكرى الذى يشبه أن يكون مختصرا مخصصا لاستعمال الكتاب بفضل أسلوبه الجاف وتفصيلاته الدقيقة وعنايته الخاصة بطرق المواصلات .

ووصف مصر بوجه عام عند هؤلاء الكتاب يتلخص فى انها عند الفيضان « درة بيضاء » وعند انحسار الماء وفترة البذر « مسكة سوداء » تفوح من أرضها رائحة عطرة ، وهى إذا كبر الزرع « زبرجدة خضراء » ثم هى أخيرا عند ما يصفر ويتناهى « سبيكة حمراء »[1].

والنيل من عجائب العالم : فهو مخالف لكل أنهار الدنيا إذ يجرى من الجنوب إلى الشمال ، ثم هو أطولها إذ لا يعرف له منبع من تحت جبل القمر وراء خط الاستواء وهو الوحيد الذى يسمى بحرا وبما[2]. ومن عجائبه أنه يوجد فيه التمساح وأعجوبة أخرى هى السمكة الرعادة التى تخدر يد من يلمسها[3]. وللنيل أعياد

(١) البكرى ، المخطوط ، ص ٧ ؛ الاستبصار ، المخطوط ، ص ١ ٣٦٠ ؛ قارن المسعودى ، مروج الذهب ، ج ١ ص ٣٥٧ والتنبيه والاشراف ، ص ٢١ .

(٢) البكرى ، مخطوط باريز ، ص ٨ ؛ الاستبصار ، مخطوط باريز ، ص ١ ـ ٥ ؛ كتاب الجغرافية ، مخطوط المتحف البريطانى ، رقم add 25, 743. ؛ قارن المسعودى ، مروج الذهب ، ج ١ ص ٢٠٥ ، ٢١١ ، ج ٢ ص ٣٦١ ، ج ٦ ص ٢٧٣ . يلاحظ أن هذه المعلومات أصبحت تقليدية بدأ بها الجغرافيون الأوائل وتناقلها الكتاب حتى النهاية .

(٣) لم يفت أحد من الكتاب السابقين واللاحقين الكلام عن التمساح والرعادة . وكان التمساح بالذات موضوع أدب خصب : فهو لا يقرب بعض البلاد مثل الفسطاط وانصنا ولا يضر فى نواحيها ، بينما هو أكثر ما يكون عدوانا بالشاطىء المقابل لانصنا فى قرية الاشمون (الاستبصار ، المخطوط ص ب ٣٦) . وكذلك ببردوس حتى قيل : احذر بردوس ولو كان الماء فى قادوس (المقدسى ص ٢٠٨) ؛ وبلغ الخوف منه الى أن قيل فى النيل :

أظهرت للنيل هجرا ومقلية ... إذ قيل لى انما التمساح فى النيل
فمن رأى النيل رأى العين من كثب ... فما أرى النيل إلا فى البواقيل

(المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٦ ص ٢٧٤) .

ومواسم منها عيد الصليب وهو عيد وفاء النيل صيفا وعيد الغطاس شتاء ويحتفل به أهل العاصمة احتفالا عظيما[1].

ومنطقة الفيوم هي الأخرى ، بفضل أعمال الري الدائم وتوفر المياه فيها على مدار السنة ، أعجوبة من عجائب العالم ينبغي أن تكون معجزة ربانية حبا الله بها يوسف النبي[2]. فالفيوم قطر كبير فيه من القرى عدة ما في قطر مصر ، وربما بلغ عددها ٣٦٠ قرية على عدد أيام السنة ، فإذا نقص النيل وغلا السعر بمصر مارت كل قرية منها مصر يوما . والفضل في ذلك لسد اللاهون الذي ينظم ريها . والفيوم تشرب من ١٢ ذراعا بينما ري مصر من ١٦ ذراعا . وإذا زاد النيل عن ١٢ ذراعا احتفل بسد حجر اللاهون وأرسلت البشائر إلى العاصمة . وبينما تزرع مصر زرعة واحدة يزرع الفيوم مرتين في العام ، وحاصلاته متنوعه مختلفة من القمح والشعير والأرز والفواكه الكثيرة والرطب .

وعند ذكر الفيوم تذكر بلد القيس أو القيسين التي سميت باسم قيس بن الحارث الذي بعثه عمرو بن العاص لاكتشاف الفيوم حسب رواية ابن عبد الحكم[3].

---

(١) البكري ، المخطوط ، ص٩ ؛ الاستبصار ، المخطوط ، ص ب—١٦ ؛ قارن المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٣٦٤— ٣٦٥

(٢) تقول الأسطورة أنه حفرها في ٩٠ يوما فلما رآها الله قال هذا عمل ألف يوم فسميت الفيوم ، أو « لأن اخراجها ألف دينار كل يوم » (البكري ، المخطوط ، ص٣٧ ؛ الاستبصار ، المخطوط ، ١— ٤٢ ، ١ — ٤٠ ؛ قارن ابن عبد الحكم ، ص ١٢ — ١٣ ؛ المسعودي ، مروج الذهب ج ٢ ص ٣٦٩ — ٣٧٠ ؛ المقريزي ، الخطط ، ج ١ ص ٢٤١ وتابع) . وهذا التفسير غير صحيح إذ أثبت Quatremère (Memoires géog. et hist p. 391) أن كلمة فيوم قبطية ومعناها البحر .

(٣) الأجزاء الموجودة من البكري غير كاملة وعلى ذلك نرجع الى كتاب الاستبصار ، المخطوط ص ١— ٣٢ ، ١— ٤٠ وتابع ؛ قارن المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ص ٣٧٠ ؛ (يذكر أنه ذكر كيف حفرها يوسف في الكتاب الأوسط فأغنى ذلك عن اعادته في هذا الكتاب) ، ج ٢ ص٣٨٤— ٣٨٥ ؛ وهذه المعلومات موجودة مبعثرة عند بقية الكتاب: اليعقوبي ، ص ٣٣١ ؛ ابن الفقيه ص ٦٧ ، ٧٤ ؛ الاصطخري ، ص ٥٠ ، ٥٦ ؛ المقدسي ، ص ١٩٥ ، ٢٠٨ ، ٢١٢ ، ٢٤١ ؛ ابن حوقل ، ص ٩٧ ؛ ابن وصيف شاه ترجمة Carra de Vaux ، ص ٢٥٤ ؛ الادريسي ص ٤٥ ، ٤٦ ، ١٤٣ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ؛ معجم البلدان ، ج ٣ص ٩٣٥ - ٩٣٦ .

أما عن نسبة القيس الى قيس بن الحارث كما تقول الرواية الاسلامية فإن Quatremère أوضح أن هذه المدينة كانت موجودة بهذا الاسم قبل الفتح العربي : أنظر Memoires géog. et hist. p. 141 et suivante

إذا كانت الفيوم قد أثارت الاعجاب بثروتها الزراعية وغناها فإن الصعيد قد أثار إعجابهم أيضا لغناه وثروته الأثرية التي ضاعت في غمار وصفها معالم المدن الحديثة وأوجه نشاط أهلها الاقتصادي والاجتماعي. وأسيوط معروفة بغناها الزراعي إذ هي بسيط من الأرض لو قطرت فيه قطرة فاضت على جميع نواحيه، يبذر فيها جميع الحبوب فإذا اخضرت فلا يكون على الأرض بساط أعجب منه. وجانبها الشرق قد اشتبكت في رياضه الاشجار والكروم، فلا تسمع فيه الكلام من كثرة أصوات الطيور. وهي أكثر بلاد الله قصب السكر وأطيب [1]. أما اخميم المدينة الأزلية فلا تعرف إلا ببربارها الذي تحدث فيه المعجزات، وبذى النون المصرى الزاهد الاخيمى الأصل (متوفى سنة ٢٤٥/٨٥٩)، الذى تخصص فى دراسة معبد المدينة القديم [2]. وأنصنا هي مدينة السحر في زمن فرعون [3]. أما قوص فهي كبيرة أزلية قديمة بها آثار للأوائل، بينها وبين أسوان غيران منحوتة في الجبال بها قبور الأموات، وبينها وبين أسوان معادن الذهب [4]، وبالقرب منها معادن الزمرد الذى لا يوجد إلا هناك [5]. ومدينة قفط متوسطة أزلية بينها وبين قوص ٤ أميال

---

(١) البكرى، المخطوط، ص ١١؛ الاستبصار، المخطوط، ص ا — ١٥، ١ — ٣٧

(٢) البكرى، المخطوط، ص ١٤؛ الاستبصار، المخطوط، ص ب — ٢٢، ب — ٣٦؛ قابل المسعودى، مروج الذهب، ج ٢ ص ٤٠١؛ المقدسى، ص ٢٠٠؛ ياقوت، ج ١ ص ١٦٥؛ ابن دقماق، ص ٣٥؛ المقريزى، الخطط، ج ١ ص ٣١، ٣٩؛ عن ذى النون المصرى، انظر السيوطى، حسن المحاضرة، ج ١ ص ٢٩٣؛ Brockelmann, G, II, 02; L. Massignon, Passion d'al-Hallaj, t I, p. 192.

(٣) الاستبصار، المخطوط، ص ا — ٣٧؛ قارن المسعودى، مروج الذهب، ج ٢ ص ٤٠٤؛ انظر المقريزى، الخطط، ج ١ ص ٢٩، ٢٠٤ حيث ينقل ما كتبه البكرى ولا يوجد في مخطوط باريز.

(٤) الاستبصار، المخطوط، ص ا — ٣٧؛ انظر اليعقوبى، ص ٣٣٣ — ٣٣٤؛ ابن حوقل، ص ١٠٧؛ كتاب الجغرافية، المخطوط، ص ب — ٣٥، ا — ٣٦؛ الادريسى، ص ٤٩.

(٥) الاستبصار، المخطوط، ص ا — ٣٧. ما يتعلق بالزمرد مأخوذ عن المسعودى. انظر مروج الذهب، ج ٢ ص ٤٣ وتابع، والتنبيه، ص ٢٢؛ وقارن المقريزى، الخطط، ج ١ ص ١٩٤، ١٩٧.

وفيها بربى [1] . وأسوان آخر مدن مصر وهى ثغر لاتصالها بالنوبة وهم كفرة [2].
ومن أسوان الطريق إلى عيذاب التى يسلك منها إلى الحجاز وبلاد اليمن والهند [3].

وعلى عكس الصعيد لم تستحوذ الدلتا أو أسفل الأرض على اهتمام الجغرافيين لقلة آثارها وعجائبها ، إذ يمر بعضهم بها دون ذكر ، ويكتفى غيرهم بتعداد كورها ومدنها [4]. وإذا كان فيها مايستحق الذكر فهو مدينتا تنيس ودمياط بسبب شهرتهما كمركزين للنسيج الممتاز . فبتنيس « وأكثر أهلها حاكة ، تحاك ثياب الشروب التى لايصنع مثلها فى الدنيا » . ومناسجها لاتكتفى باستعمال خيوط الغزل العادى ، إذ بلغت من الترف درجة استعمال خيوط المعادن الثمينة . وفيها كانت دور الطراز التى يصنع فيها « لصاحب مصر قيص لايدخل فيه من الغزل سداة ولحمة غير أوقيتين وينسج من الذهب ٤٠٠ دينار . والذى تبلغ القيمة فيه ١٠٠٠ دينار . وليس فى جميع الدنيا طراز ثوب كتان يبلغ الثوب منه وهو ساذج دون ذهب ١٠٠ دينار عينا غير طراز تنيس ودمياط [5] » . إلى جانب ذلك عرف أهلها بصيد طير السمانى .

(١) الاستبصار ، المخطوط ، ص ا — ٢٧ ؛ قارن المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٥٠ ؛ اليعقوبى ، ص ٣٣٢ ؛ الادريسى ، ص ٤٨ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ص١٥٢ .

(٢) الاستبصار ، المخطوط ، ب — ٢٧ ؛ قارن اليعقوبى ، ص ٣٣٤ ؛ ابن الفقيه ، ص ٦٠ ؛ المقدسى ، ص٢٠٠ ؛ ياقوت ، المعجم ، ج ١ ص ٢٦٩ .

(٣) الاستبصار ، المخطوط ، ص ب — ٢٧ ؛ قارن اليعقوبى ، ٣٣٥ ؛ كتاب الجغرافية ، المخطوط ، ص ب — ٣٥ ؛ الادريسى ، ص ٥١ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ٢٦٩ .

(٤) ابن خرداذبه لايذكر عنها شيئا وكذلك ابن رسته وابن الفقيه وكذلك المسعودى فى كتبه الموجودة .

(٥) هذه المعلومات التى يوردها صاحب كتاب الاستبصار (المخطوط ، ص ب — ٣٨) مأخوذة عن المسعودى ولكنها ليست فى كتبه الموجودة تحت أيدينا ولا فى التحف الموجودة من مخطوط البكرى ؛ انظر المقريزى الذى ينسبها الى المسعودى (الخطط ج ١ ص ١٧٧) . وقارن اليعقوبى ، ص ٣٣٧ ؛ المقدسى ، ص ٢١٣ (يتكلم عن الثياب الشطوية — نسبة الى شطا من كور تنيس — التى لايمكن القبطى أن ينسج شيئا منها إلا بعد مايختم عليها بختم السلطان ولا أن تباع إلا على يد سماسرة قد عقدت عليهم وصاحب السلطان يثبت ما يباع فى جريدته) ؛ ابن حوقل ، ص ١٠١ ، كتاب الجغرافية ، المخطوط ، ص ب — ٤٠ ؛ الادريسى ، ص ١٥٠ ، ١٥٦ . انظر Maspéro (J) et Wiet (G), Mémoires de l'Institut du Caire, t. 36, p. 60 - 1

نلاحظ هنا أن صاحب الاستبصار لايكتفى بنقل ماكتبه المسعودى بل يغرر بالقارئ عندما يذكر أن بتنيس ودمياط نصارى هم الآن تحت الذمة ، فيذكر السنة التى يكتب فيها ويقول ونحن الآن فى سنة ٥٨٦هـ/ ١١٩١ م . (عن صناعة النسيج فى دمياط وما جاورها انظر جمال الدين الشيال ، مجمل تاريخ دمياط ، الاسكندرية ، ١٩٤٩ ، ص ٦٩ وما بعد) .

وكما هي العادة كان غنى المدينتين الساحليتين سببا في نسج الأساطير حولها : فلقد كانتا من أغنى بلاد مصر زراعات وفواكه فهما الجنتان المذكور صاحبهما في القرآن بأنه قال لصاحبه « أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا » فطغى عليهما البحر وأصبحتا جزيرتين [1]. أما الفرما فتباهى بأنواع رطبها إذ تبلغ الثمرة قدرا وتزن ٢٠ درهما. ومدينة رشيد كبيرة على كثيب رمل عظيم وعلى ضفة النيل قرب البحر، وإذا هبت الريح الغربية ملأت عليهم سككهم وبيوتهم فلا يقدرون التصرف في أسواقهم [2]. ذلك كان نصيب مصر الهزيل في كتب المسالك والممالك حتى الوقت الذى بدأت تظهر فيه كتب الرحلة .

مصر كما وصفها أصحاب كتب الرحلة

لما كان هدف أصحاب الرحلة من المغاربة هو زيارة الأماكن المقدسة بالحجاز والتزود من علوم المشرق لم تكن إقامتهم تطول بمصر إلا في مدينتيها الكبيرتين : الاسكندرية ، أول محطة كبيرة تلقاهم من جهة البحر أو الصحراء ؛ ثم القاهرة ، قصبة الديار ومركزها العلمى الممتاز وملتقى قافلة الحاج المصرى . ترتب على ذلك أن بقية مدن مصر لم تحظ منهم بكثير من العناية عدا ابن جبير الذى جعل طريق ذهابه في النيل الى الصعيد وعيذاب قبل هزيمة الصليبيين وكسرهم في الشام .

ونلاحظ أنه فيما يختص بقاعدة مصر — الفسطاط ثم القاهرة — لا ينفك الجغرافيون من متقدمين ومتأخرين على اختلاف مناهجهم عن إيراد المعلومات التى أصبحت تقليدية من وصف عجائب منف وعين شمس القريبتين [3] ، ثم الهرمين

---

(١) الاستبصار ، المخطوط ، ص ب — ٣٨ ؛ ابن وصيف شاه ، ترجمة Carra de Vaux ، ص ٤١ ؛ المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٣٧٤ ؛ الادريسى ، ص ١٥٦ .

(٢) الاستبصار ، المخطوط ، ص ا — ٣٩ .

(٣) كل منهما على بعد ٣ أو ٤ أميال من الفسطاط . منف هى العاصمة الفرعونية القديمة الأزلية وكانت دار مملكة الملوك القدماء ، بها دار فرعون . وعين شمس أزلية وهى مدينة فرعون بها الآثار الكثيرة والتماثيل والنقوش ، شهيرة بدهن البلسان . البكرى ، المخطوط ، ص ٥٦ ؛ الاستبصار ، المخطوط ، ص ب ٣٦ ؛ اليعقوبى ، ص ٣٣١ ؛ ابن الفقيه ، ص ٧٣ ؛ الاصطخرى ص ٥٤ ؛ المقدسى ، ص ٢٩٠ ؛ ابن حوقل ، ص ١٠٦ ؛ الادريسى ، ص ١٤٥ ؛ عبد اللطيف ، ص ١٠٦ ، ١١٦ .

وهما موضوع أدب خصب [1] وأبى الهول المكسور الأنف والشفتين [2].
والفسطاط نفسها « أهل من نيسابور وأجل من البصرة وأكبر من دمشق » [3]
وهى شهيرة بناطحات سحابها — إذا جاز استعمال هذا المصطلح — فدورها كالمنائر
يأتيها النور من وسطها ، وربما بلغت طبقات الدار الواحدة ٨ طبقات وربما بلغ
سكانها ٢٠٠ نفس [4]. وبها جامع عمرو الشهير ثم جامع ابن طولون . وفى الجزيرة
التى بين الفسطاط والجيزة توجد دار الصناعة ومقياس النيل [5].

وأول ذكر عند الجغرافيين للقاهرة نجده فى مسالك ابن حوقل الداعية
الفاطمى [6] ولكنها كانت فى بداية عهدها فاكتفى بالاشارة إليها وبأنها « مدينة

(١) تواترت معظم الكتاب أنهما متساويان حجما فقياسها : ٤٠٠ ذراع طولا ، ٤٠٠ ذراع عرضا ، ٤٠٠ ذراع ارتفاعا . ومكتوب عليها بالخط « المسند » وهو خط القدماء (يخطىء البعض فيقول باليونانية : الاصطخرى ، ص ٤٨ ؛ ابن حوقل ، ص ١٠٠ ؛ المقدسى ، ص ٢١٠) . وهما مبنيان من حجارة مرمر ورخام طول الحجر ١٠ أذرع وعرضه ١٠ أذرع ، والحجارة مهندمة لا يتبين منداما إلا الحاد البصر ولا تسمح بمرور الابرة بينها . هذا ولقد ذهب البعض إلى أن الحجارة متماسكة بعمد الحديد مشدودة بالرصاص .

أما عن بانيها فالآراء مختلفة : فالكتاب يعرفون أنها من بناء الملوك الأقدمين قبل الطوفان وأنها مقابر لهم . ولكن بعضهم ينسبها الى يوسف على انها الأهراء التى جمع فيها الطعام استعدادا لسنوات الجدب أو أنها طلسمات لمنع الرمل من أن يغير على العاصمة . وذهب البعض الى انها من بناء بطليوس بانى منار الاسكندرية . ومن الثغرة التى يدخل منها الى الهرم الأكبر فيقال إن المأمون هو الذى أمر بفتحها عندما حضر الى مصر سنة ٢١٦ هـ . وتم ذلك خلال مغامرات مدهشة . البكرى ، المخطوط ، ص ١٢ ، الاستبصار ، المخطوط ، ص ١ — ١٩ وتابع (مأخوذ عن المسعودى ، مروج الذهب ج ٢ ص ٣٧٩ وابن وصيف شاه ، ترجمة Carra de Vaux ، ص ١٧١ ، ٢١٠) ؛ قابل ابن خرداذبه ص ١٥٩ ؛ ابن رسته ، ص ٨٠ ، ١١٥ ؛ ابن الفقيه ، ص ٦٨ ؛ الاصطخرى ، ص ٥١ ؛ المسعودى ، التنبيه ، ص ١٩ ، المقدسى ، ٢١٠ ؛ ابن حوقل ، ص ٨٨ ، ١٠٠ الخ .

(٢) المقدسى ، ص ٢١٠ ؛ ابن جبير ، ص ٥٤ .

(٣) المقدسى ، ص ١٩٧ .

(٤) الاصطخرى ، ص ٤٨ ؛ المقدسى ، ص ١٩٨ ؛ ابن حوقل ، ص ٩٦ ؛ الادريسى ، ص ١٤١ ، عبد اللطيف ، ص ٢ .

(٥) البكرى ، المخطوط ، ٩ ، ولاحظ البكرى تفصيلا دقيقا وهو أنه عند قياس ارتفاع النيل تحسب الى ١٢ ذراع الأول بحسب الذراع ٢٨ أصبعا وما زاد على ذلك بحسب الذراع ٢٤ أصبعا وهو طول الذراع المعتاد ص ٨) ؛ المسعودى مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٣٦٦ ؛ الادريسى ، ص ١٤٤ ؛ ابن جبير ، ص ٥٤ .

(٦) ابن حوقل ، ص ٩٧ .

أجدها أبو الحسن جوهر فى أمير المؤمنين ومصباح دولته » . ولم يضف المقدسى المعاصر له شيئا عنها (١) . وبعد قرن لم يزد البكرى إلا أنها على نحو ميلين من الفسطاط فى خرابة كانت مساكن لكتامة وغيرها وأن الحاكم الفاطمى بنى مسجدا عظيما فى الطريق ما بين الفسطاط والقاهرة مكان ٣ مشاهد كانت هناك . ويذكر كيف أن الحاكم حاول بالحيلة نقل جثة النبي الى هذا الجامع ولكنه فشل فى تدبيره (٢).

والغريب أن المتأخرين من جغرافيي القرن الـ٦ والـ٧ والـ٨ للهجرة اكتفوا بالنقل ولم يضيفوا إلى هذه المعلومات كثيرا رغم الأحداث التى طرأت على كل من البلدين (٣). ويرجع الفضل إلى جغرافية الرحلة ، رحلة الحج ، فى سد هذه الثغرة واضافة معلومات جديدة لها قيمتها التاريخية والاجتماعية والأثرية .

قام ابن جبير مبتكر هذا النوع أو الذى أعطاه شكله النموذجى برحلة من الاندلس ووصل الى مصر فى أوائل عهد صلاح الدين (أواخر سنة ٥٧٨ / ١١٨٢) ، ودون ملاحظاته ومشاهداته فى البحر — أثناء رحلة المركب الجنوى الذى نقله من سبته الى الاسكندرية — وفى مصر ومكة والمدينة والشام .

ميزة ابن جبير تتلخص فى أنه قوى الملاحظة دقيق فى روايته ، لا يكتفى بأخبار سابقيه إنما يتحرى الحقيقة بنفسه (٤) . فى الفسطاط يحدد مكان نزوله بفندق

---

(١) المقدسى ، ص ٢٠٠ .

(٢) البكرى ، المخطوط ، ص ٥٥ ؛ الاستبصار ، المخطوط ، ص ٢٦ — ٢٦ (ينقل البكرى).

(٣) كتاب الجغرافية لكاتب اندلسى من القرن السادس الهجرى ، مخطوط المتحف البريطانى ، رقم add ٢٠،٧٤٣ . لا يذكر القاهرة . ويكتفى الادريسى بالحديث عن الفسطاط . وحتى ياقوت فى معجمه يستطرد استطرادا كبيرا عن الفسطاط (ج ٣ ص ٨٩٣ الى ٩٠٠) ويخص القاهرة بالقليل (ج ٤ ص ٢٢) رغم علمه بخراب الفسطاط وان القاهرة كما يذكر « هى اليوم المدينة العظمى » .

(٤) فنيما يتعلق بقياس الأهرام مثلا لا يأخذ بما اتفق عليه الكتاب والمساح . بل يلاحظ أن أحد الهرمين أكبر من الآخر ويأتى بقياسات جديدة رغم أنها غير دقيقة . فطول الهرم الأكبر ٣٦٦ خطوة من الركن إلى الركن (ص ٥٣) . وكذلك الحال بالنسبة لمعبد اخيم إذ يعطى مقاييسه وعدد عمده إلى جانب وصفها (ص ٦١) . ويحسن الاشارة هنا إلى عبد اللطيف البغدادى الذى كان يزور مصر قريب هذا الوقت فهو يحسب ارتفاع عمود الهرم ب ٣٠٧ ذراعا وطول كل ضلع من مثلثات سطحه ب ٤٦٠ ذراعا ذراعا (Abdollatiphi , Historiae Ægypti , Londini , 1800 — نص عربي وترجمة فرنسية بمعرفة J. White, S. T. P.) ص ٩٤ ؛ انظر هامش رقم ٥٠ .

أبى النساء فى زقاق القناديل بمقربة من جامع عمرو بن العاص ، فى حجرة كبيرة على باب الفندق . وهو يزور القرافة ، وهى الجبانة التى ينعتها بأنها إحدى العجائب حيث الروضات (المقابر) البديعة ومشهد ذى النون المصرى [1] ، والتى كانت غاصة بالمساجد والسقايات الحسنة : كما كانت موضع خلوة وملجأ للعباد وسوقا لطلاب الآخرة كما يقول المقدسى[2] ، ويبيت فيها تبركا . ثم هو يزور بعد ذلك مساجد القاهرة مثل مسجد الحسين ، وجامع ابن طولون الذى كان مأوى الغرباء من المغاربة حيث تجرى عليهم الأرزاق . ويلاحظ أن الجماعة المغربية بالقاهرة تتمتع بامتيازات خاصة إذ كانت تحكم نفسها بنفسها بإذن السلطان (صلاح الدين)[3]. وهو يصف المارستان ويزور القلعة ويشاهد أعمال الحفر ونشر الرخام وإنشاء السور التى يقوم بها أعداد لا تحصى من أسرى الروم [4] .

أما عن المجتمع المصرى فالظاهر أن ابن جبير لم يرتح إليه كثيرا . فهو مغرق لم يعتد التنظيم الجمركى والإدارى الدقيق فى مصر كما يصفه[5] ، ولا أنواع الضرائب التى يقومها بالعملة المصرية والمؤمنية (الموحدية) عملة بلاده [6] . وهو يتألم لذلك ويتضرر من التفتيش الجمركى ويعتبره نوعا من التجسس : ويرجو لأهل عيذاب — وهى من أحفل مراسى الدنيا — من حيث عبر البحر الأحمر إلى الحجاز « حسبة يكون السيف دونها » ، وينصح من يمكنه ألا يراها أن يكون طريقه كله على الشام [7] . وبصفته موحديا متعصبا لمذهبه يرى أنه « لا إسلام إلا ببلاد المغرب وما سوى ذلك مما بهذه الجهات المشرقية فأهواء وفرق ضالة وشيع » . كما إنه لا عدل ولا حق ولا دين إلا عند الموحدين [8] . وهو يرى

(١) ابن جبير ، ص ٤٦ . عن ذى النون المصرى انظر هامش رقم ٢ ص ١٠٢ .
(٢) المقدسى ، احسن التقسيم ، ص ٢٠٩ .
(٣) ابن جبير ، ص ٥٢ .
(٤) نفس المرجع ، ص ٥١ .
(٥) نفس المرجع ، ص ٣٩ .
(٦) ابن جبير ، ص ٥٥ .
(٧) ابن جبير ، ص ٧١ .
(٨) نفس المصدر ، ص ٧٨ .

أن كل الدلائل تبشر باستيلاء الموحدين على مصر وأن أهل البلاد يتمنون ذلك ويستعدون للحادث السعيد[1].

ونعتقد أن ذم أهل مصر — إلى جانب فضائلها — أصبح موضوعا تقليديا هو الآخر . بدأه الجاحظ ونقل عنه المتأخرون عندما قال : « أهل مصر أعقل الناس صغارا وأحمقهم كبارا » . وان أبا دلامة جاء إلى مصر فلما رجع إلى العراق سئل عنها فقال : « ثلثها كلاب وثلثها تراب وثلثها دواب فقيل له فأين الناس قال في الثلث الأول »[2] . وأورد المقدسي أن مشايخهم لا يتورعون عن شرب الخمر ولا نساؤهم عن الفجور : « للمرأة زوجان . . مع سمرة وقبح لسان »[3] . فإذا أضفنا الى ذلك تعصب المغاربة لم ندهش عندما نرى العبدري ، بعد مائة عام تقريبا (٦٨٨ / ١٢٨٩) ، على عهد بني مرين والحفصيين خلفاء الموحدين ، يبالغ في ذم أهل مصر ويذكر بما قاساه ابن جبير بالاسكندرية[4] ، ويخص القاهرة وأهلها بهجائه . فالقاهرة كما رآها : « مدينة كبيرة القطر وساكنها يحاكي عدد الرمل وهي مع ذلك تصغر عن أن يسطر ذكرها في سطر .

ان نظرت إلى صورتها ذكرت قول القائل :

بغاث الطير أطولها رقابا ولم تطل البزاة ولا الصقور

وإن تأولت معناها ذكرت قوله :

وقد عظم البعير بغير لب فلم يستغن بالعظم البعير

وإن تأملت إفراط عمارتها ذكرت قوله :

خشاش الطير أكثرها فراخا وأم الصقر مقلال نزور »

ثم يستطرد قائلا : « وحسبها شرا أنها جرين لحثالة العباد ووعاء لنفاة البلاد ... سم الغش ممزوج في عسل النحل . خرجت عمارتها عن الحد المألوف وزادت

(١) نفس المصدر ، ص ٧٩ .

(٢) انظر البكري ، المخطوط ، ص ١١ ؛ كتاب الاستبصار ، المخطوط ، ص ا — ١٧ ؛ العبدري ، المخطوط ، ص ب — ٦٨ .

(٣) المقدسي ، ص ٢٠٠ .

(٤) العبدري ، المخطوط ، ص ا — ٥١ .

كثيرا على القدر المعروف . أما بغضهم للغريب وتمالؤهم على ذلك فأمر لا يحيط به علما إلا من عاينه . ما رأيت بالمغرب الأقصى والأندلس على شكاسة أخلاقهم[١] . وباعتباره سنيا متعصبا لمذهبه يقول : « وحق لمدينة وضع أساسها عبد الزنادقة غلام بن عبيد – لعنهم الله – أن تجمع أخلاق العبيد وأحوال الزنادقة » . « قل ما ترى من أهلها رجلا صافي اللون إلا كان من غيرها »[٢] .

بعد ذلك يورد أنه رغم ما ذكر ، فقد كاد المغاربة يفضلون على أهل البلاد بكثير لطيب الأرض وسعتها وكثرة أرزاقها » . ويحتج بما قاله ابن جبير منذ قرن من أنه « على لسان الكبير والصغير أن مغربيا يملكهم »[٣] .

الى جانب هذا يحدد العبدرى مكان نزوله بالمدرسة الكاملية ، ويعدد المزارات . وفيما عدا ذلك ينقل ما كتبه البكري وما سبق أن نقله صاحب الاستبصار عن النيل والأهرام [٤] . وهو يحاول أن يصحح معلومات البكرى وينقدها وخاصة ما يتعلق منها بالمغرب ناسيا حساب الزمن وتغير الظروف .

وبعد حوالى ٥٠ عاما أى فى سنة ٧٣٦ / ١٣٣٥ قام خالد بن عيسى البلوى الأندلسى برحلته الحجازية مخترقا المغرب حتى تونس ومنها ركب البحر إلى مصر . والبلوى فى القاهرة يعطينا تفصيلات مطولة أكثر من سابقيه عن المبانى والأسواق والمساجد والمدارس والمرابع والمصانع . كما يمدنا بإحصاءات توصل إلى نقلها عن المسؤلين : فالمراكب الموجودة فى النيل ١٠٠ ألف [٥] ، والجمال الداخلة إلى القاهرة بالماء ٢٠٠ ألف جمل كل يوم إلى جانب ٦٠ ألفا من دكاكين

---

(١) العبدرى ، المخطوط ، ص ب ٦٧ ، ا — ٦٨ .

(٢) نفسه ، ص ب — ٦٨ .

(٣) نفسه ، ص ب — ٧٩ ، ا — ٨٠ ؛ قارن ابن جبير ، ص ٧٩ . هذه الفصول التى كتبت فى ذم مصر أصبحت تقليدية حتى ان الكتاب المصريين سيوردونها أيضا فى موضوعاتهم . انظر المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٥٠ وهو يضيف اليها ما قاله أستاذه عبد الرحمن بن خلدون المغربى كذلك من أن أهل مصر كأنهم فرغوا من الحساب .

(٤) العبدرى ، المخطوط ، ص ا — ٧٩ وتابع . قارن البكرى ، المخطوط ، ص ١٢ وتابع ؛ الاستبصار ، المخطوط ، ص ا — ١٥ ، ا — ٢٠ وتابع ، وهو يعرف أن البكرى ينقل هذه المعلومات عن المسعودى ، انظر مروج الذهب ، ج ٢ ص ٣٧٩ .

(٥) نفسه ، ص ا — ٢٤ .

السقائين داخل المدينة [١]. وهو ينزل « بقرب الجامع الأعظم المشهور جامع ابن طولون » [٢] ، ويتردد على جامع عمرو ويشاهد فوق المحراب كتابة هذا نصها : « أمر بتجديده الملك الزاهر الناصر المجاهد صلاح الدنيا والدين أبو المظفر يوسف وفقه الله لطاعته سنة ٥٨٠ » [٣]. وهو يسجل زيارته لمشهد الحسين ويبدى استغرابه لشدة الزحام ، ومشهد السيدة نفيسة ومشهد السيدة رقية وتربة زيد بن الحسين خارج القاهرة [٤] . أما عن القرافة التى أصبحت من الأماكن المشهورة بمصر « فهى بلدة كبيرة منفردة بذاتها مستقلة بأسواقها ومساجدها ، بها قبور النبيين ومشهد الأمام الشافعى وبجواره مدرسة عظيمة [٥] . ويثير المارستان إعجاب البلوى . ولا يضارع وصفه له إلا وصف عبد الواحد المراكشى سنة ٦٢١ / ١٢٢٤ لمارستان مراكش عاصمة الموحدين [٦] . إذ يقول البلوى : « ولو لم يكن للقاهرة ماتذكر به إلا المارستان وحده وهو قصر عظيم من القصور الرائقة حسنا وجمالا واتساعا ؛ لم يعهد مثله لقطر من الأقطار أحسن بناء ولا أبدع إنشاء ولا أكمل انتهاء فى الحسن »[٧]. والمارستان يستقبل ٤٠٠٠ مريض فى اليوم وكل حاجات المرضى متوفرة فيه من الأشربة والأكحال والصأن والملبوس . ويشرف عليه الأطباء الماهرون والنظار والخدام والمتصرفون . ويختم البلوى كلامه عن المارستان قائلا : « ما وقعت عينى على مثله ولا سمعت أذنى بشبيه وشكله »[٨].

وأخيرا يعدد من لقيه المشايخ ويفرد لذلك صفحات من رحلته الحجازية التى يسميها « تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق [٩]». وهى مهمة بالنسبة لدراسة

(١) العبدرى ، المخطوط ، ص ب — ٣٤ .
(٢) نفسه ، ص ا — ٣٣ .
(٣) نفسه ، ص ا — ٣٦ .
(٤) نفسه ، ص ا — ٣٦ ، ب ٣٧ .
(٥) نفسه ، ص ب — ٣٦ ، ا ٣٧ .
(٦) عبد الواحد المراكشى ، المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، طبعة دوزى ، ليدن ١٨٤٧ ، ص ٢٠٧ .
(٧) العبدرى ، المخطوط ، ص ا — ٣٤ .
(٨) نفسه ، ص ا — ٣٥ .
(٩) نفسه ، ص ا — ٩ .

الحياة العلمية والحركة الفكرية فى هذا العصر . أما عن موضوعات العجائب مثل الهرم والنيل فهو يذكرها دون اطناب أو تطويل على عكس مانقله عن الاسكندرية كما سنرى .

والاسكندرية باسمها العظيم يغلب ماضيها على حاضرها وتستحوذ عجائبها على اهتمام الكتاب . بناها الاسكندر المقدونى فى موضع به آثار بنيان وعمد لملوك عاد . فالاسكندرية إذن هى ارم ذات العماد المذكورة فى القرآن [1]. وجلب لها الرخام وأنواع المرمر والأحجار من صقلية وأفريقية وجزر البحر المتوسط . وبناها طبقات تحتها قناطر مقنطرة عليها دور المدينة ، يسير تحتها الفارس وبيده رمح لايضيق .. [2]. ونظراً لبياض الرخام ظل أهلها ٧٠ سنة يمشون بالخرق السود خشية أن تذهب أبصارهم ، وما أسرج فيها سراج بليل من ضوئها .

وإذا ذكرت الاسكندرية فلا بد من ذكر المنار ، بل ربما ذكرت المنارة وأهملت المدينة [3]. فهى من أغرب عجائب العالم ليس على قرار الأرض مثلها بنيانا ولا أدق عقداً ، مبنية بحجارة الكذان المشدودة بالرصاص ، راسية فى البحر على سرطان من زجاج [4] . وهى أعلى بنيان على وجه الأرض ، بلغ من عظم ارتفاعها ، أن بعضهم رمى بحجر من أعلاها عند غروب الشمس وله رفيق ينتظره فى أسفله فما وصل إليه إلا بعد مغيب الشفق [5]. والمنارة تحمل فى أعلاها المرآة الغريبة ، إحدى عجائب الدنيا الأربع ، التى يرى الجالس تحتها مدينة القسطنطينية [6] والتى يشاهد فيها كل مركب أقلع من سواحل البحر كلها [7].

(١) ابن الفقيه ، ص ٦٩ ؛ أنظر المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٤٢٠ — ٤٢١ الذى ينقله البكرى ، المخطوط ، ص٦٨ ؛ وكتاب الاستبصار ، المخطوط ، ص ب — ٤٥ بتفصيلات مطولة غير موجودة فيما لدينا من كتب من سبقوه .

(٢) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٤٢٣ ، ٤٢٩ .

(٣) ابن خرداذبه ، ص ١٤٢ — ١٤٥ ؛ اليعقوبى ، ص ٣٣٨ - ٣٣٩ ؛ ابن رسته ، ص ١١٧ ١١٨ ؛ المسعودى ، التنبيه ، ص ٤٧ ؛ المقدسى ، ص ١٩٦ ، ٢١١ ؛ ابن حوقل ص ١٠٠ ؛ الادريسى ، ص ١٣٨ ، ١٣٩ الخ ؛ انظر جمال الدين الشيال ، الأطلس التاريخى (الاسكندرية) ص ١٩٨ وهامش ٢ .

(٤) الادريسى ، ص ١٣٩ .

(٥) كتاب الجغرافية المخطوط ، ص ب - ٣٩ .

(٦) ابن خرداذبه ، ص ١١٥ ؛ ابن الفقيه ، ص ٧٢ .

(٧) المسعودى : مروج الذهب ، ج ٢ ص ٤٣٤ ، ٤٣٩ ؛ والتنبيه ، ص ٤٧ ؛ المقدسى ، ص ٢١١ .

إلى جانب ذلك كانت تحمل فى قتها تمثالا يشير بسبابته نحو الشمس أينما كانت ، وتمثالا آخر يشير فى البحر إذا قرب العدو ويطلق دويا هائلا ، ولهذا السبب احتال ملك الروم حتى تمكن من تحطيم المرآة وهدم رأس المنار على عهد الوليد ابن عبد الملك (٨٦ — ٩٦ / ٧٠٥ — ٧١٥) [١]. كل ذلك دعا إلى أن تكون من بناء الفراعنة أو من بناء الذى بنى رومية والاسكندرية والاهرام ، بالرغم من معرفة بانيها وهو أحد البطالمة[٢].

هذه المعلومات التقليدية ظهرت منذ نشأة علم الجغرافية فدونها ابن خرداذبه واليعقوبى وابن رسته وابن الفقيه . ثم أتى المسعودى وتوسع فيها توسعاً كبيراً فى كتبه وعنه أخذ المتأخرون وخاصة البكرى وصاحب الاستبصار اللذين حفظا كثيراً مما ضاع مع كتبه مثل أخبار الزمان والكتاب الأوسط[٣] ورتباها ترتيبا منظما يجعلها سهلة التناول .

هذا عن الأساطير الشعبية ، أما الحقائق ذات القيمة التاريخية والأثرية فهى ماورد فى وصف برج الاسكندرية العظيم . بدأ الكتاب الأول بذكر مميزاته العامة دون وصف دقيق . فهم يعرفون أنه يقع على فوهة الميناء الأعظم [٤] ويمتاز بارتفاعه الكبير وبأنه ليس له درج بل يصعد إلى أعلاه فى منحدر دائرى (مثل منارة سر من رأى) يستطيع الفرسان صعوده على ظهور الخيل ، ويحتوى على أكثر من ٣٠٠ بيت [٥]. وهم لايتفقون على تقدير ارتفاعه : فاليعقوبى يورد أن ارتفاعه ١٧٥ ذراعا [٦] ، وهو تبعا لابن رسته ٣٠٠ ذراع [٧] .

(١) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٤٣٣ — ٤٣٤ ؛ الاستبصار ، المخطوط ، ص ب — ٤٢ ؛ كتاب الجغرافية ، المخطوط ، ص أ — ٤٠ .

(٢) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٤٣٢ ؛ ابن حوقل ، ص ١٠٠ .

(٣) انظر المسعودى مروج الذهب ، ج ٢ ص ٣٧١ ، ٤٣٩ .

(٤) اليعقوبى ، ص ٣٣٨ .

(٥) ابن خرداذبه ، ص ١٤٥ .

(٦) كتاب البلدان ، ص ٣٣٨ .

(٧) كتاب الاعلاق النفيسة ، ص ١١٨ ، وأخذ عنه ابن حوقل ، ص ١٠٠ والادريسى ، ص ١٣٩ (٣٠٠ ذراع = ١٠٠ قامة) .

ويرجع الفضل إلى المسعودى الذى يصفه وصفاً دقيقاً . فطوله عندما يكتب المسعودى بعد سنة ٣٤٤ / ٩٤٥ يبلغ ٢٣٠ ذراعا على وجه التقريب ، وذلك بعد أن كان ٤٠٠ ذراع قديما . والمنارة تنقسم الى ٣ طبقات : الأولى وهى السفلى مربعة مبنية بالحجارة يبلغ طولها نحو ١١٠ ذراعا ، والوسطى مثمنة الشكل مبنية بالآجر والحصى طولها نحو ٦٠ ذراعا ومحيطها أقل من محيط السفلى فتترك « فضاء يدور فيه الانسان » . وأخيراً الطبقة العليا وهى مدورة الشكل ومحيطها أقل من محيط الوسطى أيضا[1] . ويعطى المسعودى بعض المعلومات الخاصة بما أحدثت الزلازل والبحر من الهدم فى المنار وبعض الترميمات التى تمت فيه . هذه المعلومات نقلها البكرى وأخذها عنه صاحب الاستبصار بتفصيلاتها المطولة كما كتبها المسعودى فى تصانيفه المفقودة[2].

وفى القمة مسجد — ينسب إلى سليمان — يرابط فيه مطوعة المصريين وغيرهم فى الصيف[3] . وكان المنارة عيد سنوى يحتفل به أهل الاسكندرية يسمى « بخميس العدس » ، ويصعد الناس فيه إلى أعلاها من الصباح إلى نصف النهار[4] .

وابن جبير الذى شاهد المنار وصعد إلى أعلاه حيث صلى فى مسجده المبارك إكتفى بقياس أحد جوانبه الأربعة ووجد فيه ٥٠ باعا . أما عن طوله فذكر أنه يشاهد على أزيد من ٧٠ ميلا ويأخذ بالرواية التى تقول بأن طوله أزيد من ١٥٠ قامة (٤٥٠ ذراعا)[5]. فى هذا الوقت تقريبا قام عبد اللطيف البغدادى باعطاء مقاسات علمية دقيقة للغاية : فارتفاع الطابق الأول المربع هو ١٢١ ذراعا ، والثانى المثمن ٨١٫٥ ذراعا ، والثالث المدور ٣١٫٥ ، وارتفاع المسجد ١٠ أذرع أى ان طول المنارة ٢٣٤ ذراعا وباضافة المسجد ٢٤٤ ذراعا[6].

(١) التنبيه ، ص ٤٧ .

(٢) انظر البكرى ، المخطوط ، ص ٦٠ — ٦١ ؛ الاستبصار ، المخطوط ، ص ١ — ٤٣ وتابع ؛ قارن الادريسى ، ص ١٤٠ .

(٣) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٢٤٠ .

(٤) البكرى ، المخطوط ، ص ٦٠ ؛ الاستبصار ، المخطوط ، ص ١ — ٤٤ ؛ وانظر المقريزى الخطط ، ص ٢٦٦ ، ٤٩٥ .

(٥) ابن جبير ، ص ٤١ .

(٦) عبد اللطيف ، ص ١١٦ ولكنه يحسب أن طولها ٢٢٣ ذراعا بدلا من ٢٢٤ .

أما العبدرى الذى دخل المنار وتأمله وصعد إلى أعلاه بعد جهد فوصفه على أنه « لايظهر له من خارج فرط علو ، وسعته ١٤٠ شبرا من ركن إلى ركن . وهو خارج المدينة على أزيد من ٣ أميال وعلى تل مرتفع بشمالها وبينهما بر متصل بسورها ، وقد أحاط به البحر شرقا وغربا حتى تآكل حجره من الناحيتين فدعم منها بالبناء . وباب المنارة مرتفع عن الأرض نحو ٤ قامات » . وفى الداخل رأى عدة بيوت مغلقة . وقاس الممر فيه فوجده ٦ أشبار وغلظ الحائط ١٠ أشبار من أعلاه . أما المسجد فهو عبارة عن « قبة مليحة لها محراب للصلاة »[١]. وينقل ابن بطوطة مقاييس العبدرى هذه [٢] ، وعلى عكس العبدرى الذى ترك ما كتبه الناس قبله عن المنار والاسكندرية ولم يدون عنهما إلا مشاهداته الخاصة ، فإن البلوى يورد فى رحلته المعلومات التقليدية عن عجائب المدينة القديمة والمنار وينقل مقاييس ابن جبير[٣] .

ويأتى بعد المنار عمود السوارى الشهير الذى ينسب إلى سليمان [٤] وتحيط به سوار كانت تحمل قبة لفرعون أو مبان للفلاسفة[٥] وربما كانت بقايا قصر الاسكندرية العظيم[٦]. ثم هناك الملعب والملتان [٧] .

هذا ماقيل فى الاسكندرية القديمة ، أما المعاصرة فالمعلومات عنها معدومة أو نادرة قليلة — كما هى العادة — وخاصة عند الجغرافيين الأوائل . فاليعقوبى يكتفى بذكر مريوط إحدى كورها ويصفها بأنها عامرة لها كروم وشجر ولها ثمار موصوفة ومنها تجلب الفواكه إلى الاسكندرية [٨]. والمقدسى يذكر أنها قصبة

---

(١) العبدرى ، المخطوط ، ص ب — ٤٩ ، ا — ٥٠ .
(٢) ابن بطوطه ، طبعة باريز ، ١٨٥٣ ، ص ٢٩ .
(٣) البلوى ، المخطوط ، ص ا — ٢٨ .
(٤) ابن رسته ، ص ١١٧ .
(٥) ابن رسته ، ص ١١٧ ؛ ابن الفقيه ، ص ٧٣ ؛ عبد اللطيف ، ص ١١٠ ؛ ابن جبير ، ص ٤٠ .
(٦) البكرى ، المخطوط ، ص ٢٦١ ؛ الاستبصار ، المخطوط ، ص ب — ٤٤ .
(٧) الهامش السابق ؛ اليعقوبى ، ص ٣٣٨ ؛ الادريسى ، ص ١٤٠ ؛ انظر جمال الدين الشيال الأطلس التاريخى (الاسكندرية) ص ١١٩٥ والهوامش .
(٨) اليعقوبى ، ص ٣٣٩ ؛ انظر البكرى ، المخطوط ، ص ٦٨ ؛ الاستبصار ، ص ب — ٤٥ (شجرة بطول أعمار أهلها) .

نفيسة على بحر الروم ، عليها حصن منيع من جهة الغرب . وهى شامية الهواء ، وبلد شريف كثير الصالحين والمتعبدين ، شرب أهلها من النيل الذى يدخل عليهم أيام الزيادة فى قناة فيملأ صهاريجهم[1]. أما ابن حوقل فيكتفى بأن بها سمكة تعرف بالعروس حسنة المنظر لذيذة الطعم[2]. والبكرى يذكر فيها نقله الاحتفال بعيد المنار ، ويضيف صاحب الاستبصار الغارة الصقلية على الاسكندرية سنة ٥٧١/١١٧٥ على عهد صلاح الدين ويتبعها بانتصار صلاح الدين على الصليبيين فى الشام وارساله ابن منقذ إلى المغرب مبعوثا لدى المنصور الموحدى[3]. وعبد اللطيف العالم ، معاصر ابن جبير ، يتكلم عن سمكة الرب بالاسكندرية التى تسبب لآكلها أحلاما مفزعة ، ثم الترسة التى شاهدها هناك يقطع لحمها ويباع كلحم البقر[4].

وكما هو الحال بالنسبة للقاهرة يرجع الفضل لابن جبير وتابعيه فى تصوير الاسكندرية كما شاهدوها . فابن جبير يصف الادارة والتفتيش الجركى وصفا دقيقا للغاية : إذ يطلع أمناء السلطات إلى المركب لتقييد كل ما جلب فيها وتدوين أسماء وصفات وبلاد جميع الركاب وتحصيل الضرائب المفروضة . ويحدد كعادته مكان نزوله بالمدينة بفندق الصفار بمقربة من الصبانة . ويعجب بالمدينة الكبيرة ويقول « ماشاهدت بلداً أوسع منه ولا أعلى مبنى » . وهو يشيد باحتفال الأسواق وتصرف الناس فى البلد بالليل كتصرفهم فيه بالنهار . ويسجل زياراته المدينة وما شاهدوه من المنار والسوارى والمدارس والمحارس أى رباطات المجاهدين من أهل الطلب والتعبد . ويتكلم عن فقراء المغاربة بالمدينة وكيف كانوا محل رعاية السلطان الذى يبذل لكل منهم خبزتين يوميا وهم يبلغون أكثر من ألف شخص[5].

ويصل العبدرى عن طريق برقة الى الاسكندرية فيراها « مدينة الحصانة والوثاقة وبلد الاشراق اللامع والطلاقة ، الآخذة من الكفر وأهله بالخنق » .

(١) المقدسى ، ص ١٩٦ .
(٢) ابن حوقل ، ص ١٣٠ .
(٣) الاستبصار ، المخطوط ، ص ب ٤٩ .
(٤) عبد اللطيف ، ص ٨٤ .
(٥) ابن جبير ، ص ٣٩ وتابع .

وهى « مدينة فسيحة الميدان صحيحة الأركان مليحة البنيان تسفر عن محيا جميل »[1]. ويعجب بأبواب سورها الحصينة فيقول فيها : « من جملة ابداعها واغرابها مارأيت من اتقان أبوابها ، وذلك أن عضايدها وعتبها مع افراط طول الأبواب كلها من حجارة منحوتة يتعجب من حسنها ، ومصاريعها ملبسة بالحديد[2] ». وهو يصف المنار وصفاً واقعياً دقيقاً كما ذكرنا . أما عن أهل الاسكندرية فقد كان حظهم منه مثل حظ سكان القاهرة. إذ هو بعد المديح يستدرك فيقول : « بيد أنها بلد زادت صورته على معناه فهو جسم حسن لاروح فيه ، أكثر أهلها رعاع ضرر بلا انتفاع مع سوء أخلاق . تواطئوا على تطفيف المكيال والميزان ، فإن عاملهم غريب لم يلق منهم إلا مايريب ، يتخذونه هدفا لكل منهم فيه سهم مصيب » . ويستطرد : « ومن الأمر المستغرب والحال الذى أفصح عن قلة دينهم وأعرب ، أنهم يعترضون الحجاج ويجرعونهم من جر الإهانة الملح الاجاج ، ويأخذون على وفدهم الطرق والفجاج »[3] . ثم هو يظن أن ذاك أمراً أحدثوه ولكنه سمع حكاية اقتضت « أن لهم فى هذه الفضائح سلفا غير صالح » . ويستشهد بابن جبير ويقص قصة تتعلق بحج هذا الأخير وكيف ضايقه التفتيش فى الديوان مما دعاه إلى نظم قصيدة ينصح فيها « أمير المسلمين صلاح الدين »[4] . وهو إلى جانب ذلك يعطينا فكرة عن الحياة العلمية بالمدينة فى هذا الوقت ويقابل العلماء ، ويذكر بعض الموضوعات التى كانت محل مناقشة وفتوى منها : كيف سئل فقهاء الثغر هل لضرب الصبيان حد فاختلفوا فى تحديده وأجاب أحدهم قال الضرب للصبيان كالغيث للنبات » .

ويقلد البلوى ابن جبير فيبدأ حديثه المسجوع بظهور منار الاسكندرية من البحر. وبعد أن يصل المركب إلى المرسى بقرب المنارة يقول : « فلما وصلنا الرمل وسلدنا على الاخوان احتطنا بالشرط والأعوان وحملنا بأجمعنا إلى الديوان .

(١) العبدرى ، المخطوط ، ص ا — ٤٩ .

(٢) العبدرى ، المخطوط ، ص ب — ٤٩ .

(٣) العبدرى ، المخطوط ، ص ا — ٥٠ ، ب — ٥٠ .

(٤) العبدرى ، المخطوط ، ص ا — ٥٠ ، ويذكر العبدرى أن ابن جبير نظم قصيدته هذه عندما حج سنة ٦١٠ وهذا خطأ لأن صلاح الدين كان قد مات قبل هذا التاريخ ٥٨٩/١١٩٣ .

وهناك شاهدنا الحساب ورأينا العذاب وملئوا منا البيوت والرحاب . وقتشت الأوساط وعم الزحام والاختلاط وكثر الهياط والمياط ، حتى خرج المخزون والموزون . وبرز المكوم والمختوم وعند الله تجتمع الخصوم . فأخذ من كل عشرة دنانير ديناران ظلما وعدوانا . فاستشعرت الأسف ونسيت كل رزء سلف »[1] . وأخيرا بعد أن ينقل المعلومات التقليدية عن الاسكندرية كما أشرنا يخصص فصلا عن علمائها ويخرج منها إلى القاهرة فى ٣ رجب ٧٣٧ / ٥ فبراير ١٣٣٧ وبذلك تنتهى مجموعة ابن جبير .

تلك صورة مصر كما رسمها الجغرافيون العرب بصفة عامة ، وكما ظهرت عند الجغرافيين المغاربة فى القرنين الـ ٦ والـ ٧ الهجريين (١٢ و ١٣) وما حولها ، أى فى الفترة التى ازدهر فيها علم الجغرافية عند المغاربة بظهور أعلامهم فى هذا الميدان .

ومن تلك الصورة يمكن أن نلاحظ أنه رغم تطور علم الجغرافية وتخلصه من التاريخ الى حد كبير وتفرعه إلى فروعه المختلفة وتخصص كل فرع منها فى ناحية معينة واستمرار هذا التقدم حتى القرن الـ ٦ / ١٢ — كما يبين ذلك بلاشير — فإن الجغرافية الوصفية بصفة عامة لم تستطع — إلى حد كبير — أن تساير هذا التطور فيما يتعلق بمصر . إذ ستظل مصر دائما موضوع علم العجائب دون منازع . وهذا سيظل دائما وثيق الصلة بعلم التاريخ .

إلى جانب ذلك لما كانت مصر امتداداً طبيعيا لشمال افريقية والمغرب فإنه يرجع الفضل إلى الجغرافيين المغاربة فى أن تكون مصر موضوعا مهما لجغرافية المسالك والممالك النموذجية التى تخصصت فى وصف المغرب وذلك بفضل البكرى ثم الادريسى ثم صاحب كتاب الاستبصار . ومع أن هؤلاء استمدوا معلوماتهم فى معظم الأحيان من مصادر مشرقية إلا أن كثيرا من هذه المعلومات لم يصل إلينا إلا عن طريقهم .

---

(١) البلوى ، المخطوط ، ص ب — ٢٧ .

وأخيراً كان هذا الارتباط الجغرافى السابق بين كل شمال افريقية سببا فى أن تكون مصر — وهى محطة تفرع الطرق الى أنحاء المشرق — موضوعا مهما من موضوعات جغرافية الرحلة إلى الحجاز والأماكن المقدسة التى ابتكرها المغاربة فى القرن الـ ٦ / ١٢ والتى احتكروها فيما بعد فقلد بعضهم بعضا . وهذا النوع يمتاز — كما رأينا — على غيره من الأنواع الأخرى بواقعيته ؛ فالى جانب المعلومات التقليدية وجدت معلومات مستقاة مباشرة عن المؤلف الذى عاش وسط الأحداث .

هكذا قام المغرب بدوره فى اكمال المكتبة الجغرافية العربية وأدى نصيبه فيما يختص بمصر .

التقدم العمالى والصناعى فى مصر المعاصرة

للدكتور حسن الساعاتى

أولا : مقدمة تاريخية عن الرعاية العمالية

(أ) تمهيد :

إن المتعرض للتاريخ الاقتصادى الحديث لدول الشرق الأوسط ، سرعان ما يستنتج أن مصر قد انفردت بتوجيه عناية كبرى لتنمية الصناعة فيها كدعامة وطيدة ذات أثر بالغ فى اقتصادياتها ، وكعامل مساعد فعال إلى جانب الزراعة المصدر الأول لثروتها . ولقد مهد لانفراد مصر بالتوسع فى التنمية الصناعية تجارب لا يستهان بها حدثت فى القرن الماضى ، وكتب لها النجاح فى بعض الحالات .

ولم ينقض القرن الماضى إلا وكانت هناك ثلاث صناعات على نطاق واسع ، ومزودة طبقاً للأساليب الحديثة . تلك كانت صناعة القطن ، وصناعة السكر ، وصناعة السجاير . وقد شجع على ذلك حينئذ ورود رؤوس أموال أجنبية بقصد الاستثمار الصناعى على أثر إنشاء المحاكم المختلطة سنة ١٨٧٥ ، التى كفلت لرأس المال الأجنبى ما يلزمه من الأمان القانونى . وباتساع نطاق زراعة القطن أقيمت مصانع لحلجه ، وكذلك لصناعة الأقمشة السميكة للاستهلاك المحلى ، كما تمت أيضاً صناعة الزيوت .

وقد كان للصناعات اليدوية التى كانت منتشرة فى بعض أنحاء القطر أثر كبير فى توطيد دعائم الصناعات الحديثة ، لأنها اعتمدت منذ بدء نشأتها على كثير من العمال ، الذين كانت لهم خبرة طويلة سابقة بنظام العمل وظروفه فى الصناعات اليدوية ، التى كانت قائمة على جذور متأصلة فى المجتمع المصرى ، بشكل لم يزعزعه

حينئذ دخول الصناعة الحديثة في البلاد . وإنه لمن الحقائق التي تذكر في هذا الصدد أن المحلة الكبرى قد اختيرت من بين بلاد الوجه البحري لإنشاء مصانع الغزل والنسج الضخمة سنة ١٩٢٧ ، لشهرة هذا البلد منذ زمان بعيد بصناعة النسج اليدوي ولما اكتسبه أهلها من خبرة لها قيمتها التي لا تغفل في هذا الميدان . وعلى الرغم من النمو المطرد لهذه الصناعة على أحدث الأسس في المحلة الكبرى ، فإن صناعة النسج اليدوي التقليدية ما زالت موجودة في هذا البلد على حالها القديم لم تتغير ولم يقض عليها . ولا زالت الصناعة اليدوية ذات أثر لا يمكن إغفاله في ميدان الإنتاج الصناعي في مصر حتى الآن .

وفي أواخر القرن الماضي أخذت رؤوس الأموال الأجنبية تدخل مصر لتستغل فيها كما ازدادت الواردات الأجنبية وأنشئت شركات احتكار كثيرة في ميدان قل فيه عنصر المخاطرة إلى أبعد حد ممكن ، كما هو الحال في المنافع العامة مثل الغاز والكهرباء والمياه ووسائل المواصلات ، التي يتسع فيها مجال الحصول على فائدة منتظمة عن رأس المال فضلا عن طابعها الاحتكاري . وقد نجم عن تنفيذ هذه المشروعات الاحتكارية وتقدم بعض الصناعات كحلج القطن في بعض المراكز ظهور طبقة جديدة من العمال الأجراء ذات أسلوب خاص في الحياة يختلف تمام الاختلاف عن أسلوب زملائهم من عمال الصناعات اليدوية .

(ب) تكون الوعي العمالي :

ولم تهتم تلك الطبقة الجديدة من العمال في المنشآت والمصانع الحديثة بما أقدمت عليه الحكومة من إلغاء نظام الطوائف سنة ١٨٩٠ ، لأن هذا النظام نفسه لم يكن ملائماً لطابع الصناعة الحديثة التي تحشد العمال حشداً في المصانع وتباعد بينهم وبين صاحب العمل الذي لا يشعر شعورهم ولا يفهم ظروفهم ؛ لأنه ليس منهم ولم يمارس حياتهم في يوم من الأيام . وقد بدأت هذه الطبقة الجديدة من العمال الأجراء منذ تلك السنة وبخاصة في القاهرة والإسكندرية تحس بضرورة تنظيم نفسها في نقابات تدافع عن مصالحها ؛ فأنشئت سنة ١٨٩٩ نقابة عمال الدخان وهي أول نقابة في مصر . ثم أنشئت سنة ١٩٠٨ نقابة عمال الترام المختلطة ، وفي العام التالي تكونت نقابة عمال الصناعات اليدوية . ولما نشبت الحرب

العالمية الأولى أعلنت الأحكام العرفية وأغلقت هذه النقابات التي لم تكن قد حظيت بعد باعتراف الحكومة بها . ولكن النشاط الجديد الذي ظهر في الميدان الصناعي الذي جدت فيه بعض الصناعات ، واشتغال عدد كبير من أبناء البلاد في الصناعات والأعمال المختلفة تحت إشراف السلطة العسكرية قد صرف العمال عن إظهار سخطهم لهذا الإلغاء . وما أن انتهت الحرب العالمية الأولى حتى أعادت تلك النقابات نشاطها في شدة وعنف ، وظهر في سنة ١٩٢٣ أول اتحاد للنقابات في الإسكندرية ، ثم تبلورت فكرة اتحاد النقابات بالتدريج حتى تألف سنة ١٩٣٠ اتحاد جديد للعمال ضم خمساً وخمسين نقابة . وقد اشترك لأول مرة في مؤتمر نقابات العمال الدولي في مدريد سنة ١٩٣١ واستطاع المندوبون المصريون أن يعلنوا فيه مطالب العمال المصريين ، وقد بلغ من اهتمام الحكومة بمسائل العمل حينئذ أن استدعت المستر « هارولد بتلر » مساعد مدير مكتب العمل الدولي لدراسة شئون العمال ورسم خطة لتنظيمها على أسس حديثة .

ولئن دل ذلك على شيء فإنما يدل على ظهور الطبقة العاملة في ميدان الإنتاج الحديث كقوة لا يستهان بها . وقد نجم ذلك عن التوسع المتدرج في الصناعة الآلية الحديثة التي استوعبت عدداً كبيراً من العمال الزراعيين وعمال الصناعات اليدوية . وليس هناك أدنى شك في أن الصناعة الآلية الحديثة قد ظهرت في مصر على نطاق واسع بعد الحرب العالمية الأولى التي حرمت البلاد إبانها من السلع الواردة من البلاد الأجنبية . وقد أقنع ذلك الحرمان من البضائع الضرورية بعض المصلحين بما للصناعة الحديثة من قيمة وخطر . وفي عام ١٩٢٠ ظهرت في ميدان الاقتصاد القومي مؤسسة مالية تعاونها الدولة وتهدف أساساً إلى تنمية الصناعات المصرية القومية ؛ تلك المؤسسة هي بنك مصر الذي تمكن على مر الأيام وبفضل العلاقات الشخصية بين مؤسسيه من جهة والدوائر الحكومية من جهة أخرى ، من توثيق صلته بالدولة التي بدأت تتخذ منه أداة لتنمية الصناعة[1].

(١) صدر مرسوم بتأسيسه في ٣ أبريل ٩٢٠ برأس مال قدره ثمانون ألف جنيه ، ثم زيد إلى نصف مليون جنيه في ٢٦ يناير ١٩٢٥ ، ثم إلى مليون جنيه في ٦ ديسمبر ١٩٢٧ . (الأهرام في ١٥ مارس ١٩٥٥) .

وقد زاد رأس مال هذا البنك فى فبراير ١٩٥٥ إلى مليونين من الجنيهات ، تستثمر فى شركاته وأكبرها شركة الغزل والنسج التى تقوم مصانعها فى المحلة الكبرى ، وشركة مصر للغزل والنسج الرفيع التى تقوم مصانعها فى كفر الدوار بالقرب من الإسكندرية . وقد شجع هذا النمو الصناعى على قيام شركات أخرى للغزل والنسج فى شبرا الخيمة من ضواحى مدينة القاهرة ، وفى منطقة السيوف فى شرق الإسكندرية ، وقيام صناعات أخرى كدباغة الجلود وصناعة الأحذية وصناعة الجوت وصناعة الباغة وصناعة حديد البناء وصناعة الورق ، حتى بلغ الآن عدد الصناعات الرئيسية تسعا وعشرين صناعة يكتسب منها ٥٧٧،٥٠٦ عاملا [1]. وقد كان تعداد المكتسبين من الصناعة فى تعداد سنة ١٩٠٧ لا يزيد عن ٢٨١،٠٠٠ عاملا [2]. وقد بلغ عدد المصانع ذات الإنتاج سنة ١٩٤٧ ، ٢٦،٧٤٣ ، وبلغ عدد المشتغلين فيها ٢٦٧،٣٣٦ شخصاً . وكانت جملة رؤوس أموالها فى السنة نفسها ٦٩،٩٠٨،١٧١ جنيهاً مصرياً ؛ كما بلغت قيمة منتجاتها ٢٠٨،٧٧٢،٤٤٣ جنيهاً مصرياً [3] . ويستنتج من إحصاء مصلحة الإحصاء والتعداد عن صافى الدخل القومى فى مصر عن عام ١٩٤٨ وقدره ١٠١٧ مليونا من الجنيهات المصرية أن الدخل من الصناعة وحدها قد بلغ ١٠٤ مليونا من الجنيهات المصرية من جملة الدخل القومى ؛ أى بنسبة ١٠ ٪ من جملة الدخل القومى [4].

(ج) ازدياد قوة الوعى العمالى :

وقد صاحب التقدم الصناعى فى مصر بعد الحرب العالمية الأولى ازدياد ظهور الوعى العمالى بين طبقة العمال ، وهو وعى بدأ ساذجا مختلطاً ضعيفاً أول الأمر ، ولكنه أخذ يزداد قوة ووضوحا على الرغم من جهل العمال وعزلتهم التى تكاد تكون تامة عن زملائهم فى البلاد الأخرى . وقد ظهر هذا الوعى فى تكوينهم نقابات كثيرة اتحدت فى فترة قصيرة ، واستطاعت أن ترسل مندوبين لاتحادها إلى مؤتمر نقابات العمال الدولى فى مدريد سنة ١٩٣١ كما ذكرنا سلفاً .

(١) الإحصاء السنوى للجيب لسنة ١٩٥١ جدول ٤٥
(٢) من تعداد السكان لسنة ١٩٠٧
(٣) الإحصاء السنوى للجيب لسنة ١٩٥١ جدول ٤٧
(٤) الأهرام فى ٢٨ / ٣ / ١٩٥٢

وكان من نتائج ذلك أن زار مصر أحد الخبراء في شئون العمال بدعوة منهم للتحقق من أحوالهم ؛ وبعد الدراسة والاستقصاء دعا إلى وجوب تكوين اتحاد عام يضم جميع النقابات ، وضرورة الاعتراف بمطالب العمال بدلا من إهمالهم وأخذهم بالشدة ، وقد دفع ذلك الحكومة إلى استدعاء المستر « هارولد بتلر » الذى قدم تقريره فى مارس سنة ١٩٣٢ وضمنه ملاحظاته وتوصياته لتحسين أحوال العمل والعمال فى مصر . وقد كتب فى تقريره ما يدل على مدى وعى العمال حينئذ إذ قال : « ومع أن النقابات بصفة عامة كانت معتدلة فى مطالبها ولم تشف شكواها عن عداء نحو أصحاب الأعمال ، فقد أدركت أنهم يعبرون عن رغبة فى تحسين شروط العمل ورفع مستوى المعيشة . إذ قد بدأ العمال بمصر يشعرون شعوراً عميقاً بأهمية هذا المطلب الأخير . ولا غرو فهناك كثير من الدلائل على أن الصانع أخذ يحس بما فى شروط العمل من نقص فى الوقت الحاضر ، ولا بد أن يصبح كثير التشدد فى المطالبة بتحسين هذه الشروط »[1] .

(د) اهتمام الحكومة بشئون العمال :

وقد كانت توصيات هذا الخبير خير موجه للحكومة التى كانت منذ سنة ١٩٢٧ قد بدأت تولى شئون العمل والعمال بعض عنايتها فشكلت لجنة لوضع قانون عمالى شامل . وبناء على توصيات ذلك الخبير سنت فى سنة ١٩٣٣ قانونين أحدهما خاص بتشغيل الأحداث وحمايتهم فى الصناعة ، والثانى خاص بتشغيل النساء ، فحرم تشغيل الأحداث والنساء فى الأعمال الخطرة كما حرم تشغيلهم ليلا إلا فى حالات استثنائية ، فيما يتعلق بتشغيل النساء فقط . وكذلك حرم القانون تشغيل الأحداث دون الثانية عشرة فى الصناعة ؛ ولم يجز إلا اشتغالهم فى الأعمال الخفيفة التى تتناسب مع سنهم ولين عودهم بحيث تؤهلهم هذه الصناعة إلى تعلم صناعة أو حرفة . وفى سنة ١٩٣٥ سنت الحكومة قانونا لتنظيم ساعات العمل فى الصناعات الخطرة والمضرة بالصحة نص على تحريم تشغيل العمال أكثر من تسع ساعات فى اليوم ، وحدد فترات الراحة اليومية بحيث لا يشتغل العامل أكثر من خمس

(١) تقرير عن حالة العمل والعمال بمصر سنة ١٩٣٢ ص ٢

ساعات متوالية . وفى سنة ١٩٣٦ صدر قانون خاص بإصابات العمل ومسئولية صاحب العمل وحده عنها . وقد نص على حق العامل فى الحصول على تعويض عن إصابته وفقاً لقواعد مقررة ؛ فضلا عن مسئولية صاحب العمل عن العلاج الطبي ، وصرف نصف أجرة العامل أثناء العلاج . ثم جاءت من بعد ذلك فترة ركود من جانب الحكومة التي اقتنعت بكفاية هذه القوانين الأربعة لتنظيم الشئون العمالية .

ولكن فترة الركود هذه لم تدم أكثر من ست سنوات اضطرت بعدها إلى إصدار قانون تأمين العمال ضد إصابات العمل فى سنة ١٩٤٢ : فضمن للعمال عدم ضياع تعويضاتهم عند إصابتهم فى العمل ، كما وجه أصحاب الأعمال أنفسهم إلى القيام بكثير من التحسينات الضرورية فى مصانعهم حتى لا يتعرض العمال للإصابات . وفى السنة نفسها سنت الحكومة قانون نقابات العمال الذى أجاز للعمال الذين يشتغلون فى مهنة أو صناعة أو حرفة أن يكونوا نقابات ترعى مصالحهم وتدافع عن حقوقهم وتعمل على تحسين أحوالهم الاجتماعية ، وذلك بتقديم بعض الخدمات لهم فى حالة الشدة . وفى سنة ١٩٤٢ أيضاً أصدرت الحكومة أمراً عسكرياً بتشكيل لجان التوفيق التى ساعدت على عقد كثير من الاتفاقات بين النقابات وأصحاب الأعمال . وقد حصل العمال عن طريق لجان التوفيق هذه على جزء غير قليل من مطالبهم . وفى سنة ١٩٤٤ اضطرت الحكومة لأسباب اجتماعية وسياسية أن تسن قانون عقد العمل الفردى ؛ وهو أول قانون فى تاريخ العمل فى مصر ينظم العلاقات بين العمال وأصحاب الأعمال بتحديد حقوق كل من العامل وصاحب العمل ، وواجبات كل منهما قبل الآخر ؛ وقد قصد به أيضاً حماية العامل إلى درجة كبيرة من تعسف صاحب العمل أو استبداده ، فكفل حماية الأجور من أصحاب الأعمال أو دائنى العمال ، ووضع شروط العقوبات التأديبية والجزاءات التى توقع على العمال ، والوجوه التى تصرف فيها حصيلة الغرامات ، كما تناول مدة العقد وفسخه والمكافآت عن مدة الخدمة ،

والإجازات السنوية والمرضية ، والرعاية الطبية ؛ وتضمن أحكاماً أخرى خاصة بمتعهدى توريد العمال . ثم تلا ذلك فترة ركود أيضاً دامت مدة ست سنوات كذلك .

وفى سنة ١٩٥٠ صدر قانون إصابات العمل يعدل القانون السالف الذكر فى صالح العامل ، كما صدر أيضاً قانون أمراض المهنة التى لا تعد إصابات عمل ، ونص فيه على تعويض مرض المهنة ، ولكن القانون لم ينص على التعويض فى كل الأمراض المهنية التى تتسبب من العمل والتى لم يرد ذكرها فى الجدول المرفق بهذا القانون ، وفى خلال عام ١٩٥٠ صدر قانون بشأن عقد الاتفاقات الجماعية باسم العمال للحصول على شروط أحسن للعمل ، حتى إذا ما سجلت هذه الاتفاقات المبرمة بين جماعات العمال وأصحاب الأعمال أخذت صبغة قانونية ملزمة يحترمها الطرفان .

(هـ) زيادة اهتمام الحكومة بالعمال بعد ثورة الجيش :

وفى سنة ١٩٥٢ بعد قيام ثورة الجيش صدرت ثلاثة قوانين على جانب كبير من الأهمية لما ضمنته للعمال من حقوق لم يكن معترفاً بها من قبل ، تلك القوانين هى قانون عقد العمل الفردى الجديد ، وقانون نقابات العمال ، وقانون التوفيق والتحكيم فى منازعاتهم مع أصحاب الأعمال . وقد اضطرت الحكومة إلى سن هذه القوانين بعد أن تبين لها أن القوانين العمالية التى كانت قائمة لا تتفق مع تطور الحالة الصناعية فى البلاد ، وقاصرة عن مسايرة ذلك التطور ، وقد اقتبس كثير من مواد هذه القوانين من النظم القائمة فى البلاد الأجنبية ، والتى ثبت صلاحيتها مع مراعاة البيئة والحالة الاجتماعية فى مصر . ولا شك أن هذه القوانين قد أسهمت فى استقرار الحالة فى الميدان العمالى بتنظيم العلاقة بين العمال وأصحاب الأعمال ، وبيان ما لكل من حقوق وما عليه من واجبات . ولقد أكسبت هذه القوانين العمال حقوقاً كثيرة طالما نادوا بها وسعوا إليها من قبل فيما يتعلق بإجازاتهم العادية والمرضية ، ومكافآتهم ، ومدة تمرينهم ، وفسخ عقودهم ، وإنذارهم وفصلهم

وتحسين أحوال العمل داخل المصنع وخارجه ، وكذلك الخدمات الطبية اللازمة لهم ، كما أجاز القانون تكوين اتحاد عام لنقابات العمال للإشراف على النقابات وتوجيهها الوجهة السليمة ، وكذلك قضى القانون على مساوىء قانون التوفيق والتحكيم السابق .

ولما كان اتجاه العهد الجديد إلى توفير العمل لكل قادر عليه ، فإن الحكومة بدأت فى علاج مشكلة البطالة على أسس علمية ، فأصدرت فى سنة ١٩٥٣ قانونا بشأن تنظيم توظيف وتخديم العمال فى المؤسسات الصناعية والتجارية . وقد بدأت مصلحة العمل فى تطبيق هذا القانون فأنشأت ثلاث مكاتب للتخديم بالقاهرة ومكتبين مماثلين بالإسكندرية .

كما أن الحكومة اهتمت برفع مستوى العمال الفنى عن طريق التدريب المهنى ونظم التلمذة داخل المؤسسات ، فدعت خبيراً عالمياً فى التدريب المهنى لدراسة هذا الموضوع فى مصر بمساعدة الإخصائيين المصريين . وقد كان من نتيجة هذه الدراسة إنشاء مراكز للتأهيل المهنى فى المناطق الصناعية الكبرى . كما دعت أيضاً مدير مكتب العمل الدولى بمناسبة إنشاء المجلس المشترك للعمال وأصحاب الأعمال الذى صدر قانون بشأنه فى ١٧ سبتمبر سنة ١٩٥٣ ، وقد شجع هذا الاتجاه الحكومى البحوث العلمية فى مختلف الشئون العمالية ، وسوف تظهر نتيجة هذه الأبحاث فى المحيط الصناعى والعمالى فى السنوات القليلة المقبلة .

(و) الإشراف على شئون العمال :

هذا من الناحية التشريعية ، أما من الناحية التنفيذية فإن الحكومة أنشأت مكتب العمل سنة ١٩٣٠ للإشراف على شئون العمال وجعلت له اختصاصات واسعة ، وكان هذا المكتب فى بدء إنشائه تابعاً لإدارة الأمن العام بوزارة الداخلية . وفى سنة ١٩٣٥ صار مصلحة تابعة لوزارة التجارة والصناعة ، وأخيراً ضمت مصلحة العمل إلى وزارة الشئون الاجتماعية التى أنشئت سنة ١٩٣٩ ؛ وقد أصبحت هذه المصلحة على جانب عظيم من الأهمية فى الميدان الصناعى .

(ز) الإحصاءات الخاصة بالعمال :

لم يقف اهتمام الحكومة عند حد إصدار التشريعات العمالية والسهر على تنفيذها فحسب ، بل إنها أيضاً قد اهتمت بتسجيل الإحصاءات الخاصة بالصناعة وأنواعها وعدد المصانع وعدد العمال ونوعهم وفئات سنهم وجنسيتهم والأجور وساعات العمل. وتسجل بعض هذه البيانات كل عشر سنوات فى تعدادات السكان، كما تسجل كلها فى تعدادات دورية خاصة بالصناعة وحدها . وقد رأت الحكومة أن تجريها حتى تسهل البحث والتدبير الصناعى على نطاق واسع، فى حقبة من تاريخ مصر تمتاز بتطور سريع فى ميدان الإنتاج الصناعى، وذلك تنفيذاً لقانون صدر فى سنة ١٩٤٤ ، وعدل بقانون آخر صدر فى سنة ١٩٤٩ خاص بعمل إحصاء دورى عن الإنتاج الصناعى فى مصر . وقد أجرى أول إحصاء من هذا النوع فى يونيه سنة ١٩٤٥ . وهكذا نجد أنه إلى جانب تعداد السكان الذى يجرى كل عشر سنوات منذ سنة ١٨٩٧ تصدر مصلحة الإحصاء والتعداد النشرات التالية فيما يتعلق بالصناعة والعمل والعمال :

١ — التعداد الصناعى والتجارى .
٢ — إحصاء الأجور وساعات العمل .
٣ — إحصاء الإنتاج الصناعى .

ولا مراء فى أن هذه الإحصاءات تعد الدعامة الأساسية للبحث فى ميدان الصناعة ؛ وخاصة بعد أن بدأت بعض المعاهد العلمية توجه اهتمامها إلى دراسة الشئون الصناعية والعمالية فى المجتمع المصرى[١].

ثانياً : تحليل بعض الإحصاءات الخاصة بالعمال

١ — عدد المصانع وعدد المشتغلين بها :

لا يمكن دراسة العمل والعمال على أساس سليم ما لم تقم الدراسة على بيانات وحقائق واقعية لأحوالهم ؛ وهنا تظهر قيمة الإحصاءات المختلفة التى تقوم

(١) نخص بالذكر معهد العلوم الاجتماعية بجامعة الاسكندرية حيث تدرس مادة الصناعة والمجتمع .

الحكومة بتسجيلها فى الميدان الصناعى فى فترات منتظمة ، لأنها تعطى صورة واضحة للمجتمع العمالى وما يحدث فيه من تغييرات تؤثر فى كيانه وتركيبه . فلا بد إذن من إعطاء بعض البيانات الإحصائية عن العمل والعمال فى مصر . ويحتوى الجدول رقم (١) على إحصاء بعدد المصانع فى مصر وعدد المشتغلين بها حسب إحصاء الإنتاج الصناعى فى يونيه سنة ١٩٥١ .

جدول رقم (١)

عدد المصانع فى مصر وعدد المشتغلين بها حسب إحصاء الإنتاج الصناعى فى يونيه سنة ١٩٥١

المحافظات والمديريات	جملة المصانع		المصانع ذات الإنتاج			
	عدد المصانع	عدد المشتغلين بها	عدد المصانع	٪ لجملة	عدد المشتغلين بها	٪ لجملة
المحافظات :						
القاهرة	٣٤٧٦٨	١٧٠٩٨٨	٤٣٠٧	١٢٫٤	٨٣٢٨٤	٤٢٫٨
الإسكندرية . .	١٠٩١٨	٨٣٧٧٤	١٨٢٥	١١٫٥	٧٢١٤٦	٨٦٫١
القنال	٣٧٨٠	١٢٧٦١	٢٤٩	٦٫٥	٢٦٤٩	٢٠٫٧
السويس	١٤٧١	٥٣١٣	١٦٦	١١٫٢	٢١٩٢	٤١٫٢
دمياط	١٨٣١	٣٠٠٤	٧٠٥	٣٫٨	٢٧٠٦	٧٦٫٨
أقسام الحدود	١٢٥	١٣٩٠٢	١٠	٨٫	٤٢٤٠	٣٠٫٤
المجموع	٥٧٨٩٨	٢٩٠٢٩٢	٧٢٦٢	١٢٫٥	١٦٧٢١٧	٥٧٫٦
المديريات :						
فى الوجه البحرى	٣٨٨٩٢	١٢١٠٤٤	٧٢٠٥	١٨٫٥	٨٦٩٨٠	٧١٫٣
فى الوجه القبلى	٢٧٧٦١	٦٣٤٩٦	٥٠٦٠	١٨٫٢	٥٣٢٤٦	٨٣٫٨
المجموع	٦٦٦٥٣	١٨٤٥٤٠	١٢٢٦٥	١٨٫٤	١٤٠٢٢٦	٧٥٫٩
المجموع الكلى .	١٢٤٥٥١	٤٧٤٨٣٢	١٩٥٢٧	١٥٫٦	٣٠٧٤٤٣	٦٤٫٧

يتضح من الجدول السابق أن نسبة المصانع ذات الإنتاج إلى جملة المصانع فى القطر المصرى ١٥٫٦ ٪ ، وأن نسبة من يشتغلون فى المصانع ذات الإنتاج إلى جملة المشتغلين فى جميع المصانع ٦٤٫٧ ٪ . ويستنتج من ذلك أن ٨٤٫٤ ٪ من المصانع من النوع الصغير جداً المتناثر فى ربوع البلاد ، بعضها بعيد عن بعض ،

ويشتغل فى كل منها صاحبه وحده أو يساعده عامل أو عاملان أو ثلاثة ؛ ولذلك لا تخضع لقوانين العمل ؛ ولكن على الرغم من ذلك يسودها التفاهم والمجاملة ، لأن العلاقات ما بين الآجر وعماله مبنية على الاتصال الشخصى الذى يوثق الصلة بينهم جميعاً ولا يدع مجالا للتذمر أو التآمر . ويعمل فى هذه المصانع أو المحال الصغيرة ٢٥٫٣ ٪ من جملة المشتغلين بالصناعة ؛ وهى نسبة عالية . وتعد هذه الحقيقة عاملا من العوامل التى تجعل أثر النقابات ضعيفاً : إذ أن أكثر من ثلث عمال الصناعة غير منظمين وغير متحدين ، ولا تربطهم بعضهم ببعض أية مصالح مشتركة عامة أو شبه عامة ، وليس عندهم وعى عمالى يتفق مع وعى زملائهم فى المصانع الكبيرة .

كذلك يتبين من الجدول رقم (١) أن ١٢٫٣ ٪ من مصانع القاهرة و ١١٫٥ ٪ من مصانع الإسكندرية من المصانع ذات الإنتاج ، ويشتغل فيها ٤٢٫٨ ٪ من مجموع المشتغلين بالصناعة فى القاهرة و ٨٦٫١ ٪ من مجموع المشتغلين بالصناعة فى الإسكندرية . وهذا يفسر السبب فى أن الوعى العمالى الناتج عن التصنيع الحديث أقوى بين عمال الإسكندرية منه بين عمال القاهرة . ذلك لأن نسبة العمال الصناعيين فى المصانع الكبيرة الحديثة أعلى بكثير فى مدينة الإسكندرية منها فى مدينة القاهرة .

٢ — تركيز الصناعة فى القاهرة والإسكندرية :

ويتبين كذلك من الجدول نفسه أن قرابة ربع المصانع ذات الإنتاج فى القطر كله (٢٣٫٨ ٪) مركزة فى القاهرة والإسكندرية ، وأن أكثر من نصف المشتغلين فى المصانع ذات الإنتاج (٥٥٫٥ ٪) مركزون فى هاتين المدينتين أيضاً . وهذا من غير شك يفسر لنا إلى حد كبير ازدياد السكان السريع فيهما ؛ الأمر الذى جعل كثافة السكان فى أقسام كثيرة منهما تبلغ درجة هائلة فى زيادتها . ويوضح الجدول رقم (٢) نمو السكان وكثافتهم فى كل من القاهرة والإسكندرية فى التعدادات التى أجريت فى النصف الأول من القرن الحالى .

جدول رقم (٢)

نمو السكان وكثافتهم فى القاهرة والإسكندرية فى التعدادات
من ١٩٠٧ — ١٩٤٧*

المدينة	المساحة بالكيلومتر المربع	١٩٠٧		١٩١٧		١٩٢٧		١٩٣٧		١٩٤٧	
		عدد السكان	الكثافة	عدد السكان	الكثافة	عدد السكان	الكثافة	عدد السكان	الكثافة	عدد السكان	الكثافة
القاهرة	١٦٥ — ١٧٩	٦٧٨٤٣٣	٤١١٤	٧٩٠٩٣٩	٤٧٩٦	١٠٦٤٥٦٧	٦٤٥٥	١٣١٢٠٩٦	٧٩٥٧	٢٠٩٠٦٥٤	١١٧٠٦
الإسكندرية	٧١ — ٧٣	٣٥٣٨٠٧	٤٨٥٣	٤٤٤٦١٧	٦٠٩٩	٥٧٣٠٦٣	٧٨٦١	٦٨٥٧٣٦	٩٤٠٧	٩١٩٠٢٤	١٢٨٩٠

ويتضح من الجدول السالف أيضاً أن نمو السكان مطرد بشكل ظاهر وأن هناك طفرة فى هذا النمو فى القاهرة فى تعداد ١٩٢٧ الذى أجرى بعد الحرب العالمية الأولى، وكذلك فى تعداد سنة ١٩٤٧ الذى أجرى بعد الحرب العالمية الثانية .

وتلاحظ هذه الطفرة أيضاً فى نمو سكان الإسكندرية فى تعداد سنة ١٩٤٧ . ويدل نمو السكان المطرد وطفرته على أن للهجرة أثراً كبيراً فى تضخم هاتين المدينتين وازدحامهما الشديد بالسكان . فكثير من الفلاحين ينزحون إلى المناطق الصناعية ؛ وبخاصة في القاهرة والإسكندرية بحثاً عن عمل منتظم بأجر منتظم فى مصانعهما المتزايدة العدد . ولا شك أن الحربين العالميتين وما نجم عنهما من ظروف اقتصادية اقتضت إنشاء صناعات لم تكن موجودة من قبل ، ونمو صناعات أخرى لم تكن نامية . كل ذلك عمل على استهواء كثير من العمال الزراعيين إلى الهجرة إلى مناطق الصناعة ؛ وبخاصة فى القاهرة والإسكندرية اللتين كثرت فيهما فرص العمل . وليس معنى تأكيد عامل الهجرة فى زيادة سكان هاتين المدينتين أننا نغفل أو نقلل من أهمية الزيادة الطبيعية ؛ وهى زيادة المواليد

* الأرقام الواردة فى هذا الجدول مأخوذة من تعدادات السكان التى نشرتها مصلحة الاحصاء والتعداد .

على الوفيات ، فإنها من غير شك أنشط العوامل فى زيادة السكان فى مصر بوجه عام ، وفى القاهرة والإسكندرية بوجه خاص ؛ لما تقدمه الحكومة من خدمات صحية على نطاق أوسع منه فى بقية المحافظات والمديريات .

ثالثاً : أثر الإنتاج الحديث فى الاقتصاديات العامة والحرف التقليدية

(ا) أثر الإنتاج الحديث فى الاقتصاديات العامة :

يمكن توضيح النتائج الاقتصادية للتصنيع بإجراء موازنات إحصائية فى ميادين الإنتاج والتجارة والصيرفة . ففيما يتعلق باتساع نطاق القطاع الصناعى ؛ أى عدد المنشآت الصناعية وعدد العمال المستخدمين وحجم الإنتاج والأجور المدفوعة ، يتضح من جميع إحصاءات الإنتاج الصناعى أن التصنيع فى مصر مطرد التقدم ، وأنه قد تغلب على عقبة الأزمة الاقتصادية التى صادفته وليداً فيما بين عامى ١٩٢٧ و١٩٣٣ . ويبين الجدول رقم (٣) عدد المتكسبين من الصناعة فى تعدادات السكان منذ سنة ١٩٠٧

جدول (٣)

عدد المتكسبين من الصناعة فى التعدادات الخمسة الأخيرة*

سنة التعداد	عدد المتكسبين من الصناعة	الزيادة العددية	الزيادة المئوية فى عشر سنوات
١٩٠٧	٢٨١٠٠٠	—	-
١٩١٧	٣٦٦٠٠٠	٨٥٠٠٠	٣٠
١٩٢٧	٤٨٣٠٠٠	١١٧٠٠٠	٣٢
١٩٣٧	٤٧٨٠٠٠	٥٠٠٠	١
١٩٤٧	٥٧٨٠٠٠	١٠٠٠٠٠	٢١

يتضح من الجدول رقم (٣) أن عدد المتكسبين من الصناعة قد أخذ فى الزيادة منذ سنة ١٩٠٧ باستثناء سنة ١٩٣٧ التى ظهرت فيها آثار الأزمة الاقتصادية العالمية فأنقصت عدد العمال فى تعداد ١٩٣٧ بنسبة ١ ٪ من عددهم

* هذا الجدول مستخرج من نشرات التعداد التى تصدرها مصلحة الإحصاء والتعداد .

فى تعداد ١٩٢٧ . ولا شك أن هذه الأرقام تشير إلى زيادة ملموسة فى عدد الذين يكسبون عيشهم من الصناعة ؛ ولكنها لا تسمح لنا بغير استخلاص نتائج عامة . وقد ينخفض حد الخطأ إذا قصرنا الموازنة على مدينتى القاهرة والإسكندرية اللتين تركزت فيهما الصناعة بشكل ظاهر . ويحتوى الجدول رقم (٤) على عدد المشتغلين بالصناعة فى مدينتى القاهرة والإسكندرية فى التعدادات الثلاثة الأخيرة . ويتبين من الجدول أن عددهم قد زاد أيضاً ، فيما عدا تعداد سنة ١٩٣٧ ، للأسباب المذكورة ذاتها .

جدول (٤)

عدد المشتغلين بالصناعة فى القاهرة والإسكندرية فى التعدادات الثلاثة الأخيرة

سنة التعداد	المشتغلون بالصناعة	الزيادة العددية	الزيادة المئوية فى عشر سنوات
١٩٢٧	١٥٦٠٠٠	—	—
١٩٣٧	١٥٥٠٠٠	— ١٠٠٠	— ٠ر٦
١٩٤٧	٢٤٢٠٠٠	+ ٨٧٠٠٠	+ ٠ر٩٦

وفيما يتعلق بالمنشآت الصناعية يوضح الجدول رقم (٥) أن عددها قد زاد فى أحد عشر عاما بنسبة ٢ر٤٥ ٪ فى كل القطر و ٨ر٦٧ ٪ فى القاهرة والإسكندرية وهما زيادتان كبيرتان توضحان من غير شك اطراد نمو الصناعة فى مصر .

جدول (٥)

عدد المنشآت الصناعية فى القطر وفى القاهرة والإسكندرية فى سنتى ١٩٢٧ و ١٩٤٨

السنة	منشآت القطر	الزيادة العددية	الزيادة المئوية فى ١١ سنة	منشآت القاهرة والاسكندرية	الزيادة العددية	النسبة المئوية فى ١١ سنة
١٩٢٧	٩٢٠٢١	—	—	٢٩٤٧٦	—	.
١٩٤٨	١٣٣٦١٩	٤١٥٩٨	٢ر٤٥	٤٩٤٦٨	١٩٩٩٢	٨ر٦٧

هذا بخصوص المشتغلين بالصناعة ؛ أما فيما يتعلق بالإنتاج الصناعى فإنه من غير شك قد زاد زيادة كبيرة . ويمكن التدليل على ذلك بأدلة كثيرة . فى تعداد سنة ١٩٣٧ كان عدد المصانع التى رأس مالها ٢٠٠٠ جنيها مصرياً فأكثر فى كل

القطر ٨١٤ مصنعاً ؛ وفى سنة ١٩٥١ قفز عدد هذه المصانع إلى ٢١٨٧ أى قرابة ثلاثة أمثال العدد الأول . هذا من جهة : ومن جهة أخرى زادت قيمة أهم المنتجات الصناعية زيادة مطردة كبيرة . ولنأخذ مثلا قيمة المنسوجات القطنية ؛ ففى سنة ١٩٤٠ كانت قرابة سبعة ملايين جنيهاً مصرياً ، فارتفعت بالتدريج إلى أن وصلت فى سنة ١٩٥١ قرابة أربعة وستين مليوناً من الجنيهات المصرية .

ومما يستحق الذكر أن مصر استطاعت إشباع مطالبها إلى حد كبير جداً فى خلال الحرب العالمية الثانية التى استغرقت ما يقرب من خمس سنوات ، ثم أعقبتها فترة كان شحن البضائع فيها عسيراً مما أدى إلى تأخر وصول الواردات مدة ليست بقصيرة .

ولا بد من الإشارة إلى أن الشركات المساهمة وأغلبها شركات صناعية قد زاد عددها زيادة كبيرة ، كما يتبين من الجدول رقم (٦) .

جدول (٦)

الشركات المساهمة ورؤوس الأموال المدفوعة فى السنوات ١٩٤٢ - ١٩٥٠*

السنة	عدد الشركات	رؤوس أموال مدفوعة
٤٢ — ١٩٤٣	٣٨٧	٥٢,٣٨٦,١٤٣
٤٩ — ١٩٥٠	٤٧٨	١١٦,٢٥٠,٩٩٩

ولكن لا يفوتنا أن نقرر أنه بسبب غلبة الحرف الزراعية ، وهو الأمر الموجود فى الاقتصاد المصرى ، فإن التصنيع بحاله الراهنة لا يستطيع أن يحدث تغييراً محسوساً فى النسبة الأصلية بين عمال الريف والمدن أو فى الطابع الريفى الأساسى للسكان . ذلك لأن عدد الذين يعملون فى الصناعة بمعناها الصحيح لا يتجاوز ١٠ ٪ من مجموع العمال فى البلاد . ولكن ليس هناك من شك فى أنه حتى لو حدثت زيادة ضئيلة فى هذه النسبة المئوية ، وهو الأمر الذى لا ريب فيه ، تمشياً مع الاتجاه العام فى مصر ، فإن مثل هذه الزيادة لا بد أن تحدث تأثيراً بعيد المدى فى الحياة المصرية العامة من النواحى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

---

* الاحصاء السنوى لجيب لسنتى ١٩٤٨ و ١٩٥٢

(ب) أثر الإنتاج الحديث فى نواحى الحرف التقليدية للسكان :

لا ريب فى أن الزراعة فى مصر أساس الحياة الاقتصادية إلى حد كبير جداً ؛ ولا يزال غالبية السكان (٥٣ ٪ من السكان العاملين فى تعداد سنة ١٩٤٧) يعيشون على ممارسة الأعمال الزراعية . ولذلك يمكننا أن نقول دون أدنى تردد أن التصنيع فى مصر فى شكله الآلى الحديث لم يؤثر فى حرفة الزراعة أى تأثير يستحق الذكر . حقاً إن المصانع الحديثة تعتمد كثيراً على الريف للحصول على ما تحتاجه من أيد عاملة ؛ ولكن الهجرة إلى الحضر تحدث فى الأعم الأغلب فى المديريات ذات الكثافة العالية فى السكان ، كمديريتى المنوفية والقليوبية فى الوجه البحرى ، وكمديريات جرجا وأسيوط وقنا فى الوجه القبلى . وكثافة السكان فى هذه المديريات تتراوح ما بين ٦٠٧ نسمة و ٨٣٣ نسمة للكيلو متر المربع حسب تعداد سنة ١٩٤٧ . لذلك لا تؤثر الهجرة منها فى تعداد سكانها كثيراً ؛ وبخاصة إذا عرفنا أن هذه الهجرة تحدث فى نطاق ضيق ؛ لأن الصناعة الآلية الحديثة لا تتطلب أعداداً كبيرة من الأيدى العاملة .

هذا من ناحية الزراعة وهى أولى الحرف التقليدية للسكان . أما من ناحية الصناعة اليدوية فإنها لم تتأثر كذلك إلا بدرجة طفيفة . والدليل على ذلك أن بناء مصانع الغزل والنسج الضخمة فى المحلة الكبرى لم يقض على صناعة النسج اليدوى فى البلد نفسها . وكذلك لم تؤثر مصانع الغزل والنسج الكثيرة فى منطقة شبرا الخيمة من ضواحى القاهرة على صناعة النسج اليدوى فى قليوب التى تبعد حوالى عشرة كيلومترات فقط عن هذه المنطقة . والواقع أن كثيراً من الصناعات الناشئة كصناعة الزجاج وصناعة الورق وصناعة الدباغة وصناعة الجلود وصناعة السماد وصناعة الجوت وصناعة الملابس الجاهزة وصناعة الغزل وغير ذلك من صناعات كثيرة ، نشأت فى مصر لتسد حاجة ملحة إليها ، ولأنه لم تكن هناك أية صناعة يدوية تنتج للسوق ما تنتجه هذه الصناعات ، بل كان الاعتماد كلياً على الواردات من الدول الأجنبية .

أما السبب فى أن الصناعة الآلية الحديثة لم تقض على الصناعة اليدوية الموجودة كما هى الحال فى صناعة النسج اليدوى القدى ، فيعزى إلى أن للفلاحين عادات فيما يتعلق بملبسهم قلما يغيرونها ، ولأن عامة الشعب يفضلون المنسوجات المصنوعة بالطرق التقليدية عن المنسوجات التى تصنعها الآلات الحديثة لأن الأولى فى نظرهم أجود صنعاً ، لأنها مخدومة ، فى تأن ووقت طويل ، ولذلك فهى تعيش مدة أطول . وهناك أفكار مماثلة شائعة بين الأغلبية الساحقة فيما يتعلق بصنع الأحذية والأخشاب المنزلية كالأبواب والنوافذ .

ومما يجعل الصناعات اليدوية غير متأثرة تأثيراً ملموساً بالصناعات الآلية الحديثة أنها فى مأمن من التشريعات العمالية الأساسية . فقانون عقد العمل الفردى الجديد لا يسرى على الأشخاص الذين يشتغلون فى محال لا تدار بآلات ميكانيكية ، وتستخدم عادة أقل من خمسة عمال ، ولا تزيد ضريبة الأرباح التجارية والصناعية المستحقة على أصحابها عن عشرين جنيهاً سنوياً [1]. وهذا استجابة لنصح الخبير « هارولد بتلر » مساعد مدير مكتب العمل الدولى الذى كتب فى سنة ١٩٣٢ فى هذا الصدد ما يلى : « ولم يلفت نظرى أثناء تجوالى بالبلاد أكثر من المسألة الناشئة عن وجود عمال يشتغلون طبقاً للنظام المتبع فى المصانع الكبرى وبجانبهم فى البلد ذاته عمال يشتغلون حسب النظام الموروث عن السلف . وهؤلاء العمال ينظرون إلى الصناعة كما كان ينظر لها فى العصور الخالية ، ولكنهم لا بد أن يتأثروا بحالة زملائهم الذين يشتغلون طبقاً للنظام الحديث . فسن تشريع اجتماعى ينظم هذه الأنواع المتباينة من الصناعة تنظيماً مرضياً لا بد أن يكون من الصعوبة بمكان ، فيبغى الابتعاد عن تكليف الصناعات القديمة بواجبات لا تقوى عليها إذ يترتب على سرعة انقراضها قلب التوازن الاجتماعى رأساً على عقب . وليس هناك من شك فى أن الماكينات ستقضى عليها فى كل ما بقى لها من مجال : اللهم إلا فيما يتعلق بالتحف الفنية التى تعجز الماكينات عن إجادة

---

(١) مادة ١ فقرة ب .

تقليدها . ولكن هذه النتيجة تستلزم زمناً طويلا للوصول إليها . خذ لذلك مثلا ما يصنع بدمياط من أحذية وموبيليات فهي تنافس ما يصنع بالماكينات بفضل ما بلغه العامل من مهارة في الأعمال اليدوية وانخفاض مستوى الأجور »[1].

رابعا : أثر النهضة الصناعية والعمالية والعمرانية الحديثة في مستوى الحياة العامة للعمال وثقافتهم

(ا) أثر الصناعة والنهضة العمالية الحديثة في مستوى الحياة العامة للعمال :

مستوى الحياة العامة للعمال عبارة عن كمية السلع والخدمات التي يحصلون عليها في الجهات التي يقيمون فيها في زمن معين . ولما كانت الصناعة الحديثة في الوقت الحالي مركزة أساسا في القاهرة والإسكندرية والبنادر ؛ فإن مستوى معيشتهم يقاس بكمية السلع والخدمات التي يحصلون عليها في هذه المناطق في الوقت الحالي . ولما كان اهتمام الحكومة منذ زمان بعيد موجها أساساً إلى رفع مستوى الحياة العامة في القاهرة والإسكندرية وفي باقي المحافظات ، ثم يفتر هذا الاهتمام كلما هبطنا السلم الإداري إلى البنادر والمراكز ثم القرى والعزب التي تفتقر إلى مختلف الخدمات الحكومية : لما كان اهتمام الحكومة على هذه الصورة فلا شك في أن العمال المهاجرين من الريف المهمل إلى المناطق الحضرية المحظوظة ، فيما يتعلق بالخدمات العامة المختلفة ، يجعلهم يستفيدون من هذه الخدمات التي كانوا يحرمون منها لو أنهم ظلوا في أماكنهم الأصلية بالريف ولم يهاجروا منها .

أما هذه الخدمات العامة المختلفة التي رفعت من غير شك مستوى العمال الصناعيين عن مستوى العمال الزراعيين فهي خدمات صحية عامة كالمياه الصالحة للشرب ، والمستشفيات والعيادات الخارجية لمختلف الأمراض ، ومراكز رعاية الأمومة والطفولة ، والمدارس على اختلاف أنواعها ، وخدمات خاصة بالمحافظة على الأمن بشكل حديث منظم ، وخدمات خاصة بالتشغيل والفصل في المنازعات العمالية وهلم جرا . وتلك خدمات غير موجودة في الريف المصري إلا في المناطق التي أنشئت فيها مراكز اجتماعية ريفية أو وحدات صحية ، وهي قليلة جداً .

(1) المصدر نفسه ، ص ٥ .

ويضاف إلى ذلك خدمات أخرى يحصل عليها العمال الصناعيون فى المناطق الحضرية وهى تنحصر فى وسائل المواصلات الحديثة ، واستعمال الكهرباء للإنارة ، ومواقد البترول لطهو الطعام ، ووجود مدارس أهلية يستطيع الطامحون منهم الالتحاق بها فى وقت الفراغ للحصول على إجازات دراسية تساعدهم فى تحسين مراكزهم الاجتماعية ، ووجود كثير من الخدمات الاجتماعية فى شكل مبرات تمد المحتاجين منهم بمختلف المساعدات .

هذا من ناحية الخدمات العامة التى يستطيع العمال الصناعيون الحصول عليها فى المناطق الحضرية التى يهاجرون إليها من الريف . أما من ناحية الخدمات الخاصة التى يستطيعون الحصول عليها عن طريق اشتغالهم فى المصانع ، سواء بقوة التشريعات العمالية أو بوساطة أصحاب الأعمال المستنيرين ، فتشمل إجازات سنوية بأجر ، وإجازات مرضية بأجر أيضاً ، وإسعاف من الإصابات فى المصانع ، ورعاية طبية فى المشافى ، وسكن وتغذية فى حالة بعد المصانع عن العمران .

أما من ناحية السلع التى يحصل عليها العمال الصناعيون فى المناطق الحضرية فكثيرة متنوعة لم تكن لتتاح الفرص لهم لشرائها لو لم ينزحوا إلى مناطق الصناعة للاشتغال فى مصانعها الحديثة . ذلك لأنهم فى ميدان الصناعة يتقاضون أجوراً منتظمة ويعملون بشكل مستديم . كما أن الأجور التى يحصلون عليها أعلى من غير شك منها فى ميدان الزراعة . فانتظام الأجور وارتفاعها نسبيا واستدامة العمل ظواهر غير معروفة بين العمال الزراعيين الذين يعيشون فى مستوى دون مستوى زملائهم فى الصناعة ، الذين يستطيعون الحصول على سلع كثيرة لأنهم يشتغلون باستمرار ويتقاضون أجورهم المرتفعة نسبيا بانتظام . يضاف إلى ذلك أن السلع المعروضة فى الريف محدودة بعكس الحالة فى الحضر حيث تتنوع السلع وتتعدد وتظهر الحاجة إليها .

(ب) أثر الصناعة والنهضة العمالية الحديثة فى ثقافة العمال[1] :

الثقافة فى ميدان علم الاجتماع تؤدى معنى السلوك الاجتماعى أو طريقة

---

(١) لمعرفة تفصيلات فى هذا الموضوع ، انظر بحثاً للمؤلف بالانجليزية بعنوان (A Sociological Research on an Industrial Enterprise) أجرى فى الإسكندرية للمجلس الدولى للعلوم الاجتماعية بباريس ، التابع لليونسكو ، فى أغسطس ١٩٥٣ .

الحياة سواء من الناحية المادية أو من الناحية المعنوية التى تضبط سلوك الفرد وتشكل معاملاته حسب التقاليد والعرف والعادات الاجتماعية الشائعة فى المحيط الذى يعيش فيه .

ونحن إذا ما درسنا ثقافة العمال فى الصناعة الحديثة فإننا نجدها قد تأثرت إلى حد كبير بالحياة الصناعية الحديثة والنهضة العمالية . وليس معنى هذا أن العامل المصرى أصبح يشبه فى طريقة معيشته وتفكيره زميله الأوربى ؛ فلكل إمكانياته وظروفه وتراثه الاجتماعى من عادات وتقاليد وعرف وآداب شعبية وقيم أخلاقية وجمالية وهلم جرا . وإنما نعنى بتأثر ثقافة العامل فى الصناعة الحديثة أن ثقافته قد اختلفت من وجوه كثيرة جداً عن ثقافة زميله الذى ما زال قابعاً فى الريف يزاول حرفة الزراعة غير المنتظمة الأجر أو العمل وقليلة الأجر نسبياً . يضاف إلى ذلك أن المحيط الريفى القليل السكان والمحدود المساحة والمبسط التركيب أشد ضبطاً لسلوك الفرد من المحيط الحضرى الكثير السكان والمتسع المساحة والمعقد التركيب .

وتظهر آثار الحياة الصناعية الحديثة فى ثقافة العمال فى مسكنهم ومأكلهم وملبسهم وشغلهم أوقات فراغهم وطريقة إنفاقهم أجورهم . فالعامل الذى يهاجر من الريف ويلتحق بعمل فى مصنع من المصانع الحديثة فى الحضر يبدأ حياته عادة بالسكن مؤقتاً مع غيره من العمال الذين يعرفونه إما لقرابتهم منه أو بحكم انتمائهم إلى قرية واحدة أو مركز واحد أو مديرية واحدة . وهو لا يتغير فى سلوكه فجأة أو دفعة واحدة بل بالتدريج السريع . فهو بعد عثوره على جماعة صغيرة من العمال يشترك معهم فى السكن فى حجرتهم يبدأ فى شراء بعض الأثاث الضرورى كأغطية النوم وإناء للشرب ودهان للشعر ومشط لتصفيفه . ثم يتدرج من هذه المرحلة إلى مرحلة أخرى يساكن فيها واحداً فقط فى حجرة مستقلة أو يستقل بحجرة يكمل أثاثها بشراء كرسى وسرير رخيص بلوازمه ومنضدة صغيرة ومرآة وإناء للشرب وأدوات رخيصة لعمل الشاى وموقد بترول وحصير صغيرة . كما أنه فى هذه المرحلة يغير جلبابه بالقميص والبنطلون ، وهذا يدل على تمام تغيره .

ولا تدوم تلك الفترة طويلا ، إذ سرعان ما يتزوج بسبب ضغط الظروف المختلفة عليه . فإذا ما تزوج حدث بعض التغير فى أثاث حجرته تبعا لما تحضره الزوجة معها من أثاث .

أما من حيث قضاء وقت فراغه فإنه ينفقه بين الجلوس فى المقهى البلدى حيث يشرب الطباق الخالص أو المعسل ويلعب الورق مع زملائه ويتحدث معهم فى مختلف الشئون ، أو الذهاب إلى السينما لمشاهدة فلم من الأفلام المصرية أو أفلام البطولة الأمريكية . والمقاهى على وجه العموم فى المجتمع المصرى تؤدى وظيفة حانات شرب البيرة أو غيرها من المشروبات الخفيفة فى بريطانيا وغيرها من الدول الصناعية . كما أنها تؤدى وظيفة أخرى هى أنها مكان يستطيع الفرد فيه أن يستضيف صديقا أو زميلا له ، ليتحدث إليه فى شأن من الشئون أو لمجرد التسامر معه ؛ إما لأن إمكانيات بيته لاتسمح بذلك أو لأن ظروف معيشته تشجع على ذلك .

والعامل الذى يقيم فى الحضر ويشتغل فى الصناعة الآلية الحديثة المتميزة بالنظام الدقيق فى العمل المقسم تقسيما فنيا سرعان ما يعتاد عادات غير تلك التى تعودها فى الريف . فهو يعمل فى دورات منتظمة فى عملية واحدة لاتتغير إلا إذا نقله صاحب العمل أو رقاه إلى عملية أخرى غير متغيرة بدورها . وهذه ظاهرات غير موجودة فى الريف لأن العامل الزراعى يحرث الأرض ويمهدها ويبذر البذر ويسق الزرع بالطرق المختلفة ويحصده ثم يخزنه أو ينقله إلى السوق . فليس فى الزراعة فى الريف تقسيم عمل ولا تخصص بالمعنى الدقيق المعروف فى الصناعة . يضاف إلى ذلك أن العمل فى عنابر أمام ماكينات آلية دقيقة معقدة وتقييد العامل إلى حد كبير فى حركته وغدوه ورواحه يؤثر فى شخصيته وتفكيره . كما أن انتماءه إلى نقابة العمال التى تطالب له بحقوق كثيرة يؤثر فى أسلوب تفكيره أيضا ؛ وهكذا بالتدريج يتكون عند العامل الصناعى وعى عمالى ، كما يربطه بزملائه من العمال فى مصنعه أو فى المصانع الأخرى الاشتراك فى الظروف الصناعية والاشتراك فى المصالح أيضا . وهنا يظهر بوضوح تام أن مصالح العمال الصناعيين تختلف اختلافا كبيرا عن مصالح العمال الزراعيين .

فلا عجب إذن أن تؤثر الحياة الصناعية الحديثة فى تفكير العمال إلى درجة تجعلهم عند زواجهم يفضلون الحضرية على الريفية : وإذا كانوا متزوجين بريفية طالبوها بالتمدن وبتقليد سلوك الحضرية من نواح كثيرة . أما من ناحية إنتاج النسل فهم يفضلون الإنتاج إلى حد محدود ، أى بالعدد الذى يستطيعون الاستفادة عن طريقه فيما يتعلق بعلاوة الغلاء التى يحصلون عليها نظير وجود أطفال ، تلك العلاوة التى تتدرج لمن كانت أجورهم أقل من خمسة جنيهات من ١١٢٫٥ ٪ من الأجور الأساسية عن ولد أو ولدين إلى ١٥٠ ٪ عن ثلاثة أولاد ، وتقل هذه النسب قليلا إذا تراوح الأجر الشهرى ما بين خمسة جنيهات وعشرة . فالعمال الصناعيون يختلفون عن زملائهم فى الزراعة من حيث رغبتهم فى الحد من النسل بعد إنتاج أربعة أطفال يضمنون بهم أقصى حد لعلاوة غلاء حتى ولو توفى أحدهم ، لأن الطفل الرابع احتياطى يفيد فى هذه الحالة ، أما العمال الزراعيون فلا يستشعرون رغبة ما فى الحد من نسلهم أو الوقوف عند عدد معين من الأطفال .

وبينما لا نجد عند العامل الزراعى استعداداً لتصور فكرة أنه يبيع عمله إلى صاحب الأرض ، نجد عند العامل الصناعى فى المصانع الحديثة استعداداً كبيراً لتصور هذه الفكرة وقبولها والتمسك بها ؛ ذلك لطبيعة العمل فى الصناعة الحديثة المنظمة التى اقترنت فيها قوة العامل الإنتاجية بالقوة الإنتاجية للآلة التى يعمل أمامها ويتعامل معها وتقارن قوته الإنتاجية بقوتها الإنتاجية . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى نجد أن تقدير أجر العامل حسب إنتاجه جعل من اليسير عليه أن يحسب قيمة ما ينتجه ويقارنه بأجره ثم يستخلص من ذلك على طريقته الساذجة مدى استفادة صاحب العمل من إنتاجه . وخلاصة ذلك أن الإنتاج الصناعى محكم العناصر بحيث لا تتدخل فيه القوة الطبيعية بشكل مباشر، فيصبح من السهل معرفة نصيب العامل فى الإنتاج معرفة تامة قائمة على الحساب المضبوط ؛ أما الانتاج الزراعى فليس محكم العناصر ، وتتدخل القوى الطبيعية فيه ، كزيادة الحرارة أو البرودة وهطول الأمطار أو الجفاف وظهور الآفات الزراعية وهلم جرا ؛ كما تؤثر القوى الطبيعية فى الإنتاج الزراعى تأثيراً كبيراً بحيث لا يعرف على وجه الدقة نصيب العامل الزراعى فيه .

(ج) ميزانية العامل أو كيفية إنفاقه أجره :

إن موضوع ميزانية العامل أو كيفية إنفاقه أجره ، سواء أكان متزوجاً أم أعزباً ، موضوع معقد واسع يحتاج إلى بحث شامل على عدد كبير من العمال العزاب والمتزوجين من ذوى الأطفال أو ممن ليس عندهم أطفال ؛ إذ أن حجم الأسرة عامل أساسي فى تدبير ميزانية العمال وبخاصة إذا كانت أجورهم منخفضة بشكل لافت . كما أن من العوامل المهمة أيضاً فى هذه الدراسة المناطق التى يعيش فيها العمال ونوع عملهم إذا كان فنياً أو نصف فنى أو غير فنى .

ومن دراستنا لميزانيات بعض العمال فى منطقة السيوف بالإسكندرية نستطيع أن نقرر فى تحفظ أن الطعام ولوازمه يحظى بأكبر نسبة من الميزانية إذ تتراوح نسبته بالتقريب ما بين ٤٠ ٪ و ٦٥ ٪ من الأجر ؛ يضاف إلى ذلك المكيفات كشرب السجائر والطباق بأنواعه وكذلك الشاى ، إذ تتراوح نسبتهما ما بين ٢٥ ٪ و ٣٥ ٪ من الأجر تقريباً ، ثم إيجار المسكن وتتراوح نسبته بالتقريب ما بين ٢٠ ٪ و ٢٥ ٪ من الأجر ؛ ثم نفقات التسلية سواء فى المقهى أو السينما ، وتتراوح نسبتهما على وجه التقريب ما بين ٥ ٪ و ١٠ ٪ من الأجر . وليكن معروفاً أن هذه النسب تقريبية وعامة وأنها تختلف باختلاف حالة العامل المدنية وعاداته الخاصة وعوامل اجتماعية ونفسية متشابكة .

والذى نستخلصه من دراسة ميزانيات العمال فى الصناعة أنهم على وجه العموم يعيشون على خط الفقر أو دونه بقليل ، وأنهم كثيرو الاستدانة لمقابلة ظروف الدهر من ناحية ، والمطالب الأخرى التى لا يستطيعون التدبير لها على أساس سياسة طويلة المدى كشراء الملابس أو بعض الضرورات الأخرى كما يعرفون بها الوقت أو إذا اضطروا للزواج أو السفر لزيارة أقاربهم ، ولذلك يضطر أغلب الآباء إلى تشغيل أطفالهم صغاراً لكى يسهموا معهم فى الإنفاق على الأسرة ، وليزيدوا دخلها ويمكنوها من المعيشة على خط الفقر أو فوقه بقليل .

* * *

وبعد فهذه لمحة مختصرة للتقدم العمالى والصناعى فى مصر المعاصرة وآثاره الاجتماعية والاقتصادية ، ويتبين منها أن مصر قد قطعت فى مدة قصيرة لا تعدو نصف قرن شوطاً كبيراً فى الميدان الصناعى .

كتاب البرهان لابن سينا

وصلته ببرهان أرسطو (١)

للدكتور أبو العلا عفيفي

كان من محاسن الصدف أنى انتهيت — قبل مجيئ إلى هذا المهرجان — من إعداد كتاب البرهان من منطق الشفاء للشيخ الرئيس أبى على بن سينا توطئة لنشره فى سلسلة مؤلفاته التى تشرف على إخراجها وزارة التربية والتعليم المصرية. ولم يكن المجهود الذى بذلته فى قراءة هذا النص الهام وتفهم معانيه ومقارنته بكتاب البرهان لأرسطو إلا خطوة من خطى كثيرة يجب أن يخطوها الباحثون فى طريق شاق طويل قبل أن يقولوا كلمتهم الأخيرة فى منزلة ابن سينا الذى نحتفى بعيده الألفى اليوم من تاريخ الفلسفة الإسلامية بوجه خاص ومكانته من تاريخ الفكر الإنسانى بوجه عام. فإن حكمنا على إنتاج ابن سينا وقيمته وصلته بالتراث الفلسفى السابق عليه، إن لم يكن مستندا إلى دراسة تحليلية عميقة لآثار الفيلسوف نفسه جاء حكما قاصراً بل خاطئا ومضللا كتلك الأحكام التى أصدرها على ابن سينا نفسه وعلى الفلسفة الإسلامية برمتها مؤرخو القرن التاسع عشر الأوروبيون.

وأنا اليوم لا أدعى حكما عاما على الفلسفة الإسلامية برمتها ولا على ابن سينا فى جملة إنتاجه ولا على منطقه كله بل على جزء محدود من ذلك المنطق هو كتابه فى البرهان، وذلك بعد أن درسته وقارنته بالكتاب الرابع من منطق أرسطو المعروف بأنالوطيقا الأواخر أو التحليلات الثانية Analytica Posteriora (٢)

---

(١) بحث ألقى فى مهرجان العيد الألفى لابن سينا الذى عقد بمدينة طهران فى ٢١ – ٣٠ من شهر أبريل ١٩٥٤.

(٢) عرف عند العرب أيضا بكتاب البرهان وترجمت هذه الكلمة فى القرون الوسطى المسيحية بكلمة Demonstration وهى الصورة اللاتينية للكلمة اليونانية ἀπόδειξις (ابوديكسس) التى استعملها أرسطو عنوانا لهذا الكتاب. ويظهر أن كلمة Demonstration لم تنتشر فى الاصطلاح المنطقى إلا بعد ظهور الترجمات اللاتينية لكتب المناطقة العرب؛ ولم يكن معناها قبل ذلك أكثر من مجرد الايضاح والبيان أو وضع الشىء أمام العقل كما لو كان مشاراً إليه.

والنتيجة التي وصلت إليها هي أن كتاب البرهان لابن سينا صورة عربية مكبرة لتحليلات أرسطو الثانية . أما كيف أخذت هذه الصورة عن الأصل ، ولماذا جاءت أكبر من الأصل ، وما هي درجة القرابة بينها وبين الأصل ، فهذه أمور أرجو أن أجليها أثناء هذا الحديث .

ولو كانت الصلة بين ابن سينا وأرسطو مباشرة لكان الخطب أيسر ، ولكننا لسوء الحظ مضطرون إلى النظر في وسطاء عديدين بين الفيلسوفين ، وهم وسطاء كان لهم من غير شك أثر بالغ في تشكيل التحليلات الثانية الأرسطية على النحو الذي عرض به ابن سينا مادتها في كتاب البرهان .

ولهذا نجد أن مشكلة الصلة بين الكتابين ذات شقين مختلفين يجب النظر في كل منهما على حدة وإن كان كل منهما يكمل الآخر . الشق الأول هو صلة ابن سينا بأرسطو في هذا الكتاب ، أو بعبارة أخرى ، العناصر الأرسطية المنطقية المستمدة من التحليلات الثانية . والشق الثاني هو الطرق التي بوساطتها وصلته المادة الأرسطية ، فإننا نعلم أن ابن سينا لم يكن يعرف اللغة اليونانية فيأخذ ما أخذه عن أرسطو مباشرة ، كما أنه مما لاشك فيه أنه لم يعرف التحليلات الثانية الأرسطية وحدها عند ما عرفها مترجمة إلى اللغة العربية ، وإنما عرفها بما عليها من شروح الشراح اليونان والسريان وتعليقات بعض مفكري المسلمين . ولذا كان لمعرفتنا بالأدوار التي مر بها كتاب أرسطو وما عمل له من ترجمات وما وضع عليه من شروح قبل وصوله إلى ابن سينا قيمة بالغة في فهم كتابه وإدراك العناصر المختلفة ، الأرسطية وغير الأرسطية ، التي نجدها فيه .

أما الشق الأول من مشكلتنا فقد عالجته بأن قمت بتحليل فصول كتاب البرهان إلى أهم عناصرها وحاولت — كلما استطعت — أن أقارنها بأصولها من التحليلات الثانية لأرسطو حيثما وجدت . فوضح لي وضوحا تاما أن ابن سينا أخذ مادة كتابه في هيكلها العام من هذا الكتاب الأرسطي ، وإلى حد ما من كتب أرسطو المنطقية الأخرى ، بل ومن كتبه غير المنطقية . إلا أن أخذه عنه يختلف درجة ونوعا : فهو أقوى في المقالتين الثالثة والرابعة وأضعف في المقالتين الأولى والثانية .

فهو يلخص فى مقالته الثالثة المقالة الأولى من التحليلات الثانية ، ويلخص فى مقالته الرابعة المقالة الثانية من الكتاب المذكور . أما فى مقالته الأولى والثانية فهو أكثر استقلالا عن أرسطو فى منهج التأليف وطريقة عرض المسائل وترتيبها وشرحها .

وأما الشق الثانى من المشكلة — أعنى الطرق التى بوساطتها عرف ابن سينا التحليلات الثانية — فيقتضينا أن ننظر فى المراحل التى مر بها كتاب أرسطو فى الترجمة والشروح والتعليقات قبل عصر ابن سينا ، لأن الصلة التى تربطه بمترجم أرسطو أياكان ذلك المترجم ، وبشراح أرسطو ، لا تقل فى نظرنا عن أهمية تلك التى تربطه بأرسطو نفسه . إذ على هؤلاء عول وعنهم أخذ أخذاً مباشراً . بل ربما كان لهم أثر غير قليل فى فهم ابن سينا لمادة كتاب البرهان ودقته أو عدم دقته فى فهمها وعرضها وصياغتها . أما عن الترجمة ، فالذى نعرفه من المراجع التى بين أيدينا أن كتاب التحليلات الثانية لأرسطو قد نقل إلى اللغة العربية على مرحلتين : نقله إلى السريانية إسحق ابن حنين (المتوفى سنة ٢٩٨ هـ) ثم نقل أبو بشر متى بن يونس المترجم النسطورى (المتوفى سنة ٣٢٨) ترجمة إسحق إلى العربية[1]. وهذه هى الترجمة التى نشرها سنة ١٩٤٩ الدكتور عبد الرحمن بدوى عن مخطوطة باريس فى المجلد الثانى من منطق أرسطو . ولكن الأستاذ مينو بالويلو Mino Paluello يحدثنا عن ترجمة عربية أخرى لكتاب التحليلات الثانية عرفها ابن رشد واعتمد عليها فى شروحه على أرسطو ، كما انتفع بها معاصر لاتينى له هو جرار الكريمونى Jerard of Cremona (المتوفى سنة ١١٨٧)[2]. ولكن ليس لهذه الترجمة ذكر فى المراجع العربية التى بين أيدينا ، كما أن ابن رشد لم يذكر اسم واضعها .

---

(١) الفهرست ص ٣٤٨

(٢) راجع مقالة الأستاذ فالتسر Walzer فى مجلة Oriens المجلد السادس ١٩٥٣ ص ٩١ وما بعدها ، وربما انتفع بها أيضا الفارابى الذى حكى عن نفسه — كما يقول صاحب طبقات الأطباء (ج ٢ ص ١٣٥) — « أنه تعلم من يوحنا بن حيلان إلى آخر كتاب البرهان » فربما فهم من هذا أنه قرأ معه كتاب البرهان فى ترجمة عربية لا يحتمل أن تكون ترجمة أبى بشر .

وأما عن شروح التحليلات الثانية فيقول ابن النديم « شرح ثامسطيوس هذا الكتاب شرحا تاما وشرحه الاسكندر ولم يوجد ، وشرحه يحيى النحوى . ولأبى يحيى المروزى الذى قرأ عليه متى (بن يونس) كلام فيه . وشرحه أبو بشر متى والفارابى والكندى » .

فالظاهر من عبارة ابن النديم :

(أولا) أن العرب قد عرفوا شروح ثامسطيوس والاسكندر ويحيى النحوى . وهم وإن لم يكونوا قد عرفوا هذه الشروح كلها فى ترجمات عربية كاملة فقد عرفوا على الأقل أجزاء منها . وابن سينا واحد منهم .

(ثانيا) أن أبا يحيى المروزى أستاذ متى بن يونس كان أول شارح للتحليلات الثانية فى العالم الاسلامى . وأغلب الظن أنه كتب شرحه باللغة السريانية لأنها كانت اللغة التى ألف بها [1].

(ثالثا) أن أول شارح لهذا النص باللغة العربية كان أبا بشر متى بن يونس الذى كانت شروحه على كتب أرسطو المنطقية الأربعة — على حد قول القفطى — مما يعول عليه الناس فى قراءتهم .

(رابعا) أن الفارابى كتب شرحا على هذا الكتاب ، ولكن الذى نعرفه أن للفارابى تعليقات عليه وهى موجودة فى مجموعة تفاسيره على منطق أرسطو وتعاليق ابن باجه عليها فى مخطوطة بالاسكوريال [2] ولسوء الحظ لم تتح لى فرصة الاطلاع على هذه التعليقات بعد . وأغلب الظن أنها عظيمة القيمة فى بحثنا هذا .

أما شرح الكندى الذى يشير إليه ابن النديم فلا أعلم عنه شيئا ، ويبعد أن يكون الكندى قد كتب شرحا على التحليلات الثانية بالمعنى الصحيح لأن الكتاب لم يكن معروفا فى ترجمة ما سريانية أو عربية إلى عهد الكندى ، بل لم يكن يسمح

(١) يقول القفطى (ص ٢٦٦) ولأبى يحيى المروزى الذى قرأ عليه متى كلام فيه والظاهر أنه سريانى.

(٢) الاسكوريال رقم ٦١٢

بتدريسه فى الأوساط العلمية التى عاش فيها الكندى ، وإنما كان يقف المتعلمون عند آخر الأشكال الوجودية من التحليلات الأولى ، وذلك لأن الأوساط الدينية المسيحية كانت تخشى شيئا من زعزعة العقائد عند المتعلمين إذا هم درسوا الحق كما يقرره الدين والحق كما يقرره صاحب البرهان (التحليلات الثانية) .

كانت هذه حال كتاب التحليلات لأرسطو وشروحه فى العالم الإسلامى إلى زمن ابن سينا : فمن أى مصدر من هذه المصادر استمد مادته فى كتاب البرهان ؟ لقد اطلع من غير شك على ترجمة عربية لكتاب أرسطو لأنه يشير صراحة إلى مترجم ما من غير أن يذكر اسمه فيقول : « ثم إن المترجم يقول كذا وكذا » . فهل كان هذا المترجم أبا بشر متى بن يونس أم صاحب الترجمة الأخرى التى تحدثنا عنها ؟ ثم إن عبارة ابن سينا السابقة تدل على أن المترجم الذى يتحدث عنه كان يعرف اللغة اليونانية لأنه — فى الموضوع الذى يشير إليه فيه — يناقش مسألة لغوية يونانية . وأبو بشر — على ما نعلم — لم يكن يعرف اليونانية وقد نقل كل ما نقله من السريانية إلى العربية .

ولقد اطلع ابن سينا من غير شك أيضاً على شروح للتحليلات الثانية — لا على شرح واحد — كما يدل عليه قوله : « وقد أوردوا فى الشروح » وقوله : « فهذه الأقوال مما قيل فى التعليم الأول (أى منطق أرسطو) وفى الشروح »[1] وقوله : « فأما بعض المفسرين فيقول »[2] وغير ذلك من العبارات الكثيرة التى تفيد أنه كان على إلمام بشروح الكتاب الأرسطى إلى جانب إلمامه بنص مترجم .

بل لا يخامرنى شك فى أنه عرف شرحى الإسكندر الأفروديسى ويوحنا النحوى على نص أرسطو — إن لم يكن فى ترجمة عربية كاملة لهذين الشرحين — فعلى الأقل فى بعض أجزائهما التى تسربت إلى البيئات المنطقية الإسلامية ابتداء

(١) كتاب البرهان مخطوط المتحف البريطانى و ١٠٧ ا .

(٢) نفس المرجع ١١٧ ب

من النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى عن طريق مدرسة العراق السريانية المسيحية . كما أنه ليس يبعد أن يكون قد اطلع على تعليقات الفارابى على التحليلات الثانية وانتفع بها كما انتفع بواضعها فى فنون أخرى من فنون الفلسفة . أما معرفته بشرحى الإسكندر ويحيى النحوى فظاهرة من بعض تعليقاته على النصوص الأرسطية التى يقتبسها من الكتاب : مثال ذلك قوله فى الفصل الثالث من المقالة الثالثة من كتاب البرهان ، فقد قيل فى التعليم الأول ما هذا لفظه : « وأيضا فى الأشياء التى يوضع الأوسط فيها خارجا إنما يكون البرهان على « لم هو » إذا كان أخبر بالعلة نفسها . فإن لم يخبر بها نفسها لم يكن برهان على لم بل على إن » . وفى تفسيره لهذه الفقرة يقول إنها تحتمل وجهين ، ويذكر وجهى نظر الاسكندر الأفروديسى ويحيى النحوى فيها من غير أن يذكر اسميهما . والأمثلة على ذلك كثيرة ، وما على الباحث فى كتاب البرهان إلا أن يدقق النظر فى المواضع التى يفصل فيها ابن سينا الآراء ويناقشها ليتبين له مدى ما أخذه عن الشراح ومدى ما استقل به عنهم .

ولكن ابن سينا إن استمد بعض مادة كتابه فى البرهان من شراح أرسطو فقد استمد الجزء الأكبر والأهم منه من النص الأرسطى نفسه ، ذلك النص الذى حاذاه — على حد قوله — وأخذ منه كثيراً من مسائله بترتيبها وأمثلتها واصطلاحاتها .

وهنا يحق لنا أن نتساءل : أى نص عربى لكتاب التحليلات الثانية الأرسطية عرفه ابن سينا وبنى عليه دراسته فى البرهان ؟ لو لم نعلم بوجود ترجمة أخرى لهذا الكتاب غير ترجمة أبى بشر لجزمنا بأن ترجمة أبى بشر كانت المصدر الذى أخذ عنه . ولكن عندى من المبررات ما يحملنى على الاعتقاد بأنها لم تكن ذلك المصدر .

(أولا) أن مقارنة النصوص التى اقتبسها ابن سينا من أرسطو اقتباسا مباشراً ونص على أنها من أقوال المعلم الأول بلفظه ، بنظائرها فى ترجمة أبى بشر قد أثبتت أنه لا تطابق بينهما إلا فى حالة واحدة هى ترجمة فقرة وردت فى ٧٦ ب : ٢٥ — ٣٠

من كتاب أرسطو[1] . أما ما عداها من الاقتباسات فلا مطابقة ألبتة بينها وبين نظائرها فى ترجمة أبى بشر . فلو أن ابن سينا استعمل ترجمة أبى بشر لأورد النصوص التى اقتبسها من المعلم الأول بعبارة أبى بشر دون تغيير أو تصرف ولكنه لم يفعل .

(ثانيا) أن ترجمة أبى بشر للتحليلات الثانية ترجمة سقيمة عقيمة مستغلقة المعنى مستحيلة الفهم مجافية للذوق العربى ، لا يستطيع القارئ فهمها إلا إذا فهم النص الأصلى ، لأنه حرص على ترجمة ألفاظ الأصل ترجمة حرفية ، ووضع هذه الألفاظ بعضها إلى جانب بعض من غير أن تفيد معنى عاما فى معظم الأحوال . فمن غير المحتمل أن تكون هذه الترجمة المصدر الذى أخذ عنه ابن سينا مادته فى كتاب البرهان وهى مادة واضحة مفهومة فى جملتها . وليس هذا رأيى وحدى فى أبى بشر وأسلوبه فى الترجمة ، فقد عرف له القدماء ركاكته وعجمته واستغلاق معانيه فوصفوه بالوصف الذى هو جدير به . يقول فيه ابن النديم « وكتبه مطرحة بجفوة لأن عبارته كانت عفطية غلقة »[2] . وفى اعتقادى أن أبا بشر أسوأ مترجمى الأرجانون على الإطلاق إذا قورن بإسحق بن حنين الذى ترجم كتابى المقولات والعبارة أو بأبى عثمان الدمشقى الذى ترجم كتاب الجدل أو غيرهما من مترجمى المنطق الأرسطى .

وقد أشرت إلى أمر يصح أن نتخذه دليلا ثالثا على أن النص الأرسطى الذى استخدمه ابن سينا لم يكن ترجمة أبى بشر ، وهو أن مترجم النص الأرسطى الذى عرفه ابن سينا كان ملما باللغة اليونانية وأبو بشر لم يكن يعلم هذه اللغة .

لهذه الأسباب مجتمعة أستبعد احتمال أن يكون ابن سينا أخذ مادته من ترجمة أبى بشر — أو على الأقل منها وحدها — وأرجح أحد احتمالين آخرين .

---

(١) أنظر ترجمة أبى بشر — منطق أرسطو ج٢ ص ٣٤٠ ؛ وقارن برهان ابن سينا و ٩٦ ب .
(٢) الفهرست ط مصر ص ٣٦٧ ؛ والعفطى بالكسر الألكن .

الأول : أن يكون قد عرف الترجمة الأخرى التى عرفها ابن رشد وجيرار الكريمونى من بعده ، وانتفع بها إلى جانب انتفاعه بالشروح المختلفة التى كانت شائعة فى عصره . وهذه الترجمة لسوء الحظ لانعرف عن واضعها شيئاً .

الثانى : أنه لم يعرف هذه الترجمة الثانية بل عرف ترجمة أبى بشر ولكنه عرفها مع شرح أبى بشر نفسه عليها ومع الشروح الأخرى . أما قيمة شرح أبى بشر على النص الأرسطى وأسلوبه ودرجة وضوحه فهذه أمور لانستطيع الحكم عليها لعدم وصول هذا الشرح إلينا .

والآن نشير إلى منهج ابن سينا فى الكتاب وإلى الدور الخاص الذى قام به فيه .

لم يلتزم ابن سينا منهجاً واحداً فى معالجته لموضوعات كتاب البرهان كلها ولذا اختلفت فصول الكتاب اختلافا بينا فى طريقة معالجة المسائل وعرضها . فبعض الفصول لايعدو أن يكون تلخيصاً للأفكار الأرسطية يسير فيها على نفس النمط الذى سار عليه أرسطو فى كتابه ، ويعرضها فقرة فقرة شارحا لها تارة ومعلقا عليها تارة أخرى . وهذه هى الفصول التى ذكر أنه « يحاذى فيها المعلم الأول » ، وهى محاذاة واضحة كل الوضوح فى جميع فصول المقالتين الثالثة والرابعة اللتين لخص فيهما أهم ما أورده أرسطو فى الفصول ١٣ — ٣٤ من مقالته الاولى ، وجميع فصول المقالة الثانية : أقول لخص فيهما أهم ما أورده أرسطو لأنه لم ينقل عن أرسطو كل شىء بل اكتفى بالمسائل الرئيسية وترك التفاصيل كما ترك معظم الأمثلة الرمزية الصورية التى يلجأ إليها أرسطو فى إيضاح قواعده . وكثيرا ما يتخلل تلخيص ابن سينا وشرحه وتعليقاته اعتراضات يثيرها فى صورة « فأن قيل كذا وكذا » وأغلب الظن أنها اعتراضات أثارها الشراح ، ويجيب عنها إجابة منتصر لتعاليم أرسطو غير خارج على أقواله .

وفى الكتاب عدد غير قليل من الفصول التى جمع ابن سينا مادتها من أجزاء مختلفة من التحليلات الثانية لأرسطو ولم يلتزم فيها ترتيب فصول المعلم الأول ، أو جمعها من التحليلات الثانية ومن كتب أرسطو المنطقية الأخرى ثم شرحها وفصل القول فيها . وهذا النوع غالب على فصول المقالة الثانية .

وباقى الفصول هو من النوع الذى استقل فيه ابن سينا عن أرسطو استقلالا ملحوظا فوضعه وضعا أو استوحى فيه أقوال الشراح . وهذا غالب على الفصول الأولى من المقالة الأولى من الكتاب .

قد يتبادر إلى الذهن بعد كل الذى ذكرناه أن ابن سينا ليس مؤلفا بالمعنى الصحيح لكتاب البرهان لأنه لم يضع كتابا جديدا ولم يبتكر نظريات منطقية لم يسبق إليها ، ولم يتجه بنظرية البرهان الأرسطية وجهة جديدة ؛ بل لم ينقدها فى ناحية من نواحيها ، وأن الأجدر أن يوصف بأنه جامع لمسائل البرهان الأرسطى عارض وشارح ومبسط لها . ولكن هذا حكم فيه الكثير من القسوة ومجافاة العدل والانصاف فأننا لا نستطيع أن نصفه بأنه شارح لكتاب البرهان على نحو ما نصف ابن رشد أو أى شارح أرسطى آخر : لأنه لم يعن بتفسير النص الأرسطى بقدر ماعنى بتوضيح القواعد الأرسطية . كما أنه لم يكن جماعا لمادة أرسطو فى البرهان على نحو ما وضعت المجاميع والملخصات للكتب الأرسطية ، بل هو جامع يختار مايرتضيه من الآراء ويترك مالا يرتضيه ،ويوائم بين مايختاره فى نسق منتظم ويناقش كل ذلك ويحلله ويفسره .

على أن ابن سينا لم يلتزم فى كتابه حدود كتاب البرهان الأرسطى ، بل تجاوزها فى استطراداته إلى ميادين أخرى من ميادين المنطق ، بل إلى ميادين علم النفس والطبيعة وغير ذلك مما تظهر فيه شخصية الفيلسوف وسعة علمه وعمق تحليله وتفكيره . ومن أمثلة ذلك أنه بعد أن شرح القاعدة الأرسطية القائلة إنك إذا فقدت حاسة فقد فقدت علما ، يستطرد فيتكلم فى أنواع العلم المكتسب منها بالحس والمكتسب بغيره ، ويدلل على إمكان الوصول إلى المعانى العقلية وغير ذلك مما بسطه فيما بعد فى كتاب الاشارات[1] .

وإذا لم يؤلف ابن سينا كتابا جديدا فى البرهان بل كان مجهوده فيه مجهود جامع ملخص عارض شارح معقب معلق على برهان أرسطو ، فأين فضله إذن

(١) أنظر الأشارات فى النمط الرابع فى الوجود وعلله .

وما هى قيمة كتابه ؟ الحق أن فضله إنما هو فى هذه كلها مجتمعة . وليس بقادح فى قيمة الكتاب أن مادته هى مادة البرهان الأرسطى فى جوهرها .

لم تكن المهمة التى اضطلع بها ابن سينا مهمة يسيرة أو هينة . فقد كان عليه أن يعرض لأول مرة فى تاريخ المنطق فى العالم الإسلامى صورة من صور البرهان الأرسطى فى لغة إن لم تكن واضحة الوضوح كله فهى على الأقل لغة مفهومة فى جملتها خالية من العجمة والركاكة اللتين امتازت بهما ترجمة متى بن يونس .

وليست موضوعات البرهان الأرسطى من الموضوعات التى يسهل فهمها واستيعاب معانيها ومراميها حتى على المتمرسين بصناعة المنطق والفلسفة ، بل تحتاج إلى تأمل عميق وفهم دقيق وإحاطة شاملة بالتراث الأرسطى المنطقى والفلسفى . كما أن لغة أرسطو فى البرهان ليست باللغة المستقيمة الواضحة ، بل هو أعقد وأعوص كتبه المنطقية وأكثرها تركيزا على الاطلاق .

فإذا استطاع ابن سينا أن يخرج للعالم العربى فى مثل ظروفه القاسية المظلمة ، ومن غير استعانة بأستاذ ما ، كتابا فى نظرية البرهان يمكن فهمه واستساغته ، بل كتابا كان يعتمد عليه كل باحث عربى فى العالم الإسلامى من بعده ، كان ذلك فضلا عظيما له ولكتابه ونصراً مبينا لعبقريته .

على أن هناك حقيقة يجب ألا نتجاهلها فى حكمنا على ابن سينا وعلى منطقه بوجه خاص : وهى أنه يمثل فى تاريخ نقل التراث الفلسفى إلى العالم الإسلامى مرحلة وسطى بين مرحلتين ، الأولى مرحلة الترجمة التى كان هم أصحابها نقل الكتب اليونانية إلى العربية من غير محاولة لتجديد فيما نقلوه أو إضافة شىء عليه أو نقد له . والثانية مرحلة التأليف الحر غير المقيد بالأصول اليونانية على الرغم من تأثره بهذه الأصول . فابن سينا يقف وسطا بين هذين الطرفين لا هو حر على الاطلاق ولا مقيد على الاطلاق بل يتردد بين الحرية والتقيد . وهذه ظاهرة نلمسها فى أسلوبه فى كتاب البرهان كما نلمسها فى مادته . بل إن الغموض الذى نصادفه فى بعض أجزاء الكتاب إنما مرده فى اعتقادى إلى شدة حرصه على متابعة الأصول التى ينقل عنها ولو أنه تحرر من قيودها لسلس له قياد الأسلوب والفكر معا .

ومهما يكن من شيء ، فإننا يجب ألا نحكم على إنتاج ابن سينا بموازين الدراسات الأرسطية في القرن العشرين بعد أن فرقت القرون العشرة الماضية بيننا وبينه وباعدت بين أساليبنا وأسلوبه وتفكيرنا وتفكيره . ولن نستطيع أن نرجع بعجلة الزمان هذه القرون العشرة فنجعل من كل دارس لأرسطو تلميذا كابن سينا . ومع هذا سيحفظ له التاريخ منزلة مرموقة في سجل الأفراد الذين تدين لهم الإنسانية بالشيء الكثير في تطورها الفكري .

تقارير ومؤتمرات

ونقد الكتب

تقــــرير

عن المؤتمر الدولى الثالث والعشرين للمستشرقين

[المنعقد فى كمبردج بانجلترا من ٢١ إلى ٢٨ أغسطس ١٩٥٤]

وافق مجلس الجـامعة فى تاريخ ٤ مارس سنة ١٩٥٤ على اختيارى للاشتراك فى تمثيل جامعة الاسكندرية فى المؤتمر الدولى الثالث والعشرين للمستشرقين وبعد موافقة مجلس الوزراء على هذا القرار سافرت بطريق الجو إلى انجلترا يوم ١٥ أغسطس ، وأمضيت فى لندن بضعة أيام زرت فيها السفارة المصرية ، وبحثت مع السيد السفير فكرة الاتصال بأولى الأمر فى شأن دعوة المؤتمر لعقد دورته المقبلة (الرابعة والعشرين) فى مصر . ثم اتصلت بأعضاء البعثات الدراسية من الكلية واطلعت على سير دراساتهم ، وزرت جامعة لندن ، ومقر المركز الإسلامى ، ومدرسة اللغات الشرقية ودار الاذاعة البريطانية .

وفى يوم السبت ٢١ أغسطس سافرت مع كثيرين من الأعضاء إلى كمبردج مقر انعقاد المؤتمر .

كان المؤتمر برياسة « سير رالف تيرنر » Sir Ralph Turner ، وكان من وكلاء لجنة التنظيمية « سير هاملتون جب » عضو المجمع اللغوى فى مصر . وقد عقدت الجلسة الافتتاحية فى مساء اليوم الأول فى مقر مجلس جامعة كمبردج ، وفيها اختار المؤتمر لجنة الاستشارية ، ووقع على الاختيار لعضويتها ، لتمثيل مجموعة البلاد العربية .

ومن صباح الاثنين ٢٣ أغسطس بدأت أقسام المؤتمر عقد جلساتها ، (وهذه الأقسام تشمل المصريات ، والساميات ، والدراسات الإيرانية ، والتركية والهندية ، والدراسات الإسلامية . . . الخ .) وكان القسم الذى انضممت إليه ، وحضرت اجتماعاته ومناقشاته ، ودعيت لرياسة بعض جلساته ، وألقيت فيه بحثى

الذى أعدته المؤتمر، هو قسم الدراسات الإسلامية، الذى تناولت بحوثه نواحى من دراسات القرآن والأدب والتصوف والفلسفة والتشريع والفن الإسلامى .

أما البحث الذى ألقيته فموضوعه :

" Two Fourth Century Approaches to the Theory of I'jāz "

وقد تناول البحث تحليل كتابين قديمين فى دراسة الإعجاز لعالمين من علماء القرن الرابع الهجرى ، أحدهما سنى (أبو سليمان الخطابى المتوفى سنة ٣٨٨ ه) والثانى معتزلى (أبو الحسن الرمانى المتوفى سنة ٣٨٤ ه) وانتهى التحليل إلى إبراز نظريتين مختلفتين فى تفسير الإعجاز .

إحداهما حاولت أن تجد سر الإعجاز فى نظم القرآن ، وذهبت إلى أن هذا النظم يشارك فى طبقات الكلام العليا والوسطى والدنيا ، فى طريقة فذة تجاوز قدرة العبقرية الأدبية البشرية ، وتملأ النفس الإنسانية بمعانى العذوبة والروعة والإعجاب .

والثانية بحثت عن هذا السر فى جهات سبع : إحداها البلاغة بأقسامها العشرة الممثلة أعلى تمثيل فى تعبير القرآن .

وحاول البحث أن يبين تطور هاتين النظريتين وأثر كلتيهما فى المؤلفات الواسعة التى عالجت موضوع الإعجاز فى القرنين الخامس والسادس الهجريين .

هذا وقد حضر المؤتمر أكثر من تسعمائة عضو من مختلف الأمم، وهو عدد لم يسبق حضور مثله فى الدورات السابقة ؛ ونزل الأعضاء — مدة انعقاد المؤتمر — فى كليات الجامعة ، وكنت أنا فيمن نزلوا فى كلية « بمبروك » ، وقد بذل مضيفنا الأستاذ « آربرى » وأعوانه غاية جهدهم فى راحتنا ؛ وكان نظام المؤتمر فى جميع نواحيه دقيقا . وأقيمت للأعضاء عدة استقبالات : أحدها من الحكومة البريطانية وآخر من الجمعية الأسيوية ، وثالث من قسم الدراسات الشرقية بجامعة كمبردج .

واختتم المؤتمر جلساته يوم ٢٨ أغسطس ، وعدت فى اليوم ذاته إلى لندن فأتممت مأموريته لتقضى من برنامج لزيارة بعض الكليات والمكتبات ، ثم رجعت لمصر ، بطريق الجو بتاريخ ١١ سبتمبر .

وفى رأيى أن المؤتمر نجح فى أعماله ، وأتاح الفرصة المشتغلين بالدراسات الشرقية من مختلف الأمم ، ليتلاقوا ويتعارفوا ويطلع بعضهم على دراسات بعض ، وقد أتيح لى أن أجدد العهد بلقاء بعض العلماء والباحثين الذين قابلتهم فى دورات ومؤتمرات سابقة ، وأن أعقد صلات مع أصدقاء جدد . وكان نشاط المجموعة المصرية ظاهراً فى مختلف أقسام المؤتمر ؛ كما كان للأعضاء الذين حضروا من جامعة الإسكندرية أثر طيب فى التعريف بنشاط جامعة الإسكندرية ودراساتها ، وبنواحى النهضة القومية الحاضرة فى مصر .

وأرى من الأفضل فى مثل هذا المؤتمر — من الوجهة القومية — فى المستقبل أن يوفد إليه وفد مصرى رسمى ، يمثل الهيئات العلمية المختلفة ، كما حدث فى الدورة الحادية والعشرين التى عقدت فى باريس سنة ١٩٤٨ ، فإن ذلك يساعد على نجاح الأعضاء فى مهتهم ، وعلى قيامهم بنواحى النشاط المختلفة الضرورية ، وعلى أن يكون للوفد رأى موحد فى بعض الشئون المهمة التى تعرض فى مثل هذه المؤتمرات .

وأقترح أن يزود مثل هذا الوفد بالمطبوعات التى أخرجتها الهيئات العلمية والجامعات فى مصر فى السنوات الأخيرة .

محمد خلف الله

عميد كلية الآداب بجامعة الإسكندرية
وأحد ممثلى الجامعة فى المؤتمر

تقـــرير

عن مؤتمر الدراسات العربية والإسلامية

[المنعقد فى جامعة بشاور بالباكستان فى ٢٨ - ٣٠ أبريل ١٩٥٤]

تقدمة

الباكستان دولة وليدة دينها الرسمى الإسلام ، ومن هنا كانت عنايتها الواضحة بنشر الثقافة الإسلامية ، والعمل على توثيق الصلات الروحية والثقافية بينها وبين الدول الإسلامية الأخرى .

ولقد أتى على العالم الإسلامى - الذى كان يمتد فى العصور الوسطى من الأندلس غربا إلى تركستان شرقا - حين من الدهر كانت اللغة العربية هى اللغة السائدة بين ربوعه ، ولغة التخاطب بين أهليه ، ولغة العلم والثقافة فى مدارسه ومعاهده العلمية .

ثم كانت نكسة صاحبت عصر الاستعمار الأوربى ، وتأخرت الدراسات العربية والإسلامية فى بعض أجزاء هذا العالم الإسلامى ، وأهملت إهمالا يكاد يكون تاما فى أجزاء أخرى ، وخاصة فى شبه القارة الهندية ، إلى أن بدأت النهضة الأخيرة فى مختلف دول العالم الإسلامى ، وأخذ سكان هذا العالم يحسون باليقظة وبالوعى الجديد وبضرورة العناية بماضيهم وإحياء هذه الدراسات .

والباكستان بوجه خاص تحس بهذه الضرورة إحساساقويا ، لأنها - وقد كان العامل الأكبر فى نشأتها وتكوينها هو أن الغالبية العظمى من سكانها يدينون بالدين الإسلامى - تريد أن تقيم العلاقات بينها وبين الدول الإسلامية الأخرى على أساس قوى متين ، وليس أقوى ولا أمتن من أن تعمل على إحياء الدراسات الإسلامية ، ومن أن تعمل على العناية باللغة العربية وتعليمها ونشرها لتعيد لها

مكانتها الأولى ، فقد كانت فى وقت ما لغة العلم والثقافة والتأليف فى الهند الإسلامية ؛ وكم من عالم إسلامى مرموق أخرجته الهند ، وكم من مؤلف قيم وضعه علماء الهند المسلمون باللغة العربية ، وكم من كتاب عربى مفيد أخرجته مطابع لاهور وبمباى وكلكتا وغيرها من مدن الهند الإسلامية الكبرى ، وجامعة بشاور الفتية ، إحدى خمس جامعات تضمها الباكستان ، وهى إلى حداثة عهدها شديدة العناية بالدراسات العربية والإسلامية ، ولعل هذا راجع إلى موقع بشاور الجغرافى ، فهى لا يفصلها عن أفغانستان وبقية العالم الإسلامى إلا ممر خيبر .

ومن مظاهر عناية هذه الجامعة بهذا النوع من الدراسات أنها ندبت أستاذاً مصريا — وهو الزميل الدكتور عبد المحسن الحسينى — للاشراف على الدراسات العربية بها ، ثم هذا المؤتمر الذى عقدته فى ٢٨ ابريل الماضى للدراسات العربية والإسلامية ، والذى انتدبتنى جامعة الاسكندرية لحضوره ممثلا لها .

هيئة المؤتمر

أشرف على هذا المؤتمر هيئة تتكون من :

١ — رئيسا الشرف : الحاج خواجه شهاب الدين

حاكم ولاية الحدود الشمالية الغربية

— ومعالى سردار عبد الرشيد

رئيس وزراء الولاية والرئيس الأعلى لجامعة بشاور

٢ — رئيس المؤتمر : الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام

سفير مصر بالباكستان

٣ — الأمين العام : الدكتور عبد المحسن الحسينى

الأستاذ المساعد بجامعة الاسكندرية والأستاذ المنتدب بجامعة بشاور ورئيس قسم اللغة العربية بها .

كلمات الافتتاح

وقد افتتح المؤتمر فى صبيحة يوم ٢٨ أبريل بكلمة ألقاها معالى ميان جعفر شاه وزير المعارف بولاية الحدود ، أشار فيها إلى أن مسلمى باكستان كانوا يمهدون منذ حين لثورة روحية ، وإلى أنهم يريدون أن يقيموا حياتهم على نموذج إسلامى ؛ ولهذا كان من الطبيعى ومن الضرورى أن تلعب الدراسات العربية والإسلامية دوراً هاما فى نظم التعليم الباكستانية ، وعبر عن أمله أن يستطيع الأساتذة الاخصائيون المجتمعون فى هذا المؤتمر وضع أسس سليمة صالحة يمكن للباكستان أن تسير على ضوئها لتشجيع الدراسات العربية والإسلامية بها فى العهد الجديد . وختم كلمته بشكر الهيئات والجامعات التى أرسلت مندوبين عنها للمشاركة فى هذا المؤتمر وخاصة جمهورية مصر وجامعة الإسكندرية .

وتبعه الحاج خواجه شهاب الدين الحاكم العام لولاية الحدود ورئيس شرف المؤتمر ، فألقى كلمة أشار فيها إلى أن الاسلام كان ولا يزال دائما دينا حيا قويا ملهما ، وأننا اليوم فى حاجة شديدة إلى نظام تعليمى لا يساعد الطلاب على التعمق فى الدين فحسب ، بل يساعدهم على إحياء روح البحث والاستقصاء وطلب المعرفة ؛ ونادى كذلك بوجوب إرساء النظم التعليمية والتربوية على أسس متينة من التعاليم الخلقية والروحية والدينية .

وكانت الكلمة الثالثة فى حفلة الافتتاح هى كلمة رئيس المؤتمر السيد الدكتور عبد الوهاب عزام سفير مصر بالباكستان ، وخلاصتها أن العالم الإسلامى أتى عليه حين من الدهر كانت تمتد حدوده من شمال الأندلس وشواطىء المحيط الأطلسى غربا إلى بلاد تركستان شرقا ، وأن اللغة السائدة فى هذا العالم الإسلامى كله كانت يوما ما هى اللغة العربية ، وإن كانت بلاد العالم الإسلامى تعيش اليوم فى عصر نهضة وإحياء هذه الصلة القديمة القوية لتصبح اللغة العربية مرة أخرى هى لغة العلم والتخاطب والتفاهم بين كل مسلم ومسلم فى كل أنحاء هذا العالم الإسلامى ؛ وأشار سيادته بوجه خاص إلى أن هذه العناية الواجبة باللغة العربية لا يمكن أن تتعارض بأية حال من الأحوال مع العناية باللغات القومية فى كل إقليم من هذه الأقاليم .

ندوات البحث

اليوم الثانى ٢٩ أبريل صباحا

ندوة الدراسات العربية

وفى صباح اليوم الثانى عقدت ندوة من بعض المؤتمرين وكان موضوع البحث « التدابير الواجب اتباعها لتعليم اللغة العربية ونشرها فى الباكستان » ، وقد شارك فى هذه الندوة عدد كبير من أساتذة الجامعات فى الباكستان .

اليوم الثانى ٢٩ أبريل مساء

ندوة الدراسات الاسلامية

وفى مساء اليوم الثانى عقدت ندوة ثانية للمناقشة فى موضوع « الدراسات الإسلامية فى الباكستان » .

وقد شارك فى هذه الندوة أيضا عدد من أساتذة الجامعات فى الباكستان .

الجلسة الختامية وقرارات اللجان

وفى الجلسة الختامية انقسم المؤتمرون إلى لجنتين : لجنة للدراسات العربية ، ولجنة للدراسات الإسلامية ، وفيما يلى ملخص القرارات النهائية التى انتهت اللجنتان إلى الموافقة عليها وأقرها المؤتمر فى اجتماعه الختامى :

١ — بدأ المؤتمر بإبداء أسفه والتعبير عن حزنه لوفاة العالمين الجليلين : العلامة سيد سليمان الندوى ، ومولانا مسعود علم الندوى ؛ مع تقدير الجهود الضخمة التى بذلاها فى خدمة الدراسات العربية والإسلامية .

٢ — لخلق مجتمع إسلامى صحيح فى الباكستان يجب إعداد الشباب الباكستانى اعدادا إسلاميا ، ولهذا يوصى المؤتمر الحكومة المركزية والحكومات الإقليمية أن تعنى عناية كافية بوضع تنظيمات مناسبة لنشر التعاليم الإسلامية فى كل مراحل التعليم بالمدارس والكليات ، وخاصة فى مرحلة الدراسة الثانوية .

٣ — يوصى المؤتمر الحكومة المركزية والحكومات الإقليمية أن تضع دراسة الدين الإسلامى موضعها الصحيح فى البرامج الدراسية للدولة بأن تجعل دراسة الدين الإسلامى مادة إضافية إجبارية للتلاميذ المسلمين فى كل مراحل الدراسة فى المدارس والكليات .

٤ — يوصى المؤتمر كل الجامعات والادارات التعليمية فى الباكستان أن تعمل لمعالجة أوجه الخلاف الموجودة بين مناهج الإسلاميات (الدراسات الإسلامية) والتعاليم الدينية فى مختلف ولايات الباكستان وأن تعد سياسة رسمية موحدة ومنهاجا مفصلا هدفه غرس الروح الإسلامية الحقيقية فى نفوس الشباب الباكستانى .

٥ — وإذ كانت اللغة العربية هى المعين الأساسى للثقافة الباكستانية الإسلامية ، وإذ كانت هى العروة الوثقى للتقريب بين المسلمين فى كل أنحاء العالم فإن المؤتمر يوصى الحكومة المركزية والحكومات الاقليمية أن تعيد للغة العربية مكانتها الصحيحة فى النظم والمناهج التعليمية ، وأن تجعلها مادة إجبارية تدرس فى كل المدارس ، وأن يكون لها من التقدير ما لكل المواد الدراسية الإجبارية الأخرى .

٦ — يرجو المؤتمر الحكومات والشعوب العربية أن تدبر الوسائل والطرق المختلفة لتيسير تعلم اللغة العربية فى الدول الإسلامية غير العربية .

٨ — ولما كان السبب الرئيسى لعدم شعبية الدراسات العربية وانتشارها فى الباكستان هو قصور المناهج التعليمية الحاضرة التى يعيبها جمودها وبعدها عن الحياة وحاجاتها العملية ، ولما كانت الأهداف الأولية لدراسة أية لغة حديثة دراسة حرة مجدية تتلخص فى :

أولا — تيسير تبادل الآراء .

ثانيا — تنمية القدرة على النقد وتقدير قيمة الكتب والمؤلفات .

ثالثا — خلق روح البحث والاستقصاء .

فانه من المأمول أن يعاد النظر فى كل المناهج الموضوعة للدراسات العربية على ضوء الملاحظات سالفة الذكر مع العناية بوجه خاص :

(ا) بتبادل الآراء والقدرة على التعبير فى المرحلة الثانوية .

(ب) بالدراسة النقدية للأدب فى مرحلة الدراسة بالكليات .

(ج) بالتدريب على البحث ووسائله فى مرحلة ما بعد الليسانس .

٨ — يوصى المؤتمر الحكومة المركزية والحكومات الاقليمية باتخاذ الخطوات الضرورية لجعل تعليم اللغة العربية فى المدارس قائما على طرق سليمة .

٩ — يوصى المؤتمر الحكومة المركزية أن تعمل على تنفيذ مشروع دار العلوم بأسرع ما يمكن .

١٠ — يوصى المؤتمر الحكومة المركزية والحكومات الاقليمية والجامعات فى الباكستان أن تعمل على إعداد مدرسي اللغة العربية إعدادا سليما فى معاهد التربية للمعلمين .

١١ — يوصى المؤتمر الحكومة المركزية والحكومات الاقليمية والجامعات الباكستانية أن تعد مشروعا سريعا لإرسال معلمى اللغة العربية فى بعثات إلى الدول العربية لاستكمال دراساتهم ولاستيعاب الطرق الحديثة فى تدريس هذه اللغة .

١٢— يسجل المؤتمر شكره العميق للحكومتين المصرية والسورية على الجهود القيمة التى تبذلانها للتقدم باللغة العربية فى الباكستان بإرسال المدرسين المختصين مع تحمل نفقاتهم ومرتباتهم .

١٣— ويسجل المؤتمر كذلك شكره العميق للمجلس التعليمى بولاية الحدود الشمالية الغربية لوضعه اللغة العربية فى المكانة اللائقة بها ، وذلك باقراره أن تكون هذه اللغة مادة إجبارية تدرس فى جميع مدارس الولاية .

كان المؤتمر يضم عدداً كبيراً من علماء الباكستان وأساتذة جامعاتها المختصين فى الدراسات العربية والإسلامية والمعنيين بها ، ولم يحضره من خارج الباكستان إلا :

١ — الدكتور جمال الدين الشيال أستاذ التاريخ الإسلامى المساعد بجامعة الاسكندرية ممثلا لجامعته .

٢ — الأستاذ أمين المصرى الملحق الثقافى للجمهورية السورية فى الباكستان ممثلا لدولته .

[وكانت جامعة القاهرة قد أرسلت الى المؤتمر مايفيد انتداب الدكتور محمد كامل حسين ممثلا لها ولكنه لم يحضر]

وحضر المؤتمر عدد كبير من أساتذة جامعات : كراتشى والسند والبنجاب ممثلين لجامعاتهم .

الأبحاث التى ألقيت فى المؤتمر أو التى قدمت إليه

جلسة اليوم الأول ٢٨ أبريل مساء

رأس الجلسة الدكتور عناية الله رئيس قسم اللغة العربية بالكلية الحكومية بجامعة لاهور .

وكان المتحدث الثانى فيها الدكتور جمال الدين الشيال ممثل جامعة الاسكندرية وألقى بحثا باللغة الانجليزية موضوعه " The Fatimid Documents as a source for the History of the Fatimids and their Institutions. " (الوثائق الفاطمية كمصدر لدراسة تاريخ الفاطميين ونظم الحكم فى عهدهم) .

وقد قدم الدكتور عناية الله الأستاذ المحاضر بكلمة قيمة أشاد فيها بجهوده العلمية فى ميدان البحث التاريخى وما يتمتع به من سمعة عالية فى الأوساط العلمية

الشرقية والغربية وذكر بعض مؤلفاته وبحوثه مثنيا عليها . وقد كان لهذا البحث صدى قوى بين الأساتذة أعضاء المؤتمر لأن صاحب البحث يدعو فيه الى العناية بالوثائق كمصدر أول لدراسة التاريخ الاسلامى ، وهو يقدم فيه مشروعه الضخم الذى يعمل لتحقيقه منذ سنوات طوال ، وهو جمع ما تبقى من الوثائق التاريخية لمصر الإسلامية ونشرها بعد دراستها دراسة تحليلية مقارنة .

ولهذا أثيرت مناقشات كثيرة بعد القاء البحث اشترك فيها الأساتذة الدكتور عناية الله ، والدكتور قريشى مدير الكلية الشرقية بجامعة لاهور ، والعلامة علاء الدين صديق رئيس قسم الاسلاميات بجامعة لاهور ، والدكتور عابد أحمد على مدير الكلية الحكومية بسرجودا .

جلسة اليوم الثانى ٢٩ أبريل مساء

رأس الجلسة الدكتور جمال الدين الشيال مندوب جامعة الاسكندرية وكان المتحدث فيها : العلامة علاء الدين صديق ، وألقى بحثا باللغة الاوردية موضوعه « قيمة الدراسات المقارنة للأديان » واشترك فى المناقشة الأساتذة ، الدكتور عابد أحمد على والدكتور عناية الله والدكتور الشيال .

جلسة اليوم الثالث ٣٠ أبريل صباحا .

رأس الجلسة العلامة علاء الدين صديق ، وتحدث فيها ثلاثة من الأعضاء هم حضرات الاساتذة :

١ — الدكتور عابد أحمد على وألقى بحثا باللغة الانجليزية موضوعه
"A New approach to the tudy of Pre-Islamic Arabic Poetry"
« نظرات جديدة فى الشعر الجاهلى » .

٢ — الدكتور عبد المحسن الحسينى وألقى بحثا بالانجليزية موضوعه
"General Tendencies of the Second Abassid Period which Shaped Mutanabi's Ideology"
« الاتجاهات العامة فى العصر العباسى الثانى التى شكلت المثل العليا المتنبى » .

٣ — الأستاذ ناظم ندوى ، وألقى بحثاً باللغة الانجليزية موضوعه

"Course of sudies in the Arabic Madrashas"

« مقررات الدراسات فى المدارس العربية » .

وقد قدمت المؤتمر أبحاث كثيرة أخرى لم تتح الفرصة لقراءتها وأهمها :

١ — الدكتور عبد الواحد هلپوتا (Halepota)

"The Conception of Society of Shah Waliyullah Dehlawi"

« فكرة المجتمع عند شاه ولى الله دهلوى » .

٢ — دكتور عطاء الله

"Some Manuscripts in the Islamia College Library"

« بعض المخطوطات فى مكتبة الكلية الاسلامية بجامعة بشاور » .

٣ — الأستاذ حسين الكاتب

« لماذا نتعلم اللغة » [بحث باللغة العربية]

٤ — الأستاذ سيد ابراهيم رحيم

« أهم العوامل التى أثرت على الفنون الاسلامية فى مصر » .

[بحث باللغة العربية]

٥ — الأستاذ محمد عبد القدوس

"Literary past of the Peshawar Valley"

« الماضى الأدبى لوادى بشاور »

٦ — الدكتور عناية الله

"Importance of Arabic Language"

« أهمية اللغة العربية »

كلمة ختامية واقتراحات

هذا موجز عن أعمال مؤتمر الدراسات العربية والإسلامية الأول الذي دعت اليه جامعة بشاور إحدى جامعات الباكستان الكبرى ، ومنه يتبين مدى إخلاص الباكستانيين فى نهضتهم الحديثة للعناية بالدراسات العربية والإسلامية ، فهم قد خرجوا من عصر الاستعمار الانجليزى وقد أصبحت اللغة العربية نسياً منسياً ، بل وقد أصبحت اللغة الانجليزية هى لغة التفاهم بين المثقفين منهم ، وليس أدل على هذا من أن كل الكلمات والبحوث التى ألقيت فى هذا المؤتمر (وهو مؤتمر للدراسات العربية والاسلامية) كانت معظمها باللغة الانجليزية ، وأقلها باللغة الأوردية ، وذلك باستثناء كلمتين اثنتين كلمة الدكتور عبد الوهاب عزام فى حفلة الافتتاح وكلمتى فى حفلة الختام فقد ألقيتا باللغة العربية ، وفى كلمتى هذه قدمت الشكر للمؤتمر والجامعة بشاور والأساتذة المشرفين على أعمال المؤتمر وأثرت هذه الملاحظة التى أشرت اليها سالفا وأبديت اعجابى بهذه الروح الجديدة التى تسود الباكستان اليوم وتعنى هذه العناية الواضحة القوية بنشر الدراسات العربية والإسلامية وتعميمها .

وتقدمت ببعض اقتراحات أهمها :

العمل على تعميم تدريس اللغة العربية وجعلها مادة إجبارية (وهو اقتراح أخذ به المؤتمر) .

انشاء مدارس لتحفيظ القرآن للأطفال الصغار وهم بعد فى سن الطفولة والقدرة على الاستيعاب والحفظ ، فليس أقوى من القرآن وسيلة لتقويم الألسنة غير العربية ، لأنى لاحظت أن من يتكلمون بالعربية من الباكستانيين ينطقون بعض الحروف والألفاظ نطقاً أعجميا ، ولهم العذر فى ذلك فهم قد درسوا اللغة العربية فى سن متأخرة ، وهم بعد لم يعيشوا فى وسط يتكلم العربية لتتعود آذانهم وألسنتهم النطق الصحيح .

والجامعات الباكستانية وأساتذتها وطلابها شديدو الحرص على توثيق العلاقات بينهم وبين الدول العربية والإسلامية وخاصة مصر ، وخير شاهد على ذلك

أن جامعة بشاور قد انتدبت أستاذاً من جامعة الاسكندرية للإشراف على الدراسات العربية بها ، ومصر من جانبها تعمل جاهدة لتحقيق رغبة الباكستانيين فى هذا الميدان فقد سعى السيد الدكتور عبد الوهاب عزام سفير مصر بالباكستان لدى الحكومة المصرية حتى وافقت فى العام الماضى على ندب اثنين من مدرسى اللغة العربية المصريين لتعليم اللغة العربية وآدابها فى جامعات الباكستان على أن تتولى مصر دفع مرتباتهما كاملة ، وقد قضيا العام الماضى فى جامعة بشاور لمعاونة الدكتور الحسينى وسينقلا فى العام القادم إلى جامعة أخرى للقيام بنفس المهمة وانى أرى أن هذه خطوة أولى ويجب أن تتبعها خطوات أخرى .

فإذا كان لى الحق فى أن أتقدم ببعض الاقتراحات فإنى أقترح :

١ — أن تعمل الدولتان مصر والباكستان على تبادل الأساتذة بين الجامعات فيهما (وخاصة أساتذة الادب العربى والتاريخ الإسلامى والفلسفة الإسلامية) .

٢ — أن تشجع الحكومة المصرية انتداب مدرسى اللغة العربية المصريين للعمل فى الباكستان بنفس الشروط التى ينتدبون بها للبلاد الشرقية الأخرى أو بشروط أخرى أكثر كرما لأن الباكستان لازالت محدودة الإمكانيات وخاصة أن التقسيم ترك لها مشاكل كثيرة تحتاج إلى جهد كبير ومال كثير لحلها أو للقضاء عليها .

٣ — يستطيع الأزهر أن يصنع شيئا كثيراً ، وأيسر ما يستطيعه أن يرسل عدداً من علمائه ومدرسيه للتدريس فى جامعات الباكستان ومدارسها ولنشر الثقافة الإسلامية فى المجتمع الباكستانى .

٤ — أن ترسل الجامعات المصرية والأزهر والهيئات الثقافية فى مصر مجموعات من مطبوعاتها العربية والتاريخية والإسلامية إلى مكتبات الجامعات بالباكستان فليس أقوى من الكتاب وسيلة لنشر الثقافة .

٥ — تستطيع الباكستان أن تحصل على نتيجة طيبة لو أنها عملت على إرسال

الشباب الممتازين المتخصصين فى الدراسات العربية فى بعثات إلى مصر لاستكمال دراساتهم وتحضير شهادات الماجستير والدكتوراه بالجامعات المصرية ؛ وعلى الجامعات المصرية أن تقدم لهؤلاء الشبان كل المساعدات الممكنة .

وأنا بعد لست فى حاجة إلى إيضاح مبلغ الفائدة التى تعود على الدولتين — مصر والباكستان — من تنفيذ هذه الاقتراحات وغيرها لنشر الثقافتين العربية والاسلامية فى الباكستان ، وأهم من هذا كله نشر اللغة العربية وتعميم تدريسها ليخرج فى الباكستان جيل جديد يتكلم اللغة العربية ، فهذا اقوى رباط يستطيع أن يربط الباكستان بالعالم الاسلامى كله ، وإذا كانت انجلترا استطاعت فى مدة استعمارها للهند أن تجعل اللغة الانجليزية هى اللغة السائدة Lingua Franca بين الباكستانيين وبين المثقفين منهم خاصة ، وهم على اختلاف لغاتهم القومية يتفاهمون معاً باللغة الانجليزية ، فان الباكستان الحديثة تستطيع أن تصل الى نفس النتيجة بالنسبة للغة العربية ؛ حقيقة إن هذا السعى يحتاج إلى جهد ووقت ولكن عليها أن تبدأ ، وستصل إلى نتيجة طيبة فى وقت سريع لأن اللغة الاوردية ، وهى لغة الغالبية فى الباكستان الغربية ، تحتوى على نسبة كبيرة جداً من الألفاظ والمفردات والتعابير العربية .

وهذا الوقت هو أنسب الأوقات للبدء فى هذه التجربة وإصدار قرار بجعل اللغة العربية مادة إجبارية فى كل المدارس الباكستانية الابتدائية والثانوية — كما كان الحال بالنسبة للغة الانجليزية — وخاصة أن الباكستان خرجت من التقسيم لتجد أن اللغة الانجليزية هى اللغة الرسمية ، فالأوراق الحكومية كلها تكتب وتصدر حتى الآن باللغة الانجليزية ، مما دفع الباكستانيين إلى التفكير فى تغييرها وإحلال لغة قومية محلها وهنا اعترضتهم مشكلة مستعصية ، لأن اللغة السائدة فى غرب الباكستان هى الاوردو (وإلى جانبها عدة لغات قومية أخرى) . واللغة السائدة فى شرق الباكستان هى اللغة البنغالية (وإلى جانبها عدة لغات قومية أخرى) ، مما اضطر البرلمان الباكستانى إلى إصدار قرار أخير (صدر أثناء اقامتى فى كراتشى فى أواخر أبريل سنة ١٩٥٤) باتخاذ لغتين قوميتين . هما الأوردية والبنغالية ، ولكن

سكان الباكستان الغربية ثاروا ضد هذا القرار، وأضربت مدينة كراتشى وقامت فيها المظاهرات أثناء اقامتى بها احتجاجا على هذا القرار، فهم يريدون لغة قومية واحدة هى الاوردو. وقد تحدثت مع بعض المثقفين من سكان الباكستان الشرقية فى هذا الموضوع، فرأيتهم يميلون الى أن تكون اللغة العربية هى اللغة القومية الوحيدة ما دامت الباكستان قامت على أساس أنها دولة إسلامية، وما دامت اللغة العربية هى لغة القرآن والثقافة الإسلامية، فاذا كان هذا متعذرا فهم لا يريدون أن تفرض عليهم اللغة الأوردية وهم أكثر عدداً من سكان الباكستان الغربية، بل يؤيدون القرار السابق بأن تكون اللغة القومية لغتين: الاوردية والبنغالية.

والمشكلة لا تزال قائمة لم تجد لها حلا بعد، ولكن هل يستطيع الباكستانيون أن يدركوا قيمة الفوائد الثقافية والاقتصادية والسياسية التي يحققونها لو أنهم خطوا هذه الخطوة الجريئة، وعملوا على أن تكون اللغة العربية هى لغتهم القومية، أو على الاقل لو رضوا بأضعف الإيمان فجعلوها مادة إجبارية فى كل مدارسهم الابتدائية والثانوية؟ وهل تستطيع مصر والدول العربية الأخرى أن تدرك مدى ما تستطيع أن تحققه من نفس الفوائد لو أنها بذلت الجهود المرجوة لتشجيع الباكستان والباكستانيين على تحقيق هذه الأهداف، ونشر الدراسات والثقافة العربية والإسلامية. انه الخير العميم لو تعاونت الجهود هنا وهناك فاللهم حقق الآمال.

جمال الدين الشيال

أستاذ التاريخ الإسلامى

وممثل جامعة الاسكندرية فى المؤتمر

تقرير عن مؤتمر العيد الألفي لابن سينا
بطهران

عقد بمدينة طهران في الفترة ما بين ٢١ أبريل سنة ١٩٥٤، ٣٠ منه مؤتمر العيد الألفي لذكرى ميلاد الفيلسوف أبي علي الحسين بن عبد الله بن سينا، تحت إشراف الحكومة الإيرانية وفي ظل رعايتها. وكانت جامعة الدول العربية قد احتفلت بنفس الذكرى قبل ذلك بسنتين في مدينة بغداد، وأقامت مؤتمراً علمياً ناجحاً ساهمت فيه مصر بنصيب وافر من الناحية العلمية، كما يشهد بذلك «الكتاب الذهبي» الذي نشرته عن أعمال المؤتمر.

وعلى الرغم من أن مؤتمر طهران كان ثاني مؤتمرين دوليين أقيما لإحياء ذكرى ابن سينا الألفية، لم تفتر حماسة العالم المتحضر في تكريم ابن سينا والإشادة بفضله ومنزلته في تاريخ الحضارة الانسانية، بل على العكس فاق مؤتمر بغداد روعة وجلالا وغزارة في مادة بحوثه. وقد لبى دعوة الحكومة الإيرانية لمؤتمر طهران ثلاث وعشرون دولة — منها مصر — وثلاث منظمات عالمية كبرى هي اليونسكو، وجامعة الدول العربية، والفاتيكان: ومثل هذه الدول والهيئات ثمانية وسبعون عضوا — أي بمتوسط ثلاثة أعضاء عن كل دولة أو هيئة — مما يدل أن التمثيل كان قويا حرصت فيه الدول على الظهور في ذلك المؤتمر الكبير بالمظهر اللائق بجلال المناسبة.

هذا بالإضافة إلى طائفة غير قليلة من خيرة علماء إيران من أساتذة جامعة طهران وغيرهم، اشتركوا في جميع ضروب النشاط العلمي والاجتماعي في المؤتمر.

ولقد كان إجماع أعضاء هذا المؤتمر العلمي الرائع على تخليد ذكرى ابن سينا — مع ما كانوا عليه من اختلاف في الجنس واللغة والدين — دليلا قاطعاً على أن ابن سينا ليس فيلسوفا إسلاميا ولا مفكرا إيرانيا وحسب، بل شخصية تجاوزت حدود الزمان والمكان والبيئة والوطن وأصبحت ملكا للانسانية عامة.

تألف وفد مصر من خمسة أعضاء هم :

١ — الدكتور إبراهيم بيومى مدكور (ممثلا لوزارة المعارف ورئيسا للوفد)

٢ — الدكتور أبو العلا عفيفى . . . . (ممثلا لجامعة الأسكندرية)

٣ — الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى . . . . (ممثلا لجامعة القاهرة)

٤ — الدكتور عبد الحليم منتصر . . . . (ممثلا لجامعة ابراهيم)

٥ — الدكتور حموده غرابه . . . . (ممثلا للأزهر)

وقد جاء اختيار هذا الوفد موفقاً من وجوه كثيرة أهمها أن أعضاءه مثلوا الجامعات المصرية الثلاث والأزهر ؛ وأن ميادين تخصصهم كانت مختلفة اختلافا ظاهراً وإن كانت كلها من الميادين التى ألف فيها ابن سينا وترك فيها آثارا علمية خالدة : فقد كان للدكتورين إبراهيم بيومى مدكور وأبو العلا عفيفى ميدان الفلسفة الأسلامية والمنطق ، وللدكتور الأهوانى ميدان علم النفس والأخلاق ، وللدكتور منتصر ميدان علم النبات وللدكتور غرابه ميدان الصلة بين الدين والفلسفة : وقد ألقى كل منهم بحثا فى ميدانه الخاص .

كان للمؤتمر ناحيتان بارزتان من النشاط : الناحية العلمية والناحية الاجتماعية . أما الناحية الاجتماعية فقد تجلت فى الحفلات العديدة التى أقامتها الحكومة وكبار الشخصيات ، وفى الزيارات التى نظمت لمتاحف إيران ودور فنونها ومساجدها ومصانعها ، بما فى ذلك الزيارة الرسمية الكبرى لمدينة همدان التى بها قبر ابن سينا وتمثاله الحديث والنصب التذكارى الذى أقيم له بمناسبة المهرجان ، إلى غير ذلك من الزيارات والاجتماعات والحفلات مما كان له أبلغ الأثر فى نفوس أعضاء المؤتمر ، وعن طريقه عرفوا الكثير مما كانوا يجهلونه عن الأحوال العلمية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية لهذا القطر الشقيق .

الناحية العلمية للمؤتمر

كان مؤتمر ابن سينا الآنف بطهران مؤتمرا علميا بكل ما لهذه الكلمة من معنى، ولكن كان له من المميزات والخصائص ماجعله فريداً فى بابه. فعلى الرغم من أنه كان مؤتمرا خاصا أقيم لتكريم فيلسوف معين، ألقى فيه واحد وثمانون بحثاً تناولت لا تاريخ حياة ابن سينا وفلسفته وطبه وعلومه فحسب، بل تاريخ الحضارة الانسانية فى القرون العشرة الماضية من حيث صلة هذه الحضارة فى نواحيها المختلفة بهذا المفكر العالمي. فقد عالجت هذه البحوث كل جانب يمكن تصوره من جوانب حياة ابن سينا الشخصية والعلمية والأدبية والفلسفية والدينية، كما عالجت طائفة كبيرة من المسائل التى كان لابن سينا صلة بها عن طريق التأثير أو التأثر. وخلاصة القول إن ابن سينا كان المحور الذى دارت حوله جميع بحوث المؤتمر على اختلاف أنواعها وتشعب مناحيها.

ومن أهم المسائل التى ألقيت فيها البحوث ما يأتى :

١ ــ حياة ابن سينا الشخصية.

٢ ــ فلسفة ابن سينا الطبيعية والألهية والأخلاقية والسياسية.

٣ ــ موقف ابن سينا بين الدين والفلسفة.

٤ ــ مؤلفات ابن سينا فى المنطق.

٥ ــ الجانب الصوفى فى مؤلفات ابن سينا : مؤلفاته الرمزية.

٦ ــ صلة ابن سينا بالتراث اليونانى والفارسى.

٧ ــ ابن سينا الطبيب والعالم الطبيعى والفلكى.

٨ ــ بحوثه فى الرياضة.

٩ ــ عصر ابن سينا وصلته بذلك العصر.

١٠ ــ كتاباته الأدبية فى اللغتين العربية والفارسية.

١١ ــ أثر ابن سينا فى أوربا عن طريق مؤلفاته.

١٢ ــ ترجمات مؤلفات ابن سينا إلى اللاتينية فى العصور الوسطى.

وهكذا . . . وهكذا . . .

ومن الطبيعي أن البحوث التي ألقيت في المؤتمر لم تكن كلها بمثابة واحدة، ولا في مستوى واحد من حيث الأصالة والابتكار والتعمق في البحث — على الرغم من أن أعضاء المؤتمر كانوا جميعا من خيرة علماء بلادهم — بل كان منها ما هو أصيل مبتكر أضاف إلى علمنا بابن سينا جديداً، وبعضها الآخر لم يزد على ترديد أقوال مشهورة معروفة لنا من قبل .

وقد ألقيت البحوث بأحدى اللغات الأربع الآتية : اللغة العربية والفارسية والانجليزية والفرنسية، وقليل منها باللغة الروسية . والمتوقع أن تنشر جميعاً في صورتها الأصلية، لا في الصورة الموجزة التي ألقيت بها، فيما لا يقل عن ثلاثة مجلدات ضخمة تشرف الحكومة الإيرانية على إعدادها للطبع .

وليس من شك في أنها سيكون لها بعد نشرها مكانتها وخطرها في كشف الكثير مما كان غامضاً من جوانب حياة ابن سينا وفلسفته وعلومه .

وقد لاحظت على هذا الجانب العلمي للمؤتمر — بالاضافة إلى ما ذكرت — الأمور الآتية :

أولا : اكتظاظ برنامج المحاضرات إلى درجة كانت مرهقة للمستمعين والمشرفين على تنظيم المحاضرات على السواء، فقد كانت المحاضرات تلقى إلقاء متصلا من الساعة ٨½ من صباح كل يوم حتى الساعة الواحدة بعد الظهر : وكان متوسط ما يلقى في الصباح الواحد اثني عشر بحثا .

ثانياً : أنه بسبب هذا الاكتظاظ في البرنامج، لم يتسع الوقت لمناقشة أي محاضر إلا بطريق العرض الصرف أو الصدفة البحتة خارج قاعة المحاضرات . وقد فوت إهمال المناقشة الفائدة العظيمة التي ترجى منها عادة .

ثالثاً : أن عدداً كبيراً من أعضاء المؤتمر لم يستفد من بعض البحوث التي ألقيت باللغتين الروسية والفارسية : وكان الأفضل أن تلخص هذه البحوث بأحدى اللغات العالمية التي يفهمها أغلبية الأعضاء .

رابعاً : لم تتخذ قرارات فى المؤتمر أو اقتراحات اللهم إلا الاقتراح الذي تقدم به الدكتور مذكور وهو الإهابة بأعضاء المؤتمر أن يشتركوا فى لجنة دولية تعمل على إحياء آثار ابن سينا ونشرها لأن العبء الأكبر فى هذا العمل واقع حتى الآن على كاهل مصر والمصريين .

ويسرنى بهذه المناسبة أن أسجل ما أحاطتنا به الحكومة الإيرانية طول إقامتنا من ضروب العناية والتكريم ، فقد كان لوفد مصر دائماً الصدارة فى الحفلات الرسمية ، وكانت منزلة مصر منزلة مرموقة بين سائر الدول الممثلة فى المؤتمر .

وقد ألقيت فى المؤتمر بحثاً فى «كتاب البرهان لابن سينا وصلته ببرهان أرسطو» أرفق نسخة منه بهذا التقرير .

أبو العلا عفيفى

تقـــــرير

عن مؤتمر المستشرقين الثالث والعشرين

عقد المؤتمر الدولى الثالث والعشرون للمستشرقين بجامعة كمبردج بانجلترة فى الفترة مابين ٢١ – ٢٨ من شهر أغسطس سنة ١٩٥٤، وكنت قد رشحت لتمثيل جامعة الاسكندرية فيه مع الزميل الأستاذ محمد خلف الله ووافق مجلس الوزراء على ذلك الترشيح بجلسته المنعقدة فى ٢٨ يوليه سنة ١٩٥٤

حضر المؤتمر معنا بصفة شخصية الدكتور عبد العزيز مرزوق من جامعة الاسكندرية والدكتور عثمان أمين من جامعة القاهرة والدكتور عبد الرحمن بدوى من جامعة عين شمس والأستاذ سليم حسن أستاذ علم الآثار بجامعة القاهرة سابقا، كما حضره ممثلا لمجمع اللغة العربية الأستاذ إبراهيم مصطفى. أى أن الذين حضروا المؤتمر من المصريين كانوا سبعة وهو عدد قليل جداً إذا راعينا ما يأتى:

أولا : أهمية المؤتمر بالنسبة للشرق بأكمله والعالم الإسلامى بوجه خاص.

ثانيا : مركز مصر الثقافى من بين الدول الشرقية الاسلامية وإمكان تمثيلها فى كل شعبة من شعب المؤتمر العشر بدلا من تمثيلها فى شعبتين اثنتين هما شعبتا الدراسات الاسلامية والآثار المصرية القديمة.

ثالثا : العدد الضخم الذى أوفدته مصر لتمثل حكومتها وجامعاتها فى مؤتمر المستشرقين الذى عقد بباريس سنة ١٩٤٨، فقد أربى عدد الموفدين إليه على العشرين.

رابعاً : وفود الأمم الأخرى التى مثلت حكوماتها تمثيلا قويا كالوفد الروسى أو الأمريكى.

على أن المصريين الذين حضروا مؤتمر كيمبردج لم يؤلفوا وفداً له شخصية معنوية أو برنامج خاص بل حاول كل منهم على حدة أن يفيد من المؤتمر باعتباره عضواً فيه بقدر ما تسمح به ظروفه وميوله وميزانيته المحدودة . ولو أن مصر ألفت وفداً رسمياً — كما فعلت فى مؤتمر ابن سينا بطهران فى أبريل الماضى ، وكما فعلت فى باريس سنة ١٩٤٨ — لظهرت بالمظهر اللائق بها ، ولكان ذلك دعاية أدبية وعلمية عظيمة لها ، واستطاع الوفد أن يتحدث باسم مصر فى كثير من المسائل الذى لا يستطيع الفرد الواحد أن يتحدث فيها . فلقد عرض المؤتمر فى جلسة من جلساته لدورته المقبلة والبلد الذى يقع الاختيار عليه لانعقاد هذه الدورة فيه وكان من الطبيعى أن يفكر المصريون فى انعقاد هذه الدورة فى مصر ، ولكن أحداً منا لم يجرؤ على التقدم بمثل هذا الاقتراح لأنه ليس مفوضاً من قبل حكومته للتحدث فى مثل هذه الأمور . ولما فكرنا فى الاتصال بأولى الأمر فى هذا الشأن كانت الفرصة قد فاتت لأن الوفد الألمانى كان قد اتفق مع حكومته على أن تكون دورة المؤتمر المقبلة فى برلين ، وقد قبل المؤتمر هذه الدعوة بمجرد عرضها عليه . بل إننى لاحظت أن خطباء المؤتمر فى حفلته الختامية كانوا جميعاً — مع استثناء الرئيس والسكرتير العام — رؤساء وفود ولم يخطب من المصريين أحد .

شعب المؤتمر ونشاطه العلمى

انقسم النشاط العلمى فى المؤتمر عشرة أقسام تتمثل فى عشر شعب تناولت البحث فى جميع النواحى التاريخية واللغوية والأدبية والاجتماعية والثقافية والأثرية للشرق بأجزائه الثلاثة : الأدنى والأوسط والأقصى . وهذه مهمة ضخمة وشاقة . ولا عجب أن انتدب للقيام بها ما يزيد على تسعمائة وخمسين عالماً يمثلون خيرة المشتغلين بهذه الدراسات فى جميع أنحاء العالم . وكان لكل شعبة رئيس يشرف عليها ويدير جلساتها أو يختار من ينوب عنه فى إدارتها . وقد نظمت المحاضرات فى كل شعبة على انفراد فى الصباح والمساء بمتوسط ثمانى محاضرات كل يوم وجرى الأمر على هذا النحو طوال فترة المؤتمر .

كانت كل شعبة من الشعب العشر الآنفة الذكر بمثابة مؤتمر صغير قائم بذاته ، وفيها من النشاط العلمي ما يكفي لأن يشغل كل وقت المنتسب اليها . ولذا كثيراً ما تساءل بعض أعضاء المؤتمر عن الحكمة في تضخيمه إلى الحد الذي وصل اليه مادام الانتفاع العلمي به قاصراً على ما يفيده كل عضو من شعبته الخاصة . والجواب على هذا أنه كان للمؤتمر اجتماعات أخرى عامة خارج قاعات البحث نوقشت فيها مسائل تتصل بسياسة الدراسات الاستشراقية في جملتها ، وبمهمة المؤتمر ورسالة المستشرقين ، واتخذت في هذه المسائل قرارات بعد أن ناقشها المؤتمر مجتمعاً . هذا بالاضافة الى نشاط المؤتمر الاجتماعي وإتاحته الفرصة لاتصال أعضائه بعضهم ببعض .

وقد حضرت الشعبة التاسعة بقسميها ا ، ب وهي الخاصة بالدراسات الاسلامية من لغة وأدب وفلسفة وحضارة وآثار إسلامية ، وألقيت فيها بعد ظهر يوم الاثنين ٢٣ أغسطس سنة ١٩٥٤ بحثاً باللغة الانجليزية عنوانه :

" The Works of Ibn 'Arabi in the Light of a Memorandum drawn up by him".

(مؤلفات ابن عربي في ضوء مذكرة كتبها عنها) وهو البحث الذي أرفق نسخة منه بهذا التقرير .

ولم تكن إفادتي من المؤتمر قاصرة على حضوري محاضرات الزملاء وسماعي لما دار حولها من مناقشات واشتراكي في هذه المناقشات ، بل كانت إفادتي العظمى منه في الانتفاع بالفرصة النادرة التي أتاحها لي ولسائر الزملاء : وهي فرصة مقابلة العلماء المتخصصين في ميدان دراستي والتحدث إليهم للوقوف على ما يقومون به من بحوث علمية أو ما يعتزمون القيام به ، وما أقوم به من مثل هذه الأعمال وما أعتزم القيام به ، ومناقشتهم في بعض المشاكل العلمية والمخطوطات والبحوث التي نشرت في ميداننا وما إلى ذلك . وقد تبين لي أثناء الحديث مع بعضهم — وكانوا كثيرين — أنهم يجهلون ما ينتجه العلماء المصريون وينشرونه باللغة العربية في مصر ، لأن كتبنا العربية ومجلاتنا العلمية لاتصل إليهم . بل إن بعضهم لم يعرف أن لكلية الآداب بجامعة الاسكندرية أو جامعة القاهرة مجلة ينشر فيها

الأساتذة بحوثهم . والمسئول عن هذا هو السياسة التى جرت عليها وزارة التربية والتعليم وجرت عليها الجامعات المصرية من عدم نشر الكتب والمجلات التى تقوم الدولة بطبعها فى الأوساط العلمية وعرضها للبيع فى المكتبات سواء فى مصر أو فى الخارج .

على أن الاتصال الشخصى بينى وبين أعضاء المؤتمر قد أسفر عن شىء أعتبره تكريما لى ولمصر فى شخصى : ذلك أن أحد ممثلى هيئة اليونسكو فى المؤتمر قد طلب الى أن أنقل الى اللغة العربية كتاب جون لوك An Essay Concerning Human Understanding (مقال فى العقل الانسانى) ، وأن رئيس تحرير دائرة المعارف الاسلامية بالباكستان قد طلب إلى أن أكتب مقالين أحدهما عن محى الدين ابن عربى والآخر عن أبى القاسم القشيرى لكى يترجما إلى اللغة الأردية وينشرا بالموسوعة المذكورة .

مقررات المؤتمر واجتماعاته

١ — فى يوم السبت ٢١ أغسطس اجتمع المؤتمر بمبنى مجلس الجامعة فى حفلة الافتتاح حيث استمع للخطبة التى ألقاها سير رالف تيرنر رئيس المؤتمر عن أهداف المستشرقين ونشاطهم فى دراساتهم وما يعقده العالم على هذه الدراسات من آمال .

٢ — فى يوم الاثنين ٢٣ منه استقبل عمدة كمبردج أعضاء المؤتمر فى حفلة رسمية بدار البلدية وألقى خطبة رحب فيها بالمؤتمرين ونوه بمهمتهم العلمية .

٣ — فى يوم الثلاثاء ٢٤ منه حضر أعضاء المؤتمر حفلة شاى أقامها معهد الدراسات الشرقية بجامعة كمبردج .

٤ — فى يوم الخميس ٢٦ منه حضر أعضاء المؤتمر حفلة شاى أقامها مجلس الجمعية الملكية الأسيوية بكلية الملكة .

٥ — في يوم الجمعة ٢٧ منه حضر أعضاء المؤتمر حفلة استقبال أقامتها جلالة ملكة انجلترة بكلية ترتي .

٦ — في يوم السبت عقدت الحفلة الختامية للمؤتمر في قاعة مجلس الجامعة وانفض المؤتمرون على أثر الانتهاء من سماع خطبة الرئيس .

أبو العلا عفيفي

LE MILIEU BASRIEN ET LA FORMATION DE GAHIZ

Par

CHARLES PELLAT

للدكتور طه الحاجرى

حين تلقيت هذا الكتاب تلقيته حفيا به مشوقا اليه مقبلا عليه ، وقد بعث مقدمه فى نفسى نوعا من النشوة الطيبة ملأت جوانبها . ولم يكن ذلك ، فحسب ، لأن هذا الكتاب يعالج موضوعا من أكثر الموضوعات حاجة الى الدرس العميق والبحث الدائب ، وأنه — فوق هذا — من أحب الموضوعات الى وأمسها صلة بى وقد عشت فى البصرة — خاصه — بعقلى وخيالى أنضر عهود حياتى ، وصحبت أبا عثمان الجاحظ فترة طويلة متصلة ، صحبة كريمة ملأت قلبى حبا له وشغفا به واكبارا لمنزلته . وما أزال أشعر بالحنين اليه يملأ قلبى ، وأحس بالحاجة الى مراجعة تلك الصحبة بين وقت وآخر .

ليس لهذا وحده وقع منى هذا الكتاب ذلك الموقع ، وأشاع فى نفسى تلك النشوة ، وإنما يرجع الأمر فوق هذا الى ما أعرفه عن صاحبه من روح علمية ، وبصيرة أدبية ، ودءوب على العمل ، وتقص لوسائل الدرس ، وحب أشربه لشيخنا الجاحظ ، ولهذا الموضوع الذى يعالجه فى كتابه هذا . ومن قبل ما ترجم الى الفرنسية « كتاب البخلاء للجاحظ » ، وكانت ترجمة هذا الكتاب الى احدى اللغات الأوربية أمنية عزيزة ما زالت تتردد فى ضمائر المستشرقين ، منذ شيخهم العلامة « نولدكه » ، حتى أتيح لها أخيرا أن تتحقق ، حين اضطلع بعبئها الاستاذ « بلا » ، وقامت هيئة اليونسكو بنشرها بين ما تنشره من الآثار الأدبية العالمية الكبرى التى تعنى بنقلها وتعريف الكافة بها . ونرجو أن نعرض لهذه الترجمة فى فصل خاص .

وكذلك كان مما ترجمه الى الفرنسية من آثار الجاحظ « رسالة النابتة » . وأحسب أنه أخرج — أو هو بسبيل أن يخرج — ترجمة كتاب التاج المنسوب له .

كما نشر من رسائل الجاحظ التى لم تنشر من قبل رسالته « فى نفى التشبيه » ، وأحسب أنه يعد للنشر طائفة أخرى من الرسائل الجاحظية . والى جانب هذه العناية البارزة المشكورة بنشر آثار إمامنا الكبير وترجمتها وتحقيقها ، نشر من قبل بحثاً قيما عن حياة أبي عثمان فى بغداد وسامرا .

فهذا الاقبال على آثار الجاحظ والتوفر على درسها ونشرها وترجمتها قد أحاطه بجو ينفح بروح الجاحظ ، وتهيأت له بذلك أسباب التبريز فى مثل هذا الموضوع الذى بنى عليه كتابه . ومن هنا كان الأمل كبيرا فى أن يبلغ من درسه مبلغا بعيدا .

ويبدو أن الأصل فى موضوع الكتاب هو الشطر الأول من حياة الجاحظ : تعرف وجوهها وتبين العوامل المسيطرة عليها والموجهة لها ، وهذا يعنى درس الحياة البصرية من جميع وجوهها ، إذ كانت هى التى كونت الجاحظ ، وهيأت منه هذه الشخصية التى نراها فى كتبه ، وأتاحت منه للأدب العربى والعقل الاسلامى هذا الطراز الفريد الرائع .

ومن هنا جاء بناء الكتاب على أنه وصف للحياة البصرية عامة ، لا حياة الجاحظ فيها خاصة .

فالفصل الأول منه معقود للكلام عن تأسيس البصرة ونموها وموقعها ، وعن أحيائها وأرباضها ، وعن جوها ومسألة الماء فيها ، وعن الشعب البصرى وعناصره التى يتألف منها .

فإذا فرغ المؤلف من هذا الفصل جعل الفصل التالى له للجاحظ خاصة فتحدث عن مولده وعن الأصل الذى ينتمى إليه ، وعن اسمه وكنيته ولقبه ، وعن صورته وهيئته ، وعن طفولته وشبابه ، ثم عن تكوينه الدينى والعقلى .

وإذا كان تكوين الجاحظ هذا إنما يرجع به إلى البصرة ، فقد عاد المؤلف إلى هذه المدينة يتتبع بيئاتها المختلفة ، فعقد الفصول الأربعة التالية للكلام عن هذه البيئات ، لكل فصل :

وبذلك أخذ يتحدث فى إفاضة وإسهاب عن البيئة الدينية بدراساتها ووجوه نشاطها المختلفة ؛ ثم عن البيئة الأدبية بلغتها ونحوها وروايتها وشعرها ونثرها ، وسائر ما يندرج تحت ذلك ؛ ثم يجيء بعد ذلك ما يسميه بالبيئة الدينية السياسية ، فيتحدث عن الفرق التى تلتقى فى نشاطها الاعتبارات الدينية والاعتبارات السياسية ، من عثمانية وشيعة وزنادقة وخوارج وشعوبية ؛ فإذا كان الفصل الأخير فقد جعله دراسة للبيئة الاجتماعية فى البصرة ، فهو يتحدث عن طبقاتها الاجتماعية وألوان الحياة الاقتصادية ، وعن صور الحياة الخاصة وحياة المجتمعات والأندية ، إلى غير ذلك مما يجلو هذه الناحية .

فهذا هو الهيكل العام للكتاب ، ومنه يبدو بجلاء أن المؤلف قصد إلى أن يؤدى صورة عامة للحياة البصرية فى جميع نواحيها ووجوه نشاطها ، لا يريد أن يغادر منها شيئاً .

ثم هو فى هذا كله يتبع منهجاً علمياً سديداً فى التأليف والتصنيف وفى التبويب والترتيب ، وفى العناية بالمراجع والمصادر .

ولكن الظاهرة الأولى فى الكتاب هى — فيما نرى — الاتجاه إلى التقصى الشديد ، والمبالغة فى تتبع الجزئيات ، والرغبة القوية فى الإلمام بجميع ما يتصل بالموضوع من قريب أو بعيد .

ثم شيء آخر يتصل بهذه الظاهرة ، وهو الاستطراد ، كأن الجاحظ — وهو مشهور بالاستطراد ، مسترسل معه ، لا يدفع عنه نفسه — قد أعداه فى ذلك ، فهو يأخذ فى غير موضع مأخذه . ونرى صورة من ذلك فى الفصل الذى جعله للكلام عن طفولة الجاحظ ، فروح الاستطراد التى سرت إليه — فيما يظهر — عن شيخنا أبى عثمان قد غلبته على أمره ، وتجاوزت به الحدود المضروبة على هذا الفصل ، إذ لا يكاد يعرض لطفولة الجاحظ حتى يستطرد به القول إلى الكلام عن المعلمين ، فيأخذ فيه ، ويمضى فى شعابه ، ويسترسل معه فى مذاهبه المختلفة ، وإذا بنا إزاء فصل عن التعليم والمعلمين عند العرب ، يذهب بالقارئ بعيداً عن الموضوع الذى بنى عليه الفصل ، وهو طفولة الجاحظ .

ومرجع ذلك – فيما يبدو – إلى تلك الظاهرة التي أشرنا إليها ، وهي الاتجاه إلى التقصي ، ثم ما يتبع ذلك من التغلغل إلى الأطراف المختلفة ، ومد النظر هنا وهنا .

وكما يدفعه هذا الاتجاه إلى الاستطراد على الوجه الذي رأينا صورة منه ، يدفعه كذلك إلى التغلغل في التحقيق ، والتماس وسائله من كل سبيل ، والحرص على ذلك حرصاً بالغاً ، وذلك – ولا ريب – أمر من صميم الأسلوب العلمي ، ولكن المبالغة فيه قد تكون مبعثة على الزلل .

يحكي المؤلف عن ياقوت – في سياق كلامه عن حياة الجاحظ في صباه وشبابه – ما رواه عن المرزباني من أنه رؤي وهو يبيع الخبز والسمك بسيحان ، فلا يكتفي بما يدل عليه هذا النص من وقوف الجاحظ في هذه الفترة من حياته بالأسواق ، واحترافه هذا النوع من أنواع البيع . ولكنه يريد فوق هذا أن يستخلص من هذا النص دلالة أخرى ، إذ يتوسل به الى معرفة التاريخ الذي كان الجاحظ يحترف فيه هذه الحرفة ، ويتخذ فيه مكانه ذلك في « سيحان » . « وسيحان هذا اسم نهر في البصرة ، واسم الحي الذي يقع فيه ذلك النهر ، فالجاحظ اذن كان يحترف هذا النوع من البيع بعد حفر ذلك النهر . والذي حفره هو يحيي ابن خالد البرمكي ، يذكر ذلك الطبري في أحداثه سنة ١٨٠ في ذكر عودة الرشيد من الحجاز ومروره بالبصرة ، وقد نظر إذ ذاك في هذا النهر ، « فاذا كان الجاحظ يبيع السمك والخبز على شواطىء هذه القناة ، فقد كان ذلك فيما بعد سنة ١٨٠ ، وقد كان في نحو العشرين من عمره على الأقل » .

هذه هي النتيجة التي انتهى اليها المؤلف . وإنما يصح هذا الاستنتاج إذا صح أن هذه السنة هي تاريخ حفر هذه القناة ، والنص الذي اعتمد عليه من كلام الطبري يبدو أنه لا يحمل هذه الدلالة . وها هو ذا نص عبارة ابن جرير : « وفيها (أي في سنة ١٨٠) صار الرشيد الى البصرة منصرفه من مكة ، فقدمها في المحرم منها ، فنزل المحدثة أياما ، ثم تحول منها الى قصر عيسى بن جعفر بالخريبة ، ثم ركب في نهر سيحان الذي احتفره يحيي بن خالد ، حتى نظر إليه ، وسكر نهر الابلة ونهر معقل ،

حتى استحكم أمر سيحان » . فما الذى يعين أن حفر نهر سيحان انما كان سنة ١٨٠ ؟ إن كل ما يمكن أن يؤديه الينا هذا النص أن الذى احتفر نهر سيحان هو يحيى بن خالد البرمكى ، وأنه كان موجودا سنة ١٨٠ ، لا أنه لم يكن موجودا إلا منذ هذه السنة ، وأن الرشيد ركب فيه ونظر اليه ، ثم بدا له اجراء بعض تعديلات فى توزيع المياه بالبصرة ، فأمر بتسكير نهر الأبلة ونهر معقل ، حتى استحكم أمر سيحان . ولا شىء أكثر من ذلك يمكن أن يؤخذ من النص أو يحمل النص عليه . وقد ولى يحيى بن خالد الوزارة للرشيد عقب خلافته ، أى منذ ١٧٠ ، فهناك إذن عشر سنوات يمكن أن يكون حفر هذا النهر وقع خلالها .

ومن هذا القبيل فى تحميل النص ما لا يحتمل ما ذكره المؤلف فى الكلام عن المسجديين (ص ٢٤٤) من أنهم كانوا من الطبقة البورجوازية ، استناداً إلى هذه الجملة من كلام الجاحظ فى كتاب البخلاء : « جلس الثورى إلى حلقة المصلحين فى المسجد ، فسمع رجلا من مياسيرهم يقول . . . الخ » . وليس فى هذا — كما هو واضح — دليل على ما وصف به هؤلاء المسجديين من أنهم كانوا من الطبقة الموسرة التى تملك من الموارد ما يمكن لها من العيش بلا عمل .

ولكنها الرغبة الجارفة عند المؤلف فى الاستنتاج والهجوم عليه ، عما يجعله لا يطيل الوقوف — أو هو لا يكاد يقف أحيانا — عند المقدمات ، فيرى فى النص ما ليس فيه ، أو يحمله ما لا يحتمل . ولكن ذلك على كل حال ليس إلا جانباً واحداً لا يلبث أن يذهب فى غمار الكثرة الكاثرة من فضائل تقصى الجزئيات وتتبع النصوص ، وإخضاعها للاستنتاج .

وبعد ، فإن مآخذ الكتاب مهما يكن أمرها ليست شيئاً كبير الخطر بالقياس إلى قيمته العلمية ، ومشاركته مشاركة قوية عظيمة الخطر حقاً فى تجلية هذه المرحلة من مراحل تطور العقل الإسلامى والحضارة الإسلامية ، وتلك البيئة التى تعتبر من أول البيئات وأكبرها شأنا فى امداد التاريخ العلمى والأدبى بأكبر مقوماته وأبرز أجزائه إلى جانب مشاركته المستبصرة بإبراز العوامل التى كان لها أثرها فى تكوين شخصية أديب العربية الأكبر ، أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ .

طه الحاجرى

فہرست کتب [illegible]

فہرست کتب الشیخ الکامل فخر الملۃ والدین محمد بن یعقوب [illegible]

اول

[illegible] محمد [illegible] مالک [illegible]

ERABAD ... LIBRARY

۲۰۹۲۳

رسالہ [illegible]

۱۲

... والطبع، والحس والشهادة، والاطلاق والقضايا، والعقل

... والخصوص والعموم والدلالة والاشارة، والمعنى الباطن

... والملكوت والملك والدلالة، والمعنى الاسم والصفات

والمعقول والشاهد والغائب، والنوم واليقظة، ...

تم كتاب ... الموسوم ... بحمد الله

في ... ذلك ...

... الله ...

وصلى الله على سيدنا محمد ...

B

The Arabic Text of the Memorandum

فهرست مؤلفات ابن عربي

بسم الله الرحمن الرحيم(١)

[ا — ب](٢) قال الشيخ الإمام الأكمل الأوحد الفرد الراسخ(٢) أبو عبد الله (٣) محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن العربي الطائي الحاتمي الأندلسي رضي الله عنه (٤).

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى . أما بعد فقد(٥) سألني بعض الأخوان أن أقيد له في هذه الأوراق جميع ما صنفته وأنشأته في طريق الحقائق والأسرار على طريق التصوف ، وفي غير هذا الفن ، فقيدت له — وفقه الله — في هذا الفهرست(٦) ما سأل . إلا أن بعض هذه الكتب التي أنا ذاكرها هنا (٧) إن شاء الله تعالى ، وهي قليلة ، كنت أودعتها عند شخص لأمر طرأ ، فلم يردها على ذلك الشخص إلى الآن . وكل ما بأيدي الناس اليوم إنما هو مما لم نودعه عنده . ومنها (٨) ما كمل — وهو الأكثر (٩) — ومنها ما لم يكمل ، وهو القليل .

(١) ق : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم : اللهم صل على سيدنا ونبينا وحبيبنا وشفيعنا محمد وآله وصحبه وسلم ، وعلى جميع المرسلين وآلهم وصحبهم أجمعين .

(٢ — ٢) ق : قال سيدنا ومولانا وأمامنا وشيخنا وقدوتنا ، العارف بالله تعالى ، المريد الأوحد الفرد الخ .

(٣) ق : + سيدي .

(٤) ق : قدس الله سره ورضي الله عنه ونفع به آمين .

(٥) ا : فأنه .

(٦) ق : في هذه الفهرسة .

(٧) ق : أو ذاكر هاهنا .

(٨) ا : فيها .

(٩) وهو الأكثر ساقط في ا .

وما قصدت فى كل ما ألفته مقصد المؤلفين ولا التأليف [1] ، وأنما كان [2] يرد على من الحق تعالى موارد تكاد تحرقنى : فكنت أتشاغل عنها بتقييد ما يمكن منها ، فخرجت مخرج التأليف لا من حيث القصد . ومنها ما ألفته عن أمر إلهى أمرنى[3] به الحق فى نوم أو مكاشفة .

وأنا أبتدىء بذكر الكتب التى أودعتها وليست بيدى اليوم ولا بيد غيرى فيما أظن : فأنى ما اطلعت لها على خبر من ذلك الوقت إلى الآن . ثم أذكر الكتب التى بأيدى الناس اليوم [4] ، والتى [5] بيدى وما خرجت إلى الناس لانتظارى فى إظهارها ما عودنيه الحق من صدق الخاطر الربانى ، وهو الأمر الألهى [6] الذى عليه العمل عندنا ، وبالله نستعين [7].

فصل

فى ذكر الكتب المودعة . فنها فى الحديث

(١) اختصرت المسند الصحيح لمسلم بن الحجاج لنفسى . (٢) وكذلك اختصرت مصنف أبى عيسى الترمذى . وكنت ابتدأت كتابا سميته (٣) المصباح فى الجمع بين الصحاح . وكذلك ابتدأت فى (٤) اختصار المحلى لابن حزم الفارسى [8] و (٥) كتاب الاحتفال فيما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من سنى[9] الأحوال .

---

(١) ا مطموسة .

(٢) ق : كانت .

(٣) ق : أمرل .

(٤) ق : ساقطة .

(٥) ق : والذى .

(٦) ا والذى .

(٧) ا : أستعين .

(٨) ق : الفادى .

(٩) ا : ستر .

[٢ ــ ١] . وأما ما كان منها من علوم الحقائق فى الطريق الصوفى :
فمن ذلك (٦) كتاب الجمع والتفصيل فى أسرار معانى التنزيل : أكملت منه إلى قوله « وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح »[١]. وجاء بديعا فى شأنه ، ما أظن[٢] على البسيطة من نزع فى القرآن ذلك المنزع[٣] : وذلك أنى رتبت[٣] الكلام فيه على كل آية على ثلاثة[٤] مقامات : مقام الجلال أولا ، ثم مقام الجمال ، ثم مقام الاعتدال ، وهو البرزخ[٥] من حيث الورث الكامل المحمدى : فهو مقام الكمال . فآخذ الآية من مقام الجلال والهيبة فأتكلم[٦] عليها حتى أردها لذلك المقام بألطف إشارة وأحسن عبارة . ثم آخذها بعينها وأتكلم عليها من مقام الجمال ـــ وهو يقابل المقام الأول ـــ حتى أردها كأنها إنما أنزلت فى ذلك المقام خاصة . ثم آخذ تلك الآية بعينها وأتكلم عليها من مقام الكمال بكلام لا يشبه الوجهين المتقدمين . وفى هذا المقام أتكلم على ما فيها من أسرار الحروف والكلمات ، والحروف الصغار التى هى الحركات والسكون الحى والسكون الميت إن كان فيها من ذلك شىء ، والنسب والاضافات والاشارات وما أشبه ذلك . فاذا فرغت من ذلك انتقلت إلى الآية التى تجاورها[٧] . وما فيه كلمة لأحد أصلا إلا إن كان استشهادا وهو قليل[٨] .

و (٧) كتاب الجذوة المقتبسة والخطرة[٩] المختلسة . و (٨) كتاب مفتاح السعادة فى معرفة المدخل إلى طريق الارادة . و (٩) كتاب المثلثات الواردة فى القرآن مثل قول الله تعالى « لا فارض ولا بكر ، عوان »[١٠] ؛ وقوله تعالى

---

(١) قرآن ١٨ : ٦٠

(٢) ق يظن .

(٣-٣) ق إلى الترتيب

(٤) ثلاث فى المخطوطتين

(٥) ق ساقطة

(٦) ق وأتكلم

(٧) ق تجاوزها بالرأى

(٨-٨) ا استشهاد فيكون قليل .

(٩) ا والخطوة .

(١٠) قرآن ٢ : ٦٨

« ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا »[1] و (١٠) كتاب المسبعات الواردة فى القرآن مثل قوله « خلق سبع سموات »[2]، وقوله تعالى « وسبعة إذا رجعتم »[3]. و (١١) كتاب الأجوبة على المسائل المنصورية : وهى نحو مائة سؤال سألنى عنها صاحب لى اسمه منصور . و (١٢) كتاب مبايعة القطب فى حضرة القرب : [٢ — ب] يحتوى[4] على مسائل جمة من مراتب الأملاك والمرسلين والنبيين والعارفين والروحانيين ما سبقت فى علمى أليه . و (١٣) كتاب مناهج الارتقاء إلى افتضاض أبكار البقاء المخدرات بخيمات اللقاء : يحتوى[5] على ثلثمائة باب فى كل عشرة[6] مقامات . فهو يتضمن[7] ثلاثة آلاف مقام . و (١٤) كتاب كنه ما لابد منه . و (١٥) كتاب الحكم فى المواعظ والحكم وآداب رسول الله صلى الله عليه وسلم . و (١٦) كتاب الجلا[8] فى استنزال روحانيات الملأ الأعلى . و (١٧) كتاب كشف المعنى عن سر أسماء الله الحسنى . و (١٨) كتاب شفاء الغليل[9] فى إيضاح السبيل فى الموعظة[10] . و (١٩) كتاب عقلة المستوفز[11] فى أحكام الصنعة الانسانية وتحسين الصفة الإيمانية . و (٢٠) كتاب جلاء القلوب . اتفق فى هذا الكتاب عجبة : وذلك أنى لما وضعته أخذ منه كل واحد من إخواننا كراسة أو اثنتين ليطالعها . وأما[12] صدر الكتاب فكان فى نحو عشرين ورقة .

(١) قرآن ١١ : ١١٠
(٢) قرآن ٦٥ : ١٢
(٣) قرآن ٢ : ١٩٥
(٤) ق تحتوى .
(٥) ا يحوى .
(٦) عشر فى المخطوطين .
(٧) ا متضمن .
(٨) ا الحلى بالحاء و ق الجلى بالجيم والياء ولكن السجع يحتم الجلا بالألف المقصورة .
(٩) ا العليل بالعين .
(١٠) ق الوعظ .
(١١) ق المستوفين .
(١٢) ا وبها .

خرجنا[1] ليلة خارج البلد مع جملة من أصحابنا فقعدنا فى ربوة نطالع فيه وكان من أبدع الموضوعات . فلما فرغنا من قراءته وضعناه فى الأرض فاختطف . فما أدرى اختطفه[2] جن أم بشر ممن يحتجب عن الأبصار ؟ وما عرفت له خبرا إلى الآن . وأما بقية[3] الكتاب فما جمعته بعد ذلك ولا رده إلى . وكل[4] من كان عنده منه شيء فتلف[5] . فهذا [ما] كان من شأنه . و (٢١) كتاب[6] التحقيق فى شأن السر الذى وقر فى نفس الصديق . و (٢٢) كتاب الأعلام بإشارات أهل الإلهام[7] . و (٢٣) الأفهام فى شرح الأعلام . و (٢٤) كتاب السراج الوهاج فى شرح كلام الحلاج[8] . و (٢٥) المنتخب من مآثر العرب . و (٢٦) كتاب نتائج الأفكار وحدائق الأزهار[9] . و (٢٧) كتاب الميزان فى حقيقة الإنسان .

فهذه أسماء الكتب المودعة[10] . وما أدرى خرج عن ذكرى منها شيء أم لا ، فإن العهد تقادم والخاطر غير مصروف لما كان فى الزمان الماضى حذرا من فوت الوقت .

فصل

فى أسماء [٢ ب - ١] الكتب التى بأيدى الناس اليوم[11] مما ينسب إلينا :

فمنها فى الحديث (٢٨) كتاب المحجة البيضاء : صنفته بمكة ، أكملت[12] منه

(١) ق بجزنا به .
(٢) ق أو اختطفه .
(٣) ق وما بقى من .
(٤) ق كل .
(٥) ا ساقطه .
(٦) كلمة كتاب ساقطة من كل الأسماء التالية فى ا .
(٧) ق بإشارات أهل الألهام الأفهام فى شرحه . وسيتبين أن « الأفهام » كتاب مستقل هو شرح « الأعلام » .
(٨) ق يأتى بعد ذلك « وكتاب الأفهام فى شرح الأعلام » .
(٩) ا ونتائج الأذكار فى حدائق الأزهار .
(١٠) ق المودوعة .
(١١) ق فما .
(١٢) ق الكتب وهو تصحيف .

كتاب الطهارة والصلاة فى مجلدتين ، وبيدى الآن المجلدة الثالثة أنا فى كتاب الجمعة منها . و (٢٩) كتاب مفتاح السعادة جمعت فيه بين متون مسلم والبخارى وبعض أحاديث من الترمذى . و (٣٠) كتاب كنز الأبرار [١] فيما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم من الأدعية والأذكار . و (٣١) كتاب مشكاة الأنوار فيما روى عن الله تعالى من الأخبار . و (٣٢) كتاب الأربعين المتقابلة [٢]. و (٣٣) كتاب الأربعين المطولات [٣] . و (٣٤) كتاب المبين [٤] . ولا أدرى هل خرج عن ذكرى منها فى هذا الفن شىء أم لا لشغل الخاطر وعدم الالتفات للماضى .

وأما ما بأيدى [٥] الناس من كتبنا فى طريق الحقائق فمنها . (٣٥) كتاب التدبيرات الألهية فى إصلاح المملكة [٦] الأنسانية : حذوت فيه حذو [٧] أرسطو فى كتاب سر الأسرار الذى ألفه للأسكندر . وبسبب ذلك الكتاب [٨] وضعت هذا [٩] السر إلى أخينا [٩] أبى محمد عبد الله بن الأستاذ المورورى [١٠] فى ذلك . و (٣٦) كتاب سبب تعلق [١١] النفس بالجسم وما تقاسى من الألم عند فراقه بالموت . و (٣٧) كتاب إنزال الغيوب على مراتب القلوب فيما لنا من سجع وشعر . و (٣٨) كتاب الإسرا إلى المقام الأسرى . و (٣٩) كتاب مشاهد الأسرار القدسية ومطالع الأنوار الألهية . و (٤٠) كتاب الجلى [١٢] . و (٤١)

---

(١) ق وكتاب الأسرار .

(٢) ا المقابلة .

(٣) ا الطوالات .

(٤) ا المبين بالمين ، ولكن كتاب المبين سيأتى ذكره .

(٥) ا بيد .

(٦) ا مملكة .

(٧) ا حكم حذو .

(٨) ق سبب بدون الواو : والأشارة إلى كتاب أرسطو .

(٩ - ٩) ا « لسؤال أخينا » وهو تحريف .

(١٠) ق المروزى وهو أدق . راجع الفتوحات ج ١ ص ٨٢٧ ، ج ٤ ص ٩٥ .

(١١) ق تشتق ، ا تمس بدون نقط .

(١٢) ق الجلى بالحاء .

كتاب المنهج السديد فى ترتيب أحوال الأمام البسطامى أبى يزيد رضى الله عنه . و (٤٢) كتاب مفتاح أقفال [١] الألهام الوحيد ، وإيضاح إشكال أعلام المريد فى شرح أحوال الأمام البسطامى أبى يزيد رضى الله عنه . أمرنى الحق تعالى بشرحها فى النوم بساحل سبتة ببلاد المغرب ، فقمت مبادرا قبيل الفجر ، وكان لى ناسخان [٢] فأمليت عليهما وكتبا . فما طلعت الشمس حتى تقيد منه كراستان [٣] . و (٤٣) كتاب أنس المنقطعين برب العالمين : وضعته لنفسى ولغيرى . و (٤٤) كتاب الموعظة الحسنة مثله . و (٤٥) كتاب البغية فى اختصار كتاب الحلية لأبى نعيم الحافظ مثله . وضعته فى حق نفسى [٣ — ب] . و (٤٦) كتاب الدرة الفاخرة فى ذكر من انتفعت به فى طريق الآخرة . و (٤٧) كتاب المبادئ والغايات فيما تحوى عليه حروف المعجم من العجائب والآيات . و (٤٨) كتاب مواقع النجوم ومطالع أهلة [٤] الأسرار والعلوم . و (٤٩) كتاب الأنزالات الوجودية من الخزائن الجودية . و (٥٠) كتاب حلية الأبدال وما يظهر عليها من المعارف والأحوال : وهو كتاب ساعة وضعته بالطائف بدرب أبى أمية [٥] : تكلمت فيه على الجوع والصمت والسهر والخلوة . و (٥١) كتاب أنوار الفجر فى معرفة المقامات والعاملين على الأجر وعلى غير الأجر . وإنما [٦] سميته بهذا لأنى [٧] لا أقيد منه حرفا إلا فى وقت الفجر إلى [٨] أن يكاد يبدو حاجب الشمس . و (٥٢) كتاب الفتوحات المكية ، وهو كتاب كبير فى مجلدات مما فتح به على فى مكة ؛ يحتوى [٩] على خمسمائة باب وخمسة [١٠] وستين بابا فى أسرار عظيمة من مراتب العلوم والمعارف والسلوك

(١) ا أقفال
(٢) ناسخين فى المخطوطتين .
(٣) كراسين فى المخطوطتين .
(٤) ق أهل .
(٥) ق ترسمها هكذا تورث الرمية !
(٦) ا وأنا .
(٧) ق لا ساقطة .
(٧) ق إلا .
(٩) ا يحوى .
(١٠) ق ساقطة .

والمنازل والمنازلات والأقطاب وشبه هذا الفن . و (٥٣) كتاب تاج الرسائل ومنهاج الوسائل : مخاطبات بيني وبين الكعبة شرفها الله ، وهو سبع رسائل . و (٥٤) كتاب روح القدس في مناصحة النفس . و (٥٥) كتاب التنزلات الموصلية في أسرار الطهارات [1] والصلوات الخمس والأيام المقدرة الأصلية . و (٥٦) كتاب إشارات القرآن في عالم الأنسان [2] . و (٥٧) كتاب القسم الألهي بالاسم الرباني . و (٥٨) كتاب الجلال والجمال . و (٥٩) كتاب المدخل إلى العمل بالحروف . و (٦٠) كتاب المقنع في إيضاح السهل الممتنع . و (٦١) كتاب الأمر [3] المربوط في معرفة ما يحتاج إليه أهل طريق الله تعالى من الشروط . و (٦٢) كتاب رسالة الأنوار فيما يمنح صاحب الخلوة على الترتيب من الأسرار ، و (٦٣) كتاب عنقاء مغرب . و (٦٤) كتاب المعلوم [4] من عقائد علماء [5] الرسوم . و (٦٥) كتاب الأيجاد [6] الكوني والمشهد العيني [7] بحضرة الشجرة الأنسانية والطيور الأربعة الروحانية . و (٦٦) كتاب الأشارات في أسرار الأسماء الألهية والكنايات . و (٦٧) كتاب الحجب المعنوية عن الذات الهوية . و (٦٨) كتاب إنشاء الجداول والدوائر والدقائق والرقائق . [٤ — ا] والحقائق . و (٦٩) كتاب الأعلاق في مكارم الأخلاق . و (٧٠) كتاب روضة [8] العاشقين . و (٧١) كتاب تسعة [9] وتسعين : تكلمنا فيه على الميم والواو والنون لانعطاف أواخرها على أوائلها : م ى م : واو : ن و ن [10] . و (٧٢) كتاب المعارف الألهية واللطائف الربانية في بعض مالنا من النظم .

(١) ق الطهارة .
(٢) ق علم .
(٣) ق ساقطة .
(٤) ق حاصر المعلوم .
(٥) ا العلماء .
(٦) ق « الاتحاد » وكذلك في بروكلمان رقم ٣٢ من مؤلفات ابن عربي .
(٧) ا العظيم .
(٨) ق رياضة .
(٩) ا ستة .
(١٠) يريد العودة إلى الحرف الأول ، وبتعبير وحدة الوجود عودة الواحد الأول إلى نفسه .

فهذا [1] ذكر ما بأيدى الناس من كتبنا فى طريق الحقائق . ومما بأيدى الناس (٧٣) كتاب[1] المبشرات : ذكرت فيه ما تذكرته من رؤيا رأيتها تفيد علماً وتحرض على خير . و (٧٤) كتاب ترتيب الرحلة : ذكرت فيه ما لقيته فى رحلتى إلى بلاد المشرق ؛ وحررت [2] جزءا فيه ذكر مشايخنا الذين رأيناهم وسمعنا عنهم : أذكر الشيخ رضى الله عنه ، وأذكر حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وحكاية مفيدة وأبياتاً من الشعر إما له أو من روايته . و(٧٥) كتاب فيه مما رويته من الأحاديث العوالى ولم أشترط فيه الصحة .

أما الكتب التى أمرنى الحق[3] تعالى فى قلبى بوضعها[4] ولم يأمرنى إلى الآن بإخراجها إلى الناس وبثها فى الخلق، فمنها كتاب(خا)[5]وهو(٧٦) كتاب الأحدية . ويتضمن هذا الكتاب الوحدانية[6]والفردانية والأولية والوترية والأحدية ونفى[7] الكثرة من الوجود العددى ؛ وأن الواحد يظهر[8] فى مراتب فتنشأ الأعداد ، ويغيب فتبق . و (وى) وهو (٧٧) كتاب الهو : ويتضمن هذا الكتاب معرفة الضمائر وإضافات النفس . و (وق) وهو (٧٨) الكتاب الجامع : يتضمن معرفة الجلالة بما تدل[9] عليه من الجمع والإطلاق ، وبما تدل عليه من التقييد مثل قول الملهوف يا ألله أغثنى . و (قب) وهو (٧٩) كتاب الرحمة : ويتضمن معرفة التخصيص فيها والتعميم ، والعطف والحنان ، والرأفة والشفقة . و(وع) وهو(٨٠) كتاب العظمة : فيه إشارات من الجلال والكبرياء والجبروت والهيبة . و (وب) وهو (٨١) كتاب المجد والبقاء[10] ، و[11] (ك) وهو (٨٢) كتاب الديمومة[12] .

(١—١) ا ساقط .

(٢) ق جردت .

(٣) ا ساقطة .

(٤) ا لوصفها .

(٥) هذه حروف أبجدية سيستعملها المؤلف بعد ذلك رمزا للكتب . و « خا » غير واضحة فى ا .

(٦) ق الوحدانية .

(٧) ونفى .

(٨) ا مظهر .

(٩) ا يدل .

(١٠) ا ساقطة .

(١١) ق : ساقطة .

(١٢—١٢) ا ساقط .

و (ده) وهو (٨٣) كتاب الجود : ويشار فيه إلى العطاء والوهب والمنح والكرم والسخاء والإيثار[1] والرضا والهدايا . و (وج) وهو (٨٤) كتاب القيومية [2] [٤ — ب] . و (وش) وهو (٨٥) كتاب الأحسان . و(ول) وهو (٨٦) كتاب الفلك والسماء . و (ود) وهو (٨٧) كتاب الحكمة المحبوبة . و(وم) وهو (٨٨) كتاب العزة : ويشار فيه إلى المن[3] والقهر والغلبة والحمى والعجز والقصور ، و (وت) وهو (٨٩) كتاب الأزل . و (وه) وهو (٩٠) كتاب النور : يشار فيه إلى الضياء والظل والظلمة والأشراق[4] والظهور . و (ون) وهو (٩١) كتاب السر . و (وث) وهو (٩٢) كتاب الأبداع[5] والاختراع . و (وو) وهو (٩٣) كتاب الأمر والخلق ، و (وز) وهو (٩٤) كتاب الصادر والوارد من [6] الموارد والواردات [6] . و (وس) وهو (٩٥) كتاب القدم . و (وح) وهو (٩٦) كتاب القدم . و (وع) وهو (٩٧) كتاب الملك . و (وذ) وهو (٩٨) كتاب القدس . و (وح) وهو (٩٩) كتاب الحياة . و (وف) وهو (١٠٠) كتاب العلم . و (وض) وهو (١٠١) كتاب المشيئة : ويشار فيه إلى التمنى والأرادة والشهوة [7] والهاجس والعزم والنية القصد والهم [8] . و (وظ) وهو (١٠٢) كتاب الفهوانية . وربما وقع اسمه كلمة الحضرة ؛ وربما وقع اسمه القول . يشار فيه إلى الكلام والنطق والحديث والسمر وشبهه [9] . و (وظ) وهو (١٠٣) كتاب الرقم : يشار فيه إلى الخط والكتابة والأشارة والحروف الرقمية . و (١٠٤) كتاب الرقيم [10] . و (يا) وهو (١٠٥) كتاب العين يشار فيه إلى الرؤية والمشاهدة

(١) ق الرضا .
(٢) واضح منه الجزء الأول من الاسم في ا .
(٣) ق المنع .
(٤) ا الأبراق .
(٥) ا الأبداء .
(٦ — ٦) ا ساقط
(٧) ا الشهود .
(٨) ا الهيم .
(٩) ق وشبه ذلك .
(١٠) ق الرقم .

والمكاشفة والتجلي واللمح واللمع والطالع والذوق والشرب والبـاده [1] والهاجم وشبه هذا . و (فا) وهو (١٠٦) كتاب البـاه : يشار فيه إلى التوالد والتناسل . و (غا) وهو (١٠٧) كتاب كن : يشار فيه إلى حضرة الأفعال والتكوين . و (غب) وهو (١٠٨) كتاب المبدأين [2] والمبـادىء : يشار فيه إلى أن الأعادة مبدأ وأن العالم فى كل نفس فى مبدأ . و (بخ) وهو (١٠٩) كتاب الزلفة [3] و(فج) وهو (١١٠) كتاب الدعاء والأجابة . و (عج) وهو (١١١) كتاب الرمز فى حروف أوائل السور . و (عد) وهو (١١٢) كتاب المراقبة [4] . و (قد) وهو(١١٣) كتاب البقـاء . و (غد) وهو (١١٤) كتاب [٥ ـ ا] القدرة [5] . و (به) زهو (١١٥) كتاب الحكم والشرائع الصحيحة والسياسة . و (قه) وهو (١١٦) كتاب الغيب . و (غه) وهو (١١٧) كتاب مفاتيح الغيب . و (قو) وهو (١١٨) كتاب الخزائن العلية [6] . و (كا) وهو (١١٩) كتاب الرياح اللواقح وكتاب الريح العقيم . و(لا) وهو (١٢٠) كتاب الكتب : القرآن والفرقان ، وأصناف [7] الكتب كالمسطور والمنشور والحكم [8] المبين ، والمحصى والمتشابه وغير ذلك . و (ما) وهو (١٢١) كتاب التدبير والتفصيل . و (نا) وهو (١٢٢) كتاب اللذة والألم . و (سا) وهو (١٢٣) كتاب الحق . و (عا) وهو (١٢٤) كتاب الحد . و (ايا) وهو (١٢٥) كتاب المؤمن والمسلم والمحسن [9] . و (صا) وهو (١٢٦) كتاب القدر . و (دا) وهو (١٢٧) كتاب الشأن . و (شا) وهو (١٢٨) كتاب الوجود . و (تا) وهو (١٢٩) كتاب التحويل . و (ثا) وهو (١٣٠) كتاب الحيرة ، و (خا) وهو (١٣١) كتاب الوحى [10] . و (ذا) وهو

(١) ق التأوه .
(٢) ا المديين : ق المبدين .
(٣) الزلفة القربة والمنزلة .
(٤) ا الرقبه .
(٥ ـ ٥) ا ساقط .
(٦) ا العلية .
(٧) ق وأصل .
(٨) لعلها المحكم
(٩) ذهب حبرها من ا .
(١٠) ق وحى .

(١٣٢) كتاب الإنسان . و(ضا) وهو (١٣٣) كتاب التحليل والتركيب . و (ظا) وهو (١٣٤) كتاب المعراج . و (كب) وهو (١٣٥) كتاب الروائح والأنفاس . و (لب) وهو (١٣٦) كتاب الملك ، و (مب) وهو (١٣٧) كتاب الأرواح . و (نب) وهو (١٣٨) كتاب الهياكل . و (سب) وهو (١٣٩) كتاب التحفة والطرفة . و (عب) وهو (١٤٠) كتاب الغرقة والحرقة [١] . و(فب) وهو (١٤١) كتاب الأعراف . و (صب) وهو (١٤٢) كتاب زيادة كبد النون [٢] . و(رب) وهو (١٤٣) كتاب الأسفار عن نتائج الأسفار . و (شب) وهو (١٤٤) كتاب الأحجار المتفجرة والمتشققة والهابطة [٣] . و (يب) وهو (١٤٥) كتاب الجبال . و (تب) وهو (١٤٦) كتاب الطير [٤] . و (خب) وهو (١٤٧) كتاب النمل . و (ذب) وهو (١٤٨) كتاب البرزخ [٥] . و (ضب) وهو (١٤٩) كتاب الحشر [٦] . و (ظب) وهو (١٥٠) كتاب القرطاس . و (ضج) وهو (١٥١) كتاب القلم [٧] . و (كج) وهو (١٥٢) كتاب اللوح . و (طج) وهو (١٥٣) كتاب العرش [٨] من مراتب الناس إلى الكثيب [٨] . و (دج) وهو (١٥٤) كتاب الكرسي . [ه — ب] (وج) وهو (١٥٥) كتاب الفلك وكتاب الفلك المشحون [٩] . و (حج) وهو (١٥٦) كتاب الهباء . و (ج) وهو (١٥٧) كتاب الجسم . و (ج) وهو (١٥٨) كتاب الزمان و (ج) وهو (١٥٩) كتاب المكان . و (ج) وهو (١٦٠) كتاب الحركة . (وسج) وهو (١٦١) كتاب العالم . و (شج) وهو (١٦٢) كتاب الآباء العلويات والأمهات السفليات

(١) ف العرقة والحرقة .

(٢) ا زيادة كبد البول .

(٣) من قوله تعالى « وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وإن منها لما يهبط من خشية الله » قرآن ٢ - ٧٤ .

(٤) ا الطول .

(٥) ا البروج .

(٦) ا يرسمها المصرت !

(٧) ا العلم .

(٨ — ٨) محرفة في ف تحريفا لا يفيد معنى .

(٩) ف المسجور .

والنبات[1] والمولدات . و (عج) وهو (١٦٣) كتاب النجم والشجر . و (دج) وهو (١٦٤) كتاب سجود القلب . و(فج) وهو (١٦٥) كتاب الأسماء . و(صج) وهو (١٦٦) كتاب النحل . و(كد) وهو(١٦٧) كتاب الرسالة والنبوة والولاية والمعرفة . و (ظد) وهو (١٦٨) كتاب الغايات . و (ظد) وهو (١٦٩) كتاب التسعة عشر[2] . و(ضد) وهو(١٧٠) كتاب النار . و(ظد) وهو (١٧١) كتاب الجنة . و (ند) وهو (١٧٢) كتاب الحضرة . و (دد) وهو (١٧٣) كتاب العشق . و (سد) وهو (١٧٤) كتاب المناظرة بين الانسان والحيوان . و (شد) وهو (١٧٥) كتاب المفاضلة[3] . و (عد) وهو (١٧٦) كتاب الانسان الكامل والاسم الأعظم . و (١٧٧) كتاب المبشرات لا الأحلام فيما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم من الأخبار فى المنام . و (١٧٨) محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار . و (١٧٩) كتاب الأولين . و (١٨٠) كتاب ترجمان الأشواق . و (١٨١) كتاب العبادلة . و (١٨٢) كتاب تاج التراجم[4]. و (١٨٣) ما لا يعول عليه فى طريق الله . و (١٨٤) كتاب إيجاز البيان فى الترجمة عن القرآن . و (١٨٥) كتاب المعرفة . و (١٨٦) كتاب شرح الأسماء . و (١٨٧) كتاب الذخائر والأعلاق فى شرح ترجمان الأشواق . و (١٨٨) كتاب الوسائل فى الأجوبة عن عيون المسائل . و (١٨٩) كتاب النكاح المطلق و (١٩٠) كتاب فصوص الحكم . و (١٩١) كتاب اللوائح فى شرح النصائح و (١٩٢) كتاب نتائج الأذكار . و (١٩٣) كتاب اختصار سيرة النبي صلى الله عليه وسلم . و (١٩٤) كتاب الأجوبة العربية[5] عن المسائل[6] اليوسفية . و (١٩٥) كتاب اللوامع والطوالع[7] . و (١٩٦) كتاب الحرف[8] والمعنى .

---

(١) ا النبات .
(٢) من قوله تعالى « عليها تسعة عشر » . قرآن ٧٤ ، ٣٠ .
(٣) ق المداخل .
(٤) ق ساقطة .
(٥) ق القريبة .
(٦) ا مسائل .
(٧) ق الطوالع واللوامع .
(٨) ق الحروف .

و (١٩٧) كتاب الاسم والرسم . و (١٩٨) كتاب الفصل والوصل . و(١٩٩) كتاب الوجد [1] . و (٢٠٠) كتاب الطالب والمجذوب . [٦ — ١] .
و (٢٠١) كتاب الأدب . و (٢٠٢) كتاب الحال والمقام والوقت [2] . و (٢٠٣) كتاب الشريعة والحقيقة [3] . و (٢٠٤) كتاب التحكيم والشطح . و (٢٠٥) كتاب الحق [4] المخلوق به . و (٢٠٦) كتاب الأفراد وذوى الأعداد [5].
و (٢٠٧) كتاب الملامية [6] . و (٢٠٨) كتاب الخوف والرجاء . و (٢٠٩) كتاب القبض والبسط . و (٢١٠) كتاب الهيبة والأنس . و (٢١١) كتاب النشأتين . و (٢١٢) كتاب النواشى الليلية [7] . و (٢١٣) كتاب الفناء والبقاء
و (٢١٤) كتاب الغيبة والحضور . و (٢١٥) كتاب الصحو والسكر . و (٢١٦) كتاب القرب والبعد . و (٢١٧) كتاب المحو والاثبات [8] . و (٢١٨) كتاب الخواطر . و (٢١٩) كتاب الشاهد والمشاهد . و (٢٢٠) كتاب الكشف . و (٢٢١) كتاب الوله . و (٢٢٢) كتاب التجريد والتفريد .
و (٢٢٣) كتاب الفترة [9] والاجتهاد . و (٢٢٤) كتاب اللطائف والعوارف [10]
و (٢٢٥) كتاب الرياضة والتجلى . و (٢٢٦) كتاب المحق والسحق [11].
و (٢٢٧) كتاب البواده والهجوم . و (٢٢٨) كتاب التلوين والتمكين . و (٢٢٩) كتاب الرغبة والرهبة . و (٢٣٠) كتاب المكر والاصطلام . و (٢٣١) كتاب اللة والهمة . و (٢٣٢) كتاب القربة والغربة [12] . و (٢٣٣) كتاب

( ) ق الوجه .
(٢) ق والوقف .
(٣) ق ساقطة .
(٤) ف ساقطة .
(٥) ق الأقدار وذوى الأعذار .
(٦) ق الملامتية .
(٧) ف من قوله تعالى « إن ناشئة الليل هى اشد وطئا واقوم قيلا » قرآن ٧٣ ، ٦ .
(٨) من قوله تعالى « يمحو الله مايشاء ويثبت » . قرآن ١٣ ، ٣٩ .
(٩) ا الفيرة .
(١٠) ا الفوارث وهو تحريف .
(١١) ق المحق والمستحق
(١٢) ق القربة والغيرة .

الفتوح والمطالعات . و (٢٣٤) كتاب الوقائع . و (٢٣٥) كتاب التدلى والتدانى [١] . و (٢٣٦) كتاب الرجعة . و (٢٣٧) كتاب الستر والجلوة [٢]. و (٢٣٨) كتاب النون [٣] . و (٢٣٩) كتاب الختم والطبع [٤] . و (٢٤٠) كتاب الجسم والجسد . و (٢٤١) كتاب الظلال [٥] والضياء . و (٢٤٢) كتاب القشر واللباب . و (٢٤٣) كتاب الخصوص والعموم . و (٢٤٤) كتاب العبارة والأشارة . و (٢٤٥) كتاب الحق والباطل . و (٢٤٦) كتاب الملك والملكوت و (٢٤٧) كتاب الحد والمطلع . و (٢٤٨) كتاب الفرق بين الاسم والنعت والصفة . و (٢٤٩) كتاب السادن والأقليد . و (٢٥٠) كتاب النوم واليقظة . و (٢٥١) كتاب العبد والرب .

تمت بعون الله وحسن توفيقه فى غرة ذى الحجة سنة تسع [٦] وثمانين وستمائة نسخه العبد الضعيف إبرهيم بن محمد بن مطهر الشيخى [٧] .

أبو العلا عفيفى

(١) من قوله تعالى « ثم دنا فتدلى » قرآن ٥٣ ، ٨ .
(٢) ق السر .
(٣) ق النور .
(٤) من قوله تعالى « ختم الله على قلوبهم » : قرآن ٢ ، ٦ : وقوله « بل طبع الله عليها » قرآن ٤ ، ١٥٥ .
(٥) ا الأظلال .
(٦) ا تسعة .
(٧) ق تمت رسالة التصانيف لسيدنا ومولانا الشيخ محي الدين قدس الله سره ، ويليها رسالة فى ذكر أهل الله رضى الله عنهم .

(i) Abridgements of Sufi texts like the Hilya of Abu Nu'aym.

From this rough and by no means exhaustive classification of Ibn 'Arabi's works we see that he has dealt with almost all the subjects known to the Muslim scholars of his time; and that his main output was in the field of Sufism the entire range of which he seems to have covered on its theoretical as well as its practical side.

تم طبع هذا العدد من مجلة كلية الآداب
بمطبعة جامعة الاسكندرية في ١١ شوال
سنة ١٣٧٤ الموافق ٢ يونيه سنة ١٩٥٥
مدير المطبعة
علي محمد الهواري

7. On occult sciences including works dealing with the mystical significance of words and letters in the Qur'an.

Now class (I) may be further divided into the following sub-classes:

(a) General works of encyclopaedic nature, dealing with the theoretical and practical aspects of Sufism and other subjects connected with it.

A typical example is the Futūḥāt.

(b) Works on theosophical and philosophical Sufism of which the Fuṣūṣ is an excellent example.

In these two types of works, and in his long works in general, we see more of Ibn 'Arabi's mystical philosophy, and the peculiar dialectic which he uses to establish its principles. Here figures the Ṣūfī-thinker who firmly believes in the doctorine of the "Unity of all Being" and applies every means within his power to defend it.

Ibn 'Arabī the mystic hardly appears: he only refers to mystical experience as the state wherein the truth of his theosophical principles may be ultimately verified.

His mystical life in its purest form should be sought more in his shorter works where it is better reflected, particularly those dealing with mystical states and stations.

(c) Works on particular topics of theoretical mysticasm such as the theory of the Perfect Man, the mystic Pole (Quṭb) etc.

(d) Works on asceticism and rules of initiation in the mystic Path.

(e) Works on the life of extasy and illumination, mostly on mystic states. Of these there are 25, including 2 of an appreciable length. Manahij al-Irtiqa, and al-Isrā ila al Maqām al-Asra.

(f) Short mystical treatises inspired by couples of words occurring in the Qur'ān such as al Najm wal Shajar (النجم والشجر) : al Tadallī wal Tadānī التدلي والتداني : Al-Ḥaqq wal Bāṭil الحق والباطل and so on.

(g) Short treatises on the Attributes and Names of God of which there are 27.

(h) Biographical and autobiographical works in which Ibn 'Arabī speaks of his shaykhs and other shaykhs he met on his travels.

of his important works were written in the East, principally at Mecca and Damascus; and that his maturest works like the Fusus and the Tanazzulat were written during the last twenty years of his life.

We are now certain that the 27 works which he had deposited with his friend belong to the Spanish period.

His earliest works were either monographs on single topics, or comments on Qur'anic passages, or epistles to friends, or abridgements of works on Hadith. Before coming out to the East he did not seem to be aware of a definite system of mystical thought. We see that system in its maturest form later on in the Mecca and Damascus period—particularly in the Fusus.

VII

CLASSIFICATION ACCORDING TO SUBJECT-MATTER

No scientific classification of the works according to their subject matter can properly be made without reading them all which is impossible. Yet a rough and highly conjectural classification may be attempted which is based on:

(a) Our knowledge of the works we have actually read,

(b) The information which Ibn 'Arabi himself gives of some of his works.

(c) The titles of the works.

In this way we may divide the works into the following seven classes which may not be mutually exclusive, but are collectively exhaustive.

1. Works on Sufism the various types of wihch will be mentioned later. These exceed all others in number, quality and importance.

2. Works on Prophetic Traditions (Hadith) which are mainly abridgements of larger compilations made by famous Traditionists like Bukhari, Muslim and Tirmidhi.

3. Works on Qur'anic exegesis including a large mystical commentary on the first half of the Qur'an as well as numerous short commentaries on individual Qur'anic passages. Some of these could also be put in class 1.

4. Works on the biography of the Prophet: al-Sira

5. Works on literature including mystical poetry.

6. On natural sciences particularly cosmology and astrology.

V

CLASSIFICATION OF THE WORKS

There are many bases according to which one could classify Ibn 'Arabi's works if only one had the necessary data. They could for instance be classified according to their subject-matter, their chronological order, their size and so on. Each classification would have its value and importance. In his memorandum Ibn 'Arabī makes an attempt at classifying his works which I am going to take as a step towards further and more detailed classifications.

First of all he divides his works into two groups :

(a) A set of 27 works which were not in circulation during his time because he deposited them with one of his friends and never heard any more about them. All but 5 of these which are cited in Brockelmann's list must be persumed lost. Their dates are unknown, but they must belong to an early period of the author's life as he says: "These are the books which I deposited (with my friend). I am not sure that some more have escaped my memory, for it is a long time since I was last acquainted with them. My mind now is not cocentrated on things of the past."[1]

(b) The rest of his works up to the time he drew up the memorandum number 224. These he divides into tow sub-groups : (b^1) books which he allowed to be circulated among people; (b^2) books which God had bidden him to write but had not yet given him permission to release. Group (b^1) consists of 48 works; (b^2) of 176 works. Out of group (b^1) only 24 have survived; and out of group (b^2) only 16.

So, as far as our present knowledge goes, the total number of Ibn 'Arabi's genuine books that are to be found is 45.

VI

CHRONOLOGICAL CLASSIFICATION

The chronological classification is the most-difficult of all; but in spite of the fact that the dates of only 10 works are definitely known, we can roughly state whether some of the rest belong to the author's early life in Spain and al-Maghrib, or to his later life in the East. We may even be able to say that, with few exceptions, most

---

1. Fihrist.

(c) Whether it was or was not lost.

(d) His personal judgment on many of his works: e.g. his saying of a book that it is unprecedented or divinely inspired, or that it is long or short, finished or unfinished and so on.

(e) But above all we learn something of the inner mechanism and spiritual experience of the author while engaged in writing his works; and in this respect the memorandum is valuable as an autobiographical document.

II

I Shall not attempt here to prove that any of the works cited in the memorandum is authentic or otherwise. On the contrary, I am going to assume the authenticity of all the works mentioned in it, as there seems to be no doubt whatever that he did draw it up in order to put an end to any dispute that might arise with regared to his writings[1]. This means that I considr as not authentic any work attributed to Ibn 'Arabi which is not mentined in the memarondum with the exception of very few works the authenticity of which is absolutely certain because he refers to them in his Futuhat and other works. Such works may have been written after 632, the year he wrote the memorandum, or may have escaped his memory while drawing it up, because he explicitly says that his list is complete only as far as he could remember.

There are two ways in which the works of Ibn 'Arabi can be considered in the light of his memorandum,

(a) from the point of view of their quantity,

(b) from the point of view of their quality, particularly with regard to their various types and substance.

(a) The number of the works in the memorandum as I have ascertained is 251 out of which three are missing in the Cairo M.S. The Berlin M. S., according to Brockelmann. gives 289 works; but this, I feel sure, is due to miss-reading the titles of the works — a possible error to which I felt exposed while reading the Asifia M. S. The Cairo M. S. makes the matter absolutely clear by putting the word book (كتاب) before the title of each work. Jami gives the very exaggerated figure of 500,[2] and Sharani[3] reduces Jami's estimate by nearly

1. See Nafh al Tib. Vol. I, p. 399. c/f Brockelmann, I, p. 442 & E. G. Browne; Lit. Hist. of Persia, vol. II, p. 497.

2. Nafahat 634.

3. Yawaqit Vol. I, p. 10.

Of this valuable memorandum there are three extant M.S.S.; an excellent one in the Āsifiya Library dated 689: fifty one years after the author's death[1]; one in the Cairo Library[2]; and a third in Berlin[3]. I have used the first two M.S.S. in preparing an edition of the work after comparing it with the lists of Ibn 'Arabis' works given by Ibn Shākir al Kutubi, Sha'rani, Maqqari, Hajji Khalifa, Brockelmann, Sarkis, and the almost complete list given by a certain Moh. Rajab Hilmi who claims to be one of Ibn 'Arabi's descendants in a work entitled البرهان الأزهر في مناقب الشيخ الأكبر published in Cairo in 1326 A.H.

In the course of preparing the text for publication, the following problems presented themselves:

1. The exact number of Ibn 'Arabis' works.

2. Their exact titles.

3. Their sizes.

4. Their genuineness or falsity.

5. Their classification according to subject-matter, date and place of writing.

But although I was unable to arrive at a satisfactory solution of some of these problems, I found that the memorandum, together with what Ibn 'Arabi says about his works elsewhere, throw considerable light on other problems.

The memorandum is not a mere list of the author's works. It contains beside the titles of the works valuable information regarding the circumstances in which some of them were wirtten; the dates of their writing, the place where they were written and the purpose for which they were written, the reason for giving them certain titles, the person to whom they were dedicated and so on. There are even occasions where a short account is given of the main ideas of the works and the manner adopted in dealing with them.

Perhaps the most important merit of the memorandum is the different ways in which the author attempts to classify his works from which we learna the following:

(a) The subject-mbtter of the work.

(b) Whether it was or was not in circulation during the life time of the author.

1. Asifiya, Hyderabad No. 140 under the name
فهرست كتب الشيخ الكامل محيي الملة والدين محمد بن العربي

2. Cairo No. 330, Majami' under the name فهرست مؤلفات الشيخ الأكبر محيي الدين

3. Berlin 147/48.

A

THE WORKS OF IBN 'ARABĪ[1]

In the light of a memorandum drawn up by him

BY

A. E. AFFIFI

I

The conflicting accounts which we read of Shaykh Muḥid-Dīn Ibn 'Arabi's works in old and modern reference books give us a general feeling of absolute dissatisfaction, and make us desirous to know the truth about them or as much of the truth as possible. The problem of knowing the exact number of his writings, what is genuine and what is wrongly attributed to him, is by no means easy; and no final conclusion can satisfactorily be reached before all his works have been read and critically analysed. But this no one can claim to have done, or even hope that he will ever do; for a large number of Ibn 'Arabi's writings are still in M.S.S. scattered all over the world, and many others have been completely lost as we shall see later. We have therefore to content ourselves with the much humbler task of examining the material available to us at present to see what we can get out of it.

Ibn 'Arabi is a writer of colossal fecundity as Brockelmann rightly describes him; but of the immence literature attributed to him, what is genuinely his and what is not? This is the question that we are facing here. It is not without significance that in the year 632 A.H. i.e. six years before his death, he drew up a memorandum in which he ennumerated the titles of 251 of his writings. Brocklmann says 289, but we shall come to this later. It is said that the memorandum was drawn up at the request of Sultan al-Muzaffar Ghazi al-Ayyubi[2], but Ibn 'Arabi himself must have had another good reason for drawing it up: i.e. to provide a written evidence against anyone who might think of foisting works upon him, and there must have been some among his numerous enemies in the East who tried to do this.

1. This paper was read at the 23rd International Congress of Orientalists held at Cambridge 21 — 28 August 1954.

2. See Brockelmann Vol. I, p. 442; and Maqqari (Nafḥ al-Ṭib) Vol. I, p. 399.

SELECT BIBLIOGRAPHY

(1) *American Sociological Review*, No. 3, Vol. 18, June 1953.

(2) Bernal, J. D., *The Social Function of Science*. 6th ed. London: Routledge, 1946.

(3) Comte, Auguste, *Cours de Philosophie Positive*, édition publiée et expliquée par Ch. Lalo. Paris: Hachette, 1927.

(4) Durkheim, E., *Les Règles de la Méthode Sociologique*, Paris, 1895.

(5) Firth, R., *Human Types*. London: Thomas Nelson & Sons, 1938.

(6) Gould F. J., *Auguste Comte*. London: Watts & Co., 1920.

(7) Livingstone, Sir Richard, *Some Tasks for Education*. London, O.U.P., 1946

(8) Lowie, R. L., Histoy *of Ethnological Theories*. New York: Rinehart & Co. 1937.

(9) Malinowski B., *Freedom and Civilization*. London: George Allen & Unwin, 1947.

(10) *Man*, A Monthly Record of Anthropological Science. London: R.A.I., xlix, 1944.

(11) Marshal, T. H., *Sociology at the Crossroads*, An Inaugural Lecture delivered on the 21st February. 1946 at the London School of Economics and Political Science (University of London). London: Longmans & Co., 1947.

(12) Radcliffe-Brown, A.R., *The Development of Social Anthropology*, A lecture given before the Divison of Social Sciences, The University of Chicago, Dec. 1, 1936 (Typescript).

(13) Radcliffe-Brown, A.R. *The Present Position of Anthrological Sciences*, Presidential Address before section H.—Anthropology—at the British Association for the Advancement of Science. London: Spottiswoode & Co., 1931.

(14) Warner, W. Lloyd, and Lunt, P.S., *The Social Life of a Modern Community*, New Haven: Yale University Press, 1941.

opinions of our times appear from a wider point of view as prejudices; a knowledge of anthropology enables us to look with greater freedom at the problems confronting our civilization . . . A clear understanding of the principles of anthropology illuminates the social processes of our own times and may show us, if we are ready to listen to its teachings, what to do and what to avoid."[1] Firth goes beyond Boas in suggesting micro-sociological research in the study of civilized institutions by the technique of observation pursued in primitive societies to supplement the macro-sociological research done by sciences such as economics, politics, psychology, and the sociology of advanced communities which collect their material by documentary investigation and the wholesale questionnaires.[2] Among the famous inquiries in modern life providing valuable data for social engineering are C. Booth *et al.*, *Life and Labour of the People of London* (16 vols., London, 1892)[3], and the anthropologically conducted investigations, the Lynds, *Middletown* (New York, 1929), Warner and Low's *Social System of the Modern Factory* (New Haven, 1947), Arensberg and Kimball's *Family and Community in Ireland* (Cambridge-Massachusetts, 1940), and Warner and Lunt's *Social Life of a Modern Community* (New Haven, 1941). Many sociological and nearly all social anthropological researches provide information about the family and social intercourse. And as such they are of the utmost importance to those concerned with reconstruction, public health, economic planning, education, delinquency and criminology.[4] The inclusion of sociology in the courses of town planning at some universities[5] together with the establishment of the science of social medicine, based as it is on social facts, and taken as an indispensable adjunct to therapeutics, are but examples of how theoretical sociology, like the rest of sciences, can have its own practical applications.

We know of no better words with which to end this paper than Professor Evans-Pritchard's note on the subject : "A discipline which strives to add to our understanding of the nature of those institutions in which we live does not have to appeal for justification to immediate utility."[6]

---

1. F. Boas *Anthropology and Modern Life* (1940), revised edition pp. 3 and 11.
2. R. Firth, op. cit., p. 201.
3. Recent edition sponsored by the London School of Economics and Political Science, University of London.
4. Cf. T.H. Marshal, *Sociology at the Crossroads*, p. 14, and Thomas Sharp, *Town Planning*, (Penguin Books, England, 1945.) pp. 38 f.
5. Sociology features in the syllabus of town and country planning in the prospectus for the year 1948—9 of Durham University for the B.A. in Engineering.
6. E. E. Evans-Pritchard. *Social Anthropology*, Inaugural Lecture (1948), p. 16.

natives."[1] This is just the point where we might mention the attempts made in Australia to provide a training of one year in applied or administrative anthropology for government officials before they take up their duties among the natives.[2] The syllabus includes the lanuages and dialects of the people to be governed, their social organization, customs and beliefs.[3] All this is to be attained by a general study of comparative sociology followed by an intensive study of the particular people in question.[4] M. Herskovits differentiates between two types in the application of anthropological knowledge, the *direct*, in which the anthropologist himself goes into the field to give his help, and the indirect, which takes the form of anthropological training of candidates for colonial service,[5] or administrative appointments as was planned by the Australian Government. In addition to its importance in colonial service and administration, anthropology is getting to prove its usefulness in diplomacy. The minutes of the first session of the *Congrès international des Sciences Anthropologiques et Ethnologiques* (1934) show the Right Honourable the Earl of Onslow's presidential address which opens as follows: "That a knowledge of Anthropology can be of great use to those engaged in diplomacy and administration, I firmly believe. More than 33 years ago I entered the Diplomatic Service, and shortly after doing so I remember a much senior colleague saying to me that one of the main functions of a diplomatist was to understand the people of the country to which he was accredited so as to inform his Government of what they are thinking and talking about."[6]

IV

The need for social anthropology for the betterment of life in civilized societies as well has been strongly felt in both Britain and the U. S. A. This is how Boas clarifies this point as far as the latter country is concerned. "... Some of the most firmly rooted

---

1. Ibid. The writer suggested Firth's term 'social engineering' in a committee meeting in 1952 at the Faculty of Arts, Heliopolis University, as a name to be given to a newly created certificate of applied sociology. The suggestion was welcome, and the certificate goes on to mean the use of sociological discoveries for practical purposes.

2. A. R. Radcliffe-Brown, op. cit., p. 30

3. Ibid.

4. Ibid.

5. Melville J. Herskovits, 'Applied Anthropology and the American Anthropologists, in *Science*, Vol. 83, March 6, 1936, No. 2149, p. 216, being Address of the vice-president and chairman of the Section of Anthropology, American Association for the Advancement of Science, St. Louis, January 3, 1936.

6. Compte-rendu de la Première Session, Londres, 1934. Published by R.A.I., p. 15.

dependencies to be better qualified for immediate utility than those of other sciencies, and have approached the British Government to employ the anthropologists to help in native development.[1] In this connexion Lord Hailey states: "Some two hundred years ago, David Hume foresaw the creation of a science of man which, in his words, will not be inferior in certainty, and will be much superier in utility, to any other of human comprehension'."[2] Evidence is growing daily of the truth of Hume's prediction. The International African Institute, which is mainly concerned with the study of culture contact in Africa, announced that one of its major aims was "the closer association of scientific knowledge and research with practical affairs."[3] As a matter of fact many African governments have employed anthropological advisers, such as Schapera in Bechuanaland, Nadel in the Anglo-Egyptian Sudan, Meyer Fortes in the Gold Coast; and Read in Nyasaland.[4] Professor Raymond Firth describes the task of anthropological advisers as "social engineering."[5] In his own words, "It is, after all, only common sense that the branch of science which has as its object the understanding of native custom and belief should be called upon for help in dealing with the

---

= aspects of man's activities. This way of interpretation was maintained by W. H. R. Rivers (*vide* his *Social Organization*. London, 1926 posthumous: manuscript dated 1920. p. 3).

'We agree wiht R. Maunier's view that the English term 'social anthropology' implies the positive study of social phenomena (cf. his *Introduction à la Sociologie*, Paris, 1938. p. 10). 4) Professor A.R. Radcliffe-Brown has been for the last thirty years referring to and using the term as equivalent to 'comparative sociology' (cf. his *The Present Position of Anthropological Studies*. London, 1931, p. 15, also his numerous manuscripts, and R. Lowie, *History of Ethnological Theories*. New York, 1937, p. 222). So does quite a big school of social anthropologists in the U.S.A. led by professor W. Lloyd Warner (*vide* W. Lloyd Warner and Paul S. Lunt, *The Social Life of a Modern Community* New Haven. 1941. p. 14). As has been stressed over and over again by Professor Radcliffe-Brown, social anthropology, or comparative sociology, is not concerned exclusively with the societies of the pre-literate native peoples; "its proper subject-matter includes all human societies in all their varieties and all their aspects". *vide* his 'Development of Social Anthropology', A Lecture given before the Division of Social Sciences, The University fo Chicago December 1, 1936. (typescript), and Walter Goldschmidt. 'Values and the Field of Comparative Sociology" in *American Sociological Review*, No. 3, Vol. 18, June 1953. pp. 287—293.

1. Cf. Lord Hailey, 'The Role of Anthropology in Colonial Development', in *Man*. xlix, 1944. No. 5, pp.10 — 16.

2. Op. cit., p. 10.

3. Quoted from the first volume of *Africa* by A. I. Richards, 'Practical Anthropology in the Lifetime of the International African Institute', in *Africa*, Vol. XIV, April, 1944, No. 6, p. 289.

4. Op. cit., p. 292.

5. Raymond Firth, *Human types*, p. 194.

however, thought of first studying society theoretically dropping any immediate practical utility.[1] Let us consider his own convincing words regarding this point:[2]

> "Il est donc évident qu'après avoir conçu, d'une manière générale l'étude de la nature comme servant de base rationnelle à l'action sur la nature, l'esprit humain doit procéder aux recherches théoriques, en faisant complètement abstraction de toute considération pratique; car nos moyens pour découvrir la vérité sont tellement faibles que, si nous ne les concentrions pas exclusivement vers ce but, et si, en cherchant la vérité, nous nous imposions en même temps la condition étrangère d'y trouver une utilité pratique immédiate, il nous serait presque toujours impossible d'y parvenir."

The social reorganization which he recommended with the view of bringing to an end what he conceived of as a crisis of the civilised nations, naturally depended on the unseen findings of his theoretical investigation.[3]

III

But on account of the fact that no considerable sociological research was done before the attempt to improve society, none of Comte's fancy notions stood any chance of being achieved. Neither he nor the members of the French School of Sociology, with the exception of Doutté and R. Maunier, as shown in their discontinued stars, did real field-work. Social anthropology (or rather comparative sociology)[4] had to plough for over a hundred years in pure research before it could bear any such fruit. British anthropologists, after hard and painstaking labour, have found their science and the body of theories they have got together upon the natives of African

1. Auguste Comte, *Cours de Philosophie Positive*, (1re et 2e leçons), Édition publiée par Ch. Lalo, p. 71.

2. Ibid.

3. Cf. op. cit., pp. 52 - 53.

4. Four facts connected with the term 'social anthropology' ought to be considered. 1) Aristotle used the term anthropology in the sense of the science treating of man. 2) The Latin language (1595) knew the terms *psychologica anthropologica* and *anthropologica corporis* (cf. *The Oxford English Dictionary* (1933), Vol. I, p. 361). 3) Between the years 1884 and 1909 the 'anthropology' taught at Oxford by E.B. Tylor embraced physical anthropology and cultural anthropology; and in 1910, mostly affected by E. Durkheim (vide his *Règles de la Méthode Sociologique*, Paris, 1895, Chap. I), Oxford University coined the term 'social anthropology' as to be the subject of the newly appointed master, the late R.R. Marett. The term indicated the socially interpreted

U.S.S.R. The currency of these doctrines dates from the visit of the Soviet delegation to the International Congress on the History of Science held in London in 1931; they spread gradually throughout the thirties, as may be traced in the Reports of the British Association, and became crystallised in 1939 in Professor Benmal's book 'The Social Function of Science'.[1]

Later, the flare-up of war against Germany, which was alreay practising control over science, at once roused a call "for intellectual vigilance and for a mobilization of scientific thought and academic activities on the urgent issues of the day."[2] The most regrettable result of this war was that the conflict in some sort or another was reduced to a duel between scientists and that science passed from theory to practice not for humanitarian ends but for extermination. However, we must not put the blame on science in such a case, but rather on the first aggressor whose action had led to this unhappy result. Science, contends the humanist Sir Richard Livingstone,[3] "is not her own master. What she does for us, depends not on her but on us. She comes with poison gas and atomic bombs in one hand, with anaesthetics and penicillin in the other. She is indifferent how we use them or which she makes. It is not her fault if we choose the atomic bomb; the choice is ours, not hers."

II

In the field of social science we can see that the relation between the theoretical and the applied aspects is very much closer than in other sciences. As we know, ancient philosophy and the sciences of nature branching out from it had a purely theoretical motive — the quest for a rational understanding of the universe. But sociology, it is not difficult to detect, had another motive behind its creation. That motive was to a large extent a practical one. In 1817, that is, thirteen years before coining the word "sociology", Comte wrote (so one of his biographers tells us)[4] to Valat, his bosom friend at Montpellier that: "Poverty is enormous in Paris; bread very dear, and like to fail. One cannot take a step without witnessing a heart-breaking scene of beggary. Constantly one sees workers breadless and workless. And yet luxury abounding! How disgusting, when so many folk are in absolute want..." Comte,

1. Ibid.
2. Bronislaw Malinowski, *Freedom and Civilization*, p. 19.
3. Sir Richard Livingstone, *Some Tasks for Education*, p. 12.
4. F. J. Gould, *Auguste Comte*, p. 9.

Justifications and Signs of the Changing Attitude of Scientists including Sociologists

I

It has been the heritage of scientists thoughout the ages, ever since early Greek philosophy (which included all the fields of human knowledge), to unveil disinterestedly the secrets of nature and follow the lead of theory. Scientists ought thus to belong to a world which cannot be particularised by nationality; theirs has no boundaries. The fact that scientists are divided into groups each related to a particular society from which they derive their livelihood makes scholars under the moral obligation to participate in the actions leading to the progress of their immediate neighbourhood. This idea, in Professor Bernal's words, "has led to the realization among a large and growing number of scientists that the work of science does not end in the laboratory; that the scientist needs to be concerned immediately with the conditions under which he and his fellow scientists are working and ultimately with the state of society which will permit science to cotinue to exist."[1] Again, the state to which the scientist is attached politically has every right to ask him to apply his science not only for the promotion of the domestic life of his own people but also for securing protective measures against external aggressors. It is only natural that the state should think in this way, since so far humanity has not passed through any extensive period of peace. War and war preparations are not in themselvs desirable, but a single great power imbued with aggressive tendencies or only exaggerating its protective measures is enough to raise trouble everywhere and put every nation on the alert. This is at least what one would expect in a world where international interests are closely knit together. Most nations have begun to take notice of that fact since shortly before World War II, when Russia took the lead in submitting science to state control.[2] Thus pure science has for the first time in history yielded to sheer utilitarian purposes. The followig will show this point clearly: "The movement for planning in science has been gathering force since the early thirties. Its underlying concept is that 'pure' science is worthless, except in so far as it can be put to practical social uses, that science does not exist for its own sake, and that all scientific research should consequently be organized according to a master plan, similar to that adopted in the

---

1. J. D. Bernal, *The Social Function of Science*, p. 397.

2. Cf. 'Science and Planning', by a correspondent in *The Economist*, July 3, 1948, p. 6.

APPLIED SOCIOLOGY : THE BEGINNING OF A CHANGING ATTITUDE IN SOCIAL SCIENCE

BY

Dr. ALY A. ISSA

Introduction

Sociologists are often reticent as to any attempt to change their attitude through devoting more time and energy to the applied or practical field. Their activity in their own field is primarily concerned either with working hypotheses in the hope of enlarging the theoretical foundation of their discipline, or with testing existing theories for the purpose of using them more widely, or modifying them so as to become established laws of human behaviour.

The attitude of the majority of sociologists towards applied sociology is not so difficult to explain. The proper study of human societies, so we observe, has not yet come to an end. From amongst the thousands of such societies representing practically all levels of culture, sociology has not recorded more than fifty communities that have been scientifically investigated by trained fieldworkers. These communities are mostly in Africa, North America, Oceania and the Far East, and usually labelled as primitive. The smallest number of them is being scattered here and there in China, Japan, Egypt, South Africa and Ireland, which societies we may describe as less advanced. And only three or four whole societies of the highly stratified and industrial type, in the U.S.A., are included. Besides, sociologists are generally academic men who are not empowered to make use of their theoretical discoveries for the welfare of their fellow-citizens or other men. The aim of this paper is to suggest with due caution that sociologists, especially of this country, should encourage the new world trend towards applied sociology. We are not required, indeed, to wait until a considerable number of socities of diverse types has been scientifically studied. And academic institutions, on the other hand, might allow government representatives to partake their functioning and adminstration, which is a recognized procedure in some other countries. It is true that social work contributes a great deal to the welfare of people; but sociology quite apart from its practical side which it shares wtih other sciences, is concerned among other things with paving the way to all successful social work together with checking its effect on the life of those who benefit by it. Only the unbiased sociologist can do this, and he can do it admirably.

de présider. Et la séance continua. Les affaires terminées, nous chantâmes, nous bûmes, nous *brindâmes* comme si de rien n'était. Nul des convives ne pourrait, sans mentir, dire le contraire. En vérité, je vous le dis.

"Mon cher *Maurice*, méfiez-vous des *petits Marseillais* qui, soufflés par Villeneuve, courent et mentent, et suintent du venin par tous les mots. Méfiez-vous de ceux qui peuvent vous avoir dit ou fait dire que nous avons outragé vos fêtes dans tels ou tels journaux. Nous ne sommes ni bêtes, ni si malappris, ni si méchants envers des frères et des confrères parisiens qui couronnent de fleurs la muse provençale. Pour ma part, je suis heureux des honneurs que *la Cigale* nous fait. Je vous le disais à Arles, la Gigale est une branche de l'arbre Félibréen, *longomen ie contou lis ancèu* ! Et guerre au *bèu—Pâli*.

"Adieu, mon cher ami — Le "libri-house" faussement accusé est épuisé. J'en avais augmenté le tirage. J'aurais dû en faire un millier de plus. Gloire à *l'armanà* et la *Venus Negro* ! Aubanel, ô mon pauvre ami Aubanel, comprends bien ceci : Mistral, dans le *crounico* et *l'armanà* de 1879, paru le 19 ou le 20 octobre 1878, ne pouvait point parler des fêtes de la *Cigale* qui ont eu lieu le 24.

Je vous serre la main et je vous embrasse."

J. Roumanille.

Toujours d'Avignon, Roumanille écrit à Maurice Faure (43, rue Saint-Placide, Paris), le 10 Janvier 1879 :

Mon Cher Confrère Maurice,

"Oui, bonne année! *bono annato! bèn granado!* pour vous et pour tous les vôtres! Et *bono annato* au Félibrige, qui est en *joio* de voir se calmer la grosse tempête dont son petit verre d'eau vient d'être agité. Le petit Eole comte de Villeneuve, qui l'a soulevée, a eu le tort grave de parler à sa façon, et de faire parler de ça dans les petits journaux. C'est un brouillon qui ferait bien de repartir pour l'Espagne et d'y rallumer la guerre civile en faveur de don Carlos. Depuis que ce petit serpent s'est glissé au milieu de nous, nous sommes dans les tripotages, les commérages, les enfantillages et les remue-ménages. Mistral s'en est débarassé et ne veut plus en entendre parler. *Inde ira*. Et le voilà en train de battre Mistral à coups d'Aubanel, qui consent, je ne comprends pas pourquoi, à lui servir de bâton. Aubanel grisonne mais c'est un enfant, l'enfant s'agite et Villeneuve le mène. Vous l'ignorez à Paris, mais ici ni Mistral, ni Mathieu, ni Bounely, ni Gras,[1] ni tant d'autres ne l'ignorent. Il serait bien temps que ça finit! Mistral prend des mesures pour que ça finisse. L'affaire d'Arles peut se résumer en deux lignes. On ne nous voulait pas à Arles, ni Mistral, ni Mathieu, ni d'autres. C'est Mistral lui-même qui nous y a entrainés. Pour ma part, j'ai bien d'autres chats à fouetter, et les intrigues de M. de Villeneuve et sa stratégie me préoccupent fort peu. La séance s'ouvre. Aubanel *lit* un discours où Mistral est violemment attaqué. Mistral réplique vigoureusement et n'a pas grand peine à faire bonne justice des accusations dont on l'accable.

"Le brave Aubanel n'est pas content de ça: il saisit, pour se faire une contenance, le premier prétexte venu. Je le lui offre (naturellement, car j'ai voulu et j'ai dû défendre *l'armana* "ce librihouse" injustement inculpé) — j'avais à peine ouvert la bouche qu' Aubanel irrité, m'apostrophe ainsi : "Monsieur, vous n'avez pas la parole!" — "J'ai la parole et je la garde, lui ai-je répondu."

— "Eh bien, Je m'en vais!"

— "Allez-vous en, si cela vous plait. Moi je reste!"

"C'est le *mot à mot* de l'incident. Et il partit, tout seul — il ne fut pas même suivi de son secrétaire M. le Comte. Personne ne courut après lui pour le ramener. Le vice syndic était là, il fut prié

1. Anselme Mathieu (1828—1895) et Félix Gras (1844 — 1901) sont parmi les principaux félibres.

une bonté de mère et je n'oublierai jamais l'accueil touchant qu'elle fit au poète provençal. Cher maître, vous venez de perdre une amie que vous ne remplacerez pas. Je vois d'ici le vide qui s'est fait dans votre maison et j'en suis navré. Toute la France partage votre deuil et voudrait vous consoler. Maître, je vous prie d'agréer mes condoléances les plus affectueuses.

F. Mistral.

Trois jours après la mort du "poète sublime", Mistral écrit à madame Valentine de Lamartine. (le 3 mars 1869) toujours de Maillane, pour saluer en elle "la veuvage de la poésie", et pleurer avec elle ce "magnanime coeur", ... qui, un jour, dans sa largesse, [le] fit asseoir à son foyer et [l'] illumina de sa propre gloire. La fidélité de Mistral est digne d'admiration.

Le 23 juin 1869, il écrit encore à Valentine : "j'aurais voulu être du nombre de ceux qui accompagnèrent notre grand homme à son dernier asile; mais mon isolement à la campagne ne me permet pas de savoir à temps le jour précis.

"J'ignore si vous avez eu connaissance des strophes provençales dans lesquelles j'exhalai la douleur de mon deuil. Elles furent publiées dans le *Journal des Débats*, du 28 mars 1869, avec une traduction en vers de Louis Ratisbonne. N'ayant plus les *Débats* sous la main, je vous envoie mes pauvres Stances, avec une traduction littérale de moi. Comme elles pourraient vous avoir échappé, je crois devoir vous les communiquer, parce que je sens que tout ce qui touche à Lamartine doit vous tenir à cœur. Les applaudissements d'une assez nombreuse affluence, devant laquelle je les ai récitées dans l'Hôtel-de-Ville d'Aix-en-Provence, me font penser que peut-être elles ne sont pas trop indignes de vous être présentées.

"Agréez-les, Madame, comme hommage de mes sentiments profondément sympathiques pour celle qui a mérité d'être appelée sa fille devant lui et devant la postérité."

F. Mistral.

Revenons à *Mireille*. En 1874, Michel Carré en a tiré un opéra en quatre actes; Charles Gounod a fait la musique et on se préparait à l'Opéra comique, à jouer *Mireille*. De Maillane, Mistral écrit le 2 novembre 1874, à M. du Locle, alors directeur de l'Opéra Comique:

Monsieur et Vaillant Directeur,

Je vous félicite de l'ardeur que vous avez mise à remonter sur la scène de Paris, le délicieux opéra de *Mireille*; je ne pourrai assister aux premières représentations, mais je pense faire le voyage dans le courant de l'hiver. Il vous sera présenté deux lettres de moi pour demandes de places. Je vous prie de vouloir bien y faire droit.

De nature sensible et reconnaissante, Mistral avait un culte profond et sincère pour son maître. Lorsque ce dernier se débattait dignement dans sa misère, Mistral, naïvement, essayait de trouver un moyen de lui venir en aide.

"Vous êtes bien le grand Prométhée livré aux vautours, lui écrit Mistral le 9 juillet 1860. Un jour que je pensais à vos tribulations, une idée me vint : il y a dans un pays voisin du mien, un homme qui a gagné dans le commerce une vingtaine de millions, et qui, de frayeur, pleurait, disait-on, à chaudes larmes, en 1848. Je lui écrivis une assez belle lettre pour le convier à payer toutes vos dettes : être le sauveur de Lamartine, c'était un bien beau rôle. [...] Il me répondit une lettre piteuse dans laquelle il s'excusait de ne pouvoir le faire, attendu que la fortune d'un père appartient à son fils.

"Voilà, mon très cher Maître, les gens pour lesquels vous avez risqué votre vie, votre héritage et votre popularité. Heureusement il y a là-haut un Dieu et des compensations inévitables. Mais de telles ingratitudes feraient rugir des lions de bronze...." —

Cinq mois après, il écrivait avec la même simplicité de cœur au "grand Prométhée", le 24 décembre 1860. "Votre dernier *Entretien* est plein de désespoir. Que ne m'est-il donné de verser dans votre calice une goutte de miel ! Mais vous êtes de la race gigantesque des Prométhées : il semble par une loi de compensation fatale, inexorable, que l'immense génie a pour expiation une immense injustice.

"Une chose pourtant, si le cœur pouvait vous défaillir, devrait vous rendre le courage dans votre longue épreuve : toutes les âmes de poètes et tous les cœurs de femmes vous suivent comme un essaim d'amour et de pitié, dans la tourmente qui vous emporte.

"Je vous envoie, ci-inclus, mon réabonnement au *Cours de Littérature*, et ma souscription à vos *Oeuvres Complètes*.

"Je termine, cher Maître, en vous souhaitant et à Madame de Lamartine et à Madame votre nièce, une nouvelle année, pleine de paix, de santé et d'amitié.

Votre tout dévoué."

F. Mistral.

Et lorsque Lamartine perd sa femme en 1863, Mistral s'empresse de partager sa douleur. Le 27 mai 1863, Mistral lui écrit, de Maillane:

Mon très cher Maître,

J'apprends par les journaux l'immense malheur qui vient de vous frapper et j'accours vous embrasser et pleurer avec vous. Madame de Lamartine était pour tous ceux qui ont eu l'honneur de la connaître une femme, vénérée, une sainte. Elle m'avait témoigné

CENTENAIRE DU FÉLIBRIGE

(avec des Documents inédits)

Par

Docteur LOTFY S. FAM

Le mot de "félibre" provient d'un vieux cantique populaire, *l'Oraison de Saint Anselme.* C'est Mistral qui a emprunté ce terme à ce poème où la Vierge Marie raconte qu'elle a retrouvé le petit Jésus dans le temple "parmi les sept félibres de la loi" — (emmé lé sèt felibre de la lei). — D'après le contexte, ce mot était pris dans le sens de "docteur" ou "sage".

Pourtant, ce vocable a connu d'autres interprétations. On a voulu le rattacher à un mot de la basse latinité, felibres ou "fellebris" désigne un "nourrisson qui vit encore de lait" — et par extension, ce terme peut signifier "nourrisson des Muses".

Une autre étymologie a été proposée par A. Jeanroy. D'après lui, "félibre" serait tiré de l'espagnol "feligres", fidèle d'une paroisse dérivé lui-même du latin "filius Ecclesiae", fils de l'Eglise.

Le "félibrige" ou réunion des félibres, fut fondé le 21 Mai 1854, au château de Font-Ségugne, près d'Avignon, par sept poètes méridionaux.

Déjà, en 1852, le congrès d'Arles, et en 1853, celui d'Aix ont montré la vitalité de la langue provençale et affirmé la nécessité de la sauver de l'abâtardissement en rénovant l'œuvre littéraire des troubadours.

Le félibrige avait alors pour objet le maintien et l'épuration de la langue provençale et des divers dialectes de la langue d'oc, et la conservation des traditions provençales. Dans leurs statuts, les félibres déclaraient que leur but était de conserver longtemps à la Provence sa langue, son caractère, sa liberté d'allure, son honneur national et sa hauteur d'intelligence. [...] Par Provence, ajoutaient-ils, nous entendons le Midi de la France tout entier" [1].

Cette école littéraire n'est donc qu'une de ces tentatives de décentralisation littéraire fréquentes en France depuis le milieu du XIXe Siècle. On s'intéressait alors à la création des foyers intellectuels

---

1 Cité dans Braunschwig, *La Littérature Française Contemporaine*. Paris, Colin, 1946, in 16 (XIV-416 p.) — p. 303.

3) Mass immigration and growing indigenous population and limited field of production can only lead to land congestion, strife and bitter struggle and eventually displacement of population. Nevertheless the reverse phenomenon of *emigration* is not beyond scope of possibilities. It will be the dominating phenomenon in the very near futeur, if it has not yet begun already.

4) In the eve of the declaration of the State of Israel, the Jews had only a minority of 30 % of the population. In no one sub-district did they attain a majority of the population. They would have never reached a majority of the Palestinian population until 1970 on an immigration rate of 100,000 a year, had they not got to arms.

5) Nevertheless, the State of Israel is facing now a grave position as a result of unlimited immigration in a very limited field of production. The Jewish people in Palestine has either to emigrate or fight for a lebenstraum. This, we in the Arab world must understand.

urbanization can be observed. Among such factors, introduced by the Jewish population and British administration are the socio-economic and political changes connected with quasi-industrialization and development of administrative cities[1]. Displaced Arab fellaheen as well as casual Jewish labour on the land were drifting from the land to seek work in cities. (see table 11).

Table 11.

URBAN AND RURAL POPULATION IN PALESTINE

	1922	1931	1942	1922	1931	1942
URBAN					Per Cent.	
Moslems	139,074	188,075	270,733	23.5	24.8	27.2
Jews	68,622	120,467	369,367	81.9	73.6	76.2
Christians	55,043	69,250	99,673	75.4	75.8	78.4
Others	1,578	1,499	1,792	16.7	14.8	13.7
Total	264,317	387,291	741,565	34.9	31.4	45.8
RURAL					Per Cent.	
Moslems	451,816	571,637	724,559	76.5	76.2	72.8
Jews	15,172	46,143	115,041	18.1	26.4	23.8
Christians	17,981	22,148	27,506	24.6	24.2	21.6
Others	7,896	8,602	11,329	83.3	85.2	86.3
Total	492,865	648,530	878,435	65.1	62.6	52.2

5. Statistical Abstracts. Jerusalem 1942.

Conclusions.

1) Palestine is a very small country. Its cultivable land does not exceed 1½ million acres, which was barely sufficient for the natural growth of its indigenous population. Making allowance for petty industries and secondary economic activities. Palestine could have a maximum population of only a million inhabitants.

2) A rapid or even a slow but steady increase in population in a region where there is no way out for increase was liable to produce pressure which could easily lead to the phenomenon of over-population.

3. Cf. Bonné, A. The Economic Development of the Middle East, 1945 pp. 8—11

which are mainly country towns, numbered 34.9% of total population in 1922; after nine years it grew to 37.4%. Estimates for 1942 suggest that urban population has reached 45.8%[1]. This is mainly due to Jewish immigration and to internal immigration into towns. Towns are still in a very early stage of development. The economic background of the three main towns of Jerusalem, Tell-Aviv and Jaffa did not emerge yet in general outline. Jerusalem is mainly a residential place for professional classes. It has no natural resources. Its growth can only be attributed to its historical and spiritual influence and prestige for the three great religions of the world. Jaffa is dependent on agriculture and citrus industry and shipment. Tell-Aviv, which was only a Jewish suburb of few hundred in 1922, grew very rapidly and became the biggest all-Jewish town in the world. But it "does not bear in its age, sex, and conjugal constitution. the marks of a progoressive commercial or industrial development like that of Haifa and Jaffa"[2].

It is interesting to notice the distubution of urban and rural populttion according to religion in Palestine. Moslems, substational Arabs, were mainly rural. They were estimated in 1942 to be 27.2% urban and 72.8% rural. Jews on the other hand were only 21.6% rural and 78.4% urban. The distribation of the three main religious communities, in 1942, between the 4 main towns is worthy of noticing. Of the 973,104 Moslems in 1941, 109,900 (11%) lived in these towns; of 471,104 Jews, 307,600 (65%) and of 125,413 Christians, 64,200 (51%), including a large number of Europeans and British civil servants[3].

In spite of the establishment of Jewish settlements and colonies, three quarters of Jewish immigrants found their way to large towns. The Jewish population is predominately urban and industrial. Commerce, large and small industry, and the professions take almost six Jews for one devoting himself to agriculture. It was estminated that only 15% of the Jews lived in villages. Moreover, many Jewish villages are becoming transformed into industrialized towns or urbanized centres. Pitah Tikva, Rishon - le - Zion, Rehevoth, Nathanya, Hadera and Afula are now considered urbanized centres[4].

In general, the increase of urban population in the last decade is also observed in Palestine. Wherever factors similar to these in operation in Europe are at work, the same phenomenon of increasing

1. Naval Intelligence Handbook. Op. cit. ch. on population.
2. Mills. C.E. Census of Palestine, Op. cit. p. 31.
3. Ibid.
4. Cf. Lowdermilk, W. C. Palestine, Land of promise, London 1940 pp. 85--86 & pp. 114—116. & Nathan R. et alia, op. cit, pp. 120. 369; 221.

Table 10

PERSONS PER SQ. KILOMETRES

1. EXTENSIVE "NEW" COUNTRIES

Australia	0.9
Canada	1.1
Argentine	4.4
New-Zealand	5.8
U.S.A.	16.3

2. BACKWARD AGRICULTURAL COUNTRIES IN EUROPE

Lithuania	44.7	
Spain	49.1	
Palestine	50.0	(end of 1936)
Greece	51.9	
Bulgaria	60.0	
Rumania	65.0	

3. SEMI-AGRICULTURAL COUNTRIES IN EUROPE

France	76.0
Lebanon	78.7
Austria	81.0
Denmark	85.7
Poland	87.9
Hungary	96.2

(Statistical Year Book of The League of Nations, 1935–1936)

the whole scheme of the Jewish National Home in Palestine may break down under pressure of increased immigration and it may not be long before emigration begins to take place from Palestine.

The density of population varies with water-supply,[1] fertility of soil, location of resources and degree of moderaization. The sub-districts of Ramallah — on the western and central slopes of the Judaea Plateau, — of Jerusalem (a centre of Jewish settlements) and of Nazareth and Tiberias (where the Jews acquire work of the land) show the highest densities of population in Palestine (Fig. 394). Although the sub-district of Jericho occupies a considerable part of the Wilderness of Judaea, yet the potash industry on the Dead Sea attracted Jewish enterprise and immigration. Consequently it witnessed a rapid growth of population from 1922 to 1931 and from 1931 to 1941. Bethlehem, on the eastern slopes of Judaea, did not show a rapid growth of population. Indeed, its density is one of the lowest in Palestine. The sub-district of Hebron has 40 to 59 persons per square kilometre, a low class density, but still higher than Bethlehem and Jericho.

Regions of modernization tend to attract population from neighbouring regions in addition to new immigration. Jericho and Jerusalem showed from 40 to 100% increase of population in the last decade. Tulkarm, Beisan and Ramleh showed 39% increase. Ramallah and Hebron, the two unmixed Moslem population sub-districts showed the slowest growth of population (from 15 to 24%). This increase was less than the average for Palestine. Bethlehem with a significant Christian minority, still showed the slowest growth of population. Moreover, an exodus to the United State of Christian Arabs occured. The census of 1941 showed a net migration away from Bethlehem and Hebron and a net movement towards Jerusalem and Jericho. Jaffa showed a very rapid increase because of the heavy Jewish concentration in the sub-district and high Jewish urbanization in Tell-Aviv and other Coastal towns. Ramleh, having a significant Jewish minority comes next. While Jaffa nearly doubled its population in the last decade, Gaza - an unmixed Moslem sub-district has less than the average growth. At any rate, in no sub-district had the Jews - until the rise of Israel - a majority in Palestine[1].

Urbanization of Population.

The population of Palestine had been predominately rural. Small and large village were, and we believe to a certain extent still are, the unit of settlement. The population of the municipalities,

1. Cf. Great Britain and Palestine, 1915—1939. The Royal Institute of International Affairs, Information Papers, No. 20 M. London 1939.

Table 9

PERSONS OF EACH RELIGION PER 1,00 IN EACH SUB-DISTRICT

SUB-DISTRICT	MOSLEMS			JEWS			CHRISTIANS			OTHERS		
	1922	1931	1944	1922	1931	1944	1922	1931	1944	1922	1931	1944
ALL PALESTINE	78.0	73.7	50.6	11.1	16.9	32.6	9.6	8.8	8.0	1.3	1.0	0.8
Gaza	98.4	93.6	97.0	0.5	0.4	2.1	1.1	1.0	0.9	—	.	.
Beersheba	99.4	99.7	93.7	0.2	.	2.6	0.8	0.3	3.5	.	.	0.2
Jaffa	51.9	45.0	23.9	37.0	40.0	71.6	11.1	6.8	4.4	.	0.2	0.1
Ramleh	82.0	82.0	71.7	8.0	12.1	23.8	7.6	5.9	4.5	2.4	.	.
Hebron	99.1	99.6	99.8	0.8	0.2	.	0.1	0.2	0.2	.	.	.
Bethlehem	58.5	55.0			0.1		41.4	44.8			0.1	
Jerusalem	44.8	43.5	40.1	37.7	41.1	41.6	17.0	15.8	18.2	0.5	0.1	0.1
Jericho	92.2	84.6		0.3	7.0		7.5	7.6		—	0.8	
Ramallah	80.6	81.7	82.5	.	.	.	19.4	18.3	17.5	—	—	.
Tulkarm	99.1	97.8	81.5	0.1	1.4	17.9	0.8	0.8	0.5	.	.	.
Nablus	97.8	98.0	98.1	.	.	.	1.9	1.8	1.7	0.3	0.2	0.2
Jenin	97.4	97.9	98.0	.	.	.	2.0	2.1	2.0	0.6	—	.
Haifa	51.1	55.3	38.1	15.5	24.5	46.5	19.7	17.3	13.4	3.7	2.9	2.0
Nazareth	65.9	63.0	59.5	3.1	11.1	16.5	13.0	25.8	24.0	—	0.1	.
Tiberias	60.2	61.3	57.3	30.1	28.9	33.4	6.4	6.4	6.0	3.3	3.4	3.3
Acre	70.2	70.7	69.3	0.4	0.7	4.3	17.4	17.0	16.3	12.0	11.6	10.1
Safad	75.9	85.5	83.0	16.9	9.3	12.5	5.5	4.0	3.0	1.7	1.7	1.5

(Statistical Abstracts, Jerusalem 1942).

Table 6

MIGRATION INTO AND FROM PALESTINE

1920 — 1941

Year	Jews	Non-Jews	Total	Year	Jews	Non-Jews	Total
1920–21	C. 14,784	C. 138	14,922	1920	—	—	—
1922	7,844	284	8,128	1922	1,451	1,348	2,799
1923	7,421	570	7,991	1923	3,466	1,481	4,947
1924	12,856	697	13,553	1924	507	604	1,111
1925	33,801	840	34,641	1925	2,151	1,949	4,100
1926	13,081	829	13,910	1926	7,365	2,064	9,429
1927	2,713	882	3,595	1927	5,071	1,907	6,978
1928	2,178	908	3,086	1928	2,168	954	3,122
1929	5,249	1,317	6,566	1929	1,746	1,089	2,835
1930	4,944	1,489	6,433	1930	1,678	1,324	3,003
1931	4,075	1,458	5,533	1931	666	680	1,346
1932	9,553	1,736	11,289	1932	—	—	—
1933	30,327	1,650	31,977	1933	—	—	—
1934	42,359	1,784	44,143	1934	—	—	—
1935	61,854	2,293	64,147	1935	396	387	783
1936	29,727	1,944	31,671	1936	773	405	1,178
1937	10,536	1,939	12,475	1937	889	639	1,528
1938	12,868	2,395	15,263	1938	1,095	716	1,811
1939	16,405	2,028	18,433	1939	1,019	977	1,996
1940	4,547	1,064	5,611	1940	693	492	1,185
1941	3,630	555	4,185	1941	426	790	1,216
Numbers of Registered Immigrants into Palestine, 1920—1941				Numbers of Recorded Emigrants from Palestine, 1922—1941			

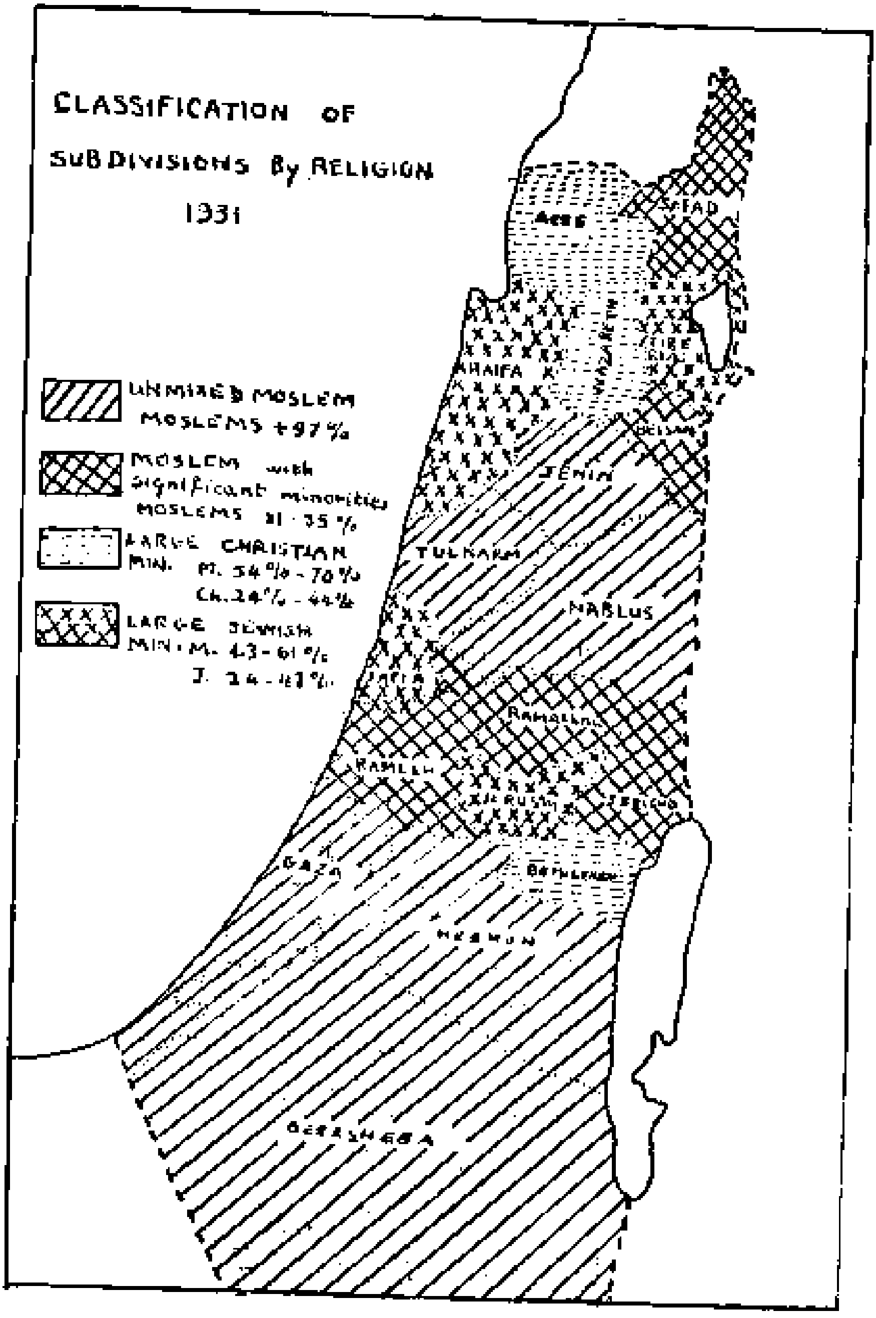
CLASSIFICATION OF
SUBDIVISIONS BY RELIGION
1931
UNMIXED MOSLEM
MOSLEMS +97%
MOSLEM with
significant minorities
MOSLEMS 31 · 35 %
LARGE CHRISTIAN
MIN. M. 54% - 70%
Ch. 24% - 44%
LARGE JEWISH
MIN. M. 43 - 61 %
J. 24 - 41%
ACRE
SAFAD
HAIFA
NAZARETH
TIBERIAS
BEISAN
JENIN
TULKARM
NABLUS
JAFFA
RAMALLAH
RAMLEH
JERUSALEM
JERICHO
GAZA
BETHLEHEM
HEBRON
BEERSHEBA

Fig. 3

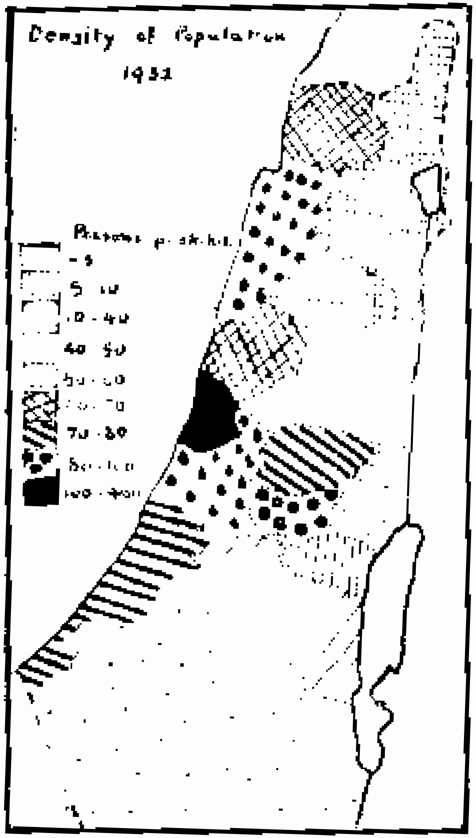

Fig. 4

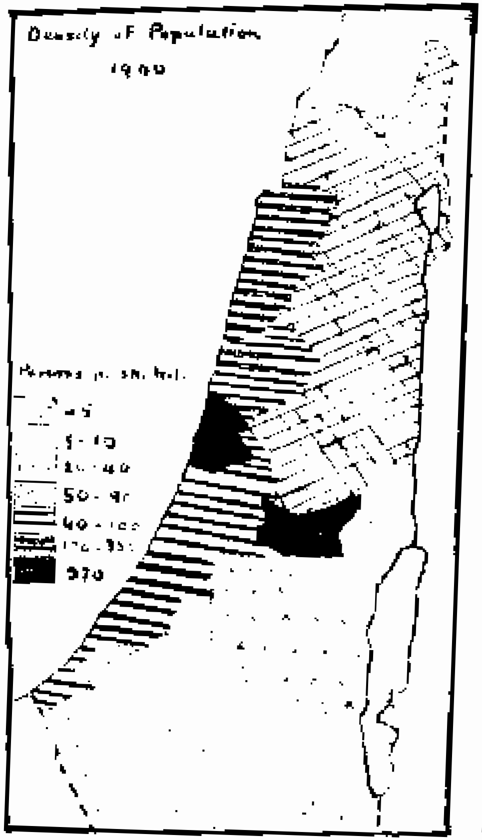

Fig. 5.

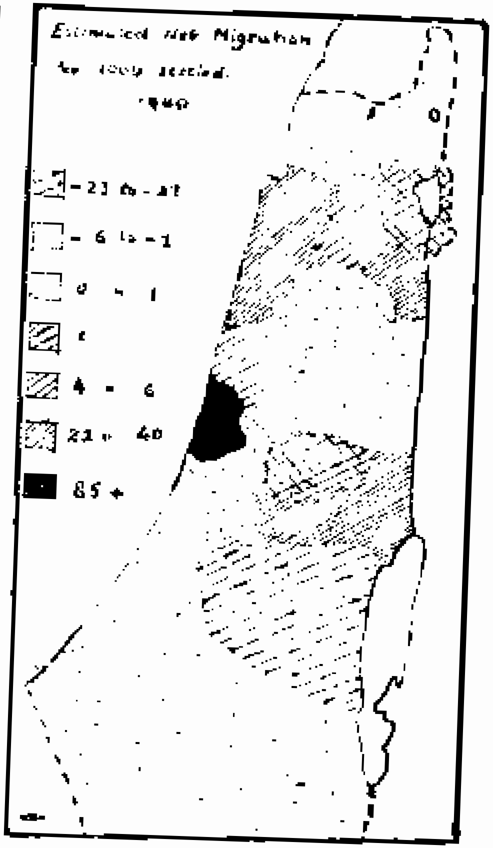

After Information from 1931 census

Fig. 4,5 are adapted from Notestein etc. op. cit.

The second wave (1904—1914) was mainly a labour immigration. In this period Tell-Aviv was founded (1909). The third (1919—1923) was inaugurated by the Balfour Declaration and carried 35,000 immigrants. The fourth wave began in 1924 and was mainly actuated by the improved economic conditions in Palestine on one hand and by the economic conditions of the Jews in Poland which was hard hit by the policy of the polish Government of eliminating Jews from many trades on the other. This immigration was accompamid by a very important phenomenon, which have a certain implication, that is a considerable exodus from the country (1924—1931) as a result of the acute crisis which broke out in Palestine after this influx whose foundation was not sound.[1] (Table 8)

From 1932 the country witnessed a series of economic and political upheavals according to which the flow of immigration fluctuated. Until the White Paper of 1939, Jewish immigration was controlled by the criterion of econmic capacity. Thence forward, a political limit (30% of the population) was introduced after which any more immigration would have not been allowed without the consent of Palestinians themselves. This disputed question however, changed the ratio of religious groups in the total population. The Moslem percentage changed from 75% (1920) to 60% (1949) the Christian from 12.5% (1920) to 9% (in 1941) while the Jewish rose from 12.5% to 33% of the total population.[2] (See Table 9).

Palestine is a densely populated country, especially for its limited resources. The average density of population grew steadily from 20 persons p. sq. kil. in 1920 to 56 persons p. sq. kil. in 1941. If Beersheba district is excluded, the density of settled population would be 108 persons p. sq. kil. This is about the same density as that of agricultural countries in South-Eastern Europe. In reality it is more densily populated than France, Austria, Denmark, Poland and Hungary[4]. The situation appears the graver, when we take into consideration the potentialities of growth, nowithstanding persistent immigration, according to which a population of 3.2 millions in 1976 was predicted[5]. It is doubtful if the present level of living in the different sections of population can be maintained even with high economic development. "A catastrophe of major proportions is not outside the bounds of possibility"[6]. It is even predicted that

1. Gurevich & Gertz. Ibid.
2. Ibid.
3. Notestien, W & Jurkat. E. "Population of Palestine", The Milbank Memorial Fund Quart. vol: 23. 1944 and Nathan et alia. op. cit. pp. 128 – 130.
4. Cf. table 10.
5. Notestein et alia, op. cit.
6. Ibid.

The last two decades witnessed a steep increase of the population unparalleled anywhere in the world. This prolific increase was due to natural increase in the time of heavy Jewish immigration. British rule put an end to the annual conscription of the Arab youth in the Turkish army and introduced effective measures for improvement of public health.

Table 7.

AVERAGE ANNUAL RATE OF NATURAL INCREASE PER 1000

Years	Moslems	Jews	Christians
1922 – 25	23.27	20.44	20.16
1926 – 30	25.19	22.70	20.60
1931 – 35	24.97	20.91	20.85
1936 – 40	27.68	17.75	20.77
1940 – 41	30.71	17.85	18.89

(Anglo - American Committee of Enquiry, Lousanne, 1946.)

Natural increase has been stimulated in the Moslem population by a high birth-rate and a substantial decline in death-rate. At present the high birth-rate among Jews is maintained by a large number of immigrants mainly of child bearing age. The same factor, with the high standard of living, attributes to the low death rate in the Jewish population.[1]

Excess of immigration over emigration has added to the rapid increase of population. If we exclude summer influx of Beduins from Transjordan into Palestine for pasture, and seasonal immigrations of Arabs from Hauran for temporary employment, we find that Arab immigration was indeed insignificant. It is the size of the Jewish immigration which accounts for the rise of Jewish poplation from 35,794 in 1922 to 474,104 in 1941 or from 10% to more than 30% of the total populotion. Without incessant immigration the Jewish community could not have maintained its percentage. The majority of immigrants found their way to the towns. They entered the country in waves corresponding to general prosperity of the country and to the situation of Jews in European countries.[2]

The first wave (1882—1905) was inaugurated by the frist Zionist movemnt "Hovevei Zion" in Russia and Roumania. It carried from 20—30,000 immigrants and put the foundation of Petah Tikva, Rishon Le-Zion, Rosh Pina, Zikhron Yaakov, Hedera[3] etc.

1. Himadeh, S. *Economic Organization of Palestine*, London 1937, p. 17, showed that the death rate have been falling faster than death rate since 1928.

2. Cf. Nathan R. et alia, op. cit. pp. 369 ff. & Horowitz & Hinden op.cit, ch III.

3. David Gurevitch & Aaron Gertz. The Jewish Population of Palestine, special Reprint for the keren Hayesod, Jerusalem 1944 pp. 4—7.

Land congestion and landlessness among the indigenous population was only a logical consequence of a colonizing movement which has its parallels in other countries of colonization, such as South Africa, Rhodesia and Kenya[1].

* * *

VI. Population mobility.

The population of Palestine was affected by two factors: natural increase and heavy immigration. During the Turkish rule the Moslem high brith-rate, was nullified by a correspondingly high death-rate, and an annual toll of young men conscripted into the army checked the growth of population, Emigration to South and North America was especially dominant among the Christian section of the population[2].

When the British entered Palestine in 1917, the total population was estimated to be 647,850 inhabitants, of which 515,000 were Moslems, 62,500 Christians and 65,300 Jews[3].

The first official census took place in Nov. 1931. The total population arose from 752,048 in 1922 to 1,035,821 & of which 759,712 Moslems, 174,610 Jews and 71,464 Christians. The total increase was 53% of which the Moslems recorded 28% increase, the Christians increased by 37% but the Jews increased by 171%. Although, in the census of 1931, religion was considered the most important basis of classification, race or nationality was also recognized[4].

Within Palestine the rate of increase diverged widely, the most rapid increase occured in the middle and northern regions of modernization. Jericho an Haifa more than doubled their population, while Jerusalem, Jaffa and Beisan increased by 40-100%. On the other hand, the slowest growth occured in the unmixed Moslem subdivisions of Hebron, Nablus and Jenin as well as in Safad, Acre and Bethlehem, regions with large mixed or Christian minorities. Even here, the increase was actually rapid, from 15-24% which would have doubled the population in 25 years.

There was a net migration away from Bethlehem, Hebron or Gaza in the South, and Acre and Safad in the North. At the opposite extreme there was a net movement to Haifa, Beisan, Jaffa. the Jerusalem - Jericho region, Ramalleh and Tiberias. Apparently Beershaba, Ramle, Nablus and Jenin lost slightly, whereas Nazareth and Tulkarm gained somewhat.

—

1. Cf. Church, R. J. H. op. cit, & ch. IV & V: also Macmillan. W. Africa Emergent (Pelican Books) London 1949, pp. 122—132

2. Naval Intelligence Handbook, op. cit. Ch. on Population.

3. Ibid.

4. Mills. C. E. Census of Palestine, 1931 Report Vol. I. pp. 30 etc.

Table 5[1]

LOT VIABLE IN PALESTINE

1.	Citrus ...				10	dunums
2.	Bananas				10	"
3.	1st grade irrigated land and 1st grade plantation				50	"
4.	2nd "	" "	2nd "	"	57	"
5.	3rd "	" "	3rd "	"	67	"
6.	1st. "	cropland	4th. "	fruit	80	"
7.	2nd. "	"	5th. "	"	100	"
8.	3rd. "	"	6th. "	"	114	"
9.	4th "	"	7th. "	"	133	"
10.	5th "	"	8th. "	"	167	"
11.	6th "	"	9th. "	"	250	"
12.	7th "	"	10th. "	"	400	"
13.	8th "	"	11th. "	"	400	"
14.	Forest, planted & indigenous and uncultivated land				400	"

The Arab landless class was increasing especially since 1930 owing to land sales — by absentee landlords — on the one hand and the increase of population on the other. This landless class was completely uprooted and had no future on the land: only to add to unemployment. A large section of it was already migrating to the towns to live in conditions of appalling misery. As a result of this, the social structure of the Arab population was undergoing a rapid change as the following table of the percentage of the urban and rural population in twenty years shows:

Table 6

CHANGE IN THE SOCIAL STRUCTURE OF THE ARAB POPULATION

Year	Urban Pop.	Arab Pop. % of total	Rural Pop.	Arab Pop. % of total
1922	194,117[2]	29,2	469,799[2]	70,8
1931	257,325[2]	30,2	593,785[2]	69,8
1938	315,402[3]	33,6	625,845[3]	65,4
1943	390,640[4]	34,9	726,720[4]	65,1

1. As estimated by Hope Simpson's Report, 1930.
2. Jewish Agency Handbook p. 3.
3. Village Statistics, Jerusalem, 1938.
4. Village Statistics, 1943

Table 4.

JEWISH NATIONAL FUND ESTIMATE OF CATEGORIES OF PALESTINE LAND 1943?

(Thousand of dunums)

	Total area	Cultivable area	Farm-Building road, etc.	Forest area	Waste area
Plains	4,480	3,117	500	189	673
Hills	9,624	5,377	595	2,649	1,004
Negeb	12,215	2,025	225	250	9,715
	26,318	10,519	1,320	3,088	11,392

Source: Unpublished data of J. N. F. contained principally in S. Lifschitz, Categories of Soil in Palestine and Their Cultivation & Joseph Weiz, Designing a Regional Map of Palestine. (Due to rounding, subtotals do not necessarily agree with totals exactly). Palestine Problem and Promise, 1946, p. 191.

* * *

V. Congestion on the Land and Landlessness.

Since Jewish settlers began to aquire land, especially from absentee big landlords and State Domain, there had been an acute shortage of land among the Arab rural population. This fact had been found by many official commissions, namely, the Shaw Commission (1930), the Hope Simpson (1930), the French (1931) and the Partition Commission (1938). The Palestine Government endorsed a certain basis of classifying the land according to the kind of cultivation and fertility. Thus the land was classified into 16 categories, and a certain size of each was considered the minimum to sustain a rural family of 5 persons[1]. (Table 5).

It might have been difficult to agree to absolute figures about the land necessary for a certain peasantry, but there is no question that dispossession among Arab farmers was appalling and that there was actual eviction from the land as happened in the tewenty villages of Esdraelon Plain whose 25,000 Arab inhabitants were just expelled from the land. The same happened in Wadi al Hawareth and went on day after day[2].

1. Cf. Hope Simpson's Repout, p. 1930, p. 142; Jeffries, Palestine the Reality, p. 644; Royal Commission's Report, 1938 p. 240. & Survey of Palestine, Vol. I, p. 274.

2. Cf. Royal Commission's Report. 1938, p. 176.

In Gaza sub-district (from Ramleh to Sinai) the population was 100,250 (1938), 39 % of which live in the three towns of Gaza, Khan Yunis and Al-Majdal. The land is less fertile, the soil being sandy loess is deficient in humus and about a fifth of the area is uncultivated. Primitive extensive methods with cereals were practiced by Arab farmers. With such methods the agricultutal population is already in excess of what the land can support.

The central and western hill country, owing to its higher rainfall, has long been much more successfully utilised than the eastern part. The general agricultural pattern is the cereal village which predominates in nonirrigated, rainfed parts. Villags were mostly Arab, and the Arab economy was consequently most prevalent.

Besides cereals, the Judaean slopes are the main centre of fruit tree, especially olives which are drought resisting trees, and of figs and grapes. Olive oil and soap manufacturing are still the traditional industry of the Arabs. A typical village settlement, then, is situated near a water-supply, a spring or head of a stream with its arable and grazing land and trees together providing cereal crops, fruit and olive which together constitute the staple food in Arab villages.

The Plateau of Judaea proved to be repulsive to modern settlements established by European-Jewish immigrants. Its isolated character kept it aloof from foreign influence in Gaeo-Roman times, and it also made it impregnable to modern colonization. The traditonal culture is still practiced by the indigenous population as if was by Canaanite population in ancient times.

The total area of cultivable land which was admittedly owned by the Jews in 1944 was 1,731,300 dunums[1]. At the outbreak of the Palestinian war, no less than 2,000,000 dunums were in Jewish hands. This represents 23 % of the total cultivable area of Palesine and 31,25 % of the area now being cultivated. About three-quarters of the Jewish lands lie in the Maritime Plains: in the sub-districts of Acre, Haifa, Lydda and Gaza: the sub district of Nazareth (Esdraelon Plain), Safad, Tiberias and Beisan[2]. (see Figs. 12 also table 4)

The Arabs on the other hand owned about 6,5000,000 dunums, which unweighted represent about 75 % of the total cultivable area of Palestine. As the bulk of this area, however, is in the hills, and the semi-desert, its agricultural value was less and on weighting falls to about 64 %. Of the land actually under cultivation, the Arabs owned about 69 % in absolute figures and only 60 % in weighted value[3].

1. Survey of Palestine, vol. I, p. 372.

2. See Village Statistics, Govrt of Palestine, Jerusalem, 1945, p. 3.

3. The Future of Palestine Prepared by the Arab Office, London, Aug. 1947, pp. 142 -143.

Jewish settlement would not have reached its present level without the help of the Arabs. They were in more favouable conditions than European settlers in Canada and New Zealand in the 18 th. century[1]. The first settlers without previous knowledge of agriculture adopted the native habit of cereal growing and gradually emerged to mixed farming. Citrus. the main industry of Palestine was also adopted from the Arabs. The relation between old settlers of P. I. C. A., and the neighbouring Arabs was that of mutual help and understanding. "The effect of the Jewish Colonization in Palestine on the existing population is very intimately affected by the condition, on which the various Jewish bodies hold, sell or lease their land. It is a matter of principle that only Jewish labour is used in the land[2]. It was one of the Arab grievances that once the land passed to Jewish hands, it is extraterritorialized, and Arab peasantry was consequently displaced. The mandatory Power in an abortive attempt, laid certain restrictions on land transference[3].

While cereals were the main branch of idigenous (i.e. Arab) agriculture, it occupied a minor place of importance among Jews. The Jews were obliged to be mixed farmers because their new settlements had to provide all their food requirements. The rapid growth of mixed farming was due to the large capital sum invested in irrigation and the expansion of labour settlements depending on it. The decrease in the size of the farming unit reflects the intensification of mixed farmeng and transference of cereal - - growing requiring large areas of land to poultry, dairy and vegetaeble farming, requiring small areas. This, however, stimulated a parallel growth of mixed farming among the Arabs. There are two types of farms, one primarily arable with variety of legumes, oil seeds and cereals and the other in which oil seeds and cereals are grown between trees such as olives, and carobs that are suited for spacing[4].

Citrus fruits are grown in entirely irrigated areas. By far the large number of the citrus plantations are in Shephelah and north and south Sharon. Sandy soils which are unsuitable for ordinary agricultural crops, except melons, are preferable for citrus. So the soils which previously were of small repute have now become the most desired of all the plains.

---

1. David Horowitz & Rita Hinden, Economic Survey of Palestine, The Jewish Agency, Tel Aviv. 1938, Ch. II.

2. Cf. Hope-Simpson's Report, 1930; Ch. V.

3. British White Paper, Comd. 6180, Feb. 1940.

4. Cf. Keen, B.A. The Agricultural Development of the Middle East, London, H. M. S. O. 1940 Ch. II.

olive, vines and other hill fruits. In 1922 there were only about 120,000 dunums of land in Palestine planted with olive; in 1944 there were over 600,000 (90% Arab)[1].

The low hills of shephelah and the Maritime Plain are better watered and better drained than either the Huleh plain or the Jordan Valley. Their loamy soil is classified as good land and has proved ideal for citrus plantation. Besides, the hilly country of Galilee and Western Jurdaea have been always the centre of continuous settlement all through history. The population map show these parts as among the best population areas in Palestine. The populatin of Shepelah and the Maritime Plain "was" mixed, Arab and Jewish. As a consequence two different economies existed side by side, the traditional simple Arab economy and the Europeanized Jewish economy. Almost all Jewish citrus growing takes place in the Maritime Plain between Kfar Wanburg in the south and Benjamina in the north, where four - fifths of the irrigated area is located. Arab citrus cultivation was almost confined to the Maritime Plain as well[2].

Jewish agricultural settlements vary considerably in their system of agricultre and their socio - economic organization. At the beginning of the 19th. century the first effort of settling Jews was started by Rishon - le - Zion, Rehevot and Petah Tikva. The number of settlers was 8,000 or 8 % of the total population of Palestine and grew to 50,000 in 1895[3].

Petah Tikva was established by Jews from Jerusalem in 1878, a few miles away from Aujeh River to avoid malaria. It grew from a small village to a country town of 10,000 inhabitants. Rehevoth, started by 20 families, had a population of 2800 in 1944[4].

Jewish settlers on the land constituted - in the time limit of this paper formed only 15.4 % of the Jewish population. They lived in three different types of settlement: private owners, co-sperative farming and collective settlements. The Jewish National Fund provided land for the latter two types under certain terms. This land is inalienable to the Jewish community[5]. Collective farms vary in size from small groups to large areas farmed by 200 families. Co-operative settlements consist of small holders who run their own farms under a developed co-operative system.

---

1. Robert Nathan, O. Gass & D. Creamer: Palestine: Problem & Promise, Washington 1948, pp. 116- -117.

2. Ibid. pp. 207 - 212.

3. Cf. D. Garevich & A. Gertz. The Jewish Population of Palestine. Jrusalem, 1944, pp. 4 – 5.

4. Naval Intelligence Handbook, Palestine & Transjordan. London 1944, Ch. on Population.

5. Report on Immigration etc. op. cit. Ch. V.

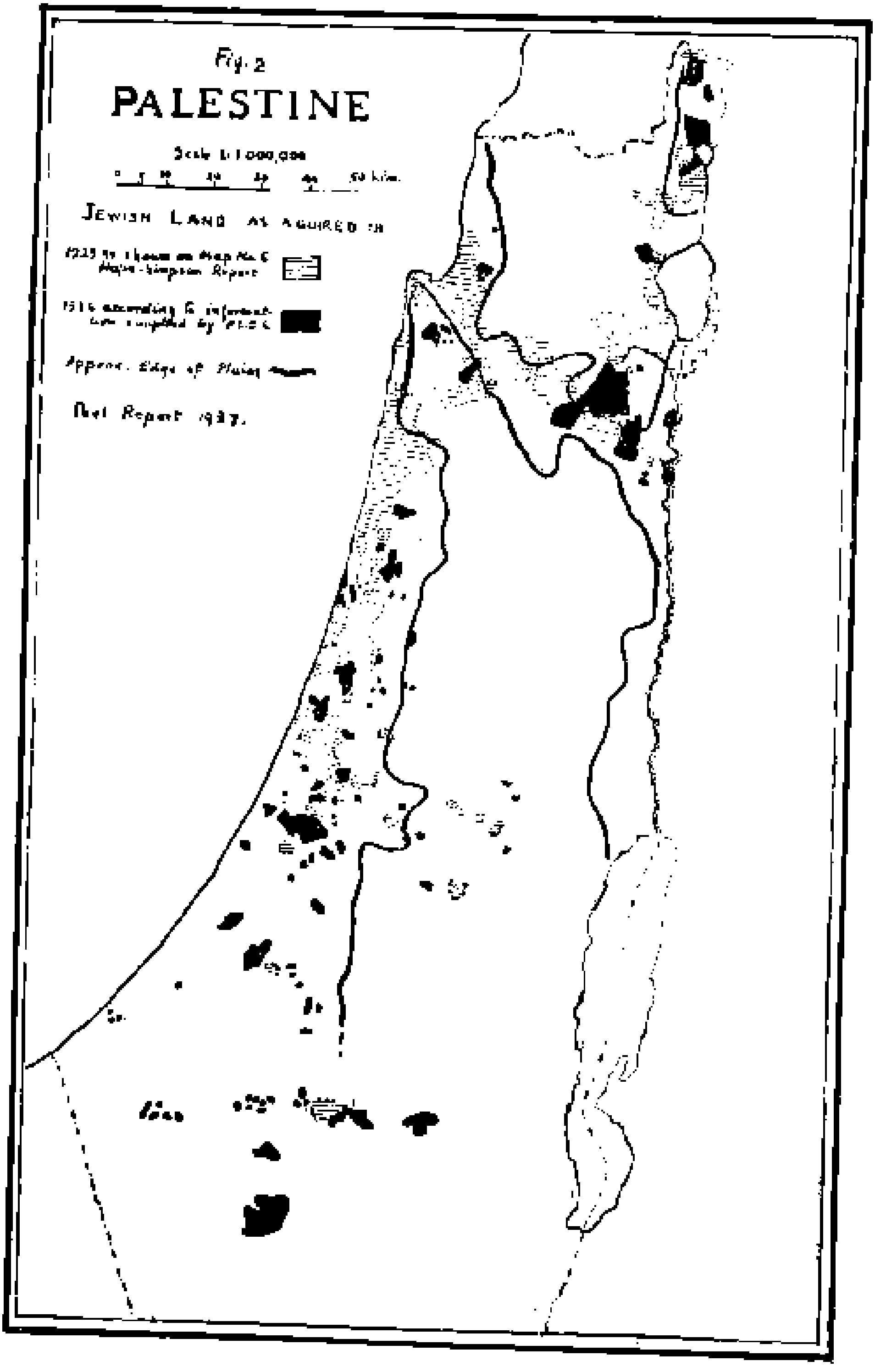
Fig. 2
PALESTINE
Scale 1:1,000,000
50 kim.
Jewish Land as acquired in
Approx. Edge of Plains
Peel Report 1937.

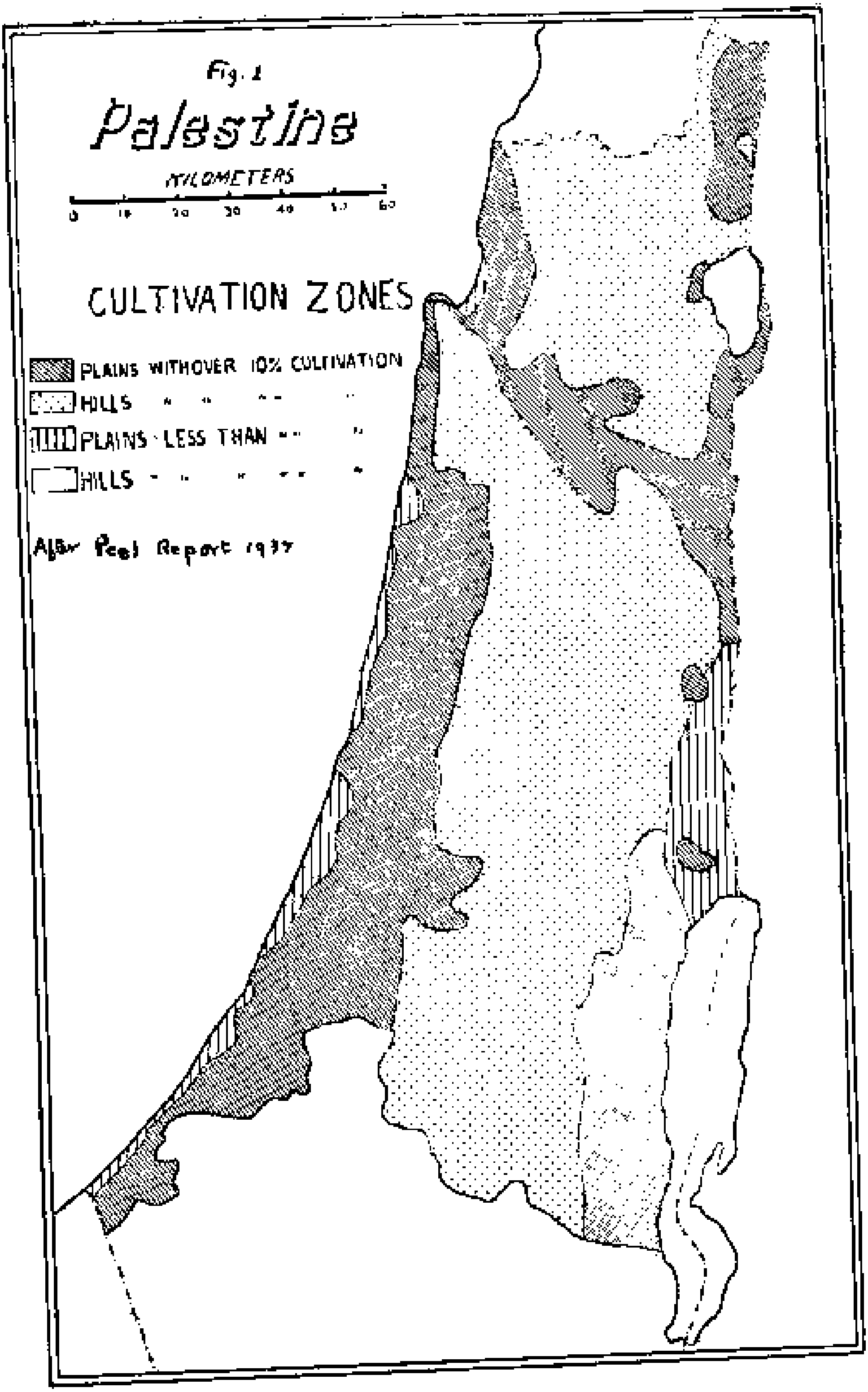
Fig. 1
Palestine
KILOMETERS
0 10 20 30 40 50 60
CULTIVATION ZONES
PLAINS WITH OVER 10% CULTIVATION
HILLS " " " "
PLAINS LESS THAN " "
HILLS " " " " "
After Peel Report 1937

The exceptionally high birth - rate, however, is balanced by a much higher mortality than can be found in European countries. However, the Jews who migrated mainly from European countries have a higher natural increase than effected by European migrants to other pioneer countries (Table 3).

Table 3.

NATURAL INCREESE PER MILLE OF THE POPULATION [1].

Period	U. S.	Canada	Australia	New Zealand	S. Africa	Argentine	Palestine Jews Only
1871 - 1881	16.2		23.0	39.2			
81—91	13.4		23.0	26.9			
91—1901	10.7		18.2	18.7			
1901 - 1911	10.0		16.2	19.5			
1921 - 1925	10.0	15.9	14.4	13.6	17.4	18.2	21.2
1933	5.7	16.0	7.4	8.6	14.0	14.3	19.9
1934	6.1	11.3	7.1	8.0	13.8	13.5	20.7
1935	6.0	11.0	7.0	8.0	13.7	12.6	22.2
1936	—	10.6	7.7	7.9	14.8		20.8

* * *

IV. Old and New Settlements in Palestine

Palestine-indeed as many Middle Eastern countries-suffered from a general decline from the 13th. century to the 18 th. This general degeneration went hand in hand with a steady fall in the puplation, which reached its lowest ebb in the 18th. century when the toral population was not more than 200,000. [2]

The pattern of population distribution, density and size of settlement reflects clearly the effect of physical conditions of the terrain : relief. property of soil, and water-supply[4]. The greatest accomplishment in conserving the soil of the hill country by planting trees, under the mandte, must be credited to the Arab farmer and his plantations of

1. Cf Carr - Saunders, Op. cit. pp. 25, 26 and 162.

2. See Volney, C.E. Travels in Syria & Egypt. 1783--1785, p. 334. also Stanley A.P. Sinai & Palestine, London 1887.

3. Ghallab, M. E.S. Constant & Variable Factors in the inter-relations between the Judaea Plateau & the Maritime Plain of Palestine. Bull. Soc. Roy. Geog. d'Eg. Nov. 1951, pp 202. ff.

and New - Zealand. Is is of a diminutive size in comparison with any of the above mentioned countries. It would not be a field of mass immigration either. Nevertheless, it was forced to play, to its unfortune, the part of pioneer settlements country.[1]

The Jews, immigrating to an old country, were in a better position than European immigrants to the U. S. A., Canada, Australia, and New - Zealand, in the second half of the 19th. century. The country not only was producing foodstuffs, but also directed and educated the so-called "pioneer" settlers as to the main lines of cultivation. To this fact are attributed many aspects of Jewish immigration into the country: its large size, consistent flow and development (see Table 1)

Table 1.

Percentage of Population Growth due to Immigration.[2]

Period	U. S. A.	Canada	New - Zealand	Australia	PALESTINE
1870 — 1880	28.5	-	53.9	35.4	—
80 — 90	42.9	—	3.6	42.8	--
90 — 1900	31.5	—	19.4	Nil	--
1900 — 1910	41.8	53.4	35.2	17.3	—
10 — 20	17.0	27.3	21.1	16.2	--
20 — 30	21.6	16.6	27.6	28.7	—
22 — 36	—	—	—	—	49.5

Palestine, being an Oriental country, shared with other Middle Eastern countries certain demographic characteristics : A very high birth - rate which - despite a high death rate, permits a net natural increase of population. The brith - rate per mille of the population is several times that of the countries of the temperate zone with the sole exception of Russia[3].

Table 2[4].

	Birth rate	Death rate	Natural Increase
Palestinian Arabs .	50.2 ‰	24.9 ‰	19.9 ‰
Jews	30.3 ‰	21.0 ‰	3.9 ‰
Palestine as a whole	44.7 ‰	21.0 ‰	23.7 ‰

1. For a fair Comparison with pioneer settlement countries. Cf. Church, R.J.H Modern Colonization, London 1951.

2. Carr - Saunders, A.M., World Population, Oxford, 1936, fig. 5,6 and 33.

3. Bonné, A: The Economic Development of the Middle East, London 1945, pp. 8—11.

4. Derived from information given on p. 9 Ibid & footnote.

hilly country. They continued to live, till the land and mix with later migrating peoples until the the Arab Conquest in the 7 th. century A. D.).[1]

The history of Jewish Palestive ended in A. D. 135. This is an important date in the history of Palestine as there has not been a Jewish majority in Palestine since then, nearly two millenia ago. Memories and beliefs many have lingered on; the desire to return again to the Promised Land may have remained throughout the centuries - among Jews where fore fathers have been in Palestine[2].

During all this time, the Arab - or Arabic speaking population who are the net product of generations of Philistines, Canaanites and northern Arabs - till our own time, tilled the soil, worked and died in Palestine.

Towards the end of the nineteenth century, as a result of persecuting the Jews in certain European countries, the leading Jews postulated a programme for the emancipation of the Jewish people[3]. Zionism, as a movement and doctrine was established among the Jews in many parts of the country. Its aim was to get from the Sultan of Turkey a Charter for Jewish settlement in Palestine. It failed because the Sultan had become very suspicious of the small but gradual Jewish infiltration into Palestine. However, the Zionist organizations continued to infiltrate and settle small numbers of Jews in Palestine.

Infiltiation continued, and in 1914 there were between 85,000 to 90,000 Jews in Palestine. The bulk of the immigrants settled in the towns of Jerusalem, Haifa and Jaffa, but over 12,000 of them lived in 43 settlements or colonies. These immigrants were quite different from the Jews who had lived in Palestine for centuries and who were undistinguishable from the Arabs. The new Jews had come with a new purpose - colonizing Palestine[4].

* * *

III. General Considerations:

It was the destiny of Palestine thus to become a country of immigration, very much unique in character and in every respect different to other centres of immigration in the world. The Jews were not flocking to a new empty country, like the Americas, Australia

1. Cf. George Antonius. The Arab Awakening, London.

2. Cf. Haddon, A.C. Saunders, A.M. & Huxley, J., We Europeans, London, 1939, (Pelican Books) pp. 83, 147 f., 152 f., 171 f. & 183.

3. Cf. Israel Cohen: The Zionist Movement, London 1914.

4. Ibid.

ms are in the semi-desert Beersheba subdistrict are only barely cultivable,[1] while another two and a half million dunums are in the hill districts, where the land is less fertile and general conditions of cultivation are very difficult.

The backbone of the agricultural land of Palestine is to be found in the plains, which are the Maritime Plain, the Acre Plain, the Plain of Esdraelon, the Huleh Plain and the Plain of Jordan. The total cultivable area of these plains is just over 4 million dunums.[2] They are fertile and enjoy more certain rainfall, most of them have the advantage of having underground water or, as in the case of the Jordan and Huleh and parts of the Maritime Plain, even river water is available; the land is flat and the conditions for cultivation are far more suitable than elsewhere. Furthermore, intensive cultivation is only possible and indeed only being practised at present in these plains.[3] This point ought to be borne in mind, for as we shall see later, while the bulk of Arab land lies in the semi-arid region of Beersheba or in the hills, the bulk of the Jewish owned land lies in the fertile plains.

The land which is actually being cultivated is, however, less than the whole "cultivable area." In 1944—1945, it was estimated that 6,500,000 million dunums (approx. 1,500,000 acres) were under actual cultivation in Palestine. Nevertheless, calculations, considering absorptive capacity, lot viable, population distribution and land congestion, will be based more on the cultivable area than on the area actually under cultivation. Unfortunately, even if all cultivable land in Palestine were brought under actual cultivation, the land problem will remain acute.[4]

II. The Historical Background.

Palestine was the cradle of Judaism and Christianity and was ever a place of reverence to Islam. It is true that the Hebrews found asylum in the hill country of Judaea and Samaria fourteen centuries B. C.[5] But it is equally true that long before Abraham ever led his tribe from the Euphrates to the Syrian side of the Mediterranean, the Canaanites settled in the country and founded their cities, towns and villages in the Shephelah hills and the better watered parts of the

1. See Survey of Palestine, London, 1945, p. 3.
2. Simpson Report, Op. Cit. p. 22.
3. Ibid. p. 22. ff.
4. Cf. R. Nathan, Oscar Gass & D. Creamer, Palestine: Problem & Promise Washington, 1946, pp. 190—193 & Report on Immigration & Development, J. Hope Simpson, p. 22.
5. Cf. William Thompson, London, 1946, pp. 48—51 & 67—71, also Survey of Palestine, vol. I, p. 410.

and Judaea; the plain of Acre which lies between the hills of Galilee and the Bay of Acre, the plain of Esdraelon or Marj-ibn-Amer, which is formed by a syncline between the Anticlines of Galilee in the North and Samaria in the South: the Huleh Plain and the plain of the Jordan Valley, both of which lie in the Rift Vally; the Beersheba Area of S.W. Palestine which consists of an anticlinex between the synclines of Judaea in the North and the Negeb in the South. The arid desert areas of Eastern Judaea and the Negeb.[1]

To what extent are these four regions capable of cultivation and development? This is a vital question which indeed will determine the ultimate number of Jewish immigrants to the country, and which for that same reason was highly disputable between both Arabs and Jews as it had a strong bearing on the absorptive capacity of the country. The land area of Palestine is 26, 323, 033 dunums (equivalent to 6, 579, 750 acres approximately). As shown above, most of this area is composed either of desert or bare rocks where cultivation is impossible. Estimates of the cultivable area fall into two categories: on the one hand there are those made by the Government of Palestine on the basis of elaborate survey of the country, or by other objective experts who have been sent to Palestine on mission connected with the land in Palestine and on the other hand there are the highly exaggerated estimates of the Jewish Agency experts. In a report issued in 1930, the Commission of Lands[2] estimated the cultivable area of Palestine as 12,230,000 metric dunums. Its definiton of cultivable is a land that can be brought under cultivation by the labour of the average Palestine fellah. This naturally excludes marshes, the coastal sand-dunes- the wilderness of Judaea and the semi-arid area south of Beersheba. A few years later the Government revised this estimate downwards. The Director of Survey basing his conclusions to a large extent on aerial surverys of typical districts in the hilly country, estimated the immediately cultivable area as only 8,644,000 dunums.[3] In the report submitted to the Royal commission of 1937, the Palestine Govt. took a middle course, estimating the area of cultivable land outside the Negeb as 8,760,000 dunums.[4] Of these, two million dunu-

1. Cf. Abel. Le P.F. M. Geographie de la Palestine, Paris 1933 vol. I.; Blanchard. R. Geographie Universelle, t. VIII, Asie Occidentale, Paris 1929, Ch VII pp. 186 -197.

2. Report on Immigration, Land Settlement and Development. Sir John Hope Simpson. Colonial Office, Cmd. 3686- 1930. pp. 22 ff.

3. 4 dunums 1 acre.

4. See Report 1937. Cmd, 5479. pp. 172- 173, Ibid, p. 173 § 45. "It is stated however in Mr. Granovsky book "The Land Issue in Palestine" that "figures arrived at by the Jewish Agency experts show that the cultivable area.. exclusive of the Beersheba Sub-District, 9,197,000 d. in the plains 3,876.650 d. in the hill & mountain districts, 5,320,350 d."

THE TRANSFORMATION OF THE PALESTINIAN POPULATION

1920 — 1948

BY

Dr. MOHAMED EL-SAYED GHALLAB

Foreword

The last thirty years have witnessed vast and complex changes in the population of Palestine; such as unprecedented in any other part of the world in such a limited span of time. The result was nothing less than the transplanting in the better parts of the country of a strong alien minority which - in due course - by the help of international [1] organizations and a series of political intrigues, changed the balance of population in their favour. The net result was converting the National Home of the Jews in Palestine into the "State [2] of Eretz Israel", the tragic displacement of the indigenous population at their ancestor's homes, the Judaization of many an Arab town and in short the establishment of an alien body in the very heart of the Arab Nation.

This transformation of the Palestinian population was a painstaking process which took place in face of a bitter Arab struggle [3] and in defiance of all natural resources of the country. The purpose of this paper is to state forth the steps of this process of alien immigration into Palestine and its relations to physical and economic conditions of the country on the one hand and the natural trend of the indigenous population on the other hand. It is hoped that such a study of population will enable other students of the Middle East questions to appreciate more accurately the vital sides of the Palestine problem which we believe is far from being settled.

I. The Geographical Background.

Geographically, Palestine falls into four regions: The hilly country of Galilee, Samaria and Judaea; five plains: The Maritime plain which lies between the coast and the hilly country of Samaria

1. Reference is made to the Jewish international organizations, such as the Jewish Agency (mainly political in its interests), Keren Heysod and Palestine Jewish Colonization Association etc.

2. The Balfour Declaration was issued by the British Government on Nov. 2nd. 1917 and the Republic of Eretz Israel was declared on may 15th 1948.

3. The first Arab revolt occured in 1920; a large scale revolt broke out in 1936.-1939. See Palestine Royal Commission Report. Cmd. 5479. 1937. pp. 32—57.

from the Sociological Point of View], Prague, *Publications of the Social Institute of CSR*, No. 18; Zdenek Ullrich: *Sociologicky rozbor dnesni spolecnosti* (in Czech) - [A Sociological Analysis of the Recent Society], Prague, 1936; Z. Ullrich: Socialni struktura dneska (in Czech) - [The Social Structure of To-day]. *Social Problems*, vol. III, 1933, pp 38—46.

About the different conceptions of the relation of Sociology to Social Sciences see: H. E. Barnes: *Sociology and Political Theory*, New York 1924; H. Cairns: Sociologie et sciences sociales, in *La Sociologie au XXe Siècle*, pp 1-18; Z. Ullrich-O. Machotka: Sociologie a sociální vědy (in Czech). [Sociology and the Social Sciences]. *Parlament*, 1928; see also my *Sociologie I*, pp. 18-20.

About the relation of Social Sciences there is no modern systematic treatise. Almost all the books I mentioned in the notes to the paragraph: Quest for a New Synthesis, have a certain hint to this problem. Important contribution were made by G. Simmel, W. Sombardt, L. von Wiese, Emil Durkheim and many others. See the quoted works of Penniman, White, etc. Also Marcel Mauss: *Manuel d'éthnographie*, Paris 1947; E.E. Evans-Pritchard: *Social Anthropology*, London 1951; E. L. Beals — H. Hoijer: *An Introduction to Anthropology*, New York 1953, pp. 1 — 20; W. J. H. Sprott: *Sociology*, London, Hutchinson's University Library; A. Landry: *Traité de Démographie*, Paris 1949, esp. pp. 487 — 549; G. Van Der Leeuw: *La religion*, Paris 1948, esp. pp. 654—680; M. Eliade: *Traité d'histoire des religions*, Paris 1949.

For a new approach see: *For a Science of Social Man*, New York 1954; I advanced my theory for the first time in the quoted book: *Sociologie I*, pp. 57—127.

To the Sociology of Knowledge in general: Karl Mannheim: Wissenssoziologie, in: *Handwörterbuch der Soziologie,* (A. Vierkandt ed.) Stuttgart 1930—31; W. Jerusalem: Soziologie des Erkennens in: *Kölner Vierteljahrshefte für Soziologie,* vol. I, 1921; Max Scheler (ed): *Versuche zu einer Soziologie des Wissens,* Leipzig 1924; Max Scheler: *Die Wissensformen und die Gesellschaft,* Leipzig 1926; Karl Mannheim: *Essays on the Sociology of Knowledge,* London 1952 (contains the English translation of some older Mannheim's articles): Z. Ullrich: *Osvobozeni Práce* (in Czech) -- [Sociological Analysis of the Ideas on Labour/ Prague 1947.

About the evolution of science see: Gordon Childe: *Man Makes Himself,* London 1936: G. Childe: *What Happened in History.* Penguin Books, 1942; B. Farrington: *Greek Science,* I—II, Pelican Books, 1944; J.D. Bernal: *The Social Function of Science,* London 1939: Fl. Znaniecki: *The Social Role of the Man of Knowledge,* New York 1940; P. Sorokin: *Social and Cultural Dynamics,* New York 1937-41, vol. I; Abel Rey: *La science dans l'antiquité:* I. *La science orientale,* II. *La jeunesse de la science greque,* III. *La maturité de la pensée scientifique en Grèce.* IV.—V. *L'apogée de la science technique greque,* Paris 1942—1948.

About the evolution of Social Sciences see: Paul Barth: *Die Philosophie der Geschichte als Soziologie,* 1922; P. Sorokin: *Contemporary Sociological Theories,* New York 1928; H.E. Barnes—H. Becker: *Social Thought from Lore to Science,* New York 1938; F. Oppenheimer: *System der Soziologie,* I,1, *Grundlegung,* Jena 1922; T. K. Penniman: *A Hundred Years of Anthropology,* London 1952; G. Gurvitch—W.E. Moore: *La Sociologie au XXe Siècle,* I—II, Paris 1947; Ossip-Lourié: *La philosophie russe contemporaine,* Paris 1902, pp. 157—259; R. Hubert: *Les Sciences sociales dans l'Encyclopédie,* Paris 1928; Zdenek Ullrich: La doctrine et l'enseignement sociologiques hors de France, *Revue Internationale de Sociologie,* 38ᵉ Année, N. 1—2, Paris 1930; Zdenek Ullrich: La doctrine et l'enseignement sociologiques à l'étranger, *Comment juger la sociologie,* Marseille, pp. 186—243; A. Cuvillier: *Manuel de sociologie,* I.,pp. 1—323.

The History and Prospect of the Social Sciences. (H. L. Barnes ed.), New York 1925: *Recent Developments in the Social Sciences.* Philadelphia 1927; R. Aron: *La sociologie allemande contemporaine,* Paris 1950; C. Antoni: *Vom Historismus zur Soziologie,* Stuttgart; A. Cuvillier: *Introduction à la sociologie,* Paris 1949,pp. 7—86. About the modern tendencies in science and social life see: Karl Mannheim: *Mensch und Gesellschaft im Zeitalter des Umbaus,* Leyden 1935; Fl. Znaniecki: *The Social Role of the Man of Knowledge,* 1940; Z. Ullrich: Racionalisace hlediska sociologického (in Czech)-/The Rationalisation

BIBLIOGRAPHICAL NOTES

Amongst recent works about general sociological problems I may mention only : Leo Silberman : *Analysis of Society*. London 1951; Bart Landheer : *Mind and Society*. The Hague 1952. The items concerning general problems in the leading journals as *The American Journal of Sociology* and *The American Sociological Review* are extremely scarce. On the contrary the *Kölner Zeitschrift für Soziologie* has almost in every issue an item about basic problems. New American textbooks of sociology have almost nothing about epistemology of sociology, or accept the current opinion without trying to criticize or penetrate to the kernel of the problem. See : W.F. Ogburn -- M.F. Nimkoff : *Sociology*, Boston 1940; Kingsley Davis : *Human Society*, New York 1949; R.T. Lapiere : *Sociology*, New York 1946; A.W. Green: *Sociology*, New York 1952; J.B. Gittler : *Social Dynamics*, New York 1952; F.E. Merill --H. W. Eldredge : *Culture and Society*. New York 1952; J.F. Cuber : *Sociology*, New York 1951 : Freedman -- Hawley -- Landecker -- Miner : *Principles of Sociology*. New York 1952. All of them go almost directly "in medias res". Much more concerned with general problems is P. A. Sorokin : *Society, Culture and Personality*, New York 1947; and L. A. White : *The Science of Culture*, New York 1949. The few French textbooks recently published are much more concerned with history and basic problems: see: A. Cuvillier : *Manuel de Sociologie*, Paris 1950; G. Bouthoul : *Traité de Sociologie*. Paris 1949.

In my conception I started from the classical works of Emil Durkheim, Vilfredo Pareto, Max Weber and Pitirim Sorokin. As for as the general scientific noetics is concerned I followed H. Poincare, K. Pearson, E. Mach, A.A. Tschuproff and G. Udny Yule. See also: Leslie A. White : *The Science of Culture*, 1949; F.S. Chapin *Experimental Desings in Sociological Research*; New York 1947; L.J. Carr: *Situational Analysis*, New York 1948; O.L. Lacey : *Statistical Methods in Experimentation*, New York 1953; M.J. Hagood — D.O. Price : *Statistics for Sociologists*, New York 1952; Jean Piaget : *L'Épistémologie Génétique*, Paris 1950, esp. vol. I. pp. 1--51, and vol. III; O. Machotka: Is Sociology a Natural Science ?, *The American Journal of Sociology*, vol. LV, No.1, pp. 10—17. E. Greenwood : *Experimental Sociology*, New York 1944; P. Sorokin : *Sociocultural Causality, Space, Time*, Durham 1943; R.M.McIver : *Social Causation*, Boston 1942.

The ideas advanced here were first printed in my book : *Sociologie I*, Prague 1947 (in Czech).

the normative theory has however a *special normative point of view* which deducts from few basic principles the whole legpal order. It is a certain kind of technical study of the law requiring autonomy of its field of research. A similar point of view may be found in the teleological school in economics investigating economic phenomena exclusively from the point of view of its economic aim and purpose. Other examples may be the efforts of Van der Leeuw and M. Eliade in the so called phenomenology of religion, efforts for the construction of abstract and independent aesthetics, so called pure demography considering the population movements as a primarily mathematical problem, etc.

Many of these special points of view are justified from the practical stand-point and they can be very useful for a special branch of knowledge, especially as a pragmatic, normative approach. Their main justification is their *usefulness* from some practical point of view.

In the field of many of the special social sciences we see a slant towards practical application. This may be regarded as a further characteristic of the special social sciences even in case that their own theory is purely "theoretical" e. g. strictly deductive.

In my effort to classify social sciences I limited myself of course to theoretical sciences investigating reality, and was not concerned with practical sciences giving advice how something has to be done in the form of social technology or therapy. To any theoretical science a practical science — a technology may be constructed, if necessary. But even so no science, neither theoretical nor practical, will ever answer objectively why something should be done. It is up to religion, morals or philosophical ethics to give the answer.

"per se". Sociology finally stresses more the transitory and gradual character of social facts as states of mind, behaviour and products of individuals. It takes more into account the *collective* character of social phenomena that must not be always a part of culture (social strata, suicide, crimes. etc.) but only collective behaviour of people.

There are in the special social sciences many fields of investigation (so in economics, political science, jurisprudence, comparative religion etc.) where the mutual interdependence of social phenomena is fully taken into account. It means the adoption of the total point of view; in spite of being labelled as economics, political science, etc. these research may be considered as sociological. This was of course fully recognized only exceptionally.

The second group of social sciences has in general an other point of view: the *particular or special one.* They may be characterized by the following traits: they do not take the mutual interdependence of social phenomena into account, having a point of view which a) separates a certain part of social life be isolating abstraction b) deals with this part "as if" it would exist independently from other social phenomena, c) uses sometimes special presuppositions necessary for their "laws" (e.g. "homo oeconomicus", the theological and normative point of view, phenomenology, etc.) from which at least a part of their "laws" are deducted, d) by this way advances abstract laws pretending to have general validity without regard to the space-time conditioning of social phenomena. Moreover the particular or special social sciences concentrate their attention, as previously analysed, on striking, practically important and strongly institutionalized social phenomena.

Historically some of the social sciences corresponding to the previous characteristics really believed that their subject matter is well limited and that it might be harmlessly isolated from the organic unity of social life. So was it especially in some economic schools e.g. in the classical, psychological and mathematical. Nowadays, after the discoveries of sociology, social psychology and cultural anthropology, there is an opinion in some of the special social sciences which recognises the total (sociological) point of view as one of the possible approaches to the phenomena they study. That is why some of them make artificial constructions in the form of a special "method" or point of view which justifies their isolating abstraction.

As example may serve some schools in jurisprudence, especially the normative school of Hans Kelsen. The analytical school of John Austin is similar. Kelsen recognizes that sociology of law with its causal point of view is a legitimate approach to legal phenomena;

The same may be said about ethnography, describing and explaining special folkways and mores of different nations and tribes. Because of its explanatory character it is very often called ethnology, F. Tönnies and his school, represented especially by R. Heberle, tried to establish even a special "Sociography" describing and explaining special facts in a certain modern society.

There are of course efforts in history, as represented by A. Toynbee, and F.J. Teggart, which try to conceive historical events in generalizing tendencies as the dynamics of whole cultures. They entered the realm of generalizing science and their theories may be called sociology or social philosophy as well as history. A name given by a particular writer to his investigations does not mean necessarily that they belong really to the science he wants them to belong to. The historical school in economics and many other branches of "historism" believed to belong to economics, jurisprudence or political science (Staatswissenschaft) but as a matter of fact most of their investigations were individualizing science which may be labelled rather history of law, economy, art, state institutions etc.

Ad II.) The second classification divides social sciences in those, having either the *total point* of view or the *special* or *particular point of view*. The total point of view means that the starting point of all investigations of the science concerned is the organic unity of social life, the mutual, functional interdependence of social phenomena or in other words of the "parts" of culture. As total social sciences may be pointed out sociology, cultural or social anthropology and social psychology. They are sister-sciences with different historical origins but nowadays recognized as converging in the "science of the social man". All of them are certainly generalizing, seeking not for fact-finding only but for discovering tendencies, laws and regularities. They cannot be at present classified according to their difference in methods or their concentration on a special kind of societies (preliterate e. g.). The difference may be searched for rather in the emphasis and the approach than in any other fact of their divergent historical development.

Social psychology investigates man under the influence of social stimuli, the growth of human personality as a product of inborn and acquired (by the way of social contacts) elements. Social psychology therefore focuses its attention to the *micrrocosmos if the individual* as affected by other individuals or products.

Social anthropology emphasizes the culture of a group; as such it primarily investigates learned and transmitted behaviour and products as a *unity and entity:* culture might be stated from that point of view as independent from its individual manifestations, as a fact

and special, as sociology, social anthropology, social psychology, economics, political science, demography etc. The second group comprises all historical sciences, i.e, political, economic, social, artistic history, ethnography and sociography.

In the first group there is of course fact—finding and classification too but the main emphasis is not on individual data, placed in specific time and place, but on regularities, tendencies ("laws") displayed by the discovered data if classified, compared and correlated properly. An unique event is only a material for the generalizing science: only by observing a multitude of individual cases in different places, epochs and cultures a generalizing science may arrive to the discovery of a tendency or regularity of a greater or smaller universality.

At this point it has to be emphasized again that this tendency, regularity or "law" is likely to be only probable and that it cannot be compared in its validity with the so called abstract law-seeking, natural sciences as physics or chemistry. Furthermore it is nowadays difficult to say if any, really valid universal "laws" do exist which are applicable to all "mankind" i.e. to all nations, tribes and cultures, whenever and wherever they might be found. It seems that most of the discovered tendencies and regularities have a limited validity in space and time. This statement does not change anything in the nomologic, law seeking character of these sciences. A "law", if it really seeks for veracity, has to correspond to the nature of facts it tries to make the truthful cognition of.

All social sciences of the generalizing character find out facts in order to abstract from each concrete phenomenon elements that can be fitted into a recurrent patern. The *focusing of interest* on generalisation is the point of view which characterises them.

In the second group there are all individualizing sciences focusing their attention on individual cases of social phenomena. By any means this point of view does not imply that this kind of sciences is only descriptive and not searching for explanation. History of all kinds investigates causality as well as generalizing sciences but only in individual cases, i. e. in cases unique in a specific time and place. The description and explanation of a special case might of course happen from the point of view of the interdependence of social [illegible] categories of [illegible] Modern historical sciences [illegible] stressing the mutual [illegible] social phenomena even in individual cases. A history [illegible] the past, presented as a sequence of deeds and achievements of individuals only, seems to vanish from modern historical investigations.

There is no unity in solving the problem of the relations of sociology to other social sciences. It depends *from our conception* of sociology and of the social phenomena how this particular problem may be solved.

If we therefore propose a solution of the relations of social sciences it is only tentatively and as an effort to introduce a heuristic principle which seems to be more appropriate than others. There is no doubt about the fact that it will be always and by any means very difficult to decide about a particular investigation to what science it belongs.

From our previous considerations we may infer with certainty that social sciences cannot be classified according to their subject matter. They must be classified according to their *point of view*. It is possible to investigate the same subject matter from different points of view which are equally justified from the pragmatic point.

At the same time we have to emphasize that any statement about social sciences does not mean that everything done under the label of such a science in the past and especially now is necessarily done from the point of view we advocate. There are many research in economics, law, population, religion, art and literature, etc. which are done from the point of view of the interdependence of social phenomena, i.e. from the point of view of sociology. They are, however, covered under the label of a special social science. That is why our classification is necessarily a simplification which has the only purpose to clarify points of view and to point out the basic differences.

I propose two independent principles of classification of social sciences. Both of them are based on the point of view, the science generally adopts:

I.) According to the point of view if the science seeks for the discovery and causality in individual cases — *individualising* sciences, or if the science seeks for laws or regularities in a certain field of phenomena *generalizing* (nomothetic) sciences.

II.) According to the *total* or *special* point of view:
if the science recognised basicaly the unity of social life and interdependence of social phenomena, using the so called total point of view, or if the science isolates a part of social life as if existing independently—special point of view.

Ad I.) The first division deals especially with the question if the social science concerned seeks for general laws and regularities or if it concentrates its attention to the description and explanation of individual cases. The first group contains almost all social sciences, total

3) The *co-ordination of sociology with other social sciences* : sociology is an independent social science equivalent to other social sciences. While other social science as economics, ethnography, comparative religion, jurisprudence studied the content of social life, sociology has to become a certain kind of "geometry" of social relations, caring not for the content but for the form of social phenomena. Sociology has therefore its own point of view and approach to facts already studied by other social sciences. This point of view was advocated by the so called German formal school of sociology represented by names as G. Simmel, F. Tönnies, L. von Wise, A. Vierkandt and many others. Even Max Weber had certain affiliation to this scientific trend. The coordination of sociology with other social sciences was a result of German criticism of the so called " Encyclopedic " sociology in the Western World and furthermore of the effort to insert this new science amongst the well established traditional sciences of history, economics, law, etc.

4) Sociology as a *mere method* : sociology is primarily a new approach to social phenomena, an approach not existent in the special social sciences. It is the point of view of totality, of the whole society. This method has to be a new creative outlook, a new way of investigating social life. It has to be present everywhere, where social facts are subjected to scientific investigation. The point of view of E. Durkheim and G. Simmel may be partly classified also under this heading beside of L.T. Hobhouse and many others.

5) Sociology *as a science about the interrelations of fields of special social sciences*: economics investigates economic phenomena, science of religion religious phenomena ; political science political phenomena; but there is no science investigating the relation of econmic phenomena to the religion and vice versa or of politics to population and vice versa. If a social science investigates only its limited field of phenomena of a certain kind it is a special social science. If somebody investigates the relations of the phenomena investigated by special social sciences to each other, he does sociological work. (e.g. P. Sorokin, M. Ginsberg.)

6) Sociology as a *science about remainders* : nevertheless social sciences divided already the field of social life in different sections there are some social facts investigated by no special social science. They remain uninvestigated e.g. family, morals, leisure time, ideologies, traditions, social classes, etc. No social science takes care of them. It is therefore the task of sociology to investigate them as economics investigates economic life and jurisprudence law. P. Sorokin and others may be representatives of this attitude which appears sometimes connected with the attitude given under number 5).

That is why it is impossible to classify social sciences in the way that some of them as sociology and social anthropology are investigating the whole of social life, some other social sciences, however, e.g. economics, political science, jurisprudence, science of religion, linguistics, etc. only a part, a sector of society.

Any attempt to classify social sciences must meet with serious difficulties because, as already emphasized, it is an effort to bring order into the complex and bewildering reality of social sciences in their present and past state. As a matter of fact there is no mutual exclusiveness in the field of social sciences; on the contrary there is overlapping, with some problems spilled over the domains of two or more sciences. Moreover any existing social science has a history in which changes occured in its content and ideas. Finally in different countries were used different conceptions of the same science, and sometimes the same field of research was labelled by different names. This might be well demonstrated by the different formulations of the relations of sociology to other social sciences:

1) *Sociology was placed above all other social sciences* as an abstract science, while the other social sciences were concrete (e.g. A. Comte). Others conceived sociology as a general science about social phenomena while other social sciences were special (e.g. R. Freedman, A. Hawley, W. Landecker, H. Miner). Sometimes sociology was labelled even as a "philosophy of social sciences", a certain kind of synthesis having to summarise the results of special social sciences and thus to form a general look at human society (e.g. H. Spencer, L. Stein, P. Barth, G. Tarde, R. Worms, A. Small). According to L.F. Ward, this new product — sociology, obtained from the data of special social sciences, is a creative synthesis similar to a new chemical compound. Others took sociology for a basic and elemantary science about society from which other social sciences have to start as from a common basis (e.g. H.F. Giddings, Ch.A. Ellwood, E. A. Ross). This conception of sociology may be stated as being now generally abandoned, except for the point of view taking sociology as the only general science about social phenomena (existing still in USA).

2) The *inclusion of the field of social sciences into sociology*: social sciences have to accept the sociological method and to form a part of sociology as economic sociology, religious sociology, sociology of law, etc. Social sciences proceeding until then independently will form in future a part of one body ("Corpus des sciences sociales"). It was E. Durkheim who forwarded this very original, and from the point of view of scientific work, fruitful conception.

work. It is as any methodological principle *normative*. That is why it is in a certain way subjective, proposed by a scholar, trying to advance an — according to him — better division of scientific work and more efficient tools of investigation. Never a classification of sciences was generally accepted. Neither it can be definite because it is always only a momentaneous effort to bring order into the jungle of researches about the social man. It cannot contradict the present state of scientific knowledge and deny the existence of some sciences, i. e. it must be based on reality. But doing so it is limited in value because the speedy changes of scientific knowledge will put it out of date sooner or later.

It is not only vain but directly ridiculous to say about a science that it has no reason or right to exist only because it does not correspond to a preconceived scheme of sciences or to some personal aspirations. A social science once established is a *social fact* which cannot be denied existence.

It is certainly true that social sciences did not originate according to a well designed plan of logic; on the contrary they grew and changed jungle-like in the history of social thought. From the point of view of sociology of knowledge we may only demonstrate this fact its reasons and tendencies. We cannot order the sciences to stop to exist or to adopt another form of existence.

Because of the limited space I had to confine myself to the second, i.e. *normative* point of view, proposing a classification of social sciences of my own. I left the analysis of the origin and tendencies of social sciences to another article.

* * *

Social reality is the subject matter of *all* social sciences without distinction. The first basic proposition is therefore that we *cannot* classify and distinguish social sciences according to the subject matter because this subject matter is the *same* for all of them.

Because of the organic unity of the social life and the close mutual, functional interdependence of all kinds of social phenomena it is impossible to cut this unity in isolated independently existing parts which could be investigated separately without regard to other aspects of the culture or the basic "consensus" of social phenomena. We have to assert that any social science investigating social life from the positive point of view, i.e. from the point of view of fact-finding and discovering really existent regularities, as they actually exist or existed, must take into account the basic unity of social life.

deduction makes no basic difference. b) The methods which we can call summarily as methodological technics. It is e. g. the statistical method. the historical method, the ethnological method, different kinds of the so called case study, social survey, interviews, etc. Also here we cannot find a principle of classification because the very refined statistical method is used by natural as well as many social sciences. The historical method is applied by some social sciences: the same may be said about other means of fact-finding and fact-gathering. Nobody would make the ridiculous attempt to classify natural sciences by the fact if they use a microscop or a telescop.

c) As a method is sometimes understood the point of view on, or the approach towards, the reality in question. The samo subject matter may be investigated by some sciences but from different points of view. This point of view which is always particular for a science makes, as I belive, the only possible mean of classification.

There is, however, also an other factor which has to be taken in consideration. It is the "historical" background of a science, its existence as a social phenomenon. That is why two approaches to a better understanding of the differnt functions of social sciences are possible. One may help the other but they are basicaly different in character:

1) The *positive approach* dealing only with matters of fact i. e. a descriptive and explanatory one. This approach deals with the social sciences as with a part of culture; a science is certainly a social phenomenon and it is possible to investigate it as such. Any science, and social science even more, is a product of a certain social millieu, of a definite cultural environment. *Sociology of knowledge* is a science which tries to describe and explain the origin, development and the interrelation of the different social sciences.

An effort to understand the present state of social thought and its different branches from its origin, development, basic ideas and interrelation with other social phenomena, has to be naturally strictly objective and empirical as any other sociological investigation. It may be corrected only from the point of view of the validity of facts brought forward and the validity of the inference resulting from them. No personal ideas, no recommendation and no classificatory principles can be forwarded.

2) Such a very useful sociological analysis of the mutual position of social sciences is not likely to bring us nearer to the problem of how to classify them in fact. A classification of sciences is certainly a part of general methodology, i.e. it is an effort to grasp the multifold reality and to bring an order into it. It is a norm imposed upon reality for better understanding and more efficient scientific

that there is no time yet in social sciences for general, all-embracing, abstract laws. It is even questionable if such laws are appropriate at all. We have first of all to keep in mind that the reality investigated by social sciences is much more complicated that any other reality, and that this complexity cannot be properly eliminated by experimentation as in natural sciences. Furthermore the social reality is not only very complicated but steadily and speedily changing.

The cognition about this special nature of the investigated reality has to prevent social sciences from hazardous attempts originating in the effort to be equal to the natural sciences. The cognition of the special nature of social phenomena has to result in limitation, modesty and restrain. The knowledge about the possibilities of a science is the presupposition of success. The greatest contribution of any methodology is to teach first what can be and what cannot be done.

There are three main principles in the classification of sciences: a) the subject matter, b) the method, c) the point of view. It seems to be certain from my previous considerations that there is no possibility of distinguishing social sciences according to the subject matter they deal with. I shall demonstrate later on that a different subject matter may distinguish one social science from an other only in connection with a special point of view and approach adopted by this social science. Basicaly, however, social life or culture is a *unity* which cannot be torn in parts forming independent units. Already A. Comte contended that there is a deep "consensus" of social phenomena, we call mutual functional interdependence. Some social sciences dealt of course with a certain aspect of social life "as if" it were independent. Later I shall discuss this possibility. From the unity of social life, I advanced as one of the basic methodological principles, follows therefore necessarily that we cannot admit a division and classification of social sciences according to the subject matter. The development of knowledge in almost all social sciences certainly corroborates my idea and there is now a majority of scholars even in the so called special social sciences, who do not deny that their subject matter is closely interconnected with the whole life of a society.

There are many scholars believing that the method may be a principle of classification of sciences. It all depends on what we are ready to understand under the term "method". The main meanings of the word "method" are as follows: a) the methods of logic e. g. induction, deduction, etc. describing the right way of scientific procedure in general. There is no scientist in the world from the astronomer till the historian of literature who has not to use them and to master them properly. The different methods of applied logic cannot therefore possibly be a principle of classification of sciences, even in case that one science uses more induction and the other more

and psychology are not valid. They are valid but they embrace a much broader reality than the social and they are not sufficient to explain social phenomena properly. The failures of mechanistic, organismic, geographical, psychological etc. schools in the past corroborate that statement.

2) Social phenomena present themselves to our observation as *collective*, i.e. they are not entities, bodies and closed organisms. The facts we are interested in are just the *similarities* and *common traits* in human states of mind, and behaviour and products *as such*. Moreover we are interested in the regularities of the co-existence of these common traits and their changes in their correlations and associations.

This means of course that we must assume the social phenomena as transitory and gradual in space, time and social strata and that we must avoid any hypostasis and substantialisation of them. Any conception of social groups as closed bodies or organisms must be a failure being not adequate to the collective nature of social phenomena.

3) Social phenomena are *mutually i.e. functionally interdependent.* There is no isolated and separated realm in social life. Law, economics, art and religion are only parts of a whole which may be quoted as culture. That is one of the reasons why we must advocate pluralistic explanation in social science: there is no one reason, but many reasons causing a social phenomenon. The acting social individual who is by any means the bearer of social phenomena is a product of a whole culture. At the same time the interdependence of all kinds of social phenomena, e.g. religious and economic, political and scientific, etc. is nowadays sufficiently proved.

4) Social phenomena are *steadily changing* and they are changing in a greater speed than any other kind of phenomena. In the last 20,000 years man almost did not change biologically. But the change of culture was tremendous in the same period. Social sciences are facing the problem that their subject matter is always changing, and they have to take this fact into account if they want to grasp and explain social phenomena adequately.

The above stated four principles are *methodological presuppositions* but they are, at the same time, well founded in the discoveries and researches made by the social sciences until now. If we consider the last 100 years of the history of social sciences we may see that by trial — and — error — method many inadequate ways of approach were eliminated. The principles, I proposed, are generally adopted even if not consciously and systematically.

An other conclusion resulting from the adoption of the above mentioned methodological principles is that social science has to be rather cautious in forwarding general theories. I firmly do believe

I am afraid that the investigation of the very nature of social phenomena, so as the investigation of the very nature of any phenomena, belongs to metaphysics. In case of social phenomena it may be the task of social philosophy.

The fact that we do not know and perhaps shall never grasp the very nature of social phenomena does not, however, hinder the development of sociology and social sciences at all: The inquiry into social phenomena exists, has developed and has brought fruitful results. In order to investigate a certain kind of phenomena it is *not necessary to know the substance and the real nature of them.* Physics exists as a highly developed science without knowing the essence of matter and energy; biology made great progress without knowing the real substance of life, and psychology exists without knowing the substance of mental processes and of the mind. So sociology and other social sciences can exist and work without knowing the real substance of the social phenomena.

We have, however, to assume the existence of social phenomena in order to grasp and explain them adequately. This assumption of existence has to be justified by its results; the progress of sociology in the last, say fifty years, is a justification of this principle. This assumption is therefore to be regarded as a methodological and heuristic principle that is valid only in so far and as long as it helps us to investigate social phenomena better than we should be able to do otherwise.

The proposed description of social phenomena is then as follows: human states of mind, behaviour and creations investigated from the point of view of their common traits and regularities as far as they originated in the life of people in common. I believe that there is no social science whatsover investigating something else.

From this delimitation of social phenomena some basic principles follow which at the same time describe the special nature of the assumed social reality. Again they have to be regarded only as heuristic principles, valid in so far they helped us in better cognition and explanation of social phenomena. These four basic principles of general methodology are as follows:

1) The main *cause of social phenomena are other social phenomena.* That is why it is impossible to explain social facts by other catagories of phenomena (e.g. physical, geographical, biological, inborn psychological) adequately. They have to be explained mainly and primarily by the phenomena of the same nature i. e. social phenomena. This statement does not mean that in the realm of the " social " the laws of physics, chemistry, biology and the regularities of geography

without paying special attention to the problem if this field of inquiry is sufficiently justified from the point of view of noetics and general methodology. In general, Continental Europe adopted rather the first attitude, the Anglosaxon world the second approach. Especially Germans were, until the advent of the Nazi regime, busy in devoting the majority of their scientific efforts to general questions of social science neglecting sometimes the application of these principles to real investigation.

It is certainly necessary to find a balance between the epistemological and general methodological cognition on the one hand and the practical research on the other hand. Furthermore it seems to be a general regularity that after a period of practical work and detailed research any science has to turn back to its general principles: when improved methodological technics discovered new facts and regularities, any science has to reexamine its basic principles and has to try a new general synthesis.

An improved general theory is however not all what is badly needed from time to time. There is a need for a reexamination and a restatement of the epistemological and basic methodological principles as well. From this point of view a reexamination of the classification of sciences imposes itself.

I firmly do believe that the cognition about the basic principles of a science has to follow closely the development of material knowledge in the science concerned.

There are many sciences investigating the "social man", "social phenomena" and "culture". The subject matter of all these sciences is basicaly the same.

The first question which then arises is as follows : is there a special reality which forms the subject matter of all the social sciences, and is this reality distinct from other realities: the physical, chemical, biological and psychological ? This question has to be answered decidedly in a *positive* way.

This assertion is however not a metaphysical one neither does it pretend to know the real nature of a part of the universe surrounding us. It is only and exclusively of a *heuristic* and *methodological character* assuming nothing about the real intrinsic essence of the social phenomena. The social reality has to be presupposed as a way to the adequate cognition of a certain kind of phenomena which could not be properly known and explained without assuming it. Social reality is therefore to be regarded as a heuristic presupposition. The history of social sciences, especially in the last one hundred years, seems to prove sufficiently that this assumption is justified.

THE INTERRELATION OF SOCIOLOGY AND SOCIAL SCIENCES

BY

Dr. ZDĚNEK K. ULLRICH

It may seem nowadays rather an obsolete effort to try a new delimitation of social sciences and to classify them. Contrariwise to prewar European sociology the recent American sociology does not care too much for epistemological questions and general methodology. Specialized and detailed research about limited questions and introductory textbooks seem to be the main preoccupation of the country which may be regarded as leading in the field of sociological knowledge at present.

The problem of the classification of social sciences and the determination of their relation is an old one. About one hundred years scientists, especially sociologists and philosophers, are trying to put a system into a bewildering diversity of social sciences which by the increasing specialization and the discovery of new fields of inquiry is steadily growing more difficult to master.

It is a natural development of any general and theoretical science that it proceeds from all-embracing theories and vague epistemological considerations to specialized research in a limited field of investigation. Neither does sociology and other social sciences escape this general regularity. At the beginnig of sociology in the XIX. century and until the twenties of this century a great attention was paid to the problem of the subject matter of sociology and to the delimitation of sociology to other sciences. The reason for this was the effort to justify the new science inserting itself amongst the older natural and social sciences; an other reason was the uncertainty of many sociologists who wanted to solve the problem for themselves. Moreover in the modern world where science is institutionalized, it seems necessary to justify the appearance and existence of a new science towards the existing system of knowledge.

Beside this evolutionary aspect it seems that some countries were especially preoccupied with the solution of basic methodological and epistemological questions. Other countries did not pay so much attention to these foundaments of knowledge and devoted themselves rather to immediate investigations about the phenomena in question

REFERENCES

1. Bouillet, M.-N. (éd.). *Dictionnaire Universel des Sciences, des Lettres et des Arts*, quatrième édition. Paris: Librairie de L. Hachette et Cie, 1859.

2. Evans-Pritchard, E.E., *The Nuer: A Description of the Modes of Livelihood and Political Institutions of a Nilotic People.* Oxford: At the Clarendon Press, 1940.

3. Frazier, E. F., *The Negro in the United States.* New York: The Macmillan Company, 1949

4. Hadfield, Geoffrey, and Garrod, Lawrence P., *Recent Advances in pathology*, fifth ed, London: J. and A. Churchill, Ltd., 1947.

5. Kroeber, A. L., *Anthropology*, new ed. London: George G. Harrap & Co. Ltd., 1948.

6. Lester, P., et Millot, J., *Les Races Humaines*, 2e éd. Paris: Librairie Armand Colin, 1939.

7. Lowie, Robert, *Manuel d'Anthropologie Culturelle* (Traduction par E. Métraux). Paris: Payot. 1936.

8. *Reports of the Cambridge Anthropological Expedition to Torres Straits.* 6 vols. London: C.U.P., 1901 - 1935.

9. Rose, Arnold. *The Negro in America.* London: Secker and Warburg, 1948.

according to the social scale: the higher rate occurring in the lower classes[1]. The same phenomenon has been observed in the date of mortality statistics in Bavaria[2].

V

If in the end we admit that similarity in the reaction against disease as expressed in its treatment is indicative of similarity in the disease itself, we may be able to prove by circumstantial evidence the susceptibility of the various groups of mankind to all diseases. In this respect Professor Robert Lowie of the University of California tells us that the curative values of native pharmacopoeia are imperfectly known to us[3]. But he does not hesitate to admit that *all* the medicines we actually use have come from substances which were put to empirical use long ago in the the beginning[4]. The plants and roots now used by the Queenslanders and Melanesians are partly the same as those utilized in the Indies inhabited as they are by people balonging to a much higher civilization[5]. Again, the Australians use leaves, bark and resin of different varieties of eucalyptus from which we equally derive most of our remedies[6]. Last but not least, it is absolutely certain that our local anaesthetics come from the coca leaves of the Peruvians. As is well known our cocaine is extracted from these leaves[7].

1. *Op. cit.*, p. 61.

2. *Op. cit.*. From the numerous occupational diseases one might refer to eczema through turpentine on hand of painter, eczema through alcohol on hand of furniture-polisher, actinomycosis on chin and neck of miller, and bursitis praepatellaris on knee of maid-servant.

3. Robert Lowie, *Manuel d'Anthropologie Culturelle*, tr. par E. Métraux, Paris 1936, pp. 362–363.

4. *Op. cit.*, p. 363.

5. *Ibid.*

6. *Ibid.*

7. *Ibid.*

demoralization tend to give rise to typhus in the from of an epidemic disease[1] As far the element of demoralization is concerned it will it is accompanied with misery, hunger, excessive fatigue and not be without sense that human typhus is sometimes called in the vernacular "pestilential fever", "camps fever", "hospitals fever" and "prisons fever".[2]

The discussion hitherto carried on is an attempt to clarify, and whenever necessary, rectify, Lester and Millot's thesis of the comparative pathology of human races. As it seems to me, the main obstacle in the way of a theory for the racial interpretation of disease is this. The racial criteria as have been arrived at by physical anthropologists are no more than physical attributes such as hair-form, pigmentation, lip-form, stature, and so forth. We know practically nothing of the physiological differences which, if discovered and correlated with temperamental and pathological differences, would help the science of racial pathology emerge on a solid foundation of fact.

IV

We think we are in a position to state with some degree of certainty that variations in susceptibility or intensity of disease would be explicable only by concomitant variations in environment, a term which we use to include way of life, occupation and social class. We have implicitly referred to the way of life and its significance. It remains to give an example of the part played by occupation and social class in the determination of the causes of disease. The following example of cancer in its relation to occupation and class is of particular importance.

On examining industrial cancer Hadfield and Garrod[3] observe that "apart from coal-tar itself which . . . causes epithelioma in gaswork's employees, the principal agents concerned are lubricating oil (causing mule-spinner's cancer), soot (chimney-sweep's cancer), shale oil (epithelioma in workers in oil distilleries), and -naphthylamine (epithelioma of the bladder in dye-works employees)."

Again W. Cramer invented in 1936 the term "social cancer", which he related to the social status of the victim[4]. The cancer mortality statistics in England and Wales show the frequency of the diseases in the five social classes defined and the varying mortality

6. *Ibid.*
1. *Ibid.*
2. *Recent Advances in Pathology*, p. 59.
3. *Op. cit.*, pp. 61 and 358.

tuberculin-negative. It is very generally believed that the allergic response by which they react to fresh infection localises and shuts off this infection"[1].

Research on cancer (item 5) is confined to immunity to transplanted tumours, which makes less important the application of its results to spontaneous cancer[2]. But human tumours seem to be identical; they can be propagated in human beings (not in any one human race), but not transferred to animals[3]. On the other hand such animal tumours, as the evidence at present shows, grow only in such "intimately related species as dog and fox, and rabbit and hare; perhaps the widest gap which has been bridged has been fowl to duck."[4]. It is obvious that the gap between dog and fox or between fowl and duck is wider than that between two human beings belonging to two human races. One has to determine some common factor and take it as a stimulus to spontaneous cancer. In the case of the animals cited one could say, by way of mere hypothesis, that the stimulus might be a matter of similarity in activities and ways of life. Spontaneous cancer should of course be distinguished from cancer resulting from the development of some chronic diseases. Cancer of the urinary bladder is quite common among Egyptian peasants; it almost invariably follows on chronic bilharzial cystitis. The bilharzia ova lying for years in the mucous membrane of urinary bladder produce certain changes in it as a result of chronic irritation. These changes, called "leucoplakia" are definitely precancerous as I was told by competent specialists. It may be possible to explain in the same way the epithelioma of the lips of the Chinese (item 5) or the cancer of the penis among the people of Tonkin[5].

The fact that human typhus (item 6) spreads in thickly populated areas is significant. The authors of *Les Races Humaines* have specified Europe, North Africa, Western and Central Asia, and China as the original home of the disease. From there it crept through emigration to other parts of the world, specially America. It seems difficult to accept this argument as favouring racial pathology, for it is not a question of race which is here involved. The density of population together with squalor are the only causes of spontaneous human typhus known to the writer[6]. Overcrowding, in itself, where

1. Geoffrey Hadfield and Lawrence P. Garrod. *Recent Advances in Pathology*, fifth ed. ,London, 1947, p. 20.

2. *Op. cit.*, p. 79

3. *Cf. Ibid.*

4. *Ibid.*

5. *Cf.* P. Lester and J. Millot, *Op. cit.*, p. 174.

6. *Vide* M.-N. Bouillet (ed.), *Dictionnaire Universel des Sciences, des Lettres et des Arts*, Paris. 1859, quatrième édition, deuxième partie. p. 1684, under "Typhus".

sufficient evidence to support their theory, if it is not actually against it. First, it is applied to two races and thus cannot be taken as a justification for wider generalizations on human races as a whole. Second, and this, I believe, is the crux of the matter, the diseases occurring in the different organs of the two races examined are *common* to both of them, though in varying degrees. What is common is so because in their very nature the two races are representatives of one larger race, mankind. The argument would have been admissible had the research proved that one or other of the two raeces in question has never been affected by one or more diseases which the other regularly had. The difference in degree of affection should be the object of further research. The diseases seriously affecting the respiratory system in the black race may have a sociological explanation. The backward races usually sleep in groups in one enclosed section of their dwellings, and such diseases are more liable than any others to spread through infected air [1]. The practice of confining a patient is strange to them so long as a patient is able to move and his routine daily work is not affected, no one among his people will take any notice of his bronchitis, whoooping-cough, or tuberculosis. It is generally the reverse among the whites.

As for the delayed recovery of Negro patients who receive the same care as the Whites (item 4,) more details with regard to hospital administration seem to be needed in order to admit this argument. It is not unusual to see our illiterate peasants conveying prohibited food secretly to their patients in hospitals. Such unnoticed behaviour, if not risking the life of some of the patients would make differences in the duration of recovery.

For the severity of the attack of tuberculosis on the Negroes and their slow recovery the science of pathology appears to have found a reason. Europeans as well as civilized people in general acquire from childhood a sort of immunity (which is sometimes disputable) to tuberculosis as a large number of them get slightly affected by the disease and recover of themselves without suffering any serious consequences and thus become tuberculin-positive [2]. Now, "it is a generally accepted fact, attested by much clinical evidence although sometimes disputed .... that tuberculin-positive individuals are less liable to develop manifest tuberculosis than

1. *Cf.* for example E. F. Frazier, *The Negro in the United States*. New York, 1949, pp. 580–584. Arnold Rose, *The Negro in America* London, 1948, pp. 122–123, and E. E. Evans-Pritchard, *The Nuer: A Description of the Modes of Livelihood and Political Institutions of a Nilotic People*. Oxford, 1940, pp. 16–50.

2. *Cf.* A. L. Kroeber *Anthropology*. London, 1948, pp. 186, 187–190.

by its attacks: the victims being mostly between 12 and 20 years of age, and in the proportion of eleven Negroes to one White. The published documents point to the fact that, when the sick are placed under the same conditions, the Negroes recover with more difficulty than the Whites[1].

5 — Researches on cancer have not as yet uncovered its real cause[2]. But medical science detects causes in local irritation due to certain peculiar habits of life, such as the epithelioma of the hips in the Chinese due to the friction of that part of the body against their hard brick beds [*sic*][3].

6 — Human typhus appears in Europe, North Africa, Central and Western Asia, and China, and has recently penetrated into America along with European immigration. As is well known, this disease is conveyed from one person to another through the agency of lice[4].

III

The matter is evidently controversial. In what follows Lester and Millot's views on the specific pathology of race will be tested on the basis of the foregoing items.

Environmental causes of disease (items 1 and 5) are already against the supporters of the "ethnical" interpretation. The scarlet fever carried by the British outside their country (item 2) may be attributed to the latter's environmental conditions and its presumably permanent effect on their organism. The proper method to reveal its supposed racial significance would be to examine that fever in such foreign settlers in the British Isles as belong to other racial stocks, after allowing them a few generations to get used to the environment. Another way to test the hypothesis is to examine the British settlers in France after generations of them have been accustomed to the new conditions. Anyway, we have to remember, in dealing with this matter, that the British are not a race; in fact they constitute in the British Isles a mixture of no less than fifteen races, mostly from Northern Europe. They include Britons and Gauls and Romans, themselves mixed, Saxons, Angels, Danes, Flemish and French. Can the scarlet fever, therefore, be the lot of all these people?

The Johns Hopkins Hospital Research on mortality in its relation to diseases of the different organs of both Whites and Blacks (Fig. 1) does not as utilized by M. Lester and Professor Millot provide

1. *Ibid.*
2. *Op. cit.*, p. 173.
3. *Op. cit.*, p. 174.
4. *Op. cit.*, 177—8.

observations and hasty generalizations, the opposing arguments of the former seem to call for comment[1]. The following is a summary of the views of those who support such arguments. They are here submitted for careful examination :

1 — There are pathological conditions to be explained undeniably by the way of life such as (a) the higher mortality from diabetes among the white races supposed to be enjoying better food and lacking in exercise [*sic*] than among the black ; the climatic factor being eliminated since all of them have lived for centuries in the same region in the United States, (b) the Europeans living in the Far East, who, because of their hygiene, are less attacked by plague than the Asiatics, (c) European Jews, who are found to be often arthritic on account of their sedentary occupations[2].

2 — There are pathological conditions to be exclusively explained on an ethnical basis, such as those shown by the British people who live outside the British Isles and carry with them wherever they go their special susceptibilities. Cases of scarlet fever among them in France are more acute than they are among the French[3].

3 — More reliable statistics can be obtained from the United States where a wide field of study in ethnic comparison is available, and where particular interest is being devoted by biologists to the scientific study of human races. An outstanding example of such statistics is the following study (Fig. I) from Johns Hopkins Hospital of America[4], which is regarded by the supporters as extremely convincing.

It was noticed from that study that the susceptibility of the black race to all the diseases affecting the respiratory system was enormous[5], and there is a large number of diseases of this nature to be considered : bronchitis, pneumonia, broncho-pneumonia, influenza, whooping-cough, pulmonary complications from measles, and tuberculosis. The United States general statistics from 1920 to 1924 show that the mortality rate due to whooping-cough was double in the case of Negroes[6]. In the American army where white and coloured soldiers are exposed to the same conditions of life, one counted 40 Negroes attacked by pneumonia as against 8 Whites[7].

4 — Tuberculosis, which penetrated Africa and Melanesia as an accompaniment of European colonization[8] lays waste the black races

1. *Cf. Op. cit.* 168.
2. *Op. cit.* pp. 168—9.
3. *Op. cit.*, p. 170.
4. Copied from *Op. cit.*, p. 171. The English is my translation from the French.
5. *Op. cit.*, p. 172.
6. *Ibid.*
7. *Ibid.*
8. *Ibid.*

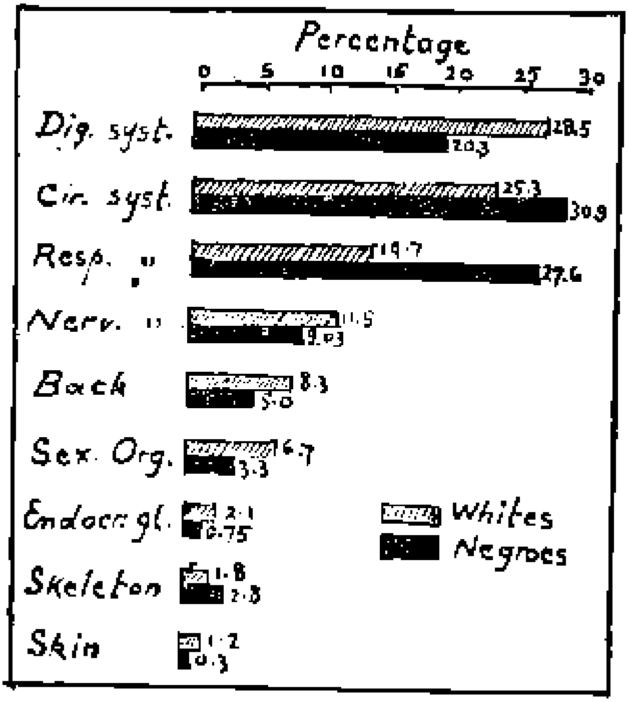

Fig. 1 - Contribution of diseases of the different organs to general mortality. A comparative analysis of Negroes and Whites following the statistics of the Johns Hopkins Hospital (After Pearl - [illegible])

THE SOCIOLOGICAL INTERPRETATION OF DISEASE : AN ESSAY ON THE REFUTATION OF RACIAL PATHOLOGY

BY

Dr. ALY A. ISSA

I

Comparative pathology is, as a science, still in its infancy. It has achieved as yet no definite results.[1] Nevertheless, there is quite a large number of scholars who believe in racial pathology without being able to forward sufficient evidence to prove it[2]. It is worth while considering the whole matter in the light of medical and anthropological research, and we have reason to think that it will lead us to modify our ideas about the ethnic variations of pathology if not to change these ideas altogether.

To begin with, Béraud maintained in 1897 that race had nothing to do with pathology[3]. About that time the members of the Cambridge Anthropological Expedition to Torres Straits (south-east Asia) (1898—9) including medical men (C. G. Seligman, and W. H R. Rivers) who became important anthropological figures afterwards, proved through laborious work that there were no diseases peculiar to the natives whom they had examined[4]. Later, in 1930, Cleland confirmed by experiments made on the Australian aborigines that there were positively no native diseases proper. He added that their reaction to disease showed nothing of a particular nature despite the long isolation of their race[5]. He went on to say that the pathological manifestations did not seem to have been of any great value in distinguishing between the races, for he considered the reaction to disease as primitive and archaic, and as such was the same even in those species and races which were largely separated from each other[6].

II

In view of the mistrust of the French anthropologists, Lester and Millot, in the methods of physicians whom they have described as lacking in critical spirit and throwing into the debate superficial

(1) P. Lester et J. Millot, *Le Races Humaines*, Paris, 1939, p. 178.

(2) *Op. cit.*, p. 168.

(3) *Loc. cit.*

(4) *Cf. Reports of the Cambridge Anthropological Expedition to Torres Straits*, 6 vols., C.U.P., 1901—1935, vol. II, Part II, pp. 220—223, 141—2, 148.

(5) P. Lester et J. Millot, ibid.

(6) Loc. cit.

être cela : cette *gaye science*, ce pantagruélisme, ce rayonnement de la liberté humaine au sein de la bonté ineffable de Dieu, cette confiance de l'humanité en elle-même, sans orgueil (nous péchons, tous et continuellement requérons à Dieu qu'il efface nos péchés, dit Gargantua), mais sans bassesse, joyeuse et résolue. Ce pouvait être ce bel élan de clair matin. Mais les "prédestinateurs" veillaient. Le christianisme allait s'assombrir. Il n'allait être question que de faute originelle, de péché, de corruption, de mépris pour la nature humaine. La religion allait prendre, sauf chez les saints que la joie habite, un visage sévère. La merveilleuse vertu d'espérance, celle que Péguy chantera, allait, hélas, rester blottie et craintive. Grande et majestueuse tristesse du christianisme tout au long du grand siècle ! Le langage de la religion sera, de plus en plus, crainte et tremblement. Changement soudain de climat ! Avancée de la banquise vers les contrées riantes et tempérées, où Rabelais nous avait conduits, vers le pays plein de délices "flairant, serein et gracieux" autant que le pays de Touraine, jardin de la France.

Il est dans le Quart Livre deux chapitres, auxquels je ne me lasse pas de retourner, tant ils sont chargés de poésie, de grâce un peu mystérieuse, et sans doute de sens. Ce sont les chapitre LV et LVI où nous est proposé *le mythe des paroles gelées*. Quels sont ces bruits, ces sons qui traversent l'espace vide ? quels sont ces mots qui ne sont proférés par personne et qui rompent le silence ? Quelles sont ces paroles gelées, qu'on finit par voir, par saisir, par tenir dans le creux de la main, semblables à des grêlons, ou, comme le dit plus joliment Rabelais, à "dragée perlée de diverses couleurs" Est ce la plainte d'Orphée mourant qui se prolonge aux rivages de Thrace ? Est-ce une pluie fécondante d'Idées, d'Exemplaires et portraits de toutes choses passées et futures (d'archétypes), tombant sur les humains comme catarrhes, ou comme la rosée sur la toison de Gédéon ? Est-ce le symbole du temps nécessaire — oui, encore lui, — à l'intelligence des hautes doctrines : "les paroles, en quelque contrée, au temps du fort hiver, lorsqu'elles sont proférées, gèlent et glacent à la froideur de l'air, et ne sont ouïes. Semblablement *ce que Platon enseignait ès jeunes enfants* à peine *être d'iceux entendu lorsque étaient vieux devenus*" ? — C'est cela sans doute. Pour que soient entendues les paroles gelées par un affreux hiver, il faut que revienne la tiédeur du printemps.

ment symbolique et cabalistique. Voici le mot: TRINCH. Bois ! Mais il a besoin d'être commenté. Et aussitôt Bacbuc, la prêtresse, donne aux consultants, et surtout à Pantagruel, homme de foi, de force et de sagesse, une suprême leçon—une leçon qui est à le fois une exégèse de symbolique chtonienne (il y aurait un livre à écrire là dessus), et un radieux programme de recherche, de science et de pensée. "Vos philosophes, dit-elle, qui se complaignent toutes choses être par les anciens décrites, rien ne leur être laissé de nouveau à inventer, ont tort trop évident. Ce que du ciel vous apparait (et appelez phénomènes), ce que la mer et tous autres fleuves contiennent n'est rien comparé à ce qui est en terre caché: "Dieu, à ceux qui s'adonneront à bien y rechercher, leur élargira connaissance et de soi et de ses créatures... Quand donc vos philosophes, Dieu les guidant et accompagnés de quelque claire lanterne (la Raison) s'adonneront à soigneusement rechercher et investiger trouveront vraie être la réponse faite par le sage Talès à Amasis, roi des Egipsiens quand par lui interrogé en quelle chose était le plus de prudence, répondit: "Au temps, car *par temps ont été et par temps seront toutes choses latentes inventées*" Voilà pour des hommes hautement religieux, sous la garde de Dieu "servateur et conservateur", une mission, un but. Rien n'est dit, donc, ou presque rien et l'on ne vient pas trop tard. Dans la Temporalité, désormais acceptée, mieux: embrassée avec amour, la moyen existe pour la créature de réaliser sa part de divinité, par la connaissance. Dans la durée, par la durée, l'homme moderne, sans révolte, sans blasphème, échappe à la mort. La durée est créatrice; elle n'est pas asservissement, mais moyen de libération. "Allez, amis en gaieté d'esprit..." C'est le dernier mot du livre, le dernier mot de Rabelais. Comment ne pas reconnaître dans cette pensée si belle, comme une préfigure des idées qui hanteront un jour Jules Lequier, le philosophe de la liberté, que Jean Grenier nous a si bien fait connaître. Jules Lequier écrit "La succession est la condition de la liberté". "Ce sentiment de l'utilité du temps, cette conviction des résultats possibles, peuvent mener l'esprit bien loin" Et déjà le cardinal de Bérulle, qui se souvient des thèses humanistes de Pic de la Mirandole, l'a dit: "Dieu nous a confiés nous-mêmes à nous-mêmes. Il nous a faits tels que nous serions si en quelque sorte il n'était pas là" Et c'est aussi la croyance de Bossuet (je vous renvoie au 2ème point du sermon sur la mort et au traité de la "Connaissance de Dieu et de soi-même") — "Presque toujours ceux qui croient en l'homme ne croient pas en Dieu, a dit Lequier, et ceux qui croient en Dieu ne croient pas en l'homme": Rabelais croit en Dieu, et croit en l'homme, et pour cela il admet l'éternité et le temps. La tâche consentie à l'humanité par Dieu lui-même c'est: "chemin de connaissance divine et chasse de sapience". L'esprit des temps nouveaux ne pouvait

cultivateur, on dirait volontiers comme Victor Hugo de son semeur:

> On sent à quel point il doit croire
> A la fuite utile des jours...

Il connait les pâturages, l'engrais des bestiaux, le labourage, la taille des arbres, les soins de la vigne. Il sait le temps et l'ordonnance des travaux et nous le dit avec des mots, des précisions imagées de vrai paysan : On sème le chanvre à la venue des hirondelles; On le cueille lorsque les cigales commencent à s'enrouer. Que signifie justement le mythe du *pantagruélion*, c'est à dire du chanvre qui s'étale, si énigmatique, à la fin du Tiers Livre ? — C'est que d'une plante, produit de la terre, c'est à dire de la nature et du travail humain, sort le *Progrès*, et pour commencer celui de la navigation. La navigation depuis 50 ans (nous sommes en 1542) renouvelle la connaissance du monde et met les Nations que la nature semblait tenir "absconses, impermeables et inconnues!" à portée de se connaître et de se comprendre. Qui sait si, un jour, par une autre herbe de semblable énergie les humains ne visiteront pas les sources des grêles, les bondes des pluies et l'officine des foudres, envahissant les territoires de la Lune, s'asseyant à la table des Dieux Olympiques et prenant à femmes les Déesses "qui sont les seuls moyens d'être Déifiés" ? — Hé quoi ? direz-vous, le thème prométhéen, l'escalade du ciel, la divinisation de l'homme, la révolte métaphysique, l'athéisme mystique qui s'étalera si largement dans la poésie moderne et qu'a décrit Michel Carrouges ? — Nullement — Simple raillerie, qui ne concerne que les Dieux et Déesses de l'Olympe, et qui n'atteint point le "bon piteux Dieu" de Grandgousier et de Rabelais, lequel, bien loin d'être jaloux du progrès humain, le permet, le souhaite et le favorise comme il favorise la croissance des végétaux destinés à la nourriture et à l'industrie humaine—*Le progrès doit croire en Dieu*" dira V. Hugo, par la bouche de l'évêque Myriel. C'est justement ce que pense Rabelais. Le "Tiers Livre" s'achève donc sur une pronostication du progrès humain, laquelle, cette fois, n'est pas ironique.

Progrès dont le Temps est la condition. Bridoye, pour apaiser les procès, fait dormir les plaideurs. La terre, dans son sommeil apparent prépare les prochaines récoltes—L'homme, à sa mort, recevra " le doux, le désiré, le dernier embrassement de l'alme et grande mère la Terre" — C'est de la Terre, aussi, que naîtra, pour l'humanité en marche, la suprême leçon. L'asile de la mort est la source de la Vie.

Nous sommes au terme du voyage. Voici l'oracle de la Dive Bouteille. Voici le seuil initiatique, ouvert vers la nuit solide, vers les profondeurs de la terre mystérieuse. Voici le temple mirifique-

qui ne le voulaient laisser mourir en paix, et qui, dit-il, "me evoquaient du doux pensement auquel je acquiescais, contemplant et voyant et jà touchant et goûtant le bien et félicité que le Bon Dieu a préparé à ses fidèles et élus en l'autre vie et état de immortalité" Même tranquille assurance dans la leçon que fait Grandgousier à Lasdaller, le pauvre pélèrin que Gargantua faillit manger en salade. et à ses compagnons "Allez vous en, pauvres gens, au nom de Dieu le créateur, lequel vous soit en guide perpétuelle... Entretenez vos familles, travaillez, chacun en sa vocation, instruisez vos enfants, et vivez comme vous enseigne le bon apôtre Saint Paul. Ce faisant vous aurez la garde de Dieu, des anges et des saints avecques vous, et n'y aura peste ni mal qui vous porte nuisance..." Ecoutons enfin le credo de Pantagruel, dans le si beau et si noble chapitre du IVe livre, ou nos voyageurs visitent l'île des Macréons : "Je crois que toutes âmes intellectives sont exemptes des ciseaux de Atropos. Toutes sont immortelles: anges, démons et humains", Rien à reprendre à ce trait depure orthodoxie.

Voilà donc le problème résolu sur le plan de la destinée personnelle. Mais, comment, encore une fois, se règlent les rapports de l'Humanité avec le temps? Quelle est la mission collective des Hommes?

Si Dieu est toute bonté, le temps n'est, dans sa permanence, dans sa durée, qu'une forme de cette bonté, qu'un bienfait: ce n'est point un instrument de corruption, ce n'est pas non plus une punition: ce n'est qu'une épreuve, un exercice de notre âme, laquelle est d'essence divine.

Il est vrai qu'il y a des siècles moins fortunés. Gargantua écrit de ses années de jeunesse "Le temps était encore ténébreux et sentant l'infélicité et calamité des Goths qui avaient mis à destruction toute bonne littérature" Mais par la bonté divine la lumière et dignité à été de mon âge rendue ès lettres "Ces transmutations continues sont la destinée du monde, jusqu'à ce que le jugement dernier apporte la paix tant désirée, quand Jésus Christ aura rendu à Dieu le père son royaume pacifique hors tout danger et contamination de péché" Et attendant, le temps qui passe, outre qu'il rapproche l'Humanité de la fin du monde, vrair ègne de la paix, le temps "qui ronge et diminue toute chose, qui toute chose matte", fait aussi germer le grain et lever la semence.

François Rabelais est un "rustique", un paysan, un homme de plein vent. les pieds solidemnt posés sur la terre nourricière. Il porte dans sa besace ample provision de sagesse narquoise, de bonne humeur villageoise, et de bons et loyaux proverbes. De lui,

Et avec eux, avec elles, "ceux qui annoncent le Sainct Evangile", en sens "agile", c'est à dire véritable, finement compris ("docta pietas" d'Erasme).

> Entrez, qu'on fonde ici *la foi profonde*
> Puis qu'on confonde, et par voix et par rolle
> Les ennemis de la Sainte Parole.

On se tromperait gravement à ne voir en Thélème que le côté "vie de château" "séjour de vacances" "asile des loisirs". Sans négliger ce que Rabelais doit à l'Italie et tout particulièrement à Baldassare Castiglione (platonicien comme lui-même), dont "Il corteggiano" traduit en toutes langues va connaître un universel succès, il faut se souvenir de la place suréminente accordée par lui à la foi profonde: *la Sainte Parole.*

La mythologie littéraire est en plein essor. "Le mythe de Rimbaud" que vous connaissez au moins par ouï-dire, pourrait être le point de départ d'une foule d'études analogues. Quel écrivain est sans légende? quel est celui qui n'a inspiré des exégèses aberrantes? qui est plus prompt à délirer que les critiques? Dans cette série des mythes, Rabelais aurait sa place: cela va de soi. Ce mythe de Rabelais, né de son vivant même, ou presque, n'a été d'abord qu'une assez pauvre légende, en marge de son livre. Panurge déteignait sur son inventeur. Rabelais était comme Panurge un parasite, un ruffian, un ivrogne. Mais de nos jours le mythe a pris du corps, de l'embonpoint. C'est la critique universitaire avec Thuasne, Lefranc, qui s'est appliquée à le gonfler. En revanche depuis une vingtaine d'années la situation est renversée. D'autres critiques, également universitaires, Gilson, Lucien Febvre, dégonflent ces savantes baudruches. Il n'en reste rien. Rien du Rabelais protestant, rien non plus du Rabelais "athéiste" de naguère. Paix aux cendres d'Abel Lefranc, qui ne nous a convaincus ni pour Shakespeare ni pour Rabelais.

Qu'était donc Rabelais? Chrétien et même catholique, de cette forme de catholicisme qui fait à la bonté divine et à la Rédemption toute sa place, qui ne s'attarde pas outre mesure dans la crainte et le tremblement, et qui donne tout son prix à "Laetare" et à "Alleluia". Car la joie est au coeur même du Christianisme.

Ce Rabelais chrétien, et chrétien optimiste, trouve dans sa foi, la réponse assurée à l'angoisse de l'homme dans le temps. L'homme pieux meurt en toute sérénité. Panurge est allé consulter le vieux poète français Raminagrobis, en qui Abel Lefranc reconnaît Jean Lemaire de Belges: "arrivans au logis poëtique, trouvèrent le bon vieillart en agonie avecques maintien joyeux, face ouverte et regard lumineux..." Il vient tout juste de chasser de sa maison un tas de pestilentes bêtes

si Rabelais connaît et révère ce texte érasmien, il ne le cite qu'en passant au cours d'un exposé jovial, et sans en extraire, pour le moment du moins, toute la substance. Ce n'est qu'un exemple, révélateur pourtant. La vaine imploration des amoureux: "O temps, suspens ton vol!", les fervents des Muses n'auraient même pas à la formuler. Le temps pour eux s'arrête. L'instant égale l'éternité.

"Le Temps scintille et le Songe est Savoir" lirons nous dans "le Cimetière Marin". Mais ce qui n'est chez Valéry qu'une illusion de midi, qu'une attitude dialectique vite annulée, n'est pas davantage chez Rabelais une prise de position définitive. L'immobile n'est pas son domaine. Le flux du vivant l'attire. Il n'est pas mystique: il est médecin. Il n'essaie pas d'étreindre l'absolu ou de se dissoudre en lui: il est tendu, de toutes ses énergies conscientes ou profondes, vers un seul objet: liberté, ou pour employer un mot qui convient mieux à son temps et au génie de notre peuple: *franchise*.

Franchise, si l'on me permet une de ces personnifications dont la mode au temps de Rabelais n'est point encore passée, franchise a pour soeurs Noblesse, Vérité et Vertu. Ses ennemies, qui la diffament sont Fausseté, Bigoterie, Sottise.

Vous connaissez les principes qui réglent la vie des Thélémites: "Toute leur vie était employée non par lois, statuts et règles, mais selon leur vouloir et franc arbitre. Se levaient du lit quand bon leur semblait, buvaient, mangeaient, travaillaient, dormaient quand leur désir leur venait; nul ne les éveillait, nul ne les parforçait ni à boire ni à manger, ni à faire chose autre quelconque, ainsi l'avait établi Gargantua. En leur règle n'était que cette clause:

Fay ce que vouldras

Parce que gens libères, bien nés, bien instruits, conversans en compagnies honnêtes, ont par nature un instinct et aiguillon, qui toujours les pousse à faits vertuex et retire de vice, lequel instinct ils nommaient Honneur..."

"Honneur, los, déduit",

c'est à dire: honneur, vertu, plaisir, voilà, dit-il encore, la devise de Thélème. Là sont rassemblés tous nobles chevaliers

Frisques, gualliers, joyeux, plaisans, mignons
En général tous gentils compagnons

Là viennent aussi,

... dames de haut parage
Fleurs de beauté à céleste visage,
A droit corsage, à maintien prude et sage.

le monde il aura avec lui, toujours joyeux compagnons, Gymnaste, Rhizotome, Ponocrate, et frère Jean, tous plus âgés sans doute que Mathusalem, mais sans que personne en fasse la moindre remarque. L'uchronie et sa menue monnaie : l'anachronisme, sont une esquive dans le combat contre le temps, un défi, une bravade : un élément, en tous cas, de la fête des fous, du carnaval, où éclate la joie d'échapper aux interdits sociaux, à toutes les contraintes de l'hiver, du froid, des tâches serviles, des jeûnes et des pénitences, à toutes les finalités interessées. Retour à la liberté ! Notons en passant combien ce rire est cordial. Celui qui en est victime est gagné par sa contagion. Janotus rit avec les rieurs. C'est bien une hostilité qui se résout en amitié, comme le note un psychologue. Le sourire se prête, le rire se donne.

La Négation du temps par la bouffonnerie, la participation joyeuse à la fête des Fous est une démarche de la vraie sagesse. "J'ai souvent ouï en proverbe vulgaire, dit Pantagruel, qu'un fol enseigne bien un sage" La sagesse vulgaire, mondaine, n'a pour objet que la richesse, les biens terrestres. Mais le vrai sage, continue Pantagruel, "sage et présage par aspiration divine" est celui qui peut "se oublier soy-même, issir hors de soy-même, vuider ses sens de *toute terrienne affection*, purger son esprit de toute *humaine sollicitude* et mettre tout en *nonchaloir*. Ce que vulgairement est imputé à folie." De là l'estime qui est accordée aux fous insignes: à Seigny Joan, qui sait si bien résoudre le procès entre faquin et rôtisseur, conte que chacun connaît; à Caillette, fou de Louis XII; et surtout à Triboulet.

"Issir hors de soy-même" le fol y parvient sans peine. Mais ce peut être l'effet, également, de l'application studieuse. Parmi les cinq moyens de réfréner la concupiscence charnelle que le médecin Rondibilis, au "Tiers Livre", énumère, figure avec le No. 4 (après le vin, les drogues "refroidissantes", l'extrême fatigue corporelle) la "fervente étude, en laquelle est faite incrédible résolution des esprits." "De mode que en tel personnage studieux vous verrez suspendues toutes les facultés naturelles, cesser tous sens extérieurs, bref vous le jugerez n'être en soi vivant, être hors soi abstrait par extase et direz que Socrate n'abusait du terme quand il disait philosophie n'être autre chose que méditation de mort . . ." On sait quelle importance avait pour Erasme ce bel exemple socratique, de l'âme accoutumée par l'amour et la contemplation des choses spirituelles, à "s'absenter de son corps." On n'a pas oublié le célèbre passage de "l'Enchiridion" où Erasme assimile la méditation de Socrate à la méditation de la Croix à laquelle le Christ nous a appelés, à la mort dont Saint Paul veut que nous mourrions. Nous sommes ici à l'une des pointes extrêmes de l'humanisme chrétien. Mais je m'empresse d'ajouter que

Faut-il donc admettre que Rabelais n'a pas d'autre maxime que le précepte d'Horace : Ce qui sera demain, qu'importe. A quoi bon s'en soucier ? Il le répète à satiété : Buvez frais ! c'est la morale de Panurge, qui après avoir mangé et bu s'écrie : "Je suis gai comme un papegai, joyeux comme un émerillon, allègre comme un papillon

Le mal temps passe et retourne le bon
Pendant qu'on trinque autour de gras jambon."

Cette joyeuse humeur, cet optimisme que chaque aurore rajeunit, chaque repas entretient, est d'un très grand prix.

Le rire ? Il est salubre. Il est valable médicalement. Il soulage la rate, la ratelle et les rognons. Il console les goutteux. Le rire est excellent. Notre docteur en médecine nous l'assure. Tous médecins, d'ailleurs, sont joyeux raillards. Mais pourquoi ? C'est que la bouffonnerie, et spécialement la bouffonerie rabelaisienne, est un saut hors du temps, une évasion. Attention ! je ne veux pas dire évasion au sens banal, oubli momentané, simple dépaysement, comme en un roman policier. Non, il s'agit, chez Rabelais, d'une négation du Temps, et d'une installation en Uchronie, royaume qui n'est autre que celui d'Utopie. Dans le royaume de Gargantua, l'Utopie, habitent les Amaurotes (ceux qu'on ne voit pas) (Th. Moore les appelait aussi Achoriens, ceux qui ne tiennent aucune place). S'y rendant pour repousser l'invasion d'Anarche (le roi qui ne règne pas), monarque impuissant des Dipsodes (des assoiffés) Pantagruel, parti de lieux réels et bien connus, Rouen et Honfleur, passant par le Cap Blanc, le Sénégal, le Cap Vert, le Cap de Bonne Espérance et Mélinde, déjà à demi fabuleuse, continue son voyage par des lieux qui s'appellent : Meden, Outi, Udem c'est à dire : Néant, Rien, Zéro, et Gélasim : Risible, Bonne Blague. C'est la bonne route pour Utopie, si on la situe au loin. Dans Gargantua, au rebours, Utopie c'est le Chinonais, c'est une portion de la "benoite Touraine." Ce l'est de nouveau sans nul doute, au "Tiers Livre." La Loire est là, tout près, et Blois, et la Villaumère, et Panzoult et Varennes au joyeux carillon.

Au Quart Livre les navires partis de Saint-Malo, font une première escale à "Medamothi," à "Nulle Part", qui n'est assurément pas loin des côtes de France, et ainsi de suite, et de plus belle. L'invraisemblance spatiale a pour correspondante obligée, l'invraisemblance temporelle. Quelle étrange chronologie ! Lorsque Gargantua combat Picrochole, il est jeune, à peine hors de page. Il installe l'abbaye de Thélème, et n'est point, que l'on sache, encore marié. Or il engendre Pantagruel à quatre cent quatre vingt quarante quatre ans. Nombre d'or, inexistant, mais parfait en "quadrinité", tétrade pythagorique : 4 fois 100, 4 fois 20, 4 fois 10, 4 fois 1. Ceci dit, lorsque Pantagruel sera en âge de guerroyer, puis de voyager à travers

euses" qu'il donne à un ami de Panurge après en avoir salué ironiquement son ami le poète Jean Bouchet, aurait convenu également bien à lui-même. Mais cette curiosité est toute pour ce qui vit. Il faut vivre le présent. Nourrir le présent. Au passé, en tant que tel, nulle obligation. Le passé n'est que le passé. S'il n'est pas une nourriture, il n'est rien. Moins que rien.

Que pense-t-il donc du "futur" ? Faut-il en avoir tracas ? Certes non. C'est peine perdue. Sur ce point Rabelais est des plus explicites. "Laisse moi l'astrologie divinatrice et l'art de Lullius comme abus et vanités". Lullius ? Ah ! Raymond Lulle n'est point si méprisable! il est depuis longtemps réhabilité et je suis fort de ses amis depuis que j'ai savouré ses livres : Blanquerna et le Livre des merveilles, dans leur langue même, en catalan, enfermé dans une chambre au seuil de laquelle expiraient les bruits de la guerre civile. Savez-vous à qui il me faisait penser ?... A Rabelais. Il n'était du reste ni astrologue ni alchimiste, mais philosophe, poète et homme d'action : martyr de la foi chrétienne, par dessus le marché, et arabisant, pour ne rien oublier. Rabelais, pour lui, est injuste, mais enfin Rabelais condamne la recherche du futur par l'astrologie, si fort à la mode cependant et honorée à la cour des rois. Il la condamne comme vanité et comme impiété, comme sottise et irrespect envers la Providence. Les hommes sont curieux de leur destin. Ils interrogent les devins, les sorcières, les magiciens, visitent les oracles, ajoutent foi aux présages. Herr Trippa et la sorcière de Panzoult ne sont pas imaginaires. Le Tiers Livre est une vraie comédie en seize sketches sur le désir absurde de connaître l'avenir, et sur l'incapacité où nous sommes de croire autre chose que ce que nous souhaitons. On tirerait facilement de ce Tiers Livre un recueil pittoresque faisant pendant au "De Divinatione" de Cicéron. La raillerie est non moins visible dans "la pantagrueline prognostication, certaine, véritable et infallible, nouvellement composée au profit et advisement de gens étourdis et musars de nature." Cet almanach prophétique, prenez-y garde, est composé pour *l'an perpétuel*, ce qui évite l'inconvénient d'en acheter chaque année un nouveau. Aussi bien les prédictions en sont elles inébranlables : "Saturne sera rétrograde, Venus directe, Mercure inconstant. Et un tas d'autres planètes n'iront pas à votre commandement. Dont pour cette année, les chancres (écrevisses) iront de côté et les cordiers à reculons, les escabelles monteront sur les bancs, les broches sur les landiers, et les bonnets sur les chapeaux; ... les puces seront noires pour la plus grande part; le lard fuira les pois en carême, le ventre ira devant, le cul s'asseoira le premier..." et ainsi de suite. L'homme n'a pas besoin de prédictions, mais de sagesse.

Ironie tranchante qui ne peut atteindre l'hagiographie et l'histoire sainte sans atteindre, d'une identique blessure, toute forme d'histoire. Aussi bien rapproche-t-il toujours les "historiographes et les poètes": et l'on sait que "Pictoribus atque poetis . . . ." Le mot seul d'historiographe excite sa verve: il est synonyme de suffisance, de vanité : "Monsieur tranche de l'historiographe" dit Dindenault à Panurge. C'est un brocard. Rappelez vous. comment au pays de Satin. les historiographes notent tout ce que dit "Ouï dire", paralysé et aveugle, qui n'a que des oreilles et sept langues. Vaille que vaille, cependant, l'histoire, comprise en un sens très large, conforme du reste à l'étymologie, entendue comme recherche de la vérité, exposé du savoir (l'histoire naturelle y est comprise) est un élément capital de la formation intellectuelle: "qu'il n'y ait histoire que tu ne tiennes en mémoire présente," ecrit Gargantua à Pantagruel étudiant, et voilà l'histoire honorée, mais il ajoute aussitôt: "à quoi t'aidera la cosmographie (géographie) de ceux qui en ont écrit." L'histoire est donc moins une reconquête du temps qu'une conquête du monde, du monde présent, dans son étendue physique et dans sa complexité morale. Rabelais est un spatial. Sa vision du monde s'ordonne horizontalement.

Mais peut-être cet échec à construire la passé est-il du à une indifférence profonde à son égard? Paradoxe! criera-t-on. Les humanistes sont idolâtres de l'antiquité. La grande nouveauté qu'ils apportent est de remonter à un très lointain passé. Oui, mais pour l'incorporer aussitôt à leur présent. Et cela avec le plus parfait mépris de la continuité vivante de la culture. Dans l'âge précédent qu'ils méprisent en bloc : siècles gothiques, temps des hauts bonnets, ils ne savent pas reconnaître l'héritage antique, dissous, digéré, devenu substance vivante et proliférante. Et dans l'antiquité qu'ils adoptent, nulle discrimination, ou fort peu, de temps, ni même de lieu. Extraordinaire chalutier que l'humanisme! Il drague les siècles et ramène pêle-mêle Homère et Lucien, Platon et Plutarque, Virgile et Aulu-Gelle, un millénaire entier ou deux, Rome, la Grèce, l'Egypte et tout l'Orient. Ce n'est que lentement, au cours du XVI[e] siècle, qu'à la vue des lettrés les objets se remettront à leur place, comme il advient aux aveugles guéris de leur cécité et qui d'abord voient tout sur un même plan. En attendant, le seul point où un humaniste comme Rabelais perçoive une coupure, une articulation, c'est le moment qu'il vit: celui de la "restauration des bonnes lettres" dont il a plein la bouche.

Rabelais, est semblable à Panurge. Lui aussi, il a connu les aventures des gens curieux. Il est aussi, comme Pantagruel, amateur de pérégrinité "désirant toujours voir et toujours apprendre" et le nom de Xénomane "le grand voyageur et traverseur des voies périll-

attendant la chose désirée") et voila que nous est offert l'exemple classique de la relativité :

Ni plus ni moins qu'à ceux qui sont sur l'eau,
Passant d'un lieu à l'autre par bateau,
Il semble avis, à cause du rivage
Et des grands flots, les arbres du rivage
Se remuer, cheminer et danser :
Ce qu'on ne croit et qu'on ne peut penser.

Ainsi l'homme, même indépendant, même insoucieux des calendriers et des horloges, reste assujetti au temps par ses désirs, ses inquiétudes, ses passions, fût-ce la plus noble des passions humaines, l'amitié. Dans cette impossibilité où nous sommes de nous borner à l'instant qui passe, dans ce désir invincible de nous étendre, quelles sont nos prises et quelles sont nos défaites ? Le passé et l'avenir, dans quelle mesure pouvons nous les saisir?

Le passé, nous le retenons par la mémoire. L'histoire est la mémoire commune du genre humain.

De la mémoire personnelle et de l'histoire, Rabelais tient compte. Il y a, épars dans son oeuvre, de nombreux souvenirs vécus, des traces de choses vues ou entendues pendant son enfance et au cours de ses voyages. Le temps de Louis XII, la croisade de Mitylène, les démêlés avec Jules II, le pape "à la bougrisque barbe", les évènements plus récents, les "fuyars de Pavie"; la mort du seigneur de Langey à Saint-Symphorien-les-Tarare, les conciles; autant de repères, piqués ça et là, un peu confusément, dans son oeuvre par la mémoire qui reconquiert le temps perdu. Mais, à vrai dire, aucun passage ne donne l'impression que Rabelais ait senti le passé autrement que comme un recueil d'exemples moraux, un assemblage de faits instructifs, matière à leçons de sagesse, ou plus simplement aliment pour la curiosité. Aucun relief, aucune perspective, lorsque la pensée se reporte vers les siècles écoulés, aucune spécificité de temps, aucune précision même. Mais tous les humanistes en sont là, Erasme tout le premier. A la fin du siècle, Montaigne, dont cependant les livres d'histoire sont la passion, ne les assimilera qu'en moraliste. Rabelais, lui, est nourri de Plutarque, mais il ignore Thucydide et Polybe. La fable et l'histoire se valent, en fait d'exemples moraux : en fait de véracité, le disciple de Lucien est sans doute disposé à croire qu'elles valent tout autant, c'est à dire tout aussi peu l'une que l'autre. "Très illustres et très chevaleureux champions, gentilshommes et autres, vous avez naguères vu, lu et su les Grandes et inestimables chroniques de l'énorme géant Gargantua, et comme vrais fidèles, les avez crues galantement"... Et ailleurs : "Si ne le croyez, je ne m'en soucie, mais un homme de bien, un homme de bon sens, croit toujours ce qu'on lui dit et qu'il trouve par écrit."

Seules seroient tolérables, il le dit plusieurs fois, des cloches de duvet dont le battant serait fait d'une queue de renard. Rappelez vous l'Ile Sonnante, remplie du tintammare sempiternel des cloches. Dans l'abbaye de Thélème, devisée au gré de frère Jean, de même qu'il n'y a ni muraille ni clôture, il n'y a ni cloches ni horloges, ni cadran: des gens libres n'en ont pas besoin "car, disait Gargantua, la plus vraie perte de temps qu'il sût était de compter les heures — quel bien en vient-il? — et la plus grande rêverie du monde était soi gouverner au son d'une cloche, et non au dicté du bon sens et entendement." Et déjà frère Jean disait, en jouant sur le mot: "les heures sont faites pour l'homme et non l'homme pour les heures"

Les oeuvres dispensées selon les occasions et opportunités, voilà pour Rabelais un moyen, bien qu'imparfait de retrouver son autonomie.

Les heures, les journées, les années n'ont pas toutes même longueur. Dans un texte de jeunesse assez négligé des commentateurs, Rabelais, partant, comme presque toujours, d'une locution familière qu'il explore et développe, expose fort clairement le principe du temps humain, du temps psychologique. C'est dans l'épître en vers à Jean Bouchet, écrite en Poitou, donc avant 1528. Rabelais, qui attend la visite de son ami, développe le dicton usuel: "le temps me dure"

...Dont nos esprits, teints de mérencolie,
par longue attente et véhément désir
Sont de leurs lieux, esquels soulaient gésir
Tant déslogez et hautement ravis
Que nous cuidons (et si nous est avis)
Qu'heures sont jours, et jours pleines années,
Et siècle entier ces neuf ou dix journées...

Non, certes, que puissent se renouveler, autrement que par miracle, les antiques prodiges : Josué arrêtant le Soleil, Jupiter arrêtant la nuit pour caresser plus à loisir Alcmène et engendrer Hercule. Il ne croit pas... que les astres

qui sont réglés, permanents en leurs êtres,
ayent dévoyé de leur vrai mouvement,

mais l'esprit humain est sujet à l'erreur (le titre de ce badinage porte précisément "épître traitant des imaginations qu'on peut avoir

"bien merveilleux en hippiâtrie". La mort de Hastiveau, puis celle de Touquedillon ne nous épargnent pas la vue du sang "l'épée et le fourreau tout diaprés, la chambre toute pavée de sang". Et je laisse de côté bien d'autres joyeusetés funèbres: comment Panurge fit brûler pendu à un croc, son pacha turc, préalablement transpercé d'une broche "et vous attise un beau feu au dessous et vous flambais mon milourt comme on fait les harengs saurets à la cheminée", et comment par stratagème les compagnons de Pantagruel s'emparèrent de 600 chevaliers et les firent brûler, puis pour se restaurer apprêtèrent belle venaison de lièvre et de chevreuil, qu'un chevalier prisonnier, le seul qui eut été sauvé du massacre, faisait rôtir à la broche devant le grand feu qui consumait ses camarades.

Certes, Rabelais déteste la guerre,et les rois à l'esprit belliqueux. On pourrait croire que ces tableaux horribles (horribles pour nous) sont destinés à soutenir sa thèse pacifiste. Il n'en est rien, car Gargantua et Pantagruel tout aussi bien sont de bons rois, pénétrés de sagesse, de modération, d'esprit évangélique, nullement barbares ni cruels. Cherchons ailleurs l'explication. J'en vois deux: l'une, du plus pur style XVe siècle, c'est que le comique se mêle à toutes choses humaines, à la mort même; la mort grimace et gambade, comme dans les danses Macabres et comme dansent au bout de leur corde les pendus de Montfaucon. Rabelais n'a-t-il pas dit qu'au cloître des Innocents "les gueux se chauffent le cul des ossements des Morts"? L'autre explication, style Renaissance, c'est, encore une fois, que la mort n'est qu'un mot, disons une apparence. La bouffonnerie est un exorcisme, valable contre la terreur physique de la mort, valable contre les fantômes et lémures, tout autant que contre les diables cornus. Rabelais est un *exorciste*.

La destinée humaine est d'être dans le temps: assujettie au temps; bornée par le temps; devorée, vite ou moins vite, par le temps. "Je n'ai pas le temps" Vérité profonde que nous proférons cent fois par jour. Nous n'avons pas le temps, C'est le temps qui nous a. Comment Rabelais réagit-il à ce problème? Tout d'abord. Rabelais manifeste une très vive rancune contre les symboles du temps mathématique, symboles aussi de notre asservissement et de la mécanisation de notre vie. Les cloches! comme il les a maudites, ou raillées. Vous vous rappelez la harangue macaronique de Maitre Janotus de Bragmardo: "Omnis clocha clochabilis in clocherio clochando, clochans clochative clochare facit clochabiliter clochantes" Et de cloches, ou de cymbales, ou d'horloges (pourtant, en ce temps là, rares encore et précieuses), Rabelais ne dit que du mal. Le moine de Fontenay n'a pas gardé bon souvenir de tous ces carillons, et surtout du premier coup de matines qui l'éveillait en sursaut et dont il nous confie le gaillard surnom en pays Luçonnois.

multiplicamini (il est écrit: C'est matière de bréviaire). — Tu as (dit Panurge) l'esprit moult lucide et serein... Et Panurge décrète qu'en sa Principauté, celle dont Pantagruel lui a fait don, à Salmigondis en Salmigondinois, dorénavant, quand on voudra par justice exécuter quelque malfaiteur, un jour ou deux devant on le fasse "brisgoutter" en onocrotale (comme un pélican: à tire larigot, si vous préférez)... Chose si précieuse ne doit être follement perdue: par aventure engendrera-il un homme. Ainsi mourra-il sans regret, laissant homme pour homme".

Ici encore la bouffonnerie et l'indécence dans les mots ne masquent pas complètement la confiance fondamentale en la Vie. C'est pourquoi les images de la mort, du carnage même, peuvent fort bien n'être que sujet à rire. Epistémon, au cours de la bataille contre Loup-Garou a eu la "coupe testée" entendez: la tête coupée. Il gît décapité, parmi les morts. Et Pantagruel, en vrai chevalier, s'en désespère. Il veut se donner la mort, si grand est son chagrin. Mais Panurge a remède à tout. Il remet en place la tête d'Epistémon, l'ajuste bien exactement, en chirurgien expert: frotte la blessure avec un petit onguent ressuscitatif, et tandis que le mort revient au royaume des vivants, complète le guérison en lui administrant un "grand villain coup de vin blanc" avec une rôtie sucrée, et voilà Epistémon guéri: un peu enroué, toutefois... Preuve d'athéisme, dérision des miracles du Christ, de la résurrection de Lazare, comme pensait Abel Lefranc, grand dépisteur d'hérésies et qui aurait rendu des points aux antiques Sorbonagres? Point du tout. Pastiche tout au plus du "Roman des 4 fils Aymon" et de la scène où Maugis ressuscite Richard. Introduction joyeuse, surtout, à un "descente aux Enfers" de rigueur en toute épopée, même bouffonne. J'y vois en outre, sous-tendue, cette pensée que la mort n'est que peu de chose, et que l'enfer n'est point tant à craindre, car comme l'assure Epistémon qui en revient à l'instant même, les diables sont bons compagnons.

Cette indifférence explique les joyeux massacres que frère Jean fait des assaillants du clos de Seuilly, la façon dont, tué par Gymnaste, meurt Tripet, qui en tombant rendit plus de quatre potées de soupes et "l'âme mêlée parmi les soupes" — Cela explique l'humour atroce qui baigne la scène où l'on voit Gargantua, avec ses compagnons, franchir à cheval le gué de Vède sur les corps morts des ennemis (chose difficile car les chevaux renâclent devant les corps morts). Le cheval d'Eudémon enfonce le pied avant droit, "jusqu'au genouil", dans la panse d'un gros et grand vilain qui était là noyé à l'envers. On eut du mal à l'en retirer. Heureusement le cheval fut, par l'attouchement des boyaux de ce gros marouffle, guéri d'une tumeur qu'il avait au pied, ce qui est cas

Aucune tristesse. donc, sinon bien légère du temps qui fuit irréparable. La mort, elle-même, n'est le plus souvent que matière à joyeuses, à cruelles plaisanteries. Badebec est morte en donnant le jour à Pantagruel. Motif de tristesse et motif de joie arrivent à la même minute "Esbahy et perplex, Gargantua ne savait que dire ni que faire, et le doute qui troublait son entendement était assavoir s'il devait pleurer pour le deuil de sa femme ou rire pour la joie de son fils. D'un côté et d'autre il avait arguments sophistiques qui le suffoquaient car il les faisait très bien "in modo et figura"; mais il ne les pouvait souldre et par ce moyen demeurait empestré comme la souris empiègée ou un milan pris au lacet."

"Pleureray-je? disait-il. Oui. car pourquoi? Ma tant bonne femme est morte, qui était la plus ceci, la plus cela, qui fût au monde. Jamais je ne la verrai, jamais je n'en recouvrerai une telle: O mon Dieu, que te avais je fait pour ainsi me punir? Que n'envoyas tu la mort à moi-premier que à elle? etc... etc... Et ce disant pleurait comme une vache; mais tout soudain riait comme un veau, quand Pantagruel lui venait en mémoire: "Ho. mon petit fils. disait-il, mon couillon, mon peton, que tu est joli. et tant je suis tenu à Dieu de ce qu'il m'a donné un si beau fils, tant joyeux, tant riant, tant joli: Ho. ho, ho, ho,! que je suis aise: Buvons, ho, laissons toute mélancolie... etc..." Soudain il entend la litanie et les Mementos des prêtres qui portaient sa femme en terre et la joie le quitte. Mais, baste. il faut se consoler: "Je ne suis plus jeune, je deviens vieux, je pourrai prendre quelque fièvre. Foi de gentilhomme il vaut mieux pleurer moins et boire davantage: Ma femme est morte, eh bien: par Dieu... je ne la ressusciterai pas par mes pleurs; elle est bien; elle est en paradis, pour le moins, si mieux n'est: elle prie Dieu pour nous. elle est bien heureuse, elle ne se soucie plus de nos misères et calamités. Autant nous en pend à l'oeil, Dieu garde le demourant: Il me faut penser d'en trouver une autre."

Scène de comédie, fine caricature de l'hypocrisie avec laquelle nous nous dupons nous même, et des fausses raisons par lesquelles nous justifions notre égoïsme? C'est cela sans doute, mais aussi: sentiment de la vie qui continue, d'une naissance qui compense un décès, et de la victoire, en dépit de "nos calamités et misères" de la Vie et de la Joie.

Sur un mode plus bouffon encore, Panurge et frère Jean philosophent de telle manière: "Marie toi, de par le Diable (dit le moine)... Sais tu pas bien que la fin du monde approche? Nous en sommes aujourd'hui plus près de deux perches et d'une demi-toise que n'étions avant hier. L'Antéchrist est déjà né, ce m'a l'on dit. Vray est qu'il ne fait encore que égratigner sa nourrice et ses gouvernantes,... car il est encore petit: Crescite. Nos qui vivimus,

RABELAIS ET LE TEMPS

Par

JACQUES LANGLADE

L'angoisse essentielle de l'homme dans le temps, le sentiment douloureux ou simplement mélancolique de la brièveté de la vie, sont à peu près absents de l'oeuvre de Rabelais. A peine si dans le prologue du Quart Livre, apaisé, quelque peu mélancolique, en 1552, un an avant sa mort, il laisse transparaître des soucis de santé : "Sans santé n'est la vie vie, n'est la vie vivable ... Sans santé n'est la vie que langueur ; la vie n'est que simulacre de mort." Il se défend pourtant, par sage philosophie : "Quand est de moi par le sainte bénignité du bon Dieu, j'en suis là, et me recommande. Je suis, moyennant un peu de Pantagruélisme (vous entendez que c'est gaîté d'esprit confite au mépris des choses fortuites) sain et degourt, prêt à boire, si voulez". Ce soupir, cette demi-grimace, vite réprimés et tardifs, c'est bien peu de chose.

Le thème traditionnel de l'épicurisme : "Hâtons nous de jouir car la vie est brève" si commun dans la poésie de la Renaissance, n'est guère exploité non plus. Frère Jean dit bien à Panurge : "Le temps matte toute chose. Desjà vois je ton poil grisonner en teste. Ta barbe, par les distinctions du gris, du blanc, du tanné et du noir, me semble une mappemonde... Voici les Monts Hyperborées. Par ma soif, mon amy quand les neiges sont ès montaignes, je dis la tête et le menton, il n'y a pas grand chaleur par les vallées de la braguette "Panurge lui répond en gaillard compagnon" Tu n'entends pas les topiques — les lieux communs — quand la neige est sur les montaignes, la foudre, l'éclair, les lancis, le maulubec (le feu St. Antoine) le rouge grenat, le tonnerre, la tempête, tous les diables sont par les vallées. En veux tu voir l'expérience ? Va au pays de Suisse et considère le lac de Wunderbarlich à quatre lieues de Berne (C'est le lac de Thoune) "Tu me reproches mon poil grisonnant et ne considère point comment il est de la nature des pourraux, esquelz nous voyons la tête blanche et la queue verte, droite et vigoureuse." Puis il ajoute, en confidence ; "Vray est que en moi je reconnais quelque signe indicatif de vieillesse, je dis verte vieillesse, ne le dis à personne, il demeurera secret entre nous deux. C'est que je trouve le vin meilleur et plus à mon goût savoureux que ne soulois; plus que ne soulois, je crains la rencontre du mauvais vin. Note que cela argue je ne sais quoi du ponent et signifie que le midi est passé..."

خلاصة باللغة العربية

اتجاهان من القرن الرابع الهجرى فى نظرية الإعجاز

بلغت نظرية إعجاز القرآن كمال تطورها فى القرن الخامس الهجرى .

وفى بحث سابق قدم للمؤتمر الدولى الثانى والعشرين للمستشرقين - استانبول سنة ١٩٥١ حاول الكاتب ان يتتبع المحاولات الأولى فى القرنين الثانى والثالث الهجريين — لشرح خصائص نظم القرآن البليغ ، وأن يوضح أثر هذا الفرع من الدراسة فى تطور النقد الأدبى العربى .

وفى السنوات الأخيرة أصبحت بعض المخطوطات ذات الصلة بالموضوع فى متناول الدارسين .

يتناول البحث الحاضر اثنتين من هذه المخطوطات — من مؤلفات القرن الرابع الهجرى — توضحان المرحلة الوسطى أو مرحلة التخصص فى تطور نظرية الاعجاز .

ان الادوار الأولى من تطور فكرة الاعجاز قامت على مناقشات لغوية وبيانية لطرق القرآن فى التعبير ، فلما جاء القرن الثالث وكثر الجدل بين فرق المتكلمين أثار بعضهم مشكلات حول النظم القرآنى ذات صلة بشئون العقيدة فانتدب لمناقشتهم اكابر العلماء من أهل السنة ومن المعتزلة وتناولوا بالشرح وجوه الاستعمال القرآنى فى ضوء العبقرية الأدبية للبيان العربى وبينوا نواحى من بلاغتها التى تحدت فصحاء العرب وأعجزتهم .

وبموازاة هذه الجهود سارت جهود العلماء فى ميدان البيان العربى متفقة بما نقل إلى الثقافة العربية من آراء الأمم الأخرى فى البلاغة .

نمت هذه الجهود حتى وصلت نضجها فى القرن الرابع الهجرى ، وأصبحت ميادين تخصص علمى ، ومن يمثلون هذا التخصص فى ميدان الإعجاز العالم السنى ابو سليمان الخطابى المتوفى سنة ٣٨٨ هـ ومؤلف كتاب « بيان إعجاز القرآن » والعالم المعتزلى ابو الحسن الرمانى المتوفى سنة ٣٨٤ هـ ومؤلف كتاب « النكت فى إعجاز القرآن » .

كشف تحليل هذين الكتابين عن نظريتين مختلفتين فى الإعجاز :

(أولاهما) حاولت أن تجد سر الإعجاز فى نظم القرآن الذى يشارك فى طبقات الكلام — العليا والوسطى والدنيا — فى طريقة ملائمة تتجاوز قدرة العبقرية الأدبية البشرية ، وتملأ النفس الانسانية بمعانى العذوبة والروعة والاعجاب .

(ثانيتهما) بحثت عن هذا السر فى جهات سبع إحداها البلاغة بأقسامها العشرة الممثلة أعلى تمثيل فى تعبير القرآن .

أما نظرية النظم فقد اصبحت محور التفكير النقدى العربى فى ذروة تطوره فى القرنين الخامس والسادس الهجريين .

وأما نظرية البلاغة فقد قامت بنصيبها فى ذلك التطور وكانت للظهر التحليلى لنظرية النظم ولكنها منذ القرن السابع حتى أوائل القرن الحاضر فقدت فلسفتها الجمالية وأصبحت بلاغة شكلية جافة

(2) It is briefer in expression, for القصاص حياة which is the true equivalent — is only ten letters while القتل أنفى للقتل is fourteen.

(3) It avoids repetition while the saying repeats the word (القتل).

(4) Its combination of sounds is more harmonious as can be appreciated by the sense of hearing.

(Some translators of the Qur'an — such as M. M. Pickthall in his book "The meaning of the Glorious Qur'an" — render قصاص in English by "Retaliation": but the late A. Yusuf Ali in his "Translation and Commentary on the Holy Qur'an" points out that Islam has much mitigated the horrors of the pre-Islamic custom of retaliation, and to meet the strict claims of justice it prescribed equality with a strong recommendation for mercy and forgiveness. To translate "qisas" therefore, by retaliation is — in Y. Ali's opinion — incorrect. He prefers for it "Law of Equality", vol. 1, 3rd. ed. p: 71).

8. In concluding the chapter on conciseness, for example, the author says: "If you know conciseness and its categories and reflect on its examples in the Qur'an, you realise the Qur'anic superiority over other species of composition. Conciseness is the cultivation of speech, the purifying of words from impurities. It is the expressing of meaning in the least possible words; it is the bringing out of much meaning in few words". Similary, in talking of Simile, the author points out that it is a field in which poets differ in the degree of excellence, and eloquent people show their art. Then he goes on to explain the secret of skilful similes.

9. Ibn-Qutayba in his books on "Problematic Usages of the Qur'an مشكل القرآن and "Unfamiliar Diction of the Qur'an" غريب القرآن and Al-Jahiz in his Construction of the Qur'an" نظم القرآن represent respectively the Sunni's and the Mu'tazelite efforts in illustrating the excellent literary ways of the Qur'an, and in removing the confusion which some sects of dialecticians caused by the intricate questions they raised about Qur'anic usages.

10. The conception of نظم — exemplified here by Al-Khattabi — received its best treatment and presentation at the hands of Al-Baqillani — another sunni (d. 403 A.H.), who attempted some interesting comparison between Qur'anic Suras and famous Arabic poems. Later — in the fifth century — Abd-ul-Qahir Al-Jurjani (d. 471 A.H.) the founder of Arabic rhetorics — combined the idea of نظم with the rhetorical approach into a comprehensive philosophy of I'jaz and criticism. Ibn-ul Athir in the seventh century attempted literary analysis of long Qur'anic passages to show the coherence, harmony, and excellence of Qur'anic compoisiton.

11. Ar-Rummani seems to have had a wide influence on later authors of Arabic criticism and rhetorics. He was widely quoted and commented upon. Al-Baqillani — for example — quotes the ten divisions of rhetorics (without mentioning Ar-Rummani's name), and he points out what he takes to be the defects of that conception. Ibn Rashiq — in his book العمدة — refers to Ar-Rummani in many chapters, and seems to quote from other books by the Mu'tazelite author. Ibn Sinan — in many places in his book سر الفصاحة — supports his ideas by those of Ar-Rummani, and in some places argues against him. Abu-Hilal Al-'Askari in his book الصناعتين quotes freely and at considerable lengths from Ar-Rummani's writings. Al-Fakhr Ar-Razi in نهاية الإيجاز and Al-'Alawi in الطراز refute some of Ar-Rummani's ideas about metaphors and other artifices

NOTES

1. M. Khalafallah, "Qur'anic Studies as an Important Factor in the Development of Arabic Literary Criticism", Faculty of Arts Bulletin, Alexandria, vols. 6 – 7, 1952/1953.

2. (a) — "Bayan I'jaz al-Qur'an" by Abu-Sulayman al-Khattabi (d. 388 A.H.) a photo copy in the Egyptian Library, Cairo, (original in Siddiqia — Tangier).

(b) "An-Nukat fi I'jaz al-Qur'an", by Abul-Hassan Ar-Rummani (d. 384 A.H.) a photo copy no. 62. Alexandria Municipal Library, (original in Boghdadly Wahby Library — Istanbul). Also two copies in the Taymooriya Library, Cairo nos. 298 & 534.

These two manuscripts and a third one by Al-Jurjani, have been edited, commented upon, and prepared for publication by Khalafallah and Zaghloul.

3. Al-Khattabi, Abu-Sulayman Hamad Ibn Muhammad Al-Busti, was born in Bust 319 A.H. In his youth he was known for his zeal for knowledge. He journied East and West in the Islamic countries meeting scholars and increasing his knowledge. He was a pious generous man. His books were mostly on Sunna and Jurisprudence (See : (a) Yaqut, "Irshad al-Arib", Margolieuth ed. vol. 2; (b) — As-Soyuti, "Bughyat-ul-Wu'ah". See also : As-Sam'ani, "Al-Ansab" ; As-Subki, Tabaqat Ash-Shafi'iya" etc.)

4. The chief exponent of Sarfa in early Islamic discussions was the Mu'tazelite An-Nazzam the teacher of Al-Jahiz.

5. Both علم and عرف for instance mean to know ; yet you can say عرفته but you do not say علمته unless you intend to complete the construction and say : علمته جيدا أو رديئا Similarly حمد and شكر are closely related you can say : حمدته and شكرته but حمد conveys more the sense of praise which is the opposite of blame, while شكر gives more the sense of gratitude and acknowledgement which is the opposit of كفر or ingratitude.

6. Ar-Rummani, Abu-l-Hassan 'Ali ibn 'Issa, was born in 296 in Samarra or Baghdad. Received his education in philosophy and grammar at the hands of famous scholars such as Ibn Durayd, As-Zajjaj, and the Mu'tazelite Ibn-el-Ikhshid and distinguished himself as grammarian and dialectician. He was also versed in logic, philosophy and astronomy. Wrote many books on Qur'anic exegesis and grammar, (See : (a) — Yaqut, vol. 5 ; (b) — Al-Khatib Al-Baghdadi, "Tarikh Baghdad" ; (c) Ibn-el-'Imad, "Shatharat Ath-Thahab", vol. 3 etc.).

7. In recommending just and equal punishment for murder, the Qur'an, for example, says in a famous verse : ولكم في القصاص حياة (In the Law of Equality there is (saving of) Life to you — Chap. of the Cow, verse 179). This has been repeatedly compared by Ar-Rummani and other rhetoricians to an Arabic saying : القتل أنفى للقتل (murder is more likely to banish murder), and from different aspects the literary superiority of the Qur'anic verse has been insisted upon by all. Ar-Rummani bases that superiority upon four arguments :

(1) The Qur'anic verse has more significance, as it gives what the Arabic saying does and it adds the sense of justice which is conveyed by قصاص and it gives the desired goal which is life حياة

divisions, quoting example after example from the Qur'ān with their explanations — if needed — and comparing them in matters of successful communication with similar products of literary mortals[7].

Each chapter thus becomes a piece of enquiry into the nature of a rhetorical conception[8].

(E) — The earlier stages in the development of the conception of I'jaz were characterised by elementary efforts at pointing out and explaining Qur'anic usages, and by limited linguistic and literary analyses of its style. During the thrid century some theological dialecticians raised problems of Qur'ānic usages which had bearing on matters of dogma and belief. This prompted prominent Sunnis as well as Mu'tazelites[9] to analyse Qur'anic usages in the light of classical Arabic traditions and to point out their significances and unchallengeable literary superiority. Parallel with these efforts, and interacting with them there went the efforts of Arabic literary critics to develop their field, making use of foreign conceptions of rhetorics which becaame parts of Arabic culture.

In the fourth century these various efforts matured into specialised treatments of the different fields. Al-Khattabi and Ar-Rummāni were true representatives of that century in Qur'anic studies. The above analysis of their respective dissertations revealed two distinct approaches to the theory of I'jaz. The first sought the secret of I'jaz in the Qur'anic style which partakes of the different categories of composition (high, medium and ordinary) in a perfect manner that goes beyond the reach of humans, and agreably affects the soul through its sublimity and sweetness. The second looked for that secret in different directions, chief among which were the figures of rhetorics exemplified in their highest forms in the Qur'an. The theory of structure or composition (نظم) became later the central conception[10] in the philosophy of Arabic rhetorics in the fifth century. The theory of rhetorical artifices[11], on the other side provided Arabic literary criticism with a practical guide and gave rise to the three distinct sciences of Arabic rhetorics. But from the seventh, down to the thirteenth century it lost its aesthetical philosophy and became rigid rhetorics.

It was for this reason that many scholars of early Islam — though experts in language and versed in religious matters such as Al-Asma'i abstained from explaining extraordinary Qur'anic usages. It was also for this reason that the Prophet recommended the studying of Qur'anic grammar and diction.

All this — according to Al-Khattabi — explains why the Prophet's contemporaries were reduced to impotence in the face of the challenge which the Qur'an threw at them. They knew the requirements of supreme eloquence and realised that it was beyond their reach to equal the Qur'an. Fighting the prophet and impeding the progress of his mission — they thought — was an easier task for them to undertake.

Al-Khattabi ends his dissertation by pointing to another secret of Qur'anic miraculous superiority, of which very few individuals are aware, and that is the effect of the Qur'an on man's heart and soul. "There is no other composition — in poetry or in prose — other than the Qur'an which if you listen to it produces in your heart a state of sweetness and ecstasy and a sense of awe and admiration. The soul becomes elated at the hearing of the Qur'an and when it has been absorbed in its majesty it becomes filled with awe and piety, and foregoes it stubborness and opposition".

(C) — Ar-Rummani in his book "An-Nukat fi I'jaz-el-Qur'an" speaks in the form of an answer to a request that had been put to him to explain briefly the secrets of I'jaz. The points of I'jaz — he says — can be seen in seven directions : The foregoing of challenging by the opposers despite the compelling invitation of the Prophet to do so, its challenge to all, the turning — by God — of opposers' energy away from attempting to rival the Qur'an. its balagha or eloquence, its true prophesies of future events, its breaking from the normal, and its quality of belonging to the class of miracles. The author dwells on eloquence and accords the other six directions a very short treatment at the end of his dissertation. Now eloquence is three categories : the highest, the medium and the lowest; The highest is the real mu'jiz, and here Qur'anic eloquence is a class by itself. Whatever is less than that is possible. and that is human eloquence. The core of balagha is the communication of meaning to the heart in the best possible form of verbal expression. This can be accomplished through ten figures : conciseness إيجاز ، simile تشبيه ، metaphor استعارة ، concordance of sounds تلاؤم ، analogous endings of speech divisions الفواصل ، harmonious groupings of words and meanings تجانس ، skilful manipulation of the root meaning التصريف ، implication التضمين ، hyperbole المبالغة ، and clearness of expositon حسن البيان Ar-Rummani's plan in his book is to devote a chapter to each of these artifices, giving its definition, and

sense of sweetness and stimulation which it leaves in the soul of its reader or listener, and the sense of beauty and elegance of expression in virtue of which it appears totally different from the compositions of mortals, and leaves the opposers utterly impotent and helpless; and that is the meaning of I'jaz. The reason for this must surely be sought in the Qur'an itself and not outside it. Literary compositions fall into different categories of varying degrees of lucidity and eloquence. There is, first, the highest in sublimity and strength of style; there is, secondly, the medium which is eloquent and easy; and there is, thirdly, the nearest to ordinary common speech. Now the distinguishing feature of the Qur'an is that it partakes of each of these categories in a harmonious manner, and thus produces a unique species of composition which combines sublimity and sweetness. Each of these two is like an antithesis to the other, because sweetness is the product of easiness, while sublimity comes as the result of strength and hardiness.

This combination is beyond the reach of mortals, as their knowledge cannot possibly cover all words of the language and their various forms, nor can they conceive of all meanings which are conveyd by those words, nor of all the constructions which are built of those words and meanings.

Human composition may excel in on or other of these aspects but the Qur'an, coming from Allah the Omniscient and Omnipotent, has achieved the highest excellence in all. Thus it became mu'jiz because it was revealed in the most eloquent diction, and in the best possible construction, containing the highest and noblest meanings and purposes. It dealt with the Unity and glorification of God, pointed the right way to His worship, made clear the categories of the legal, the forbidden and the allowable, directed man to the right behaviour and high morals, narrated the stories of ancient people and the punishment which God administerrd on those who disobeyed, and prophesied future happenings the truth of some of which was demonstrated during the Prophet's life. It did all this in a miraculous way which silenced the challengers and perplexed the opposers until they lost their wits and began to describe the Qur'an as poetry, magic, priestly oracles, or ancient myths.

The core of this excellence of the Qur'anic composition is the putting of each word in its right place in such a way as to make the changing of that place upset the significance or lose the construction its elegance.

The Arabic language abounds with terms which come very near to one another in their shades of meaning. Words like عمر and سرمد ، حمد and شكر ، نعت and صفة ، are axamples of this linguistic phenomenon,

TWO FOURTH CENTURY A. H. APPROACHES TO **
THE THEORY OF I'JĀZ إعجاز

BY

M. KHALAFALLAH

(A) — The theory of I'jāz (i. e. the signs and secrets of the unsurpassable and challenging excellence of the Qur'ān) reached its full development in the fifth century A. H. In a previous paper [1] presented to the twenty second Orientalists' Congress, the writer gave an account of some of the early attempts, in the second and third centuries A. H., at explaining the characteristics of the Qur'anic style and its superiority over other literary compositions. During the last few years some manuscripts bearing on the subject have been made accessible for study. The present paper deals with two of these [2], manuscripts belonging to the fourth century, and illustrating a medium stage — in the development of the theory — between the early beginnings of the second and third centuries, and the full synthesis of the fifth century.

(B) — In his book, "Bayan I'jaz-el-Qur'ān", al Khattabi [3] states that people — in his as well as in former times — attempted without much success several ways of the explanation of the Qur'anic I'jaz. Two of the current hypotheses in his days he dismisses as incorrect or inadequate. The first is the idea of Sarfa [4] (صرفة). (i. e. the turning by God of the attention and efforts of the opposers away from challenging the Qur'an and trying to equal it in their literary productions). The second is the idea that the Qur'an is Mu'jiz (i. e. beyond the power of opposition) because it contains prophesies of future events. A third hypothesis, namely that of the Qur'anic unsurpassable rhetorical eloquence, he approves of, but accuses those who advocated it — and they were the majority of scholars — of lack of originality and deep understanding. They were content to point to the phenomenon and assert that it was a matter of inner knowledge to be experienced only by specialists. But Al-Khattabi and others like him could not be satisfied with the mere observation and assertion of the phenomenon. They would diligently enquire into its real secrets, and put it to the test of analysis. The most striking things about the Qur'an are : the

---

** A paper presented to the 23[rd] Orientalists' Congress, Cambridg — England. August 1954.

11. Al-Hidayatu'l-'Amiriyya edited by Asaf A. Fyzee (Islamic Research Association Series, no. 7, Oxford University press, 1938).

12. For more informations about al-Tayyib son of al-'Amir see :

Ibn Moyassar : History of Egypt, p ; 72.

C. Cahen : Une Chronique Syrienne du VI^e / XII^e Siècle, "Le Bustan Al-Jami' " (Bulletin d'Etudes Orientales de l'Institut Français de Damas, 1938, pp. 121 -122).

Ibn Abi Tayy (in Ibn al-Furat's History, vol. 2, p. 17 B).

Maqrizi : Itti'az al-Honafa (manuscript of Saray Library, p. 134 A 136 A).

Stern : The Succession of the Fatimid Imam Al-Amir, The Claims of the Later Fatimids to the Imamate, and the Rise of Tayyibi Ismailism. (Oriens, vol. 4, no. 2, 1951, pp. 193 -- 255

13. Maqrizi : al-Khitat, vol. 3, pp: 27 - 29.

Ibid : Itti'az al-Honafa edit. Shayyal, pp. 319 — 323. and the same book (Manuscript of Saray, pp. 133 A --134 B).

Ibn Moyassar : History of Egypt, pp. 77 78.

(Gamal El Din Elshayyal)

7. The follwoing are examples for the historical works from which my collection of documents is taken :

Ibn al-Sairafy : Qanoun Diwan al-Rasa'il.

Ibid : Al-'Ishara 'Ila Mann Nala al-Wizara.

Ibn al-Qalanisi : Zeil Tarikh Dimashk.

Ibn Wasil : Moufarrij al-Kouroub fi Akhbar Bani Ayyoub. vol. 1. edited by Dr. Gamal El Din Elshayyal. Cairo, 1953.

Ibn al-'Adim : Zobdat al-Halab fi Tarikh Halab. edited by Dr. Sami Dahhan. Damascus, 1951.

Al-Hanbaly : Shifa'a al-Koulouib fi Manakib Bani Ayyoub. (Manuscript)

Ibn Taghri Bardi : Al-Nougoum al-Zahira fi Moulouk Misr wal Kahira.

Maqrizi : Iti'aaz al-Hounafa. edit. Dr. G. E. Shayyal, Cairo. 1948. and the only complete manuscript in Saray Library. Istanbul.

Ibid : al-Khitat.

Syouti : Hosn al-Mohadara. 2 vols.

Qalqashandi : Subh al-A'sha.

Abou Shama : Al Rawdatin Fi Akhbar Al Dawlatein.

8. There are some other Fatimid or Ismaili documents which I did'nt add to my collection, because they are already edited or under press as :

Some dispatches sent by the Da'ii Al Mou'ayyad Fiddin to some ministers and leaders. See : (Sirat al Mou'ayyad Fiddin Da'ii Al Du'aat. edit. Dr. Muhammad Kamil Hussein, Cairo, 1949).

The Letters of al-Mostansir (رسائل المستنصر). They will be soon sent to press by Dr. 'Abd El Mon'im Magid. cf. (Hamdani : The Letters of al Mostansir in B. S. O. S. vol. VII. 1933 - -, 935).

Ahmad Hamid El din El Kirmani ; Al-Risala al-Wa'iza fi Nafy D'awa Olouhiiat al-Hakim bi 'Amr Ellah. edit. Dr. Muhammad Kamil Hussein In (Bulletin of the Faculty of Arts. Fouad 1st. University, vol. 14. part 1, May, 1953. pp. 1—29)

'Arba'a Rasa'il Ismailiah (Four Ismaili Letters) edit. 'Arif Tamir. Salamiah. Syria. 1952.

9. Nearly all these documents are collected from the literary or historical works. Only two documents were found in their original from in the library of the Monastery of St. Catherine In Sinai.

The authors of the historical books used sometimes to give full informations about the documents, and specially the names of their writers, but in other times these informations are lacking. I did my best to verify all what is lacking. Following the regulations in the Abbassid Caliphate the writer of the documents (or Katib al 'Insha'a كاتب الإنشاء) used to write his name at the end of every document. But in the Fatimid Caliphate the writer used to write the address of the document in his own handwriting to proof that he is the composer. If the document was not of the kind to be addressed he had to write the date in his own handwriting for the same reason. See : (Ibn al-Sairafi : Qanoun Diwan al-Rasa'il. pp: 113 -114).

10. H. A. R. Gibb : Articles : Nizar and Musta'li (in Enc. Islam). and see also :

S. M. Stern : The Epistle of the Fatimid Caliph al-'Amir (Al-Hidaya al-Amiriyya) its Date and its Purpose. (J. R. A. S. parts 1 & 2. 1950, pp. 20—31).

REFERENCES

1. Bernard Lewis : The Ottoman Archives as a source for the History of the Arab Lands. (J.R.A.S. October. 1951, pp. 139—155).

2. The inscriptions mean here the historical writings engraved on the buildings, mosques, Schools (Madrasas) and Khankawat, or on the different kinds of antiquities. The Orientalists were the first scholars who showed an interest in these inscriptions and drew attention to their historical value. Max Van Berchem was one of the pioneers in this field. He collected a great number of these writings and printed them with very invaluable historical comments in his well known work : (Max van Berchem : Matériaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicorum, 1ere partie —Egypte—, Paris, 1903).

G. Wiet completed his friend's work and printed the second volume of this (C. Insc. Ar.) in the year 1930. After the death of Van Berchem his disciples and friends set out to complete this work. They planned to collect all the Arabic inscriptions found in all the parts of the Islamic World in one "Répertoire". The editors are : G. Wiet, E. Combe and G. Sauvaget. Cf : (Répertoire Chronoligique d'Epigraphie Arabe, 13 vols., 1931—1944).

3. For more information about the Arabic papyri, its history, collections and value for the study of Islamic history, social life and institutions, see :

Adolph Grohmann : From the World of Arabic Papyri (Publications of the Egyptian Society of Historical Studies, Cairo. 1952).

Ibid : Arabic Papyri in the Egyptian Library, vols. I. II. III. Cairo, 1934, 1936, 1938. The first volume was translated into Arabic by the author with the collaboration of Dr. Hasan Ibrahim Hasan under the name of

(أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩٣٤)

4. Cf :

Maqrizi : Shouzour al 'Oukoud Fi zikr al-Noukoud edit. Tyschen. Rostok, 1797.

Ibid : 'Ighathat al-'Oumma Bikashf al-Ghomma ed. Dr. M. M. Ziada and Dr. Gamal El din. Elshayyal. Cairo, 1940.

Sauvaire : Matériaux pour servir à l'histoire de la Numismatique et de la Métrologie Musulmanes, 2 vols. (Extrait du Journal Asiatique, Paris. 1872, 1885).

5. Bernard Lewis notices in his article (The Ottoman Archives as a source for the History of the Arab Lands) that the Ottoman Empire can be considered as one exception; he says that until the spread of European influence and administrative methods it is the Ottoman records alone that have survived intact to the present day. See also (Ibid : Notices and Documents from the Turkish Archives. A contribution to the History of the Jews in the Ottoman Empire. Jerusalem, 1952).

6. Cf.

Ibn Al-Sairafi : Qanoun Diwan al-Rasa'il. edit. Ali Bahgat, Cairo. 1905, and its French translation : (Le Code de la Chancellerie, trad. par Henri Massé. B. I. F. A. O. Le Caire, 1914).

Qalqashandi : Subh al A'asha, 14 vols. Cairo, 1913—1919.

the death of Abou Rabii' Hasan stirred up a very dangerous revolt against his father who was obliged to abolish this sijill and declare a new one to nominate Al-Hasan as crown prince. This revolt is the third stroke that hit the Fatimid dynasty hard in its last years, because, as a revolt the Egyptian army was divided into many parties[13].

This document adds a new piece of information to those who study the history of the Egyptian army in the time of the Fatimids. It denotes that when the Caliph's son was declared crown prince a new troop was to be formed to work as his own guard and carry his name. This was called "Al Ta'ifa al 'Ahdia الطائفة العهدية"

This troop was never mentioned by any historian before, one similar troop is mentioned in another document written by Al-Qadi al-Fadil in the time of Al-'Adid declaring his heir and crown prince.

3. A sijill about the succession to the throne.

This is a rare sijill. It cannot be compared to the other few sijills of the same kind known to us. These sijills were all declared by the Caliphs during their lives to nominate their heirs and successors, but this sijill was declared by the crown prince himslf just after the death of his father the preceding Caliph.

The names of the two Caliphs are not mentioned in the sijill as it is cited in Subh al A'asha by Qalqashandi, but we could confirm, after an analytical and comparative study, that it was declared in the first days of Al-Zafir Bi-'Amr Allah the son of al Hafiz Lidinallah.

* * *

There are still two other sijills about the succession to the throne.

The first is copied by Qalqashandi from Mawad al-Baian by 'Ali Ibn Khalaf. The names of the Caliph and his son are neglected. I could'nt nominate them, but I could guess that it was declared by the Caliph al Mustansir, because Ali Ibn Khalaf the composer, was one of his ministers, and was assassinated during his rule.

All we know about the second sijill is the name of its composer Al Qadi Al-Fadil. According to this fact I can guess that this sijill was declared by Al 'Adid the last Fatimid Caliph.

The new thing mentioned by this sijill is the formation of a new troop in the army which would carry the name of the crown prince and would be devoted to guarding and serving him. This troop is similar to that previously mentioned in the sijill declared by Al-Hafiz to his son Haidra.

defeat and death of Nizar and the succession of Musta'li to the throne. Beginning with this schism the followers of the Ismaili sect were split into two main groups, the Nizaris who succeeded in establishing a state of their own in'Alamout and then in Syria under the name of the Assassins ; now represented in India by the Khojas. The second group is the Musta'lians, adherents of the Fatimids in Egypt,[10] and now represented in India by the Bohras, Daudi and Sulaimani.

This document[11] is an official sijill declared by Al'Amir in answer to the Nizari and to prove the legality of the Musta'li's Caliphate.

5. Risalat Iqa'a Sawa 'iqi l-irgham, or "the fall of the lightning of humilation" (i ; e ; upon the enemies of the author).

This may be considered as an appendix to the previous document al Hidayatu 'l 'Amiriya. It refers to the comments of the dissenters on the original epistle.

There are three other documents which belong to the time of AL-Hafiz.

1. The first is a Bai'a (acknowledgment) to al Hafiz as a Caliph declared by al Wazir Abou al Fath Yanis. It gives new explanations to the second schism which occured in the Fatimid dynasty in less than four decades after the first one.

This new schism is represented by the crisis over the succession to Al-'Amir. According to the Ismaili dogma succession to the throne was regulated by the Nass (or the nomination) by the preceding Imam to one of his sons. Al-Hafiz was not Al-'Amir's son, he was his cousin. The available historical sources relate that Al-'Amir died before the birth of his child, to whom he bequeathed the throne, should it be a son; however it turned out to be a girl and then al-Hafiz ascended the throne after his cousin.

Some new Ismaili and Sunni texts which came to light lately denote that an infant son and heir called al-Tayyib[12] was born to Al-'Amir some months before his assassination. By the succession of Al-Hafiz the Ismailis were divided again into two other groups : The Tayyibia represented by its followers in Yemen and the Hafizia.

2. A sijill from Al-Hafiz nominating his son Haidra as crown prince. This document adds new precious informations about the revolution of Al-Hafiz's son Hassan.

Al-Hafiz had previously nominated his elder son Abou Rabii' Solaiman as crown prince in the year 528 H. Two months after his nomination he died.

Al-Hafiz declared this sijill to nominate another son Haidra which provoked his brother Hasan, the eldest son of Al-Hafiz after

b) It explains the great influence and the true power which Al'Afdal exercised over al-'Āmir al-Musta'li, and even over Al-Mustansir during the last days of his reign.

2. The second document is a sijill addressed by Al-'Āmir after his rise to the Caliphate to "Wulat al'Akalim" or the governors of the provinces. This document is a continuation of the previous one. The first is an announcement about the death of Musta'li and the rise of al-'Āmir addressed to the great officials, the people and the army in the capital; while the second is a circular letter bearing the same meaning to the governors and peoples of the provinces.

3. The third document is a sijill sent from al-'Āmir just after his rise to the Caliphate to an unnamed local governor reapointing him in his province.

This sijill is of considerable importance to those who study the local administrative institutions in Egypt during the Fatimid period. It denotes that it was not necessary to depose the local governor by the death of a Caliph and the rise of a new one, but it was necessary to renew his governorship. It was also possible to confirm the appointment of any Wali or local governor for life if he proved his loyalty to the state. This sijill shows that it was possible for any Wali to continue holding his position during the reign of three successive Caliphs. It is recorded in this sijill that this Wali was appointed for life to his Wilāt because of his faithfulness to the state during the rule of al-Mustansir and al-Musta'li.

This sijill adds something to what is known about the local institutions. It names the different officials who used to cooperate with the general governor or Wali in governing his province, they are:

a) Motawalli al-Hokm (the judge).

b) Motawalli al-D'awa or the Da'ii (the propagandist).

c) Al Mustakhdim Fi Al Khotba al 'Alawia or the Khatib of the central mosque.

d) Al Mowazafun al Mushrifun 'Ala Istithmar al 'Amwal, or (the officials who collect the taxes and look after the financial matters).

e) Al Rigal (the soldiers).

4. The fourth document Al-Hidayatu'l-'Āmiriya.

This risalah or sijill is considered as one of the most important documents still surviving from the Fatimid period. It shed light on the first schism which took place in the history of the Fatimid dynasty just after the death of the Mustansir. It ended apparently with the

9. Fourteen documents about the administration, the offices and the Wolat (governers) in the capital and in the provinces.

10. Two documents about the scientific life and the teaching offices.

11. Eleven documents about the army, its organization and regulations.

12. Six documents which are orders of security issued to the different classes of people.

13. Fourteen documents about foreign relations.

After this classification I began to study the documents of each graup ; I arranged them chronologically to be able to follow every institution and see how it developed.

While studying the documents individually I tried to verify the name of the Caliph or the Wazir who declared each of them, the names of its writer, what kind of document it was, its subject, its exact date and the reference from which it was copied.

Finally each document is preceded by an analytical and comparative introduction in which I tried to draw attention to the new historical facts which the document may reveal.

I hope that this collection when edited will offer the historians and scholars of the Fatimid period great and confirmative material, and will most probably change many of the facts known about the history of the Fatimids and their institutions. It will also clarify many of the foreign relations between Egypt and other states in the time of the Fatimids, specially Syria, Yaman, Sicily and the Abbassid Caliphate.

In illustration of the ideas which I suggested, I shall give here after a short summary of the documents of the first group. The documents concerning the institution of the Caliphate are ten in number, five of which belong to the time of the Caliph Al-'Amir Bi 'Ahkam Allah.

1. The first document is a "sijill" or espistle announcing the death of Caliph Musta'li Bi-Llah and the rise of his son Al-'Āmir to the Caliphate after him. The sijill introduces two new points :

a) It denotes one of the most important origins of Ismaili dogma, that the Imamate is transferred by heredity continuously from father to son, because the father bequeathes to his son the divine sciences and the hidden secrets he himself has inherited from his father.

These offices were completely destroyed, burnt or scattered as a result of the continued change of states and of the many plunders, revolts and wars which the Near East endured in the middle ages.

When I started to teach the history of Islamic Egypt in Alexandria University eleven years ago, I noticed that this history could not be studied well if one depended only on historical sources.

I have noticed too that a considerable number of these documents are still preserved in the historical and literary books, but no attention was drawn to their value and importance, and the reader could not adequately appreciate or make use of them because their value is overshadowed by the main theme of the books.

It may be that some historians have previously noticed the importance of one document or another, yet no one has ever tried to collect and classify them according to the subjects to which they belong.

For many years I have planned to collect all the documents I can find attached to the history of Islamic Egypt aiming at the revival of the real archives of Egypt. I found it a very big task which needs hard work and takes a long time.

Thus I began collecting only the archive documents of the Fatimid period. They are now ready to be sent to the press after I have classified them and written a long introduction with a comparative study and full comments. The Egyptian Society of Historical Studies has kindly agreed to publish them.

After consulting the greatest number of historical and literary works — manuscript and in print[1] — I was able to collect one hundred and ten Fatimid documents[2]. I classified them into thirteen groups according to the institutions they refer to.

The groups are :

1. Ten documents about the Caliphate and lineal succession system. (نظام الخلافة وولاية العهد)

2. Thirteen documents about the Wizara (ministry) and Wuzara'a (ministers). (نظام الوزارة والوزراء)

3. Nine documents about the Qada'a (judicature).

4. Two documents about Hisba.

5. One document about D'awa (propaganda).

6. Twenty documents about the financial and economic institutions.

7. Nine documents about the social life and ceremonies.

8. Three documents about public security and home affairs.

The papyri may be considered as the most important of these new sources, for they contain a number of official documents which shed new light on some of the central and local institutions such as the Jizya, the Kharaj, the Law, the Army and the Fleet.

Yet, the papyri are not true achives. Some of the papyri are special or popular papers and dispatches which lack the official form, because they were not issued by any of the officials or the governmental offices. They are assemblages of documents discovered in different places and distributed haphazardly among many museums and collections all over the world. Some of them have already been studied, others have not yet received attention.

Much of the value of the archives lies in their continuity and cohesion which facilitate the work of the historians and enable them to arrive at correct conclusions, and that is because they rely on successive information and statistics.

When the institution or the office for the use of which the archive documents are compiled is abolished or ceases to exist for any reason, the archives are usually neglected, burnt or destroyed [5].

The fate of archives has thus followed the fate of the history of state offices and institutions, both in the West and East.

The states of medieval Western Europe survived and developed into the states of modern Europe, and their unchanged archives are often preserved intact. But the institutions and offices of the states of the medieval Near East were greatly changed in modern times as a result of the radical influence of the West. Unluckily the archives and documents of the states of the medieval Near East were neglected, lost or destroyed.

Yet, a considerable number of these archive documents are still in existence, but are scattered far and wide either in the historical and literary works, or in libraries and museums.

Although these documents are of great value to historians, yet they can never have the same value which they would have had if they had been found in their original offices and preserved in the same form and order in which they were originally used. They must have suffered in the course of copying by successive historians.

The (Diwan al 'Insha's) [6] or the chancellary office was one of the most important offices known in the medieval Muslim states. All the official documents, decrees, epistles and treaties were issued from this Diwan and preserved in it.

THE FATIMID DOCUMENTS AS A SOURCE FOR THE HISTORY OF THE FATIMIDS AND THEIR INSTITUTIONS *

BY

Dr. GAMAL EL-DIN EL-SHAYYAL

The new historical studies in the West depend greatly upon the archives and the invaluable collections of documents preserved in them. Such collections are always considered as the primary source for any historian who wishes to establish his research on sound and scientific foundations. But unfortunately, the research students in Islamic History always find it difficult to pursue their research in this field because of the loss of the archives and the lack of the historical documents written in arabic.

While the western medievalist, for example, finds at his disposal a great wealth of records: central and local, political administrative, financial and judicial [1], the Islamic historian finds himself obliged to rely only on the literary and historical sources.

As a aesult, his conclusions are often general and vague because those books are considered as a secondary source if compared with the official documents, and they often express the opinions of their writers who are generally influenced by their friendly or unfriendly relations with the Caliphs or the Kings about whom they write.

Moreover, this limitation of historical resources has had a striking effect on the writings of modern Muslim histoirans. It happens that when more than one historian deals with the same subject, he usually reaches practically the same conclusions. Variety of interpretation is lacking. As the classical Muslim writers used to copy from each other literally, the real problem for the modern historian consists in tracing the original text. Yet, some new studies in Islamic history have lately begun to take into consideration the importance of other sources such as: archaeology, inscriptions [2], papyri [3], and numismatics [4], Those who work in these new fields have forwarded to historians very invaluable material which they used in order to clarify, confirm, or correct many of the facts related by the Arab historians, chroniclers or encyclopaedists.

---

* (A paper presented to the Arabic and Islamic Conference held in the University of Peshawar, Pakistan, in April 1954).

CONTENTS OF THE EUROPEAN SECTION

PAGE

1 — *GAMAL EL-DIN EL-SHAYYAL*

The Fatimid Documents as a Source for the History of the Fatimids and Their Institutions 3

2 — *M. KHALAFALLAH*

Two Fourth Century A. H. Approaches to the Theory of I'jaz إعجاز 13

3 — *JACQUES LANGLADE*

Rabelais et le Temps 21

4 — *ALY A. ISSA*

The Sociological Interpretation of Disease : An Essay on the Refutation of Racial Pathology 37

5 — *ZDENEK K. ULIRICH*

The Interrelation of Sociology and Social Sciences 47

6 — *MOHAMED EL-SAYED GHALLAB*

The Transformation of the Palestinian Population (1920—1948) 65

7 — *LOTFY S. FAM*

Centenaire du Félibrige 91
(avec des Documents Inédits.)

8 — *ALY A. ISSA*

Applied Sociology: The Beginning of a Changing Attitude in Social Science 101

9 — *A. E. AFFIFI*

The Works of Ibn 'Arabi 109
(In the light of a memorandum drawn up by him)

BULLETIN

OF THE FACULTY OF ARTS

THE UNIVERSITY OF ALEXANDRIA

Vol. VIII

1954

All requests for copies of this Bulletin should be made to the Librarian of the Faculty of Arts, Alexandria University, Shatby. Communications regarding contributions should be addressed to Dr. Gamal Eldin Elshayyal Editor of the Bulletin.

ALEXANDRIA UNIVERSITY PRESS

1954